المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المجلس العلمي

١٨

الغزو الفكري
والتيارات المعادية للإسلام

من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦هـ

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

أشرفت على طباعته ونشره : إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المجلس العلمي

١٨

الغزو الفكري

والتيارات المعادية للإسلام

من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذى عقدته
جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض سنة ١٣٩٦ هـ

أشرفت على طباعته ونشره: إدارة الثقافة والنشر بالجامعة

١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م

الغزو الفكري

والتيارات المعادية للإسلام

القسم الأول

إعداد

الدكتور علي عبد الحليم محمود

الأستاذ المشارك بكلية اللغة العربية بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاح

الحمد لله ، والصلاة والسلام على محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن تمسك بسنته والتمس الرشاد فى هديه إلى يوم الدين .

وبعد :

فإن الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام من الموضوعات التى تشد اهتمام الواعين من أبناء الأمة الإسلامية ، وتحتاج من الباحثين والدارسين إلى أن يبذلوا فيها من الجهد مايكشف عن خباياها ويوضح أبعادها .

ومما يحمد لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أن تطرح الكتابة فى هذا الموضوع على مستوى العلماء فى العالم الإسلامى فى مؤتمر الفقه الإسلامى ، وهي إذ تحمد على هذا العمل الجليل إنما يذكر لها بالفخر أنها تقوم بعمل كبير هو في الأصل عمل كل جامعة إسلامية، تعرف طريقها نحو خدمة الفكر الإسلامي والعالم الإسلامي.

ولقد كان للإسلام فى الماضى جولة مع أهل الباطل والضلال وأصحاب الأهواء والمتجبرين فى الأرض ، ولقد حقق المسلمون انتصارات غير قليلة على هؤلاء وأولئك ومن ثَمَّ عادى الإسلام كلُّ ضال وكل ذى هوى ، ووقف فى وجه هديه ومنهاجه كل طاغية وكل ظالم ، وقامت المعارك ضارية متعددة على مر التاريخ بين الإسلام وهؤلاء الاعداء

ويخطىء من يظن أن الحرب بين الإسلام وأعدائه قد وضعت أوزارها ، ويكون أمعن فى الخطأ من يتصور أن أعداء الإسلام قد سكتوا عنه بعد أن تحالفوا ضد أهله فغلبوهم وجعلوا منهم أمما بعد أن كانوا أمة ، وفرقا بعد أن كانوا وحدة ، إنما الحق أن أعداء الإسلام يدبرون لحربه كل يوم وسيلة ، ويحشدون للوقوف فى وجهه كل يوم قوة ، وليس خطر الكلمة والفكرة بأقل من خطر الجندى والسلاح فى المعركة الضارية التى يشنها أعداء الإسلام على الإسلام وأهله .

إنهم الآن قد سكتوا عن حرب الجنود والأسلحة ، ليشنوا حرب التشويه والتخريب للإسلام منهجه وتاريخه ورجاله وتراثه ولغته وقرآنه ، وتحالفوا وتآزروا وابتكروا حديث الوسائل وخبيث التيارات والأساليب ، فغزوا المسلمين فى قلوبهم وأفكارهم وأخلاقهم وأزيائهم وشنوا على العالم الإسلامى من الغارات مالا يخفى أمره على كل ذى بصيرة ، ووقفت الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات والفلسفات يؤيد بعضها بعضا فى حرب الإسلام والمسلمين ، ومن مجموع تلك الوسائل والأساليب كان الغزو الفكرى للمسلمين وكانت التيارات العارمة التى تجتاح أمامها جموعا كبيرة من المسلمين الذاهلين عن الحق المخدوعين بالعرض عن الجوهر .

وحول هذا سيكون موضوع «الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام».

وعلى الله قصد السبيل .

أضواء على مفهوم الغزو الفكرى

تكاد تكون كلمة «الغزو الفكرى» من معطيات العصر الحديث الذى بُلِىَ بأنواع عديدة من الغزو ، جاء بها الأستعمار مع ماجاء به لبلدان العالم الإسلامى بخاصة ، والعالم النامى بعامة ـ من متاعب وأضرار .

وإذا كان للكلمة مدلول مجازى واضح فى اللغة فإن ذلك لا يعفينا من أن نلقى عليها أضواء تكشف عن حقيقتها ومجازها إذ يدخل فى مفهومها تلك الأساليب العديدة الظاهرة حينا ، والمقنعة بالبهارج والتهاويل فى كثير من الأحيان .

وإذا كان العالم المعاصر قد عرف الغزو العسكرى من دولة قوية لأخرى ضعيفة وعانت الدول الضعيفة الويلات من هذا الغزو وقدمت التضحيات من أبنائها وخيراتها ، ونافحت من أجل حاضر مغتصب سئ ، ومستقبل مهدَّد بما هو أسوأ .

وإذا كانت البلدان الإسلامية ـ على وجه الخصوص ـ قد ذاقت مرارة غزو اقتصادى وتجرعت به كأس الحرمان والتجويع والإرهاب ، ودفعت راضية أو كارهة من خيراتها ومقدراتها ماهى فى مسيس الحاجة إليه . ووجدت أنفسها عالة فى كل شئ على الدول التى سرقت خيراتها واغتصبت حقوقها ، واضطرت مع كل ذلك أن تعايش هذه الدول الغاصبة معايشة التابع للمتبوع، والمتخلف للمتقدم ، وتدفع فى سبيل ذلك أبهظ الأثمان ...

إذا كان العالم الإسلامى ـ بخاصة والعالم النامى ـ بعامة ـ قد عرف ذلك وعاش متاعبه وآلامه ، وبذل من الجهود والدماء ماتصور أنه به سوف يتخلص من هذه الأنواع من الغزو فإن الأعداء الماهرين الماكرين سريعا مايغيرون خططهم ويستبدلون بأساليبهم العتيقة أساليب جديدة ، وهذا هو ماحدث فى العالم المعاصر التعيس ، فقد لجأ اعداء البلدان الإسلامية وأعداء الشعوب النامية إلى هذا الغزو الفكرى ، يكملون به

أبعاد الصورة التى يرسمون لاستغلال الشعوب ، ويصلون به ما انقطع أو ماتصوروا أنه انقطع من وسائلهم فى احتكار خيرات الشعوب .

فما هو الغزو الفكرى المكمل لأساليب الغزو التقليدية حينا ، والبديل عنها أو عن بعضها فى بعض الأحيان ؟

إن هذا الغزو الفكرى ـ فى كلمات ـ هو أن تظل الشعوب الضعيفة أو النامية خاضعة لنفوذ القوى المعادية لها ، تلك القوى التى تتمثل فى عدد محدود من الدول الكبيرة التى يحمى بعضها بعضا ويتبادل ساستها الدفاع عن المصالح التى تهم أى طرف من أطرافها ، بغض النظر عما يبدو على السطح فى بعض الأحيان من خلافات ، إذ الحق أنها خلافات قشرية لا تتجاوز السطح بحال .

لما ثبت ذلك من خلال الواقع لكل من كان له قلب أو ألقى النظر إلى مايدور بين هذه الدول الكبيرة من وئام وخصام ، وليس بخاف على ذى بصر أو بصيرة ما تتترس به هذه الدول الكبيرة من هيئات ومؤسسات دولية أو اقليمية تخفى بها وجهها الحقيقى الحاقد الطامع الكريه .

إن هذا الغزو الفكرى هو أن تظل بلدان العالم الإسلامى خصوصا والعالم النامى عموما تابعة لتلك الدول الكبيرة المتقدمة تبعية غير منظورة ، وفى هذه التبعية يكمن دهاء تلك الدول المتبوعة وذكاؤها ، فليس أقتل للشعوب من أن تحس بالحرية والاستقلال بينما هى ترسف فى قيود الذل والتبعية، إن ذلك مقتلة ذريعة لكل مايجب أن تفكر فيه الدول الضعيفة لتقوى ، وليس أضيع لمستقبل أمة من الأمم أن تعجز عن أن تخطط لمستقبلها ومصيرها إلا وهى دائرة فى فلك دولة كبيرة واهمة ذاهلة عن حقيقة ماتعانيه من تبعية .

الغزو الفكرى هو أن تتبنى أمة من الأمم ـ وبخاصة الأمة الإسلامية ـ معتقدات وأفكارا لأمة أخرى من الأمم الكبيرة ـ وهى غير إسلامية دائما ـ دون نظر فاحص

وتأمل دقيق لما يترتب على ذلك التبنى من ضياع لحاضر الأمة الإسلامية ـ فى أى قطر من أقطارها ـ وتبديد لمستقبلها ، فضلا عما فيه من صرفها عن منهجها وكتابها وسنة رسولها ، ومايترتب على هذا الصرف من ضياع أىّ ضياع ، إذ لايوجد مذهب سياسى أو أقتصادى أو أجتماعى يغنى الأمة الأسلامية عن منهجها الإلهى ، ونظامهـا الشامـل المتكامل فى كل زمان ومكان .

الغزو الفكرى هو أن تتخذ أمة من الأمم مناهج التربية والتعليم لدولة من هذه الدول الكبيرة ، فتطبقها على أبنائها وأجيالها ، فتشوه بذلك فكرهم وتمسخ عقولهم ، وتخرج بهم إلى الحياة وقد أجادوا بتطبيق هذه المناهج عليهم شيئا واحدا هو تبعيتهم لأصحاب تلك المناهج الغازية أولا ، ثم يلبس الأمر عليهم بعد ذلك فيحسبون أنهم بذلك على الصواب ، ثم يجادلون عما حسبوه صوابا ويدعون إليه ، وهم بذلك يؤكدون تبعيتهم من جانب آخر ، فيعيشون الحياة وليس لهم منها إلا حظ الأتباع والأذناب .

الغزو الفكرى هو أن يحول العدو بين أمة من الأمم ـ وبخاصة الأمة الإسلامية ـ وبين تاريخها وماضيها وسير الصالحين من أسلافها ، ليحل محل ذلك تاريخ تلك الدولة الكبيرة الغازية وسير أعلامها وقادتها ، فيشب المثقف من أبناء تلك الأمة المقهورة وليس فى نفسه مثل إلا مايقرأ عنه فى تاريخ الدولة الغازية ، وليس فى خلده أبطال إلا أبطالها ولا مفكرون إلا مفكروها ، بل يصبح وهو لايعرف من الحق والباطل إلا مارأته هذه الأمة الغازية حقا أو باطلا ، فتشوه بذلك رؤيته الحقة للناس والأشياء ويذهل عن تاريخه وسير الصالحين من أسلافه فيذهل عن حاضره ومستقبله ويضل عن معالـم طريقه .

الغزو الفكرى هو أن تزاحم لغة الغالب لغة المغلوب فضلا عن أن تحل محلها أو تحاربها بإحياء اللهجات العامية والإقليمية ، ومادام الإنسان لا يفكر إلا باللغة ـ كما يجمع على ذلك العلماء ـ فإن إضعاف لغة أمة هو إضعاف لفكرها ، وإحلال لغة أمة محل لغة أمة هو إجبار للأمة المغلوبة على أن تفكر كما تفكر الأمة الغالبـة وأن ترى من العادات والتقاليد مثل ماترى الأمة صاحبة اللغة الغازية ،وما سكتت أمة غازية فى

تاريخنا المعاصر عن لغة أمة مغزوة ، وإنما تخطط لحربها بنفس الضراوة التى تخطط بها للاستيلاء على مقدراتها الاقتصادية ، وليست الصورة الماثلة أمامنا فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، وفى كثير من بلدان العالم النامى ببعيدة عن الأذهان .

الغزو الفكرى هو أن تسود الأمة المغزوة أخلاق الأمة الغازية وعاداتها وتقاليدها ، ومادامت الأخلاق السائدة فى أمة من الأمم هى المعيار الدقيق الذى تقاس به هذه الأمة فإن هذه الأخلاق يجب أن تكون نابعة من القيم الأصيلة التى تسود الأمة وتحكم سلوكها وتوجهه ، فإذا ما استوردت أمة من الأمم أخلاقها وقيمها من أمة أخرى مسخت بذلك شخصيتها وتنكرت لأصالتها وعاشت تابعة ذليلة للأمة التى قلدت أخلاقها وخسرت من مستقبل أجيالها مايزيدها اقترابا من أصالتها ووجدت نفسها أمام التبعية والضياع .

هذا ما أتصوره من أضواء يمكن أن تلقى على مفهوم الغزو الفكرى لتوضيح حقيقته ومجازه بصفة عامة ، وليس هذا التصور هو التحليل الأخير ، وإنما يمكن أن يضاف إليه كثير من التفصيلات والجزئيات التى نعرفها الآن وندرك آثارها ، والتى يمكن أن تتفتق عنه عقول الغازين من وسائل أدهى وأخفى فى المستقبل القريب أو البعيد من تاريخ الصراع بين الأمم .

أما عندمايتعلق أمر الغزو الفكرى بالعالم الإسلامى والفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية فإن الكلام يحتاج منا إلى مزيد إيضاح ومزيد تركيز ، إذ الإسلام دين الله سبحانه الذى أرتضاه للبشرية كلها منهجا و شريعة لحياتهم الدنيا ، ومعبرا وجسرا وزاداً لحياتهم الأخرى ، وهذا الدين كان ومايزال بمبادئه ونظرياته ومثله وقيمه حربا على كل أنحراف بالبشرية عن الحق والميزان ، وأعداء الإسلام أعداء أصلاء للحق والميزان ، لأن الحق والميزان يحول بينهم وبين الاستغلال والعدوان ، لذلك فإن أصحاب المذاهب والنظريات المعادية للإسلام ماسكتوا عنه ولن يسكتوا وكيف بهم يسكتون وفى الإسلام ومبادئه حربا لهم ولما يمارسونه فى الناس من أعمال .

من أجل ذلك أصبح الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين يستهدف الجذور لا القشور ويحاول القضاء على الجوهر لا العرض ، ويركز على تشويه الأصول لا الفروع ، ومن هنا تركز الغزو الفكرى ضد الإسلام فى حرب ضارية ضد أمرين خطرين هما :

القرآن الكريم أصل الشريعة وماشرحه وفصّله من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العالم الإسلامى كله .

واللغة العربية لغة القرآن والإسلام ، فى العالم العربى بالدرجة الأولى ، وفى كل مكان يمكن أن يعنى باللغة العربية بعد ذلك .

وكل عمل وكل خطة يقوم بها أعداء الإسلام والمسلمين فى الفكر أو الثقافة أو المبدأ والمذهب أو العادات والتقاليد ، أو الأدب والفن ، أو الزى والشكل ، إنما يعد معركة جانبية فرعية تخدم المعركة الكبرى معركة حرب أصل الإسلام وجذره وهو القرآن الكريم وحرب لغة القرآن اللغة العربية ، وما أكثر المعارك الجانبية وما أخبث خططها ، إذ تتناول مظاهر حياة المسلمين كلها ابتداء من تغيير الزى وتغيير العادة إلى تغيير الخلق والسلوك ، وانتهاء بتغيير المنهج والشريعة ، ومروراً بإفساد اللغة وإقصائها عن ألسنة المسلمين ، أى إقصاء القرآن عن ألسنتهم وقلوبهم وحياتهم .

هذا هو مفهوم الغزو الفكرى ، وتلك هى تياراته المعادية للإسلام فيما أرى ، وسوف أتناول فى ثنايا هذا البحث مظاهر هذا الغزو وتياراته ، من حملات التشويه الموجهة ضد القرآن الكريم والسنة النبوية وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وضد التاريخ الإسلامى كله ، وضد نظام الحياة الإسلامى ، وضد التراث الإسلامى بعامة ، وضد اللغة العربية لغة القرآن الكريم .

ثم أعطف على ذلك حديثا عن ركائز هذا الغزو الفكرى من صهيونية وتبشير واستعمار ونظريات ومذاهب معادية كالديموقراطية والشيوعية والاشتراكية وإحياء القوميات ، ومن فلسفات هدامة مثل الوجودية والفوضوية والعرى وتخنث الرجال ، وترجّل النساء ، وما لذلك كله من وسائل وأساليب .

وسوف أقدم على ما أقول من الأدلة والبراهين والشواهد مايدعم صحة ما أقول ، والله المستعان وهو الهادى إلى سواء السبيل .

الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى
ضد الإسلام

سوف لانذهب بعيدا فى الحديث عن هذه الابعاد التاريخية للغزو الفكرى وتياراته المعادية للإسلام ، على الرغم من أننا مقتنعون بأن هذا الغزو الفكرى المضاد للإسلام بعيد الأغوار . مواكب لظهور الإسلام ، وذلك أن المقصود من هذا الغزو فى عصرنا الحديث يحول بيننا وبين التعمق فى تلك الأغوار ، طمعا فى أن نجلى صورته بهذا المفهوم الحديث الذى تحدثنا عنه آنفا ، لكى تتجنب الأمة الإسلامية شره وخطره ، وبحسبنا فى تصور ابعاد هذه العداوات الموجهة للإسلام أن نقرأ ماكتبه «درمنجهم» حيث قال : «إن الهوة التى احتفرها المسيحيون والمسلمون فيما بينهم لم تكن فى الحقيقة بين الإسلام والنصرانية وإنما كانت نتيجة المنازعات المبنية على سوء التفاهم ، فأهل الكتاب كانوا بادئ ذى بدء أنصاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ثم لم يفتأوا أن أبوا الاعتراف بنبوته وأن هزئوا به ، كما ان المسلمين هم أيضا من جهتهم تباعدوا ما أمكنهم عن النصرانية وأن مفسرى القرآن بدلا من أن يظهروا مابين الديانتين من الموافقات أجتهدوا فى إثبات مابينهما من المفارقات ، فالقرآن أقرب كثيرا إلى النصرانية من السنة المروية ، وعلى كل حال الأحاديث المنسوبة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) هى التى حفرت هذه الهوة بين الديانتين وفى هذه الأحاديث من الروايات المدخولة والموضوعات ماهو معلوم (هكذا زعم درمنجهم) .

ثم واصل «درمنجهم» حديثه فقال: «ولما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحيين ازداد بينهم سوء التفاهم واشتدت البغضاء كثيرا ، ومما يجب أن نعترف بهأن أكثر البغضاء كان من جهة المسيحيين ، فقد كان البيزنطيون يحتقرون الإسلام بلا تأمل ولا بحث وجميعهم ماعدا يوحنّا الدمشقى لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الإسلام وإنما حملوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص ، وأخذوا يصورون محمدا (صلى الله عليه وسلم) بصور غريبة جدا ويشوهون من هذه الصورة ماأمكنهم (وذكر

درمنجهم المطاعن التى كانوا يوجهونها إلى النبى صلى الله عليه وسلم مما أبينا نقله نظرا لسخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه حتى إن درمنجهم نفسه هزأ كثيرا بهذه المطاعن بالرغم من كونه مسيحيا معتقدا)(١) فالتناقض الذى بين الملتين كانت قواعده الاساسية أخبارا واهية مثل أن محمدا كان صنما من ذهب، وأن مساجد المسلمين هى هياكل ملأى بالتماثيل ، وقد ورد فى أغنية اسمها «أغنية أنطاكية» مايفيد أن ناظم تلك الأغنية قد رأى فى تلك الهياكل محمدا بشكل صنم من ذهب وفضة راكبا على فيل ، وهذا الفيل على قاعدة من الفسيفساء ، ثم أن الأغنية المسماة بأغنية «رولان» والتى تمثل فرسان شرلمان وهم يحطمون أصنام المسلمين فيها أن المسلمين يعبدون ثالوثا مؤلفا من : ترفاجانت ومحمد وأبولون (كل شئ خطر فى البال إلا نسبة عبادة الثالوث إلى المسلمين)

ثم إن قصصا يسمى قصص محمد Raman du Mohamet ورد فيه مايفيد أن الإسلام يجيز اشتراك جملة رجال فى زوجة واحدة !

ولقد طال أمد هذه البغضاء وهذه الأباطيل كثيرا منذ أيام «رودلف دولود هيم» إلى أيامنا هذه أيام «نيقولا دوكوز» و «فيفيس» و «مراشى» و «هونتجر» و «بيبلندر» و «بريدو» فقد مثل هؤلاء محمداً ـ صلى الله عليه وسلم كرجل كاذب ، والإسلام كعمل من أعمال الشيطان ، والمسلمين كقوم همج ، والقرآن ككتاب منسوخ من أوله إلى آخره ملىء بالمحالات ، وكانوا بزعمهم لا يجدون حاجة إلى الأخذ والرد فى هزء كهذا .

ثم إن « بيير لوفنيرايل » مؤلف أول كتاب فى أوروبا ضد الإسلام ترجم مع ذلك فى القرن الثانى عشر (الميلادى) القرآن إلى اللاتينية ، ثم فى القرن الرابع عشر ظهر «بيير باسكال» فعلم عن الإسلام أكثر من غيره .

ثم إن البابا «إينوشانيوس الثالث» قال عن محمد إنه المسيح الدجال .

ولكن فى القرون الوسطى بدأوا ينظرون إليه كرجل مبتدع ممن يقال لهم الهراطقة .

---

(١) مابين القوسين من كلام شكيب ارسلان

ثم ظهر «ريموند رول» فى القرن الرابع عشر، و «غليوم بوستل» فى القرن السادس عشر، و «رولان» و «غانييه» فى القرن الثامن عشر، والأب «لابروجلى» و «رنان» فى القرن التاسع عشر، وكانت أحكامهم فى هذا الموضوع متفاوتة ليست على وتيرة واحدة .

أما «فولتير» فقد كان كتب الرواية المسماة برواية محمد وبناها على غير تحقيق، ثم عاد فصحح قسما كبيرا مما وهن فيه .

وقد أرتكب «مونتسيكو» بعد «باسكال» و «مالبرانش» أغلاطا كثيرة فيما يتعلق بالإسلام نفسه، إلا أنه كانت له آراء سديدة وأحيانا عادية فيما يتعلق بعادات المسلمين .

ثم ظهر الكونت «دو بالانفيليه» و «شول» و «كوسين» دوبرسفال» و «دوزى» و «سيرنجر» و «بارتلمى سانتيلير» و «دوكستارى» و «كارليل» وهؤلاء كانوا على وجه الإجمال موافقين للإسلام ولنبى الإسلام ، وربما أثنوا عليهما .

غير أن «دروتى» فى سنة ١٨٧٦م و «فوستر» سنة ١٨٢٢م قد افحشا فى الطعن فى الإسلام وفى محمد (صلى الله عليه وسلم) ولا يزال للإسلام إلى يومنا هذا أعداء شديدو العصبية..(٢)

وبحسبنا هذا التصوير للعداء المقيت الذى وجهه أبناء الغرب للإسلام والمسلمين وهو تصوير صادر من كاتب غير مسلم ، وهو دال على الابعاد التاريخية للعداء الذى يضمره المسيحيون أو الصليبيون للإسلام ، حسبنا هذا حتى لا نخرج عن سمت الموضوع وحدوده الزمانية الضاربة فى القدم نسبيا ، ولنتحدث عن هذا الغزو الفكرى فى حدود العصر الحديث أو الفترة التى يفصلنا عنها قرنان من الزمان أو قرن ونصف على وجه التقريب، فتلك هى الفترة التى زادت فيها قوة أعداء الإسلام واتسع نفوذهم، وتعمق

---

(٢) لوثروب ستووارد ـ حاضر العالم الأسلامى تعريب عجاج نويهض تعليق المرحوم الأمير شكيب أرسلان . ٨٣/١ ـ ٨٥ .

فيها تحالفهم من شرق وغرب، ليواجه هذا الدين بضربات عنيفة ، وهى نفس الفترة - على وجه التقريب - التى غير فيها أعداء الإسلام أساليبهم فى حرب المسلمين وغيروا وبدلوا من خططهم ، وألبسهم غزوهم من الأقنعة ماأخفى معالمه على كثير من المسلمين .

ولننظر فى مواجهة أعداء الإسلام للدول والبلدان الإسلامية التى كانت تعيش فى ظل الخلافة العثمانية فى تلك الفترة التى نتحدث عنها .

فى مطلع النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبالتحديد سنة ١٨٥٧ م استطاعت انجلترا أن تستولى على الدولة الإسلامية فى الهند استيلاء سياسيا ، وأنتقلت من ذلك التاريخ سلطات الحكم فى الهند الإسلامية إلى التاج البريطانى ، وبذلك زالت من الوجود إحدى الدول الإسلامية الكبرى التى قامت فى مستهل القرن السادس عشر الميلادى فى آسيا الوسطى .

ولم يبق من العالم الإسلامى فى آسيا آنذاك إلا الدولة الصفوية فى إيران ، والدولة التركية العثمانية فى آسيا الصغرى وشرقى أوروبا ، وسوف نتحدث عن ذلك بعد قليل .

وفى نفس العام - ولم يكن ذلك مصادفة على أى حال - ١٨٥٧م استولى الفرنسيون على الجزائر كلها إلى الصحراء بعد أن كانوا قد بدأوا فى غزوها سنة ١٨٣٠م .

أما الدولة العثمانية فإن الحديث عنها ذو شجون ، وبحسبنا منه أن نشير إشارات عابرة نستجلى فيها تاريخ دولة مسلمة شامخة ، ثم نتحدث عن موقف أوروبا كلها من هذه الدولة .

إن هذه الدولة العثمانية التى عبرت أوروبا سنة ١٣٥٣م واتخذت بعد ذلك بقليل أدرنة حاضرة أوروبية لها، ثم أمتد نفوذها وسلطانها من بحر ايجة إلى نهر الطونة مستولية على جميع أجزاء بلغاريا ومقدونية وتساليا وتراقيا ... ثم إلى الأدرياتيك، ثم القسطنطينية

وألبانيا والبوسنة والصرب وبلاد المجر وإقريطشي وغيرها ، وقد تم كل ذلك فى ثلاثة قرون أو يزيد ، حيث وقفت جيوش تلك الدولة على أبواب فينا سنة ١٦٨٣م.

ولن ينسى التاريخ لمحمد الثانى أنه حمى الكنيسة الإغريقية وحرم اضطهاد المسيحيين تحريماً قاطعا، وأعطى للبطريريك والأساقفة من الحصانات ونفوس الكلمة مايعد بحق صورة نابضة من صور تسامح الإسلام مع أهل الكتاب، وكذلك عومل الأساقفة نفس المعاملة الحسنة فى كل الولايات التى تخضع للدولة العثمانية .

وليس أدل على تسامح الدولة العثمانية مع المسيحيين من كلمات « ريتشارد ستبر » وهو تاجر إنجليزى كان فى تركيا سنة ١٨٧٥ م حيث قارن بين المسلمين الأتراك وبين المسيحيين فى معاملة المسيحيين أنفسهم فقال : «... وعلى الرغم من أن الأتراك بوجه عام شعب من أشرس الشعوب بسيرهم فى أعمال الظلام ... سمحوا للمسيحيين جميعا ، للإغريق منهم واللاتين أن يعيشوا محافظين على دينهم ، وأن يصرفوا ضمائرهم كيف شاءوا ، بأن منحوهم كنائسهم لأداء شعائرهم المقدسة فى القسطنطينية ، وفى أماكن أخرى كثيرة جدا ، على حين أستطيع أن أؤكد بحق ـ بدليل اثنى عشر عاما قضيتها فى إسبانيا أننا لا نرغم على مشاهدة حفلاتهم البابوية فحسب ، بل إننا فى خطر على حياتنا وسلعنا»(٣)

كذلك صاح مقاريوس بطريق أنطاكية يثنى على تسامح الأتراك المسلمين ووحشية البولندين فى معاملة المسيحيين فقال : «أدام الله بقاء دولة الأتراك خالدة إلى الأبد فهم يأخذون مافرضوه من جزية ولاشأن لهم بالأديان، فهم سواء أكان رعاياهم مسيحيين أم ناصريين ، يهود أو سامرة ، أما هؤلاء البولنديون الملاعين ، فلم يغتنوا بأخذ الضرائب والعشور من إخوان المسيح ، بالرغم من أنهم يقومون بخدمتهم عن طيب خاطر ، بل وضعوهم تحت سلطة اليهود الظالمين أعداء المسيح الذين لم يسمحوا لهم حتى بأن يبنوا الكنائس ولا بأن يتركوا لهم قسسا يعرفون أسرار دينهم(٤)

---

(٣) (٤) (٥) (٦) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . على التوالى هامش ١٨٢، ١٨٣، ١٨٣، ١٧٥ .

وهذا هو «أبروتس فوليثا» أحد أشراف جنوة يقول : «... وطالما تساءلت : وكيف يحدث أن عددا كبيرا جدا من رجالنا يأوى إليهم ـ يقصد الأتراك ـ باستمرار ويتنكر للديانة المسيحية وينضوى تحت لواء الشريعة الإسلامية »(٥)

على أن الفرية التى تقول بأن المسيحيين اتجهوا إلى الإسلام هروبا من الجزية التركية ، فرية لاتستند إلى أى أساس صحيح ، لأن هذه الجزية أو الضريبة لم تكن تجاوز دوكة واحدة عن كل رأس أى مايساوى ما يتراوح بين ٢½ قرشين ونصف قرش ، و ١٠ عشرة قروش عن كل ذكر بالغ ، كل حسب دخله ، ولما زادت هذه الجزية زيادة ملحوظة فى القرن التاسع عشر كانت تتراوح بين ١٥ خمسة عشر ، و ٣٠ ثلاثين ، و ٦٠ ستين قرشا ، كل على حسب دخله كذلك ، هكذا اعترف الكتاب المسيحيون بعامة والمؤرخون منهم على وجه الخصوص . وما يعقل أنَّ واحداً من الناس يترك دينه ـ مهما كان ذلك الدين ـ من أجل مبلغ سنوى زهيد إلى هذا الحد !!!

على أننا هنا لا ندعى أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية مبرأة من العيوب ، أو كانت ملتزمة بحدود الشريعة الإسلامية ونظمها فى كل أمرها ، إذ المعروف لدى كل منصف من الباحثين المسلمين لتلك الدولة مخالفات كثيرة لشريعة الإسلام ، وأن أبرز هذه المخالفات كان يتمثل فى ضريبة الأبناء ـ وهى أخذ الأبناء من آبائهم المسيحيين فى سن مبكرة لينتظموا فى الجيش التركى قسرا ـ على أن هذه المخالفة لشرع الله لم تكن عامة أو مفروضة على كل مسيحي ، وإنما كان يكتفى من كل مدينة بأن يتبرع أهلها بولدين أو ثلاثة أو أربعة فى كل سبع سنوات »(٦)

قرر ذلك «متروفانس كريتوبولوس» فيما كتبه عن ذلك سنة ١٦٢٥ م .

وهذه الضريبة على قلتها وتباعد الفترة الزمنية التى تجبى فيها ، ليست جائزة فى شريعة الإسلام لأكثر من سبب : لمخالفتها لأكثر من نص ، ولكنها على الرغم من ذلك لم تكن السبب فى إقبال كثير من المسيحيين على الدخول فى الإسلام ـ كما يزعم الزاعمون .

---

(٥) (٦) سير توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . على التوالى هامش ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٣ ، ١٧٥ .

ولم تستطيع أوروبا وروسيا القيصرية مجتمعين ومتفرقين أن يسكتوا على تلك المكانة التى أحتلتها تركيا المسلمة فى نفوس المسيحيين ، فأخذت تكيد وتدبر وتحيك المؤامرات والدسائس ، وكانت الحروب والصراعات بين تركيا وبـين هؤلاء ، وبـدأت الأنظمة الداخلية للدولة العثمانية التركية تسوء شيئا وراء شئ ، حتى تباعدت كثيرا عن الإسلام وروحه ومنهجه ونظامه وعند ذلك أصبحت تلقب عند أعدائها بدولة الرجل المريض الذى يوشك أن يفنى ، فما ان بدأت حرب أستقلال اليونان عن تركيا حتى تحالفت روسيا وإنجلترا وفرنسا والنمسا ضدها ، وما إن استطاعت قوات مصر بقيادة إبراهيم بن محمد على أن تقف بجوار تركيا وأن تحقق لها بعض الانتصارات على أعدائها في اليونان، حتى تحالفت كل القوى الأوربية والروسية من أجل تحقيق هدفين:

الأول منهما : هو القضاء على الأسطول المصرى فى معركة نفارين البحرية ، حيث واجهته أساطيل روسيا وانجلترا وفرنسا وحققت عليه انتصارا كبيرا .

والثانـــى : عقد اتفاق منفرد مع محمد على ليتخلى عن معاضدة تركيا أو الوقوف معها فى حرب .

وقد نجحت هذه الدول ضد تركيا في الوصول إلى تحقيق هدفيها معا ، بغض النظر عما بدأ بين هذه الدول المتحالفة (انجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا) من خلافات هى فى الحق قشرية سطحية ، أشبه ماتكون باختلاف اللصوص على تقسيم المال المسروق .

وما إن بدأ عهد السلطان عبدالعزيز حتى انتشر النفوذ الغربى فى تركيا ، وانتشر الغزو الفكرى الأوربى لبلاد المسلمين وجدت المحاولات المستميتة من الأعداء للقضاء على مظاهر الحضارة الإسلامية ، وتمخض ذلك عن قيام حزب تركيا الفتاة بتحريض من عدد الأجانب الأعداء الألداء لكل ماهو إسلامى ، متحالفة هذه الجماعة مع المحافل الماسونية الدولية ، وليس لكل هؤلاء من هدف إلا أن تصبح تركيا وقد تنكرت للإسلام مبادئه ونظمه ، وقد نجح هذا التحالف فى الوصول إلى هدفه كذلك .

وما إن قامت الحرب العالمية الأولى حتى بدأت النوايا وأخذت فى الوضوح حين

أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، ثم ـ وعلى وجه من السرعة ملحوظ ـ أعلنت أنجلترا وفرنسا الحرب على تركيا كذلك .

وعند النظر فى اتفاقية ٢٦ من إبريل سنة ١٩١٦ م بين أنجلترا وفرنسا وروسيا نجدها تصرح بما كان مضمرا وتسفر عما كان خبيئاً ، فهى تنص على أن يكون لأنجلترا فى الدول العربية المستقلة المزمع قيامها منطقة نفوذ فى : العراق وسوريا وميناءى حيفا وعكا ـ وكانت انجلترا قد أحتلت قبل ذلك مصر ـ وتنص الاتفاقية على أن يكون لفرنسا نفوذ فى الشريط الساحلى من سوريا ، وولاية أطنة وقليقلة وجنوب كردستان بما فى ذلك مدينة خربوط ـ وكانت فرنسا قد احتلت من قبل تونس إلى جانب أحتلالها السابق للجزائر
ونصت الأتفاقية على إعطاء روسيا بلاد أرمينيا وجزءا من بلاد كردستان ، وشمالى الأناضول وغربى طرابيزون إلى نقطة تحدد فيما بعد .

ويبدو أن الحلفاء لم يستطيعوا أن يتفقوا على شئ فى أمر فلسطين يخضعها لإحدى الدول المتحالفة ـ لأن الخطة كانت موضوعة لتمكين اليهود من فلسطين ـ فاتفقوا على أن تكون فلسطين تحت إدارة دولية ، وهكذا تبددت أجزاء الدولة التركية المسلمة .

وعند نظرة أخرى إلى أتفاقية «سايكس ـ بيكو» بين أنجلترا وفرنسا ، نجد أنها تنص على أن تكون الأراضى المشار إليها مناطق تحت إدارة كل من إنجلترا وفرنسا وسائر البلاد العربية ، فهى مناطق نفوذ إنجليزية أو فرنسية سواء أتم تنظيمها فى دول عربية أو أتحاد من الدول العربية ، وهذا هو التمزيق للعالم الإسلامى والاحتلال العسكرى المسلح لمعظم أجزائه ، ومع هذا الغزو العسكرى أو بعده بدأت عمليات الغزو الفكرى وآتت ثمارها لدى أصحابها ، فمسخت الفكر الإسلامى وشوهت الحضارة الإسلامية وهزت كيان الشخصية المسلمة .

وكان من ثمار هذا الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين أن قام بعض مفكرى المسلمين باستحداث حركات سموها حركات تقدمية فى الإسلام ، فأدخلوا بها على الإسلام ماليس منه ، وأخرجوا بها منه ماهو من صميمه ، وزعموا أن هذا الخلط هو الأصلاحات الإسلامية التى يجب أن يقوم بها المسلمون ليعيشوا عيشة متحضرة تتلائم وتواكب

الحضارة الأوربية التى أصبحت فى نظرهم مثلا يحتذى ، رأينا ذلك رأى العين فيما نادى به الزعيم الهندى ـ المسلم ـ «السير سيد أحمد خان» وفيما تفرع عن أفكاره ودعواته التجديدية من استحداث مذهبين جديدين فى المسلمين هما : المذهب القاديانى والمذهب الأحمدى ، وهما فى الحق ليس من الإسلام فى شئ .

هذا أثر الغزو الفكرى المعادى للإسلام فى المسلمين أنفسهم وبخاصة فى المفكرين والقادة منهم .

وأما ثمرة هذا الغزو الفكرى غير المسلمين من تلك الجيوش المنظمة الجرارة من المبشرين والمستشرقين والصليبيين والصهيونيين فإنها بدت فى إذكاء نار الخلافات المذهبية بين المسلمين والتشجيع على توسيع الهوة بين المختلفين ، وإعادة نيران الفتن بعد أن خبت بمرور الزمن ، وذلك عن طريق ماقام به المبشرون والمستشرقون من دراسات وبحوث ، وماسجلوه فى دوائر المعارف المنسوبة إليهم والمتخصصة فى الإسلام والمسلمين ، وعن طريق ماقاموا بعقده من مؤتمرات أكدوا فيها مقررات غاية فى الخطورة

وعن طريق ثالث هو : تعمدهم تشويه الفكر الإسلامى وتهجمهم على الإسلام والقرآن والسنة النبوية وشخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتشويههم للحضارة الإسلامية وللتاريخ الإسلامى وللتراث الإسلامى كله .

وعن طريق رابع هو إشاعة النظم السياسية والنظم الإجتماعية والاقتصادية الغربية بين الشعوب الإسلامية بقصد القضاء على النظم الإسلامية للسياسة والاجتماع والاقتصاد ، لينعزل المسلمون عن دينهم منهجا وحركة ونظاما .

وعن طريق إعلاء شأن الحضارة الأوربية وربط التمسك بها والمتمسكين بها بعجلة التقدم والتحضر والمدنية ومايترتب على ذلك من نفور بعض المسلمين من حضارتهم ودينهم وقيمهم الإسلامية كلها .

وبعد : فتلك هى الأبعاد التاريخية للغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام فى صورتها المصغرة التى لا أقصد منها الاستيعاب ولا التوسع ، وإنما القصد منها هو أن تكون مدخلا للبحث وبابا إليه .

الباب الأول

مظاهر الغزو الفكري وتياراته

الباب الأول
مظاهر الغزو الفكرى وتياراته

اتخذ الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى العصر الحديث مظاهر عديدة ، واتجهت تياراته فى مجارى عمقها صانعوها وزادوا فى طولها وعرضها حتى طافت بالعالم الإسلامى كله ، حاملة إليه السم فى العسل ، أو الموت فيما يزعمون أنه الدواء .

ونستطيع أن نتعرف على تلك المظاهر للغزو الفكرى وتياراته فى حملات التشويه للإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم المعصوم ، وحملات التشويه للتاريخ الإسلامى ونظام الحياة الإسلامى وللتراث الإسلامى كله .

كما نستطيع أن ندرك مظاهر هذا الغزو فى حملات التغريب للحضارة الإسلامية وللمسلمين أنفسهم ، كتغريب التعليم والثقافة والنظم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وتغريب الأخلاق والآداب ، ثم تكون قمة التغريب بتغريب اللسان لقطعه عن لغة القرآن اللغة العربية الفصحى .

ولقد قامت على نشر هذا الغزو الفكرى وترويجه مؤسسات عديدة ومراكز خطيرة منها الصهيونية والتبشير والاستعمار والمبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل الديموقراطية والشيوعية والاشتراكية والقوميات .

ومنها : الفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية واتخاذ العرى مذهبا ، واتخاذ التخنث للرجال والترجل للنساء أسلوبا فى الحياة .

ومنها : وسائل التخريب التى توجهها الصهيونية فى الغالب لهدم القيم الخلقية كالسينما والمسرح والملاهى والنوادى والجمعيات الهدامة كالماسونية و «أندية الروتارى» وغيرها .

وهذه كلها ركائز للغزو الفكرى ، ونقط انطلاق تتحرك منها الحملات وتنطلق لتغزو ، ثم تعود بكل خبيث هدام من وسائل حرب الإسلام والمسلمين .

ولنبدأ حديثنا عن حملات التشويه للإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ولشخصه الكريم ولتاريخه ونظامه وتراثه .

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام

تناولت هذه الحملات أصل الإسلام وهو القرآن الكريم والتفسير الصحيح لهذا الأصل وهو السنة الصحيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووجهت هذه الحملات سمومها إلى الفكر الإسلامى والتاريخ الإسلامى على النحو الذى سنفصله فى الصفحات التالية من هذا البحث .

وهذا التشويه يستهدف أهدافا خبيثة ، لا تخفى على من يتأمل خطط الأعداء ويوليها شيئا من الأهتمام ، فمن بين ماتستهدفه هذه الحملات التشويهية أن تهتز ثقة المسلمين فى دينهم لما يدخل على الأعداء من تشويه على أصله الأصيل كتاب الله سبحانه القرآن الكريم ، وعلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، التى تكفلت بشرح هذا الأصل وتفسيره . فاذا ما اهتزت ثقة المسلمين فى دينهم أصبح الواحد منهم يعانى من فراغ رهيب فى نفسه وعقله وعاطفته وغدا النظام الإسلامى فى الاجتماع والسياسة والاقتصاد عنده لايقنع ولا يحقق له شيئا من مطالبه ، وعندئذ تتلقاه دعايات هؤلاء الأعداء لحضارتهم ونظمهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فيصبح فريسة لها وماهو إلا أن يرتمى فى شباكها فيضيع اعتزازه بدينه ويصبح تابعا خاضعا لعدوه .

ومن بين أهداف الحملات التشويهية تلك أن يقيم هؤلاء الأعداء بين الإسلام وبين الجموع البشرية المقبلة عليه من الوثنيين فى آسيا وافريقية بل من الذين أدخلوا فى المسيحية قسرا أو عن طريق المؤسسات التبشيرية المنبثة فى آسيا وإفريقية ، إذ ليس هناك مايحول بين هذه الجموع وبين الإسلام إلا أن تشوّه صورة الإسلام كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وتاريخه وتراثه أمام الناس .

إلى غير ذلك من أهداف يستهدفونها من وراء حملات التشويه تلك .

١ ـ محاولة تشويه القرآن الكريم

ليست محاولات تشويه القرآن الكريم حديثة أو معاصرة ، وإنما هى ممتدة فى التاريخ الإسلامى مواكبة لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حمل لواءها أعداء الإسلام من يهود ، ومن الوثنيين والنصارى أجيالا بعد أجيال إلى يومنا هذا .

وليس من هدفنا هنا أن نتتبع حملات التشويه للقرآن الكريم عبر كل هذا التاريخ ، وإنما نحاول أن نتحدث عنها فى الإطار الزمنى الذى حددناه لهذا البحث وهو قرنان أو قرن ونصف قرن من الزمان .

ومن أخطر من عبثوا بالقرآن الكريم وتعمدوا تشويهه كتاب «دائرة المعارف الإسلامية» وبخاصة من كتب منهم فى التعريف بكلمة «الله» سبحانه وتعالى ، وهو المستشرق الحاقد الخطر «ماكدونالد» D.B. MACDONALD حيث أساء هذا المستشرق وأخطأ وتخبط وأضر بنفسه وبالحقيقة العلمية أكثر مما أضر بالإسلام أو بالقرآن الكريم أو بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن القارئ لمقاله ذاك فى «دائرة المعارف الإسلامية» ٢٤٤/٤ ط دار الشعب بالقاهرة يستطيع أن يرى ماتخبط فيه الكاتب ، وماقال فيه عن غير علم أو تعقل ، فلا عارف بتاريخ العقائد عند الجاهليين، ولا هو فاهم أصول التعبير العربى الصحيح ، ولا هو مدرك أنه بذلك الخطأ والتخبط يفضح نفسه عند كل قارئ وعند كل منصف ، ويكشف عن تعصبه الذى أعماه عن الحق .

ولقد تجرد للرد عليه فى هذه المزاعم والأباطيل مستشرق آخر هو «كارديه» : L. CARDET ، فرده عن بعض الخطأ ، فبدا «كارديه» أكثر تعقلا وحكمة ، غير أن مارد به «كارديه» فيه خلل كبير ، وكان ينقصه التحرى والدقة وإن أعجب بعض النقاد والمعلقين .

ولنضرب الآن مثلا واحدا عن تخبط «ماكدونالد» فى حديثه عن القرآن الكريم وهو يتحدث عن عقيدة الجاهليين فى الله سبحانه ، ذلك أن «ماكدونالد» يتهم القرآن ـ وذاك هو بيت القصيد ـ بأنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس من عند الله ، وتلك هى الطعنة التى يوجهونها للقرآن و يلحون فى إثباتها يقول «ماكدونالد» فى حديثه ذاك : «... كما أنه من المحقق أن أهل مكة جعلوا بينه وبين الجنة نسبا ... وجعلوهم شركاء لله .. وقدموا لهم القرابين وكانوا يعوذون بهم ، ولسنا نعلم علم اليقين : هل كانت قد وجدت لديهم فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله ، وربما كان هذا تفسيرا من عند محمد ...»(٧)

والذى يعنينا من هذه العبارة ادعاؤه أن القرآن الكريم تفسير من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، والعجيب أنه بينما يدعى هذه الدعوى الباطلة نجده يعتمد فى كلامه أحيانا على آيات قرآنية .

ثم يلح فى موضع آخر على أن القرآن الكريم من تأليف محمد صلى الله عليه وسلم وأنه يزيد فيه أو ينقص منه حسب ضرورات السجع فى الكلام فيقول : «وقد عرّف محمد الله بأنه الملك المنتقم الغيور ، وأنه سيحاسب الناس من غير شك و يعاقبهم فى اليوم الآخر ، وبذا تحولت تلك الفكرة الغامضة عن الله إلى ذات لها خطر عظيم ، و ينبغى لنا أن نتبسط فى الكلام على هذه الذات كما تصورها محمد (صلى الله عليه وسلم) ومن حسن التوفيق أن لوازم السجع حملته على وصف الله بعدة صفات يتردد ذكرها كثيرا فى القرآن .. وتبين شغف محمد (صلى الله عليه وسلم) بهذه الصفات وشدة تمسكه بها وكانت الفطرة السليمة هى التى دفعت المسلمين بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى جمع هذه الصفات وتقديسها ، وهذه الصفات تعبر عن حقيقة إله محمد (صلى الله عليه وسلم) أحسن مما تعبر عنها الصفات التى ذكرها علماء الكلام فى القرون الوسطى ، وهى تعيننا كثيرا فى فهم وتحديد عبارات محمد (صلى الله عليه وسلم) المبعثرة المتناقضة (٨) ثم

(٧) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٤٥/٤ ط دار الشعب القاهرة .
(٨) السابق : ٢٤٦/٤ ـ ٢٤٧ .

يعاود «ماكدونالد» محاولاته فى تأكيد وهمه بأن القرآن الكريم ليس من عند الله ، فيوهم قارئه بأن هذا القرآن من صنع محمد (صلى الله عليه وسلم) وأنه كان من السهل عليه أن يزيد أو ينقص منه ، فيقول : «وكان شعراء العرب من قبل قد أظهروا مقدرة فائقة فى استعمال الصفات ، ولكن صفة «الواجد» لم يرد ذكرها في القرآن، ولو أنه كان من السهل أن ترد فيه ...»(٩)

ثم يلح على إلصاق تهمة صنع القرآن بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيزداد تخبطا حيث يقول : «... ومن أسمائه ـ يعنى الله سبحانه ـ السلام ، وهذه الصفة لم ترد إلا فى الآية ٢٣ من سورة الحشر ومعناها شديد الغموض ، ونكاد نقطع بأنها لا تعنى السلم ، ويرى المفسرون أن معناها السلامة أى البراءة من النقائص والعيوب وهو تفسير محتمل ، وقد تكون هذه الصفة كلمة بقيت فى ذاكرة محمد من العبارات التى تتلى فى صلوات النصارى»(١٠)

ولست أدرى بماذا أرد على باطل «ماكدونالد» ومزاعمه ؟ وليس فيما زعمه شيء يستند إلى دليل أوهى دليل ، وبحسبه أن يفند مزاعمه مستشرق آخر هو «كارديه» .

ولو ذهبت استقصى المستشرقين الراغبين فى تشويه القرآن الكريم لما وسعتنى مئات الصفحات ولكننى سوف أكتفى من هذا العدد العديد بمستشرقين آخرين هما : المستشرق «جب» والمستشرق «هـ . ج . ويلز» .

فالمستشرق «جب» يتحدث عن محمد صلى الله عليه وسلم وعن تأليفه للقرآن الكريم فيقول : «أن محمدا ككل شخصية مبدعة قد تأثر بضرورات الظروف الخارجية عن المحيطة به من جهة ، ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقا جديدا بين الأفكار والعقائد السائدة فى زمانه والدائرة فى المكان الذى نشأ فيه » .

(٩) السابق : ٢٤٧/٤ .

(١٠) السابق : ٤ / ٢٤٨ .

ثم يواصل «جب» حديثه عن محمد والقرآن فيقول : «أن مكة كانت فى حياة زاخرة بالتجارة والسياسة والدين ، وانه وجدت فيها زعامة وزعماء ، وأنه وجد ظلم اجتماعى بين سكانها ، وأن الرسول محمدا انطبعت فى نفسه كل هذه الجوانب ، وكان على وعى تام بها ، ترى آثارها فى حياته وفى قرآنه وفى كفاحه إلى أن مات»(١١)

وافتراءات «جب» واضحة البطلان بينة البهتان ، تفقد المنطق وتجانب الصواب .

ثم يواصل «جب» افتراءاته فيقول : «ومحمد فى البداية لم يكن نفسه على علم بأنه صاحب دعوة إلى دين جديد ، بل كانت معارضة المكيين له ، وخصومتهم له من مرحلة إلى أخرى ، هى التى قادته أخيرا وهو بالمدينة بعد أن هاجر إليها ، إلى إعلان الإسلام كجماعة دينية جديدة بإيمانها الخاص ، بمنشآتها الخاصة.

ويبدو أن معارضة المكيين له لم تكن محافظتهم وتمسكهم بالقديم أو بسبب عدم رغبتهم فى الايمان ، بل ترجع أكثر ماترجع إلى أسباب سياسية وأقتصادية ، لقد تملكهم الخوف من آثار دعوته التى تؤثر على ازدهارهم الاقتصادى وبالأخص تلك الآثار التى يجوز أن تلحق ضررا بالقيم الأقتصادية لمقدساتهم .

وبالإضافة إلى ذلك فإن المكيين قد تصوروا ـ أسرع مما تصور محمد نفسه ـ أن قبولهم لتعاليمه ربما يمهد لنوع معقد من السلطة السياسية داخل جماعتهم التى كانت تحكمها فئة قليلة حتى ذلك الوقت»(١٢)

وخلاصة مايرى جب أن محمد صلى الله عليه وسلم قد تأثر بالبيئة التى عاش فيها وشق طريقه بين الأفكار والعقائد الشائعة فى بيئته ، فالقرآن كما يرى «جب» من صنع محمد صلى الله عليه وسلم ومن ملاءمات هذه البيئة التى عاش فيها .

(١١) جب : المذهب المحمدى : ٢٥ وما بعدها .
(١٢) السابق : ٣٨ .

ومن سقط ماقاله «جب» أن أهل مكة عارضوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، لا لمخالفة عقائدهم ووثنيتهم وزيغهم وصدودهم ، وإنما المعارضة قامت عنده ونمت ووصلت إلى الحد الذى وصلت إليه بسبب التنافس على الزعامة وعلى المصالح الاقتصادية والسياسية .

وقمة الباطل عنده ادعاؤه بأن القرآن الكريم كان أثراً من آثار إحساس الرسول صلى الله عليه وسلم بالظلم الاجتماعى الذى ساد أهل مكة ، وإن أثر هذا الإحساس وهو القرآن الكريم بدأ واضحا فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وفى كفاحه إلى أن مات .

وأما المستشرق : هـ . ج . ويلز ، فإنه يردد نفس التهم التى تستهدف تشويه القرآن الكريم وتشويه الإسلام نفسه بذلك ، فهو يردد أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الذى صنع القرآن الكريم . ونحن ننقل عن ويلز من كتابه الذائع الصيت : «معالم تاريخ الإنسانية» الذى ترجم إلى العربية وطوف آفاق العالم الإسلامى ، وحظى بالرضى والقبول من الدارسين .

يقول «هـ . ج . ويلز» عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «وحدث فى مكة قرابة سنة ٥٧٠ ميلادية أن ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) مؤسس الإسلام ، وولد له أطفال عديدون كان أسم أحدهم «عبد مناف» أى خادم الرب المكى «مناف» وذا يدل على أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يكن قد توصل فى ذلك الوقت إلى أية اكتشافات دينية ويحتمل أنه رأى كنائس مسيحية فى سوريا ، ويكاد يكون محققا أنه كان يعرف الكثير عن اليهود وديانتهم ، وأنه أستمع إلى سخريتهم من ذلك الحجر الأسود فى الكعبة ، الذى كانت له السيادة على الأرباب القبلية الثلاثمائة ببلاد العرب ورأى جماهير الحجيج ، ولحظ أمارات الختل وعدم الإخلاص والخرافات المتجلية فى وثنية البلدة ، فضاق بذلك ذرعا ، وربما كان اليهود قد هدوه إلى الأعتقاد فى الرب الواحد الحق دون أن يدرك ماحدث له ـ وجاء بآيات معينة أعلن أنها قد أوحيت إليه عن طريق ملك من السماء[١٣]

(١٣) هـ . ج ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٦٢٦/٣ . ومابعدها .

ثم يقول ويلز فى موضوع آخر من كتابه السابق تحت عنوان «محمد يصبح نبيا منافحا» : لقد ظلت شخصية نبى الإسلام حتى الهجرة ، أى حتى أتم الحادية والخمسين من عمره موضوع تجاذب وتنازع بين أهل الرأى ، فبات من بعدها يسطع عليه ضياء التاريخ ، وإنا لنستبين فيه رجلا ذا قوة تصورية هائلة ، وإن كانت عرجونية على طريقة العرب ، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه» .

ثم يصل المؤلف إلى قمة مايريد قوله ، حيث يقول « لم يكن محمد (صلى الله عليه وسلم) دجالا بأى حال وإن كان اعتداده بنفسه يدعوه فى بعض الأحيان أن يتصرف كأنما كان الله رهن إشارته ، وكأنما أفكاره بالضرورة أفكار الله ..»(١٤)

وفى موضوع آخر من كتابه ذاك يقول : «فلما انتشرت التعاليم الجديدة وتكيفت فى قالبها الخاص اضطرت أن تعمل على أسس ظلت على الدوام أبعد ماتكون عن المجانسة لطبيعتها ، والتزمت أن تنمو فى تربة أخرجتها عن سبيلها السوى ، وحولتها عن طريقها القويم ، وكان مرجعها الوحيد هو القرآن ، وهذا الكتاب كان يبدو للعقول التى لم تتذوق نغمات اللغة العربية ، أعنى كما يبدو لكثير من العقول الأوربية اليوم خليطا من البلاغة الرائعة يمازجها ـ ولنقلها بصراحة ـ مقنعة غامضة لا كيف لها، وقد غاب مغزاه الحق عن عدد لا يحصى من المسلمين الجدد غيابا تاما » (١٥) .

وبعد : فهذا مجمل لآراء عدد قليل من المستشرقين فى القرآن الكريم ، وهو صورة دقيقة الدلالة على مايتهمون به القرآن الكريم من أنه كتاب محلى إقليمى أو أنه كتاب يتأسى ديانة اليهود أو النصارى ، أو أنه من صنع محمد صلى الله عليه وسلم !!!

ولو شئنا أن نسترد بسرد آراء عدد آخر من المستشرقين لا تسع بنا القول إلى الحد الذى لانريده ، فحسبنا من هذا البهتان أن نشير إلى طرف منه ، كما أننا هنا بصدد أن نرد

(١٤) السابق ٣/٦٢٦ ـ ٦٤٠ . مقتبسات متفرقة .
(١٥) السابق : ٣/٦٥٧ .

على هذه الأباطيل والترهات ، فإن البهتان فيها أوضح من أن يحتاج إلى مناقشة أو رد أو حوار ، فضلا عن أن ماكتبه كثير من علماء المسلمين وقليل من المنصفين من الباحثين الغربيين فيه مقنع وغناء .

ولم يجد واحد من هؤلاء الحاقدين على الإسلام والراغبين فى تشويهه ، حجة أو دليلا يؤيدون به ما أذاعوه من باطل وما أختلقوه من بهتان ، وبحسبنا أن التاريخ نفسه يقف من هؤلاء الحاقدين وقفة المعارض المكذب لكل ما افتاتوا به على الإسلام .

غير أنى لاأستطيع أن أترك هذا المجال دون أن أطرح بعض التساؤلات وأثير بعض النقاط فأقول : لست أدرى كيف يتساءل «ماكدونالد» فيقول : هل كانت قد وجدت لديهم ـ يقصد الجاهليين ـ فكرة عن الملائكة أو أنهم جعلوهم شركاء لله، ثم يعطف على ذلك قوله : وربما كا هذا تفسيرا من عند محمد ... أى أن محمدا قد ألف القرآن وتحدث فيه عن الملائكة الذين لم تكن لدى العرب عنهم فكرة سابقة .

ولو كان «ماكدونالد» الذى يبيح لنفسه أن يكتب عن القرآن والإسلام يعرف قدرا يمكنه من الفهم الصحيح لما يقول ، لما قال ماقال . فلفظ «ملائكة» لفظ عربى أصيل . قال أبوعبيدة : ملك : فعل من لاك أى أرسل ، والألوكة والمألكة : الرسالة قال لبيد :

وغلام أرسلته أمه بألوك فبذلنا ما سأل

وقال عدى بن زيد :

أبلغ النعمان عنى مألكا أننى قد طال حبسى وانتظارى

واشتقاق الملك من الألوكة وارد ، لا سيا وأن هذا المعنى يستأنس عليه ببعض آيات القرآن الكريم وهى حجة لغوية قاطعة ، قال تعالى : «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس»(١٦) وقال سبحانه : «الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا ...»(١٧) وقال جل شأنه : «ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من

(١٦) الحج : ٥٧ . (١٧) فاطر : ١ .

عباده ..»(١٨) ، فهذه الآيات القرآنية تدل على أن الملائكة مرسلون من عند الله ، مما يؤيد اشتقاق الكلمة من الألوكة وهى الرسالة ... أم أن «ماكدونالد» يحتاج إلى دليل يؤكد أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية؟

كذلك ، ماكان «لماكدونالد» أن يتساءل : إن كان العرب قبل الإسلام عندهم فكرة عن الملائكة : لو أنه أتعب نفسه قليلا فى التعرف على تاريخ الجاهليين ، وتاريخ الأديان فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، ذلك التاريخ الذى أعترف به وسجله مستشرقون مثل «ماكدونالد» فأكدوا أن العرب فى الجاهلية كان بعضهم يعتقد أن الملائكة بنات الله ، حيث تصوروا أن الله أصهر إلى الجن وأن الملائكة هم بناته منهم ، وأن من العرب من كان يتقربون إلى الله بالملائكة استشفاعا بهم ، لأنهم بناته ولهن لديه حظوة ، وبعض العرب كانوا يعتقدون أن اللات والعزّى ومناة «رموز وهياكل مادية من الأرض للملائكة الذين هم فى السماء ، فيعظمونها ويقومون بواجبات العبادة نحوها ، ويذبحون لها على هذا الاعتبار.

والآيات القرآنية التى تؤكد معرفة العرب للملائكة واعتقادهم بوجودهم وبأنهم رسل من عندالله آيات كثيرة نسوق منها قوله تعالى : «وقالوا لولا نزل عليه ملك»(١٩) وقال سبحانه : «وقالوا مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا»(٢٠)

والآيات القرآنية الدالة على أعتقاد العرب بأن الملائكة بنات الله ، وأن بعضهم كانوا يستشفعون بالملائكة عند الله وأن بعضهم كان يعبد الملائكة عبادة كاملة كثيرة ومن هذه الآيات قوله تعالى : «فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ، أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون»(٢١) وقوله تعالى: «أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما» (٢٢) وقوله تعالي: «.. وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى» (٢٣) .

(١٨) النحل : ٢ .
(١٩) سورة الأنعام : ٨ .
(٢٠) سورة الفرقان : ٧ .
(٢١) سورة الصافات : ١٤٩ ـ ١٥٠
(٢٢) الاسراء : ٤٠ .
(٢٣) النجم : ٢٦ ـ ٢٧ .

لعل هذه الآيات تقنع «ماكدونالد» وأمثاله بأن الظن لايغنى من الحق شيئا ، ولعل ذلك يقنعه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما تحدث عن الملائكة لم يكن يفسر من عنده ، وإنما هى وحى أوحاه الله إليه ، هذا إن كان «ماكدونالد» وأمثاله ، يقتنعون أو يرجعون إلى الحق والصواب .

كذلك ضل «ماكدونالد» حين زعم أن لوازم السجع حملت الرسول صلى الله عليه وسلم على وصف الله سبحانه بعدة صفات يتردد ذكرها فى القرآن ... فإن لهذا الزعم معنى واحداً عندى هو أن «ماكدونالد» لا يعرف السجع ولا لوازمه ، ولا يفرق فى الأساليب العربية بين مسجوعها وغير مسجوعها .

ولو ذهبت أرد كل فرية مما زعم «ماكدونالد» لتحدثت فى بسائط وبدائه لا تغيب عن عاقل أو عارف بأوليات الإسلام وأوليات اللغة العربية ، فضلا عن متعالم مغرور يتصدى للحديث عما لا يعرف .

أما «جب» فإن دعاواه الباطلة فى تأثر محمد صلى الله عليه وسلم بضرورات الظروف الخارجية عنه المحيطة به ، أو زعمه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استجاب لهذه المؤثرات استجابة ظهرت آثارها فى حياته وفى قرآنه وفى كفاحه ، مثل هذه الدعاوى ليس لها إلا أن تتهاوى غير قادرة عن النهوض لعجزها عن الاستناد إلى دليل أوهى دليل ، وليس الرد على مثل هذه المزاعم التافهة بمجد ولا مغن أمام هذا الانغلاق الفكرى والتعصب المقيت ، المعمى عن الحق وعن مجريات التاريخ .

كذلك فإن ماهذى به «جب» من أن معارضة أهل مكة للرسول صلى الله عليه وسلم لم تكن من أجل دينه ، وإنما عارضوه من أجل التنافس على الزعامة السياسية ، ولو كان «لجب» أدنى علم بالمتواتر من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وهو فى مكة ، لعلم أن أهل مكة أنفسهم عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم فى زمن باكر من دعوته الناس إلى الإسلام أن يكف عن دعوته ، وأن يجمعوا له المال ، ويهيئوا له أسباب الزعامة والرياسة فرفض قائلا كلمته المشهورة : «... والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر أو أهلك دونه ماتركته ...»

أما كلام المستشرقون : هـ ج . ويلز: فإن ما فيه من الخطأ والتجني ما لم يسغ حتى في عقول غير المسلمين من المستشرقين والحاقدين على الاسلام، فلا ندري من أين جاء : هـ . ج . ويلز بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان له ولد أسمه عبدمناف أي خادم الرب المكي مناف، مع أن أسماء أولاده الذكور معروف مشهور لا يحتاج من هـ . ج . ويلز إلى بحوث وتحقيقات وموضوعات ـ كما يزعم أكثر المستشرقين فيما يكتبون وهم: عبدالله والقاسم وإبراهيم ، إلا إذا أراد هـ . ج . ويلز أن يغير أسم عبدالله فيجعله عبدمناف. هذا شيءُ يخصه وحده، ولكنه في الوقت نفسه لن يغير من التاريخ المعروف قليلا ولا كثيرا.

كذلك زعمه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى الكنائس المسيحية فى سوريا !! إن لنا أن نقول : متى ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى سوريا ؟ وكم كان عمره آنذاك ؟ أهى رحلته مع عمه أبى طالب تلك الرحلة التجارية التى ماتجاوزت بصرى ؟

إن اتهامات هذا المستشرق لتدل على حرصه الشديد على التضليل والخداع ـ خداع من يقرأون له من أبناء جنسه ـ أما القراء المسلمون فليس منهم واحد لا يعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول الشعر ولا ينبغى له، حينما يسمعون كلام هـ.ج.ويلز : حينما يصف الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر غير مجيد، أما ادعاؤه بأن الرسول صلى الله عليه وسلم له قوة تصورية هائلة وإن كانت عرجونية على طريقة العرب، ولها أغلب مزايا البدوى وأهم نقائصه فهى كلمات تقطر حقدا ومرارة ولا تستحق مجرد التعليق عليها ، ويكفيه من علمه أنه يصدر حكما عاما على العرب أجمعين وعلى البدو أجمعين مع التسليم لدى الجميع بأن تلك الأحكام العامة الشاملة لها من الدلالات على عقلية صاحبها ، وتصوراته مايخرجه عن دائرة العقلاء أصلا .

ثم نحب قبل أن ينتهى هذا الفصل أن نطرح تساؤلا على هؤلاء المجدفين القائلين بغير علم الزاعمين الواهمين بغير دليل أو برهان ، نحب أن نتساءل قائلين : لماذا نال القرآن الكريم كل هذا التحامل وكل هذه الأباطيل ؟

ألهذا التحامل صلة بما حققه المسلمون من أنتصارات ـ بتمسكهم بهذا القرآن وعملهم بمقتضاه على فترات غير قليلة من التاريخ ؟

أبعد وصول جيوش المسلمين إلى أوروبا حاملة راية : «لا إله إلا الله محمد رسول الله » ترفرف بالعدل والتسامح على ربوع الأندلس كله ؟ أيُعَدُّ ذلك من الأسباب التى حملت المستشرقين على التهجم على القرآن الكريم صانع الرجال والأبطال ؟

أم نعد النظرة الفاحصة التى قارن بها بعض المنصفين من غير المسلمين بين القرآن الكريم والتوراة والإنجيل التى بأيديهم ، هى المحرك لهذه الأحقاد والمثيرة لهذه التهجمات والمحركة لكل هذه التشويهات ؟

أم أن روح الحروب الصليبية المقيتة العمياء لا تزال تسيطر على عقول هؤلاء وتطمس قلوبهم فينفثوا سموم أحقادهم تهجمات واتهامات ؟

أم أن الخوف من أن يعود المسلمون إلى كتابهم الكريم يستلهمونه حلول قضاياهم ومشكلاتهم بعد هذه اليقظة النسبية التي تطوف بكثير من بلدان العالم الإسلامي الآن قد أذلتهم عن الحق والصواب، فأخذوا يقلبون الحق باطلا، ويشوهون القرآن ما وسعهم التشويه خشية أن يكون المصباح الذي يضيىء للمسلمين طريق صحوتهم ورشادهم؟ أم هو مخطط سياسي على مستوي عالمي تتحالف فيه القوى العسكرية مع القوى الفكرية والثقافية لتمهيد الغزو الفكري الإسلامي في صميمه وهو القرآن الكريم؟.

أم أن الصهيونية العالمية المدمرة لكل قوى الخير فى البشر ، المعادية للإسلام والقرآن منذ فجر التاريخ الإسلامى ، قد استطاعت أن تجند من هؤلاء المستشرقين من ينفثون سمومهم ويروجون باطلهم ، وينشرون افتراءاتهم على أقدس مالدى المسلمين وهو القرآن الكريم ؟

أم أن للنفط الذى أنعم الله به على كثير من البلاد الإسلامية ـ والذى أصبح اليوم مصدرا هاما للطاقة أى القوة والقدرة ـ صلة بهذه الحملات التشويهية التى تستهدف إقصاء أصحاب هذه المقدرات الهائلة من الطاقة ومايستتبعها من مال عن أن يجمعوا بين هذه الطاقات التى أنعم الله بها عليهم وبين المنهج الصحيح الذى يقف بهم على طريق العزة والسيادة والتمكن ، وهو القرآن الكريم ؟ .

٢ ـ محاولة تشويه السنة النبوية

وهى محاولات ضارية عميقة الجذور فى تاريخ حربهم للإسلام ، وهى محاولات تستهدف ماتستهدفه حرب القرآن الكريم من عزل المسلمين عن دينهم بتشويه مصدريه الأساسيين القرآن والسنة .

وهى حرب تدخل حديثا فى الغزو الفكرى للمسلمين ، وقد جند أعداء الإسلام لتشويه سنة النبى صلى الله عليه وسلم ماجندوا من أقلام وكتب ومجلات وبحوث ، وملأوا بهذا التشويه كثيرا من الكتب والمجلات ودوائر المعارف التى تتحدث عن الإسلام وتعتبر مراجع لفكره وثقافته فى نظر كثير من الباحثين والدارسين الذين لايستطيعون قراءة الكتب العربية ، بل إن كثيرا من هذه المراجع ترجم إلى اللغة العربية وأعتبره كثير من أبناء العربية مراجع هامه عن الإسلام فكره وتاريخه وثقافته .

ويبدوا أن تطاول المستشرق «ماكدونالد» على الحديث النبوى الشريف واتهامه يجبرنا على أن نعود إلى الأستشهاد بما قال فى «دائرة المعارف الإسلامية كذلك» فإنه يقول : «يجدر بنا الآن أن نتكلم على الآراء التى أسندها الحديث إلى محمد (صلى الله عليه وسلم) على أننا إذا حاولنا أن نجد فى الحديث مانستطيع أن نقطع بصحة نسبه إليه من الوجهة التاريخية ، فإن عملنا هذا يكون لاغناء فيه على الإطلاق .

فمن الواضح أن هناك أحاديث كثيرة لا يمكن أن تكون قد صدرت عنه ، كما أننا لن نستطيع أن نعرف أبدا الأحاديث التى صدرت عنه حقا » (٢٤) ثم يستشهد «بجولد زيهر» على هذا الخلط والتشكيك فيقول : «وقد بين لنا جولد زيهر أن الأحاديث ليست فى الواقع إلا سجلا للجدل الدينى فى القرون الأولى ، ومن ثم كانت قيمتها التاريخية ، لكن هذا السجل مضطرب ، كثير الأغلاط التاريخية، وفيه معلومات مضللة لم تؤخذ من مصادرها

---

(٢٤) (٢٥) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٥٥/٤ ط دار الشعب ـ القاهرة

الأولى حتى إنه أصبح لايصلح إلا لتكملة المصادر الأولى الأخرى وتوضيحها ، ولهذا ينبغى أن نوجز الكلام فى الأحاديث باعتبار أنها تعبر عن آراء محمد (صلى الله عليه وسلم) أو آراء المسلمين فى صدر الإسلام ولا يقتصر الأمر على هذا فإن الأحاديث التى تجد فيها مشابهة لما ورد فى القرآن مشكوك فيها كذلك»(٢٥)

ثم يواصل «ماكدونالد» فيقول عن الحديث النبوى : «ثم دخل على الحديث فيما بعد زيادات وتغييرات كثيرة ، وأول هذه الزيادات ما كان خاصا بالأساطير ، ثم جعلت الأحاديث صفات الله أكثر وضوحا ، وفصلت الكلام فى صلته بالملائكة والجن ، وقد نما الاعتقاد فى الجن وأصبح الكلام فى فعل الله معقدا ، نجد هذا كثيرا فى صحيح البخارى وبخاصة فى كتاب التوحيد وبدء الخلق ، ونجد فيه كذلك الكلام عن وجه الله وعن عرشه ، وعن خلق السموات والأرض ، وجاء فيه أيضا أن الله يتنزل إلى السماء الدنيا فيقول : من يدعونى فأستجيب له ؟ من يستغفرنى فأغفر له ؟ (كتاب التوحيد من صحيح البخارى ط القاهرة ١٣١٢ هـ ٤/١٧٩) وترد كذلك قصة آخر من يدخل الجنة من أهل النار ، وكيف يضحك الله منه (نفس المصدر ٤/١٧٢ ـ ١٧٣) وفى الآخرة يمسك الله الأرض على إصبع والسموات على إصبع ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض (نفس المصدر ٤/١٦٧ ـ ١٧٥) وورد الكلام عن عينيه فى القرآن تارة بالمفرد (سورة الفرقان الآية ٤٠) وتارة بالجمع ، وجاء فى الحديث أنه ليس كالمسيح الدجال .

وكان من جراء الزيادة فى الحديث أيضا أن أشتد التناقض فى صفات الله ، ولهذا نجد حديثنا يكثر وروده وهو : إن رحمتى تغلب غضبى أو تسبقه (السابق ٤/١٦٩ ـ ١٧٥) وتجد من جهة أخرى ذلك الحديث المخيف : هؤلاء للجنة ولا أبالى ، وهؤلاء للنار ولا أبالى» (إحياء علوم الدين للغزالى ٧/٣٠٨)

ومما تجدر ملاحظته أن الأحاديث التى تتكلم عن مسائل الغفران بالذات يبدو فيها التناقض واضحا جليا ، فمن ناحية نجد أن النطق بالشهادتين وقليلا من العمل الصالح

(٢٥) دائرة المعارف الإسلامية : ٤/٢٥٥ ط دار الشعب ـ القاهرة

يكفل للعبد الغفران ، ونجد من ناحية أخرى أن تسعا وتسعين وتسعمائة وألف سيذهبون إلى النار ، وقد انتهى الأمر فى هذا المزاح فقيل : إن التسعة وتسعين وتسعمائة سيكونون من يأجوج ومأجوج (البخارى ٣/١٤٣) .

ومن الواضح أننا نلمح هنا أثر الجدل الذى ثار بين الفرق فى وقت متأخر ، ويبدو لنا هذا الأثر أشد وضوحا فى القول بأن الأمة الناجية ستكون ممن يقطنون الشام (السابق ٧٦/٤) ولا شك فى أن المقصود بهذا بنو أمية ....

ثم يختم «ماكدونالد» كلامه عن الأحاديث النبوية بقوله : «ونستخلص مما تقدم أنه لاشك فى أن الأحاديث فى ذاتها لا تعتبر أساسا يمكننا أن نبنى عليه الحقائق التاريخية»(٢٦)

وليس «ماكدونالد» و «جولدزيهر» وحدهما فى هذا التهجم على السنة النبوية بقصد تشويهها والتشكيك فيها ، وإنما يشاركهما فى ذلك كثير من أعداء الإسلام من المستشرقين والمبشرين والصهيونيين .

وهو تهجم لا يقوم على دليل ولايستند إلى حجة ـ إلا إذا اعتبرت الأوهام والظنون من الحجج والبراهين .

ونستطيع أن نجمل الاتهامات التى وجهت إلى السنة النبوية فى الأمور التالية :

الادعاء بأن هناك أحاديث كثيرة لايمكن أن تكون قد صدرت عن النبى صلى الله عليه وسلم والإدعاء بأن محاولة وجود شيء في الحديث النبوي يمكن القطع.
بصحة نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم تاريخياً ، محاولة فاشلة .

الأدعاء بأن الفرق الإسلامية عندما اختلفت فى الآراء أخذ كل منها يضع لنفسه الأحاديث التى يؤيد بها رأيه .

---

(٢٦) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٥٦/٤ ـ ٢٥٧ .

الادعاء بأن الأحاديث النبوية ليست إلا سجلا للجدل الدينى فى القرون الأولى ، الأمر الذى يجعل لها من هذه الزاوية قيمة تاريخية على الرغم من أن هذا السجل مضطرب كثير الأغلاط التاريخية ملئ بالمعلومات المضللة التى لم تؤخذ من مصادرها الأولى .

وبحسبها أنها جميعا ادعاءات لم تستند إلى مايقنع من دليل أو برهان .

وبحسب الأمة الإسلامية أنها الوحيدة من بين الأمم التى عاشت على الأرض فى ماضى البشر وحاضرهم باذلةً من العناية فى حفظ أسانيدها مالم تبذله أمة أخرى ، يشهد بذلك التاريخ نفسه والمنصفون من المؤرخين . وكان بودى لو تعرضت لهذه الادعاءات فبددتها بالحق والبرهان ، وكان بودى لو عرضت لما هذى به «ماكدونالد» ومانفس به «جولد زيهر» عن أحقاده ، ولكن المجال هنا لايتسع للردود والمناقشات ـ ونحن بصدد رصد مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ـ ونكتفى هنا بأن نذكر ماعلق به أحد العلماء المسلمين الأفاضل على هذه المادة التى هذى بها «ماكدونالد» فى دائرة المعارف حيث يقول: «وقد عنى المسلمون بحفظ أسانيد شريعتهم من الكتاب والسنة بما لم تعن به أمة قبلهم ، فحفظوا القرآن ورووه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تواترا آية آية وكلمة كلمة وحرفا حرفا ، حفظا فى الصدور ، وإثباتا بالكتابة فى المصاحف حتى رووا أوجه نطقه بلهجات القبائل ، ورووا طرق رسمه فى المصحف ، وألفوا فى ذلك كتبا مطولة وافية ، وحفظ المسلمون أيضا عن نبيهم كل أقواله وأفعاله وأحواله ، وهو المبلغ عن ربه والمبين لشرعه والمأمور بإقامة دينه : وكل أقواله وأفعاله بيان للقرآن ، وهو الرسول المعصوم والأسوة الحسنة ، قال تعالى : «وماينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » (٥٣ : ٣ ، ٤) ، وقال تعالى : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون» ١٦ : ٤٤ ، وقال أيضا : «لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة» (٣٣ : ٢١) وكان عبدالله بن عمرو بن العاص يكتب كل شيئ يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهته قريش فذكر للرسول صلى الله عليه وسلم فقال : اكتب فوالذى نفسى بيده ماخرج منى إلا حق) ففهم المسلمون من كل هذا أنه يجب عليهم أن يحفظوا عن رسولهم كل شئ ، وقد فعلوا ، وأدوا الأمانة على وجهها ـ ورووا الأحاديث عنه بعضها متواتر إما

لفظاً ومعنى وإما معنى فقط ، وبعضها يعرف بالأحاديث الصحيحة الثابتة مما يسمى الحديث الصحيح والحديث الحسن ، ولم يحتجوا فى دينهم بغير هذه الأنواع التى لا يعارض فيها إلا جاحد أو مكابر ...»(٢٧)

ولعل فى بعض ذلك رد على «جولد زيهر» و «ماكدونالد» وأمثالهما من الحاقدين على الإسلام الراغبين فى تشويه مصدريه الأساسيين القرآن الكريم والسنة النبوية .

وإن السنة النبوية المطهرة لهى المفتاح الحقيقى الوحيد لفهم القرآن الكريم ، بل هى مفتاح الحضارة الإسلامية منذ أرسى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسس هذه الحضارة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وإن العمل بمقتضى السنة النبوية هو المحافظة الحقيقية على كيان الإسلام نفسه ، وهو فى الوقت نفسه إحياء لحضارة الإسلام التى شملت كل مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية الراشدة ، وعالجت كل مشكلة تعترض سير الإنسانية نحو رشدها وهداها .

وإن إهمال العمل بالسنة النبوية أو التساهل فى شئ منها زلزلة لكيان الإسلام وتقويض لصرح حضارته . وليس لأعداء الإسلام فى الحاضر من هدف أهم ولا أكبر من تشويه هذه السنة النبوية وتشكيك المسلمين فيها أو فى جدوى التمسك بها ، عن طريق تكذيبها أو رميها بالتناقض والتعارض أو التهوين من شأن العمل بها .

وإن آفة هذا العصر الذى نعيشه أن بعض الناس فيه يتعالمون بأن ينكروا صحة الأحاديث النبوية أكثرها جريا ـ غير واع ولا مدرك للنتائج ـ وراء ماروواه أعداء الإسلام ومازوروه ، ويتبع ذلك أن بعض الناس يسوّغون لأنفسهم ألا يعملوا بمقتضى هذه السنة بحجج واهية وتعلات هى المرض والضعف والتبعية .

---

(٢٧) دائرة المعارف الإسلامية : ٤ / ٢٧٤ ...

وإن أصابع أعداء الإسلام من مستشرقين وأذناب لهم ، ومن مبشرين وضالين بضلالهم ، ومن قوى أخرى خفية ودُمًى ضعيفة تتحرك بتحرك هذه القوى ، إن أصابع هؤلاء جميعاً تعبث وتزور وتفسد ، وتملأ نفوس السذج والتفهاء بالشك والإنكار .

وما نحب أن نقوله لهؤلاء الاتباع ومتبوعيهم ، أولئك الذين لايحسنون غير الإنكار والتكذيب والتشكيك ، هو أن يأتوا على مايدعون بدليل علمى منطقى ينفون به السنة النبوية المطهرة ، فإن عجزوا ـ وهم لابد عاجزون ـ قلنا لهم : إن أجيالا من هؤلاء المنكرين جاءت وراء أجيال ، ومجموعات من الحاقدين تلتها مجموعات ، مااستطاعوا مجتمعين ولا متفرقين أن يأتوا فى مجال إنكار السنة النبوية بشئ يستحق المناقشة فى فترة من فترات تاريخ حقدهم الطويل .

وإذا كان الجامعون لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الزمن الباكر ، والجامعون لكتب الحديث النبوى الأولى ، مثل الإمامين البخارى ومسلم ، قد قاموا فى هذا المجال ـ مجال الدقة والتحرى والتثبت من كل حديث ومن كل راو ـ بما يعد صورة فريدة من نوعها فى تاريخ الإنسانية كله ، لم تعرف له أمة من الأمم نظيرا فى حفظها لتراثها ـ فإن فى ذلك مايخرس ألسنة المتقولين ومايرد كيدهم .

ويكفى للدلالة على ضخامة الجهود التى بذلت فى هذا السبيل أن نشأ علم ذو قواعد وأصول هدفه الوحيد أن يبحث فى متن الأحاديث وسندها ، وفى أحوال الرواة وشروطهم ، ومايوصفون به من صفات الجرح والتعديل ، وإن نظرة عابرة إلى تلك المواصفات التى اشترطت فى رواة الأحاديث لتقنع الجاحد قبل غيره بأن الثقة فى السنة النبوية ثقة بغير حدود .

وإذا كانت الحجج قد قامت على صحة الأحاديث النبوية فإن هؤلاء المنكرين المبطلين مطالبون بأن ينقضوا هذه الحجج أولا، ثم يؤكدوا مزاعمهم بأدلة وبراهين، وما هم بمستطيعين هذا، ولا هم بقادرين على ذلك، وقد غبروا في هذه المحاولات السنين وراء السنين، وتطاول زمن الحقد بهم فعجزوا وراحوا يتخبطون في، غير هدى.

لكنها الرغبة الملحة فى تشويه مصدر كبير من مصدرى الإسلام هو السنة النبوية المطهرة ، كى لايواجهوا من جديد بأجيال من المسلمين تحسن التمسك بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم فتحسن بها الحياة وتحسن الانتصار فى المعارك ، وتحسن إقامة الحق والميزان وزرع العدل والإحسان فى البشرية كلها ، وهذا أخوف مايخافه أعداء البشرية أعداء الإسلام ، إذ به تذهب ريحهم وتضيع أرباحهم .

٣ ـ محاولة تشويه شخص الرسول صلى الله عليه وسلم

وهى محاولات قديمة حديثة مستمرة ، يمارسها أعداء الإسلام برغبة وشوق ويرون فى التهجم على المعصوم صلى الله عليه وسلم والنيل منه جزءًا من خطة كبيرة تستهدف تشويه الإسلام وعزله عن حياة المسلمين بخاصة والناس بعامة ، لتحل محله الفكر الغربى والحضارة الغربية ، والشخصيات الغربية ذات الشهرة عندهم .

وفيما سلف من البحث رأينا أعداء الإسلام وخصومه شكولا وألوانا ، صهيونيين ومبشرين ومستشرقين واستعماريين ، ورأينا محاولاتهم فى تشويه الإسلام تتجه بالدرجة الأولى إلى القرآن الكريم وسنة المعصوم صلى الله عليه وسلم ، ونحن هنا بصدد عدد من الأعداء يحاولون النيل من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، بقصد تنفير الناس من الإسلام وجذب بعض ضعاف المسلمين إلى غير الإسلام ، لذلك يكرسون جهودهم لاختراع التهم واصطناع الأباطيل يلصقونها بالإسلام وبمحمد المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء الاعداء عدد عديد نعرفهم من لحن القول ونستدل عليهم من بحوثهم ودراساتهم التى يطنطنون بها حينا ويطنطن لهم بها ـ من أسف ـ بعض المسلمين فى أحيان كثيرة .

ولا أحب أن يفوتنى فى هذا المجال أن أسرد أسماء بعض هؤلاء الأعداء الحاقدين وأن أشير إلى بعض كتبهم وبحوثهم التى هاجموا فيها الإسلام ومحمدا صلى الله عليه وسلم .

وإنما يدفعنى إلى ذلك رغبة شديدة فى أن تتعرف أجيال المسلمين على أعداء دينهم وأعداء رسولهم صلى الله عليه وسلم ، حتى لاينخدعوا فيهم كما أنخدع أسلافهم ، ولكى لاتكون لهؤلاء الأعداء ولا لبحوثهم تلك المكانة التى يتمتعون بها الآن .

من هؤلاء الأعداء الحاقدين على الإسلام وعلى النبى محمد صلى الله عليه وسلم :

١ - وليم موير : W . Muir فى كتابه : حياة محمد

٢ - هنرى لامنس اليسوعى : H . Lammens فى كتابه : الإسلام .

وقد بلغ من حقد هذا الرجل على الإسلام أن تخبط فيما يكتب إلى الحد الذى أزعج بعض المستشرقين أنفسهم .

٣ - ألفرد جيوم : A. Geom فى كتابه الإسلام .

٤ - صمويل زويمر : S . Zwimer فى كتابه الإسلام (تحد لعقيدة) .

٥ - كنيثكراج : K . cragg فى كتابه : دعوة المئذنة .

٦ - أ.ج. أربرى : *A. Arpry*، فى كتابه : الإسلام اليوم .

٧ - جولد زيهر : *Goldzihar* فى كتابه : تاريخ مذاهب التفسير الإسلامى .

٨ - هـ . أ. ر . جب : H.A.R . *gibb* فى كتبه :

أ - طريق الإسلام .

ب الاتجاهات الحديثة فى الإسلام .

جـ - المذهب المحمدى .

د - الإسلام والمجتمع الغربى .

٩ - أ . ج . فينسنك A.J . Vensink فى كتابه المستشرقون والإسلام .

١٠ - د . س . مرجليوث : D.S. Morgoliuth فى كتبه :

أ - محمد ومطلع الإسلام .

ب - التطورات المبكرة فى الإسلام .

جـ - الجامعة الإسلامية .

د - قنطرة إلى الإسلام .

١١ - ج . فون . جرونبام G. Von . *Grunbaum* فى كتبه :

أ - إسلام العصور الوسطى .

ب - الإسلام .

جـ - الأعياد المحمدية .

د ـ الوحدة والتنوع والحضارة الإسلامية .

هـ ـ دراسات فى تاريخ الثقافة الإسلامية .

١٢ ـ د . ب . ماكدونالد : D . B . Macdonal فى كتابه : تطور علم الكلام والفقه والنظرية الدستورية فى الإسلام .

١٣ ـ ر.أ. نيكسلون : R.A. Nicholson فى كتابه : متصوفو الإسلام .

١٤ ـ ر . بل : R. Bell فى كتابه :

أ ـ أصول الإسلام فى بيئته المسيحية :

ب ـ مقدمة القرآن .

١٥ ـ آثر جيفرى : Arther . Jaffry فى كتابه : مصادر تاريخ القرآن .

١٦ ـ يوسف شاخت : J. Shaeht فى كتابه : أصول الفقه الإسلامى .

١٧ ـ آرنولد توينبي: A . Toynbee فى كتابه : دراسة فى التاريخ ـ القسم الخاص منه بالإسلام وبمحمد صلى الله عليه وسلم .

١٨ ـ فيليب حتى : P.H. Hitti ـ وهو مسيحى لبنانى فى كتابه : تاريخ العرب ، وفيه تجن عنيف على شخص الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

١٩ ـ مجيد خورى : وهو مسيحى عراقى ، فى كتابه : الحرب والسلام فى الإسلام .

٢٠ ـ ابراهام كاش : فى كتابه : اليهودية فى الإسلام .

٢١ ـ إدوارد فرمان : E. Ferman فى كتابه : تاريخ المسلمين وفتوحاتهم .

٢٢ ـ ج.س. آرثر :G.S.Arther فى كتابه : العناصر الصوفية فى محمد .

٢٣ ـ ر. بلاشير : R. Blacher فى كتابه : مقدمة القرآن

٢٤ ـ سنوك هورج رونجه: Snouk . *Horgronje* فى كتابه : الإسلام .

ولو أردنا الإحصاء أو الاستقصاء لما وسعتنا صفحات هذا البحث .

وكل هؤلاء حاولواتشويه الإسلام ونالوا من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فيما كتبوا ، وافتاتوا على الحق وموهوا وملأوا الدنيا ضجيجا بأصوات الباطل وهراء الجاهلين وسموم الحاقدين ، وغيرهم ممن شاركهم هذا العمل الخبيث كثيرون .

ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء وأترابهم عددا غير قليل من المسلمين ـ مع بالغ الأسف ـ الذين سخروا أقلامهم وكتبهم لترديد مايقوله هؤلاء الأعداء جريا وراء السراب الخادع من مجد ينالون أو مكانة ، أو رعاية لحق الأستاذ على تلميذه الضائع العليل .

فإذا أضفنا إلى هؤلاء وأولئك عددا آخر من الملاحدة والمارقين ، والماديين والصهيونيين رأينا ، كم تشوه صور الإسلام وصورة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وإذا وضعنا فى الأعتبار أن عددا كبيرا من المستعمرين وأتباعهم وأذنابهم أصحاب مصالح مباشرة فى حرب الإسلام وتشويهه ، أدركنا عمق المحاولات وتعدد أنواع القائمين عليها .

وإذا لحظنا أن الصهيونية العالمية تخطط منذ زمان غير قصير لحرب الأديان جميعا وبخاصة الإسلام ، وتعمل جاهدة على تحطيم القيم الخلقية وبخاصة القيم الخلقية الإسلامية ، عرفنا إلى أى مدى يتعرض الإسلام لحملات التشويه ، وإلى أى مدى يفترى على المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وبعد : فما أثقل على النفس من نقل تلك التهم الباطلة التى وجهت إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكن ضرورة البحث تتطلب منى بعض الإشارات الدالة .

أهم ماهاجموا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تكذيبه فى الوحى الذى أوحاه الله اليه ، وترتب على هذا التكذيب دعواهم الباطلة بأن محمدا صلى الله عليه وسلم قد ألف القرآن الكريم من عند نفسه .

ولقد تخبط هؤلاء الأعداء فى الحديث عن الوحى إلى الحد الذى يدعو إلى الدهشة ويثير الحيرة والتساؤل .

هذا هو نولد كه يقول عن الوحى : «إن سبب الوحى النازل على محمد (صلى الله عليه وسلم) والدعوة التى قام بها هو ماكان ينتابه من داء الصراع(٢٨)

---

(٢٨) لوثروب ستودارد : حاضر العالم الإسلامى : ٣٤/١ ترجمة عجاج نويهض

وهذا هو كارل بروكلمان ـ المستشرق المحظوظ بين المسلمين ـ يقول عن محمد صلى الله عليه وسلم : «وأستخدم محمد فى دعوته أساليب الكاهن ، كما عزا ـ على فراره ـ أحوال غيبوبته وما يصدر فى هذه الأحوال من تصريحاته إلى رفيق ذكر فيما بعد أنه الملك جبريل ـ واعتقد أنه رسول الله إليه »(٢٩)

ثم يقول فى موضوع آخر من كتابه : تاريخ الأدب العربى : «كان النبى (صلى الله عليه وسلم) فى أقدم مراحل دعوته الدينية يطلق مايدور بخلده وهو صادق الاستقرار والغيبوبة فى جمل مؤثرة يغلب عليها التقطع والإيجاز وتأخذ طابع سجع الكهان ، واحتفظ النبى (صلى الله عليه وسلم) أيضا بهذا القالب الكلامى بعد ذلك حينما أخذ ينتقل باطراد من طبيعة الغائب المستغرق إلى طبيعة الداعية الواعظ ، فكان يتلو فى جمل أطول من الأولى تحذيراته وتعليماته التى حفلت كثيرا بالقصص من العهد القديم ومن الهجادة»(٣٠)

وأما مارجليوت : « وهو أخبث المستشرقين وأشدهم بغضا لمحمد ، وهو الذى أعتمد عليه الدكتور طه حسين فى النظرية الساقطة بأن شعر الجاهلية موضوع بعد الإسلام ـ فإنه يقول : إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس سرية أشبه بالمحافل الماسونية ، وعلامات يتعارف بها مع أصحابه ، وكانوا يرخون عذبة العمامة فوق مناكبهم ...»(٣١)

ومما هاجم به : هـ . ج . ويلز : الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قوله : «بيد أن من الضرورى أن نذكر حادثة واحدة محيرة فى حياة النبى الجديد ، يقول عنها السير ماكس سيكس : (إنها تثبت أنه كان عربيا صميما) فإنه بعد كل إصراره على وحدانية الله ، قد داخله التردد ، فأتى ساحة الكعبة وأعلن أن أرباب وربات مكة قد تكون قبل

---

(٢٩) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى : ١٣٤/١ . ترجمة : عبدالحليم النجار .

(٣٠) السابق : ١٣٧/١ .

(٣١) لوثروب ستووارد : حاضر العالم الإسلامى : ترجمة عجاج نويهض وتعليق المرحوم : شكيب أرسلان .

كل شئ حقيقة ، وقد تكون فصيلة من القديسين ممن لهم قوة الشفاعة ، فلقى تراجعه حمية وحماسة ولكنه لم يكد يتم قوله حتى أخذه الندم ، وذلك يدل على أن الخوف من الله كان ولا جَرَم يملأ قلبه ، فما بدر منه فى الأمانة دليل على أنه أمين ، ومن ثم فعل كل مافى وسعه لإصلاح مافرط منه ، فقال : إن الشيطان تلبس لسانه ، ثم أخذ يسب عبادة الأصنام بقوة وعزم مجددين ، وبذلك تجدد الكفاح ضد الآلهة العتيقة بعد فترة سلام وجيزة على صورة أشد وأعنف ودون أى أمل آخر فى الصلح »(٣٢)

وهذا لا منس اليسوعى يقول عن الرسول صلى الله عليه وسلم : «إن محمدا كان كثير الطعام والشره مسترسلا فى اللذات البدنية» وزعم أن النبى (صلى الله عليه وسلم) مات بالبطنة .

ولا أجد أروع فى فضح لامنس وإظهار نواياه الخبيثة وأحقاده الدفينة من قول مستشرق آخرفيه ـ وهو المستشرق «رينه» : «إن لامنس اليسوعى فى أول كتابه عن محمد صاح متأوها من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التى كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله فى الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة من جميع أجناس البشر، واستتبابه إلى يوم الناس هذا ينمو وينتشر فى أفريقية وآسية بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين فلذلك عزم لامنس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن يصرع الإسلام الا أن حالة عقلية كهذه ـ كما يقول رينيه ـ لا تلتئم مع بحث علمى مبنى على تجرد محض من الهوى ومنزه عن البغض»(٣٣)

هكذا يكتبون عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وهكذا يحاولون تشويه شخصيته باتهامه بهذه التهم الحاقدة الكاذبة ، وكل مايقولون باطل باطل ، ولا نحتاج هنا إلى أن نرد عليه ، فقد توفر على الرد عليه بعض علماء المسلمين ، وبعض المستشرقين أنفسهم .

---

(٣٢) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٦٢٩/٣ ـ ٦٣٠ .
(٣٣) السابق : ٣٦/١ .

وليس فيما قالوه عن النبى صلى الله عليه وسلم من تهم وأباطيل شئ يستطيع أن يقف على قدمين فضلا على أن يواجه بنقد ورد واقناع .

وليس من شأننا فى هذا البحث الذى نرصد فيه مظاهر الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ومؤسساته ووسائله أن نعنى بالردود والمناقشات لهذه الأباطيل ، وإنما يكفينا هنا أن نكشف عن مخططات الغزو الفكرى للمسلمين ،وتيارات العداء التى تستهدف تشويه صورة الإسلام المشرقة المضيئة القادرة على نقل الناس كل الناس من الضلال إلى الهدى ، وتشويه شخص الرسول صلى الله عليه وسلم الذى استطاع أن يصل بدعوته فى زمن قصير إلى أسماع كسرى وقيصر ، والذى استطاع برجاله الذين رباهم على الإسلام أن يصل بهذا الدين إلى أوسع مدى ينتشر فيه فى أقل من قرن واحد من الزمان .

والهدف الواضح وهو عزل المسلمين اليوم عن هذا الدين الإيجابى الممتد فى البشرية بأحسن مبدأ وأشمل منهج وأكمل نظام ، حتى لاتعود للمسلمين المكانة التى كانت لهم فى الماضى والتى يمكن أن تكون لهم فى الحاضر والمستقبل ..

٤ ـ محاولة تشويه التاريخ الإسلامى

إن محاولة غزو المسلمين عن طريق تشويه التاريخ الإسلامى عمل على جانب كبير من الأهمية لدى أعداء الإسلام وخصومه يجندون له من الطاقات والإمكانات مايمكن أن نتصوره ومالا يخطر لنا على بال .

إن حشداً هائلا من العلماء والمتعالمين ، وأصحاب دور النشر والصحف فى هذا العصر الذى نعيشه يقفون دائما على أتم الأستعداد للقيام بأعمال التشويه والتزييف لكثير من حقائق التاريخ الإسلامى فمنذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإلى الآن مروراً بمختلف العصور التاريخية للمسلمين .

ولدى الآن سطور قليلة تدل على رغبتهم القوية فى تشويه التاريخ الإسلامى ، جمعتها من كتاب : معالم تاريخ الإنسانية لـ : هـ.ج. ويلز ـ ذلك الكتاب الذى لقى من القبول فى العالمين العربى والإسلامى مالم يلقه كتاب آخر ، كما كان من حظ مؤلفه أن أعجب به عدد غير قليل من الكتاب والأدباء ، يقول ويلز : «ولا يقوم أقل شك فى أنه : إن كان محمد هو ذهن الإسلام البدائى وخياله ، فقد كان أبوضميره وإرادته ، ففى كل حياتهم معا كان محمد هو الذى يقول الشيء فيؤمن به أبو بكر أوثق الإيمان وأمتنه ، فإذا تردد محمد أسنده أبوبكر»(٣٤) .

وليس خفيا مايحاوله هـ.ج. ويلز من تشويه لتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وتاريخ الصديق أبى بكر رضى الله عنه .

ولم يقف المؤلف عند هذا الحد ، وإنما تناول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى أسلوب خبيث لا ينطلى على غير التفهاء فهو يمدح خالدا ليذم عمر رضى الله عنهما ، يقول :

---

(٣٤) هـ . ج . ويلز : معالم تاريخ الإنسانية : ٦٤٣/٣ ترجمة عبدالعزيز جاويد القاهرة ١٩٤٧ م .

«ويبرز أسم خالد بن الوليد أزكى نجم وأسطعه فى مجموعة من القواد المسلمين المقتدرين الأتقياء ، فحيثما حل قائد الجيش انتصر ، ولما أن خلعته غيرة الخليفة عمر بن الخطاب ظلما منه لايغتفر، لم يحدث أية ضجة ، بل خدم الله فى سرور وإخلاص تحت إمرة الذين كان كبيرا عليهم»(٣٥)

وعن خالد نفسه ينقل ويلز عن : «سكوارتز» فى تاريخ العالم (هملوت) إن حياة ذلك البطل الخاصة كانت تنطوى على وصمة ، فإنه ارتكب الفسق وهى خطيئة فى مجتمع يبيح كثرة الزوجات»(٣٦)

هكذا يحاول ويلز أن يشوه تاريخ عمر وتاريخ خالد وتاريخ الإسلام كله ، ذلك أن كلمته : «ارتكب الفسق فى مجتمع يبيح كثرة الزوجات» كلمة خبيثة تشوه خالدا رضى الله عنه، وتشوه الإسلام نفسه، لأنها توحي بأن الفسق ليس خطيئة في مجتمع لا يبيح تعدد الزوجات، مع أن الفسق خطيئة في كل مجتمع، فضلا عن حرمته في كل دين.

ويعود المؤلف ليجمع بين أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم فيقول : «فإن أبا بكر الخليفة الأول انتخب فى المدينة للخلافة بطريقة تصايحية غير رسمية ، وهكذا كان شأن عمر بن الخطاب وعثمان الخليفة الثالث ، على أن ثلاثتهم كانوا مكيين من أسر عريقة ، ولم يكونوا من رجال المدينة ، ومع أن أبا بكر وعمر كانا رجلى بساطة متقشفة مطلقة واستقامة فقد كان عثمان أدنى منهما مرتبة وهو رجل من طبقة المترفين ومن طراز أصحاب الثياب الحريرية التى لم يكن الغزو لديهما من أجل الله ، بل من أجل بلاد العرب ، وبخاصة من أجل مكة ببلاد العرب ، وبالأخص لنفسه وللمكيين وعائلته بنى أمية ، كان رجلا ذا مكانة ، نصب نفسه لخدمة وطنه وبلدته وقومه ، ولم يسلم مبكرا كما فعل سلفاه ، وأنضم إلى النبى لأسباب سياسية فى عملية أخذ وعطاء عادلة ، وبتوليته يكف الخليفة عن أن يكون رجلا عجيبا له ذاتية مدهشة متوقدة ، ويصبح ملكا شريكا لكثير من الملوك الشرقيين من قبل ومن بعد ، ملكا لابأس به إذا قيس بالمعايير الشرقية حتى ذلك الحين ولكنه لايزيد على ذلك شيئا»(٣٧)

---

(٣٥) السابق : ٦٤٣/٣ . (٣٦) السابق : ٦٤٣/٣ . (٣٧) السابق : ٦٥٠/٣ - ٦٥١

وليس تضليل هـ . ج . ويلز فى حديثه عن الخليفة الثالث رضى الله عنه خافيا على أحد له أدنى علم بالتاريخ ، فلم ينتخب أبوبكر رضى الله عنه بطريقة تصايحية ولا عمر انتخب بها ولا عثمان رضى الله عنهم .

ولم يكن عثمان من طراز أصحاب الثياب الحريرية الذين لايجاهدون من أجل الله وإنما من أجل البلاد والقوميات والقبائل ، وليس صحيحا أن عثمان أسلم بعد إسلام عمر ولا أنه انضم إلى النبى لأسباب سياسية تقوم على الأخذ والعطاء ، ولم يكن رضى الله عنه ملكا ولا شبه ملك .... هكذا يتحدث «ويلز» عن تاريخ المسلمين .

وحديث ويلز عن الإسلام نفسه ينفث خطرا وسماً وحقدا وضيقا بانتشار الإسلام بهذه السرعة فى الناس ، حيث يعزو سرعة إنتشاره إلى أسباب عجيبة لايقوم عليها دليل ولا برهان ولا يسندها منطق ، يقول فى ذلك ويلز : «فإن الإسلام ساد لأنه خير نظام اجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد أنتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوبا بليدة سياسيا ، تسلب وتظلم وتخوف ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب أصالة ...(٣٨)

وإن العناوين التى يختارها هؤلاء الباحثون فيما يكتبون لتدل بحق على حقدهم وتعصبهم ، وعلى سبيل المثال فإن هـ.ج. ويلز عندما يتحدث عن تراجع بعض الحكام العباسيين عن الإسلام وبالتالى يلحظ ضعف هؤلاء الحكام وانحلال حكمهم أو ملكهم ، يختار ويلز لذلك عنوانا يقطر حقداً وبطلانا إذ يقول عن ذلك : «انحلال قوة الإسلام فى ظل العباسيين» (٣٩) وأبسط الناس ذكاء وإدراكا يعرفون أن الأنحلال ليس للإسلام وإنما لبعض الحكام المسلمين ، والفرق بين التعبيرين شاسع ، وإلا لجاز لنا ـ قياسا على هذا الفهم العاجز القاصر ـ أن نقول عن المسيحية ـ وهى شريعة من عند الله حرَّفَها بعض الناس فخرجوا بها عما أنزله الله على عبده ورسوله المسيح عيسى بن مريم ، جاز لنا أن نقول : «إشراك المسيحية أو كفر المسيحية أو ضلال المسيحية» وهذا خطأ كخطأ ويلز

---

(٣٨) السابق : ٦٤٥/٣ .

(٣٩) السابق : ٦٥٨/٣ .

«والصواب أن يقال : إشراك بعض المسيحيين أو كفرهم أو ضلالهم ، ونعود فنقول : إن الفرق بين التعبيرين لا يحتاج إلى ذكاء شديد ولا إلى علم غزير يضفيه بعض الناس على «ويلز» .

هذه لمحة خاطفة عن محاولة أعداء الإسلام تشويه تاريخ المسلمين فى العصور الباكرة من تاريخ الإسلام ، نقلتها عن كتاب واحد من بين عشرات الكتب ومئات البحوث التى أشرت إليها فى مستهل هذا الفصل من البحث .

وهى لمحة دالة أكبر الدلالة على مايضمر هؤلاء الأعداء للإسلام من حقد وكراهية ومايدبرون من مكايد ومايرغبون فيه من شن أعتى الحملات التخريبية على الإسلام .

فإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الفترة الزمنية التى عنينا بأن نرصدها فى هذا البحث ، وهى مايقرب من قرنين قبل هذا الزمن الذى نعيشه الآن ١٣٩٦ هـ .

أهم مايعنينا أن نتحدث عنه فى مجال تشويه التاريخ الخاص بالمسلمين هو تاريخ الدولة العثمانية ، وبعض البلدان الإسلامية الأخرى ـ كفارس وأفغانستان ومصر والشمال الإفريقى المسلم ، والسودان وشبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا وفلسطين وشرق الأردن تلك الأقطار التى كانت فى ركب الدولة العثمانية أو تابعة لها .

هذه الدولة العثمانية التى حققت انتصارات للمسلمين على الأوروبين ، وبسطت سلطانها ونفوذها على معظم بلدان العالم الإسلامى وعلى جزء كبير من أوروبا ، وكانت شجى فى حلوق أعداء الإسلام ـ هى بغير شك لم تكن الدولة الإسلامية الملتزمة بكل ماجاء به الإسلام من نظم سياسية واقتصادية واجتماعية ، شأنها فى ذلك شأن أى دولة قامت بين المسلمين ، لها حسناتها وفيها سيئاتها ، وهى ـ كذلك لاينبغى أن تحسب كل أعمالها وسياساتها على أنها النمط الإسلامى لسلوك الدولة فى الإسلام ـ كما يحاول الأعداء دائما أن يربطوا بين هذا وذاك ـ إذ من الخطأ الكبير ـ كما أسلفنا غير مرة ـ أن تحسب أخطاء المسلمين على الإسلام نفسه .

ومن الحقائق الأولية التى يعرفها أى دارس لتاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها حوالى منتصف القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ـ وإلى أن تحالفت ضدها دول أوروبا أغلبها وعملت جاهدة على إسقاطها والقضاء عليها ، هى أن هذه الدولة أستطاعت أن تلم شعث المسلمين وأن تجعل منهم قوة ، بيد أن الخلافات والصراعات قد دبت بين حكامهم فترات غير قصيرة من الزمان ، ومن عجب أن كل عمل مخالف للإسلام قام به بعض حكام هذه الدولة لقى ترحيبا شديدا من أعداء الأمة الإسلامية مبشرين ومستشرقين ، وأن كل عمل موافق لمنهج الإسلام فى الحياة قام به بعض هؤلاء الحكام قد لقى من هؤلاء الأعداء تهجما ونقدا مرا ، وذلك شأن أعداء الإسلام مع المسلمين يدركون تماما أن تمسك المسلمين بمنهج الإسلام خطرا أى خطر عليهم وعلى مخططاتهم المعادية للإسلام ، كما يدركون أن ابتعاد المسلمين عن منهج الإسلام فى الحياة وانفلاتهم من آدابه وأخلاقه هو الأمن والراحة والاستقرار لهؤلاء الأعداء .

وعلى سبيل المثال : فإن الدولة العثمانية فى زمن مبكر ، فكرت فى أن تضع قانونا تعالج فيه شئونا إدارية ثلاثة هى :

١ ـ السكة (العملة أو النقد)

٢ ـ اللباس والزى

٣ ـ الجيش

وهى من الأمور الجزئية التفصيلية التى يجوز للحاكم فى الإسلام أن يتخذ لها من النظم مايلائمها بحيث لا يخالف شيئا من الكتاب والسنة ، على الرغم من أن هذه المحاولات فى وضع هذه القوانين لا يدل ابدا على خروج الدولة عن مصدرى الشريعة الأساسيين وهما الكتاب والسنة ، إلا أن بعض المستشرقين يرون فى هذه المحاولة فرصة يتهجمون فيها على الكتاب والسنة ، ويزعمون أنهما غير كافيين لتنظيم الحياة ولا شاملين لمتطلباتها ، فيقلبون بذلك الأمور ، وبدلا من أن يوجهوا النقد لأسلوب التطبيق إذ بهم يوجهونه إلى الشريعة الإسلامية نفسها .

وهذا هو المستشرق : كارل بروكلمان ـ وهو مَنْ هو فى نظر الباحثين والدارسين مسلمين وغير مسلمين ـ يقول فى كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» مايعد تهجما على

القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، يقول : «وكان المفروض فى قانون المملكة الشرعى أن يستند ـ نظريا على الأقل ـ إلى التشريع الإلهى الذى جاء به القرآن ، وإلى السنة كما تصورها أحاديث النبى (صلى الله عليه وسلم) الشفهية ليس غير .... ومهما يكن من شئ ، فلما كان هذان المصدران أنفسهما لايحيطان بمشكلات الحياة كلها ، هذه الحياة التى تعقدت أكثر من ذى قبل ، والتى أنتهت إلى أن تنهض على أسس أقتصادية تغاير الأسس القديمة بالكلية ، فقد تعين على الدولة أن تعترف ـ علاوة على الشرع الإلهى بقانون جديد يقوم على دعائم زمنية خالصة ، ذلك بأن هذا الشرع الالهى كان حتى ذلك الوقت أصلب من أن يجروء أحد على تكييفه وفقا للأحوال الجديدة ... وهكذا نشأ القانون عند العثمانيين»(٤٠)

وهكذا ينتهز بروكلمان هذه الفرصة ليهجم على الإسلام ويتهمه بالجمود ويرحب بهذا الجمود ، ويفترى على الله الكذب حين يزعم أن الشرع الالهى غير مستوعب لمشكلات الحياة .

ولم يكن بروكلمان وحده فى هذا التهجم والاتهام ، وإنما يشاركه فى ذلك كثير من الأعداء مبشرين ومستشرقين .

ولا تستطيع أوروبا أنت ترى الدولة العثمانية منتصرة فى حروبها حتى تتجمع وتتحالف لتقف فى وجه هذه الانتصارات ، فما إن تتوالى انتصارات الدولة العثمانية فى القرن الثامن الهجرى حتى يعلن البابا بونيفاسيوس التاسع حربا صليبية ضد المسلمين يحشد لها ويدعو إليها ، فيتجمع جيش كبير قوامه عساكر البلدان الأوروبية الغربية بقيادة «سيجموند» ملك المجر ، غير أن جيوش بايزيد استطاعت أن ترد هذا الكيد وأن تقضى على هذا الجيش عند نيقوبوليس فى السابع والعشرين من أيلول سنة ١٣٩٦ م .

وقد اتخذ أعداء الإسلام من التهجم والحقد على الدولة العثمانية فرصة للتهجم على الإسلام نفسه ، وفرصة لمؤاخذة الإسلام نفسه على كل خطأ ارتكبه حاكم مسلم ، حتى

---

(٤٠) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ٤١١ ترجمة : منير البعلبكى وآخر .

عندما يهمل العثمانيون التبحر فى العلم والبحث والاختراع ، ويكتفون بالاتباع والتقليد يَعُدّ الأعداء هذا الخطأ خطأ فى الإسلام نفسه هذا مايردده كارل بروكلمان ـ الحجة الثقة فى نظر كثيرين من المسلمين ـ حيث يقول : «كانت حياة العثمانين العلمية خلوا أو تكاد من الأصالة والإبداع، فهى تتخذ سبيلها فى مجارى التقليد والاتباع الثابتة ، ذلك أن العلم لم يكن يعنى عند المسلم(!!!) اكتساب معرفة جديدة بل التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التى أنتجتها الأجيال السالفة ...»(٤١)

وهذا باطل ليس كمثله باطل ، فَمَنْ ذلك الذى استقصى طبيعة كل مسلم وفحص نظرته إلى العلم ، حتى يخرج علينا بهذه المجازفة الصارخة والافتيات الحاقد عندما يقرر أن العلم لم يكن عند المسلم اكتساب معرفة جديدة؟ وأين يذهب بروكلمان ، بالبحوث والمكتشفات العلمية التى ابتكرتها عقول المسلمين والتى أعترف بها كثير من الأوروبيين أنفسهم ؟

ولم تزل دول أوروبا تعمل وتتحالف سرا وجهراً حتى استطاعت بوسائل عديدة أن تضعف الدولة العثمانية أوتنتقص من أطرافها ، وأن تؤلب عليها مزيدا من الأعداء وأن تدخل معها فى حرب سافرة ضارية حاقدة ففى كل بقعة مما كان تحت نفوذ الدولة العثمانية من أوروبا أو البلدان الإسلامية التى كانت تابعة للدولة العثمانية ، عملت أوروبا على أن تثير القلاقل وتورث الفتن ، وتساند الثورات وتغذى الخلافات ، حتى أستطاعت بهذه الوسائل الخبيثة والحرب القذرة أن تقلص نفوذ الدولة العثمانية من أوروبا من آسيا ومن مصر ومن غيرها من البلدان التى كانت تابعة لها ، فبعض هذه البلاد التى كانت تابعة للدولة العثمانية كانت تجد التشجيع من الدول الأوروبية عن الأنفصال عن الدولة العثمانية ، وبعضها كانت تقتنصه إحدى دول أوروبا المستعمرة ، ونستطيع القول بأن انجلترا وفرنسا وإيطاليا قد تقاسمت العالم العربى ، ومعظم العالم الإسلامى الذى انحسر عنه ظل الدولة العثمانية .

ثم كانت الخاتمة بتلك المؤامرة التى حيكت لتقضى على دولة الخلافة قضاء كاملا

(٤١) السابق : ٤٨٢ .

على يد مصطفى كمال عندما أعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٣ م وانتخب رئيسا لها ، وقد غمرت الفرحة الأوروبيين عموما ، وأعداء الإسلام على وجه الخصوص إذ وجدوا ثمرة غرسهم قد نضجت وحان قطافها ، من أجل هذا لا تجد كاتبا أوروبيا مؤخرا أو غير مؤرخ إلا هو يثنى على مصطفى كمال ويشيد بأعماله الجليلة .

يقول فى ذلك «كارل بروكلمان» : «وطن مصطفى كمال نفسه على أن يسير بالدولة التى أنشأها فى طريق الحضارة الأوروبية ، وهى طريق تقتضى السائر فيها أن لايقف ليلقى أيما نظرة إلى الماضى الإسلامى ، لأن مثل هذا النظر خليق بأن يعوق صاحبه على بلوغ الغاية»(٤٢)

ولم يكن أحلى فى مسمع أعداء الإسلام ولا أحسن وقعا فى قلوبهم من أنباء مصطفى كمال الذى تنكر للإسلام بعد أن جمع الناس حول مايدعو إليه بالإسلام نفسه ، والذى أحل كل أوروبى غربى محل كل ماهو إسلامى ، ولنستمع إلى كارل بروكلمان وهو منتش بهذه الأنباء يسجلها وكله زهو بمصطفى كمال حيث يقول : «هذه الثورة التى كان على الأتراك أن يواصلوا استئصال خلاياها المفردة من طريق المحاكم الاستثنائية (بقصد ثورة الأكراد التى قامت أحتجاجا على إلغاء الحكم التركى للخلافة) حدت بحكومة مصطفى كمال إلى أن تخطو خطوات جديدة نحو صبغ الدولة بالصبغ المدنية - والواقع أن وزارة الأوقاف كانت قد ألغيت قبل ذلك فى الثانى من آزار سنة ١٩٢٤ م ، وفى يونيو سنة ١٩٢٥ م حرمت جميع الطرق الصوفية وفى سبتمبر من نفس العام أغلقت زوايا الدراويش جميعا ، وقضت الحكومة فى قسوة وعنف على كل نقد دينى لتدابيرها ، وفى سنة ١٩٣١ م وسنة ١٩٣٢ م ذهبت إلى أبعد من ذلك فحددت عدد المساجد ، ولم تسمح بغير واحد منها فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك خفضت عدد الواعظين الذين تدفع الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ ، وفرض عليهم أن لايقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا إليها فوائد علمية فيما يتصل بالشئون الزراعية أيضا ، وأوصدت أبواب جامعين من أشهر جوامع استنانبول فى وجه

---

(٤٢) السابق : ٦٩٥ .

المصلين ، لتحول أولها ـ أيا صوفيا إلى متحف وثانيهما مسجد الفاتح إلى مستودع ، أما القانون الدينى ـ الشريعة ـ الذى كان حتى ذلك الحين معمولا به فى صعيد العلاقات العائلية والزوجية فقد استبدل به قانون مدنى مستمد من القانون السويسرى ، وإنما أدى ذلك إلى القضاء نهائيا على تعدد الزوجات ...»(٤٣)

ثم يفيض السرور بل يطفح من بروكلمان وهو يتحدث عن أمله الذى تحقق ـ وهو اختفاء المنهج الإسلامى من حياة الناس فى تركيا ـ لتحل محله الأنظمة الغربية والمدنية الغربية ويسمى ماقام به مصطفى كمال من تشويه حياة المسلمين فى تركيا اقتباسا من الحضارة الأوربية ، فيقول : «واتخذت حركة أقتباس المدنية الغربية التى سعى إليها مصطفى كمال مظهرا خارجيا يرمز اليها فى قانون ٢٥ من نوفمبر ، الذى استبدل القبعة بلباس الرأس الوطنى السابق ـ الطربوش ـ وماهى إلا فترة حتى فرض اللباس الأوربى على طبقات الشعب جميعا ...

ولكن مصطفى كمال لم يكتف بتكييف شعبه هذا التكييف الخارجي وفقا لعادات الغرب ، بل طمع أن يشربهم روح أوروبية أيضا ، ولم يكن بد لبلوغ هذا الهدف من أطراح الأحرف العربية ...»(٤٤)

وهذا مايطمع فيه أعداء الإسلام ، أن تغزو المدنية الغربية أفكار المسلمين وأن تكون ملبسا لأجسامهم وغطاء لرؤوسهم وأن يشرب المسلمون روح المدنية الغربية وأن يصبح من الضرورى اطراح الأحرف العربية لغة القرآن الكريم .

هذا هو الغزو الفكرى وتلك هى التيارات المعادية للإسلام ، إن حرب اللغة العربية هدف كبير من أهداف أعدائنا لأن قتلها إبعاد للمسلمين عن القرآن الكريم أى إقصاؤهم عن سر نجاحهم وفلاحهم وهو تمسكهم بالإسلام ولنستمع مرة ثانية إلى حبيب الباحثين والدارسين من المسلمين ـ كارل بروكلمان ـ وهو سعيد سعادة غامرة باختفاء اللغة العربية

(٤٣) السابق : ٦٩٨ .
(٤٤) السابق : ٦٩٩ .

من أصوات المؤذنين بالصلوات حيث أمرهم الطاغية أن يرطنو الأذان بالتركية ، يسمى بروكلمان هذه الحماقة حرية فيقول : «ومن ذلك الحين صار المؤذنون أيضا يؤذنون للصلاة باللغة التركية ، ليس هذا فحسب بل إن الحرية الدينية أدت إلى أعتناق عدد من الأتراك النصرانية سنة ١٩٣٢ م ، وهو عمل كان القانون الإسلامى القديم يعاقب عليه بالقتل»(٤٥)

ويعود بروكلمان ليسجل إعجابه بتركيا التى تركت الإسلام فيتحدث عن الفنون والآداب فيها فيقول : «وفى هذه الحقبة ازدهرت الفنون فى سرعة تدعو إلى الدهش بفضل الرعاية النشطة التى أحاطها بها رئيس الجمهورية بعد أن كانت مهملة إهمالا كاملا ... ووضع النحاتون الألمان أيضا أول تماثيل أتاتورك ـ وهو شاهد على النزعة الثقافية الجديدة إلى التحرر من العداء الإسلامى القديم للتصوير فنصبت فى ميادين المدن الكبرى كلها ... أما الموسيقى فقد كان معروفا منذ وقت طويل أن رئيس الجمهورية مصمم على أن يقود شعبه نحو آفاق جديدة فى هذا الميدان أيضا ... وفى سنة ١٩٣٤ م أنشئت فى أنقرة مدرسة حديثة للموسيقى عهد فى إدارتها إلى «هندمث» و «برويتويرس» ابتغاء تكييف الموسيقى الغربية وتتريكها ... وفى ميدان الأدب كما فى ميدان الفن التجسيمى والتصويرى اتجه الأتراك وجهات جديدة خليقة بأن تنتهى بهم إلى مايبتغون من تكييف وثقافتهم وفقا للثقافة الغربية ..»(٤٦)

وليس أسوأ في التبجح والادعاء من أن يزعم بروكلمان أنه يستطيع التعبير عن مشاعر الشعب التركي وأنه يحس بإحساسهم ويعرف حاجاتهم إلى زعيمهم الوطني الوفي العظيم مصطفى كمال عندما علم الناس بنبأ وفاته، فكلفوا بروكلمان أن يعبر عن مشاعرهم وأحاسيسهم نحو هذا الزعيم العظيم، يقول بروكلمان في ذلك : «توفي أتاتورك في استانبول وشعبه في أمس الحاجة إليه، أثر مرض متطاول ، تاركا للأتراك دولة مصونة من الخارج مزدهرة في الداخل يدير شئونها رفيقه القديم عصمت إينونو بوصفه ثاني رئيس للجمهورية التركية..» (٤٧)

---

(٤٥) السابق : ٧٠٣ . (٤٦) السابق : ٧٠٤ . (٤٧) السابق : ٧١٠ .

ولست أدرى من الذين كانوا فى أمس الحاجة إلى مصطفى كمال الذى مسخ الشخصية الإسلامية فى تركيا وقضى على الشخصية التركية نفسها ؟ أهو الشعب التركى ؟ أم أعداء الإسلام ومنهم بروكلمان ؟

ولعل من يتأمل تاريخ الدولة العثمانية كيف كانت وكيف صارت يدرك بدقة بالغة إلى أى حد تقوم عمليات الغزو الفكرى بعمل جليل فى إقصاء المسلمين عن الإسلام وعزلهم عن المنهج الأوحد الملائم لفطرة الناس وحاجاتهم الدنيوية والآخروية .

وكذلك كان الشأن فى أغلب البلاد الإسلامية فى هذين القرنين الأخيرين اللذين سبقا الوقت الذى تعيشه الآن ، انحسرت الموجة الإسلامية لتحل محلها الموجات الأجنبية بعامة والغربية بخاصة .

ففى مصر ـ كما يقول بروكلمان ـ «لم تعد أقدارها بعد أحتلالها من قبل البريطانيين سنة ١٨٨٢ م مرتبطة بالأقدار المشتركة الخاصة بسائر الدول الإسلامية ... والحق أن مصر على ما اعترف بعض الوطنيين المصريين الحصفاء مدينة للإدارة البريطانية إلى حد بعيد جدا ... ولكن ثمة مجالا كبيرا للشك فيما إذا كان من الميسور أن يتحقق ازدهار البلاد وارتفاع مستوى سكانها الفكرى والمعنوى بمثل هذه السرعة التى تحققا بها فعلا لولا هذه الوصاية»(٤٨)

يقرر بروكلمان هذا متناسبا ـ فى موجة حقده على الإسلام ـ ماقام به الحاكم المتوحش المتبربر كرومر وسلفه الظالم السير إفلين يارنج ، ومن جاء بعدهما مثل اللورد لويد والسير جورشت وكتشنر وغيرهم ، يتناسى بروكلمان ماقام به أولئك المتوحشون من أعمال غير إنسانية ، يندى لها جبين الحضارة الغربية والمدنية والأوربية حيثما رسوا ضد شعب مصر أعمال العنف والتعذيب النفسى والجسدى والسخرة والظلم يتناسى الكاتب الحاقد ماقامت به بريطانيا من إعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ م وفرضها الأحكام العرفية وإعلانها

(٤٨) السابق : ٧١٢ .

الحرب على تركيا ، ويتجاهل كيف سلبت السلطة البريطانية الحكام المصريين كل سلطة لهم فى بلادهم ، وركزت كل تلك السلطات فى يد ظالم جلاد هو السير هنرى ماكماهون ، يتجاهل بروكلمان كل هذا لأنه يحقق له رغبته ورغبة أعداء الإسلام أمثاله فيشيد بموقف بريطانيا من مصر ذلك الموقف الذى أفادت منه مصر فى الإدارة .

وفى غير مصر من بلدان العالم الإسلامى كان الشأن كما كان فى تركيا ومصر حيث وجه أعداء الإسلام إلى البلدان الإسلامية حملات من الغزو الفكرى والتشويه لتاريخ المسلمين لإقصاء المسلمين عن دينهم ولتقربهم من الحضارة الغربية حيث يذوب كيان المسلم ويماع ويصبح تابعا ذليلا حائرا لا يدرى من أمر يومه ولا غده ولا من أمر دينه ودنياه شيئا .

٥ ـ محاولة تشويه نظام الحياة الإسلامية

بين يدى الحديث عن محاولات تشويه الحياة الإسلامية ، نحب أن نتحدث عن مفهوم «نظام الحياة الإسلامية» فى عبارة وجيزة ، وإنما رأينا ذلك من الضرورات لندفع به تهمة يوجهها أعداء الإسلام وأتباعهم من المسلمين أحيانا إلى الإسلام حيث يزعمون أنه لا يوجد نظام للحياة معروف فى الإسلام أو يزعمون أنه نظام غير صالح لكل زمان ومكان ـ إن اعترفوا بوجوده .

فما نظام الحياة المتكامل كما جاء به الإسلام ؟

نظام الحياة البشرية فى عمومه يتطلب مناهج شاملة متكاملة لمختلف شُعَب الحياة وأبرز هذه الشعب :ـ

أولا : التربية الخلقية والنظم التربوية أهدافها ووسائلها ومجالات تطبيقها وما يترتب عليها من بناء فكر الفرد وخلقه وسلوكه .

ثانيا : الأسس الحضارية وما تشتمل عليه من نظم إجتماعية وسياسية ومدنية عمرانية ينعكس أثرها على علاقات الناس بعضهم ببعض فى مجتمع تحكمه قيم أخلاقية معينة .

ثالثا : الأنظمة الأقتصادية التى تكفل إيجاد القواعد القوية المرنة للإنتاج ، والتى تكفل أحسن الصور لتوظيف هذا الإنتاج وتوزيعه وتداوله .

رابعا : السلطة السياسية التى يجب أن تقدم على تنفيذ هذه الخطط ، وتتخذ من أجلها أفضل الوسائل لضمان استمرارها وتكيفها مع حاجات المجتمع ومتغيراته المستمرة حتى لاتصاب واحدة من هذه الشعب بالجمود أو العجز عن الوفاء بمتطلبات الحياة الإنسانية. وإذا كانت هذه الشعب المختلفة عندما ينضم بعضها إلى بعض يمكن أن تشكل نظاماً عاماً للحياة أو قانوناً عاماً لها فإن المسلم به بين المجتمعات البشرية أن لهذا النظام أو القانون هدفاً أساسياً هو تحقيق السعادة وما تتطلبه من أمن واستقرار وعمل وأمل لأولئك الذين يطبق عليهم هذا النظام.

فما هو النظام الإسلامى للحياة فى ضوء هذه المسلمات ؟

إن هذه الشعب المختلفة التى تحدثنا عنها قد جاء بها الإسلام على أكمل صورة عرفتها البشرية من لدن كانت البشرية على الأرض ، وإذا كان فى كل شعبة من هذه الشعب التى وضعها الناس فى مختلف عصورهم وأزمانهم ، فيها نقص هنا وقصور هناك ، فإن هذه الشعب فى الإسلام ونظامه ، لم يعتورها شيىء من نقص ولا لامسها شىء من قصور لسبب واحد هو أن هذه الشعب المختلفة لنظم الحياة من وضع الله رب الناس للناس عبيده ومخلوقيه ، ومن هنا جاء كمال هذه الشعب فى النظام الإسلامى وجاءت ملاءمتها لفطرة الله التى فطر الله الناس عليها .

وأما مايثار حول هذه الشعب فى النظام الإسلامى من اعتراضات تتخذ من فصل هذه الشعب مستنداتها وأدلتها وتوجه من أجل هذا الفشل اتهامات للإسلام نفسه ، فإنها اعتراضات واهية ومستندات أوهى وأوهن من بيوت العنكبوت ، ذلك أن الخطأ فى التطبيق وأساليبه وليس فى النظرية والمبدأ .

وقد نجحت هذه الأنظمة فى فترات غير قصيرة من التاريخ فى أن تجعل من المسلمين خير أمة من الناس ، يوم أحسن المسلمون تطبيق هذه النظرية والأخذ بمبادىء هذه الشعب والتزموا بها كاملة غير منقوصة

أما عندما أخطأ المسلمون فى التطبيق أو أخذوا ببعض هذه المبادىء وتركوا بعضها فقد فشلوا فشلا ذريعا لا ينكره إلا مكابر .

وهذه الأنظمة أو تلك القوانين ـ كما يسميها بعض الناس ـ هى مايسمى فى الإسلام بالشريعة ، وشريعة الإسلام لها مصدر أصيل تنبع منه ـ هو القرآن والسنة . ولها غاية تسعى إلى تحقيقها ، ولها خصائص تميزها عن سواها .

فمصدر الشريعة الإسلامية هو كتاب الله وتفسيره المعتمد المؤيد بالوحى المعصوم

من الخطأ وهو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا المصدر العظيم قد طب فيه رب الناس للناس مايصلحهم فى الدنيا والآخرة ، وتكفل الرسول المعصوم صلى الله عليه وسلم بأن يفسر هذا المصدر بأقواله وأفعاله وسيرته التى سار بها فى الحياة ، وليس للشريعة الإسلامية من مصدر سوى هذا الكتاب وشرحه .

وأما غاية الشريعة الإسلامية التى تسعى إلى تحقيقها فهى إقامة المجتمع الإنسانى المؤمن بالله المسلم نفسه لشريعته ، القائم فى نظمه على المعروف المطهر من المنكر ـ والمعروف هو كل مايصلح الناس أى يلائم فطرهم السوية ، والمنكر هو مايضر الناس وينحرف بهذه الفطرة عن جادتها السوية ، وليس الخير والشر فى حقيقتهما إلا ذلك المعروف وذلك المنكر ـ على الصورة التى توافق الفطرة السوية فتسمى خيرا ، أو تخالفها وتنحرف بها فتسمى شرا .

وهذا المعروف فى نظر الشريعة أنواع ثلاثة :ـ

١ ـ معروف فرضته الشريعة على الناس وأوجبته إيجابا لا فكاك فيه إلا لضرورة ملحة ولا حياة نقية نافعة للمجتمع إلا به .

٢ ـ ومعروف جعلته الشريعة مندوبا أو مستحبا ، يتفاضل الناس فى الالتزام به ، وتعلو أقدارهم عند الله بالتزامهم ذاك ، وبهذا الالتزام تزيد نقاوة الحياة وصفاؤها ـ ويسعد المجتمع وتسوده المودة والحياة الراشدة كلما زاد عدد المتمسكين بهذه المندوبات والمستحبات .

٣ ـ ومعروف جعلته الشريعة من المباح الجائز الذى يمارسه الناس أولا يمارسونه على حسب مايريدون طواعية واختيارا .

وأما المنكر فنوعان :ـ

١ ـ منكر حرمته الشريعة وحظرته على كل مسلم وهو كل مايتضمن ضررا أو شرا ظاهرا أو خفيا يلحق بالمسلمين ، ماحرمته الشريعة واضح بين .

٢ ـ منكر جعلته الشريعة من المكروهات ، وهو كل ماأظهر الشارع الحكيم كراهيته

صراحة أو كتابة مما فى اجتنابه مصلحة للفرد أو للجماعة ، ومن هذه المكروهات مايقرب أحيانا من حد الحرام ولكنه لا يبلغه ، ومايقرب من المباح ولكنه ـ كذلك ـ لا يبلغه ، ومن هذا المكروه مايتذبذب بين هذا وذاك .

وأما الخصائص التى تتميز بها الشريعة الإسلامية فهى كثيرة نعد من أبرزها :

١ ـ الشمول والإحاطة :

فما من عمل يعمله الإنسان أو قول يقوله إلا والشريعة الإسلامية قد أتخذت منه موقفا بعينه ، تأمر به أو تنهى عنه أو تندب إليه أو تكرهه ، أو تجعله من المباحات ومن هنا كانت الأخلاق والعادات والأعمال صغيرها وكبيرها مما تعنى به الشريعة الإسلامية أشد عناية ، حتى تلك الأمور التى يهتدى إليها الإنسان بفطرته كالأكل والشرب والنوم واللباس تضع الشريعة لها نظاما ، وتحدد لها حدودا وترسم لها أبعادا .

وما من علاقة تسود المجتمع بين أفراده ، أو المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى إلا وضعت الشريعة لها نظاما وحددت لها آدابا .

وما من قضية تتصل بنظام الاجتماع الإنسانى من سياسة أو اقتصاد أو ادارة إلا وبينت الشريعة الإسلامية فيها الرأى الصائب والموقف السديد ، وهذا هو مانعنيه بالإحاطة والشمول .

٢ ـ التكامل والترابط :

ونعنى بذلك أن الشريعة الإسلامية نظام متكامل لا ينقصه شئ ولم يفته شئ ، ولم يزد فيه شئ عن حاجةالناس ، وهى نظام لا يمكن أن يؤخذ ببعضه ويترك بعضه ، لأنه كل متكامل لا يمكن الاستغناء عن شئ منه بحال ، ولا يستطيع نظام آخر من أنظمة البشر أن يحل محله أو محل بعضه أو يشاركه فى تحقيق مصالح الناس .

٣ ـ الواقعية وسهولة التطبيق :

ومعنى ذلك أن الشريعة الإسلامية نظام لا يعيش فى فراغ ، ولا يمعن فى الخيال

وإنما يتميز بالواقعية وسهولة التطبيق ، ولكنه يحتاج دائما إلى سلطة سياسية تنفذه وتشرف على تطبيقه ، وهذه السلطة السياسية هى الدولة بكل مواصفاتها ، ويخطىء من يدعى أن الدين الإسلامى بمعزل عن الحياة وأشد منه خطأ وتخبطا من يدعون أن آداب الإسلام ونظمه لا تحتاج إلى دولة أو سلطة سياسية تقوم على تنفيذ هذه الأنظمة والآداب .

٤ ـ الايجابية والحركة المستمرة :

وتلك من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية ، فليس فى المجتمع المسلم المستظل بالشريعة الإسلامية فرد أو جماعة من الناس ، يقبل منهم الإسلام السلبية أو التواكلية أو الانعزالية ، وإنما كل فرد فى المجتمع المسلم له عمله وعليه واجباته ، لا يتسامح معه فى شىء منها إلا إن كان صاحب عذر من مرض أو عجز أو غيره .

٥ ـ وضوح الغايات ونبل الوسائل :

الشريعة الإسلامية تقوم على فكرة واضحة وتخدم غاية واضحة كذلك ، وتستند فى تحقيق ذلك على دستور أساسى تتحرك فيه كافة مؤسساتها ولهذا الدستور قوانين إدارية وقوانين للأحوال الشخصية وقوانين عامة .

فالفكرة الواضحة التى تقوم عليها الشريعة الإسلامية هى توحيد الله سبحانه والاعتراف به : الإله الواحد الأحد الخالق الرازق المحيي المميت السميع البصير الرقيب المحاسب الذى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذا القرآن هدى للناس يبين للبشرية طريق فلاحها ونجاحها ، ويحاسبها على الأخذ به أو تركه .

والغاية الواضحة التى تخدمها وتسعى إلى تحقيقها هى أن يعبد الله وحده فى الأرض ، وأن يعيش الناس فى هذه الدنيا ممارسين للمعروف آمرين به ممنوعين عن مقارفة المنكر ناهين عن سواهم ، ليكونوا بذلك خير أمة أخرجت للناس .

والدستور الأساسى الذى تتحرك فى إطاره كافة المؤسسات الإسلامية هو القرآن

الكريم وما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهذا الدستور أى القواعد الأساسية للحكم شاملة محيطة كما أسلفنا .

والقانون الأدارى الذى تسير الدولة الإسلامية على هديه وتترسم خطاه هو ذلك القانون الذى يمكن أن نفهم قواعده الأساسية من حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم وحكومات الخلفاء الراشدين من بعده ، وكان من فضل الله على المسلمين بخاصة وعلى البشرية كلها بعامة أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرته معروفة مسجلة موثقة لم تدخلها شوائب تبدد جوهرها وران عليها من ركام التاريخ ما يخفى معالمها ، ولا تقادمت بها الأزمان فأذهبت بهجتها ـ لأنه آخر الرسل ـ وليس من رسول ولا نبى قبل محمد صلى الله عليه وسلم إلا وقد اكتنفت تفاصيل حياته وسيرته الأوهام والتزاويق حتى ذهبت أو كادت معالم تلك السير من لدن آدم إلى عيسى بن مريم عليهما السلام وليس عبثا ـ وقد أراد الله للبشرية أن يكون خاتم الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم ـ أن يهدى المسلمين إلى المحافظة الدقيقة الوثيقة على سنة خاتم الأنبياء وإنما كان ذلك لتكون حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وسنته أنموذجا حيا متكاملا للحياة البشرية الراشدة فى ضوء الدستور الإسلامى الخالد .

وأما قانون الدولة العام وقوانين الأحوال الشخصية والقوانين الجنائية والمدنية وغيرها من القوانين والنظم التى تتطلبها حاجة المجتمع ليعيش فيه الناس فى أمن وعدالة ، فإن الشريعة الإسلامية فيها من هذه الأحكام التفصيلية مايفى بتحقيق هذه الحاجات .

وأروع مافى الشريعة الإسلامية فى هذا المجال أن القوانين التى وضعتها ـ لتلائم كافة متطلبات الحياة ومختلف متغيرات الاجتماع البشرى ـ قد انقسمت من أجل هذه الملاءمة المستمرة لكافة المتغيرات ـ إلى قسمين :

الأول منهما: ـ

قسم ثابت قطعي لا يتأثر بتغير الزمان والمكان والناس وهو يتمثل في الأمور الثلاثة التالية : ـ

١ ـ الأحكام القطعية الصريحة الواردة في الكتاب والسنة الصحيحة ، كحرمة الزنا والخمر والميسر والربا ، وكأنصبة الورثة من مورثهم ، وكالحدود ـ وهي العقوبات المقدرة على جرائم بعينها كحد السرقة وحد الزنا وحد القذف وما إلى ذلك .

٢ ـ الضوابط العامة التي لا يجوز لمسلم أن يتجاوزها في تصرفاته وأعماله ، كحد عدد الزوجات بأربع ، وحد الطلاق بثلاث مرات ، وحد الثلث للوصية وغير ذلك .

٣ ـ القواعد العامة التي يعرف بها الحلال من الحرام مثل حرمة كل شيء مسكر وحرمة كل بيع لا يتم فيه تبادل المنفعة بين الجانبين على تراض منهما ، ومثل قوامة الرجال على النساء .

فهذا الجانب من القوانين الإسلامية ثابت راسخ لا تؤثر فيه المتغيرات ، ولا اختلاف الزمان والمكان .

والثاني من هذين القسمين : ـ

قسم متغير متطور يخضع للمتطلبات الآتية في كل زمان ومكان ، وهذا القسم يتمثل في الأمور التالية : ـ

١ ـ تفسير الأحكام أو تأويلها من لدن رجال الفقه الإسلامي ، بحيث يسوغ هذا التفسير اليوم ، وربما يسوغ غدا ، مادام التفسير مؤيدا بالقرائن والدلائل ، وهو

باب اتسع وما يزال يتسع في مختلف العصور التي مرت على المسلمين .

٢ ـ القياس ـ وهو تطبيق حكم شرعي ثبت في قضيــة ما ، على قضية أخرى تماثل تلك القضية ـ أو قياسها عليها ، وهو باب رئيسي في هذه القوانين المتغيرة المتطورة .

٣ ـ الاجتهاد ـ وهو فهم قواعد الشريعة وأصولها العامة فهما دقيقا واعيا ، ثم تطبيق هذه القواعد والأصول على قضايا جديدة لم يكن لها نظائر في السابق .

٤ ـ الاستحسان ـ وهو وضع ضوابط وقوانين جديدة تحقق مصلحة عامة المسلمين جميعا ، أو مصلحة عامة لبعض الأفراد منهم ، بحيث لا تتعارض تلك المصلحة مع شيء من قواعد الإسلام وأصوله وروحه .

وهذا القسم المتغير المتطور هو الذي يتيح لأهل الرأي وأصحاب الحل والعقد من المسلمين أن يضعوا من النظم والقوانين لكل عصر ما يناسبه ، ولكل زمان ما يليق به ، متجاوبين في ذلك مع مصالح المسلمين المتجددة المتغيرة .

هذا هو نظام الحياة الإسلامية في عرض موجز سريع قصدت من ورائه أن يعرف من لا يعرف من أعداء الإسلام والحاقدين عليه صورة تقريبية لتنظيم الإسلام للحياة البشرية تنظيما دقيقا محققا لسعادة الدنيا والآخرة .

فكيف حاول أعداء الإسلام تشويه هذا النظام ؟

وكيف أرادوا عن طريق الغزو الفكري أن يباعدوا بين المسلمين وبين نظام الحياة الإسلامية ؟

وكيف استهدفوا من وراء ذلك عزل دستور المسلمين وكافة قوانينهم المنبثقة من هذا الدستور ؟

إن التهم التي وجهت إلى نظام الحياة الإسلامية كثيرة وإنها لحملات تشـويهية منظمة ، نستطيع ـ على سبيل التقريب ـ أن نحصرها في خمس تهم هي في ظننا أبرزها وأخطرها وهي : ـ

أولا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بالرجعية وعدم القـدرة على مواكبـة ركب التحضر والتقدم .

ثانيا : اتهامهم النظم الإسلامية بالمحلية والقصور والإقليمية وأنها كانـت صالحـة للعصور الوسطى ـ أي عصور التخلف والظلام ـ وحدها .

ثالثا : اتهامهم لها بأنها عند التطبيق والتنفيذ تعتمد على وحشية أو همجية أو قسوة ، وبخاصة فيما يتصل بالرجم والقطع والجلد ..

رابعا : اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها لم تحظ بإجماع المسلمين عليها في عصر من العصور .

خامسا : اتهامهم لها بأنها تتجاهل الأقليات غير المسلمة في ظل الدولة الإسلامية .

وهذه التهم قد أطلقها أعداء الإسلام من غير المسلمين وشاركهم في إطلاقها بعض المسلمين ، وهؤلاء وأولئك بإطلاق هذه التهم إنما يقومون بعمل منظم ـ فيما أتصور ـ مرسومة له أبعاده وأهدافه ـ فيما أعتقد ـ وليس من ورائه كما أسلفت إلا تشويه النظام الذي اختاره الإسلام للحياة الإنسانية ، لتنعزل بذلك الأمة الإسلامية عن دينها وعن منهجها في الحياة .

ولنناقش هذه التهم واحدة واحدة لنتبين وجه الخطر فيها من جانب ، ولنرد عليها من جانب آخر .

أما أعداء الإسلام من الأجانب عنه ، فإنهم اتهموا القوانين والنظم الإسلامية التي يرسم للحياة البشرية صورها وأبعادها ، بالرجعية والعجز عن مواكبة ركب التحضر ، لعلمهم ، بل ليقينهم بأن المسلمين يوم يُخَليَّ بينهم وبين الأخذ بقوانين الإسلام ونظمه ، فإنهم يصلون بهذه البشرية إلى الرشد والهداية ، وهم بذلك قاضون على أحلام هؤلاء الأعداء في الاستمرار في امتصاص رحيق الحياة من البلدان الإسلامية عن طريق استغلال خيراتها ومقدراتها الاقتصادية ، وما استيقن هؤلاء الأعداء من تلك الحقيقة ـ وهي حيلولة الإسلام بينهم وبين استغلال الناس وظلمهم إلا بما شاهدوا في تاريخ المسلمين ، يوم كان القانون الإسلامي والنظام الإسلامي يشق لهم طريق الفتح والتعمير والترشيد لأبناء البشرية جميعا ..

وربما يقال : إن ذلك كان يوم كانت بين المسلمين وأعدائهم صولات وجولات في ميادين القتال ، أما اليوم فقد وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين !

والحق أن الحرب لم تضع أوزارها بعد ، وأن مخططات الأعداء ماضية في طريقها آخذة في كل يوم وسيلة من وسائل الحرب ، ويخطيء من يظن أن أعداء الإسلام قد كفوا عن الكيد له ولأبنائه ، ولقد ورث الأخلاف عن الأسلاف من أعداء الإسلام والمسلمين كراهية الإسلام والحقد عليه من يوم دارت تلك الحروب بين المسلمين وأعدائهم في المعارك التي أطلقوا عليها « حروب العصور الوسطى » ويوم ذاق فيها أعداء الإسلام من المسلمين مرارة الهزيمة ورأوا بأعينهم كيف يصنع الإسلام بالناس إذ يحررهم من التبعية ويمكنهم من النصر على الأعداء .

هؤلاء الأعداء من الأجانب عن الإسلام حينما أطلقوا هذه التهمة كان ـ وما يزال ـ هدفهم أن ينظر المسلمون إلى قوانين الإسلام ونظمه نظرة من لا يثق فيها ولا يعمل بها ، فيضحي المسلمون وقد جردوا من أمضى أسلحتهم وحيل بينهم وبين أحسن ما ميزهم الله به ، فلا يبقى أمامهم والأمر كذلك إلا أن يذوب كيانهم ولا يجدون من شرعهم ونظامهم ما يجمعون عليه أمرهم أو يلمون به شعثهم ، وعندئذ يضعفون ويصبحون لقمة سائغة

للآكلين ، وهذا الذي حدث ولا يزال يحدث لكثير من البلدان الإسلامية التي تركت نظام دينها وقوانين دستورها الخالد .

وأما أعداء الإسلام من المنسوبين إليه بالاسم والرسم ، فإنهم اتهموا النظم الإسلامية بالرجعية ـ لما رأوا من سوء التطبيق ، ولما شاهدوا من أعمال من ينتسبون إلى الإسلام ولا يعملون بقوانينه ونظمه ، وربما لما وقع عليهم من ظلم هؤلاء المنحرفين عن القوانين الإسلامية ـ هذا إذا استبعدنا أن بعضهم اتباع لأعداء الإسلام من الأجانب عنه يرددون عنهم ما يسمعون دون وعي تقربا إليهم وإلى حضارتهم وإلى ما يمنحون ـ وهم أصحاب النفوذ ـ من أثمان على هذه المجاراة ، وربما أطلق بعضهم هذه التهم لما شاهدوه وانخدعوا به من بريق النظم الغربية وشكلياتها وما يتشدق به الداعون إليها من كلمات جوفاء حول الحرية والمساواة والعدالة مما يستهوي الفارقين الغافلين ، : وربما انخدعوا بما يردد هؤلاء الأعداء من حرية المرأة ومساواتها بالرجل ومن حرية شرب الخمر والشذوذ الجنسي فضلا عن حرية الزنا والبغاء والميسر والربا ، وهي أمور تستهوي أصحاب الأهواء وطلاب المتع الرخيصة .

ووجهة هؤلاء في إطلاق تلك التهمة هي أن يتخلصوا من التمسك بنظم الإسلام وقوانينه ، لأن تلك النظم والقوانين لا تتيح لهم من شهوات أبدانهم وأهواء نفوسهم إلا في إطار ما أحل الله وهو الصورة الراشدة للإنسان الذي كرمه الله وفضله على كثير مما خلق

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بالمحلية والإقليمية فمعناه أنها قوانين ونظم لا تلائم إلا العصر الذي وضعت فيه والناس الذين عاصروا وضعها ، وهو أمر تحدثنا فيه عند حديثنا عن اتهامهم للقرآن الكريم بالمحلية والإقليمية وقد أوضحنا هناك فساده وبطلانه بما لا نحب أن نعيده هنا ، وإنما نكتفي هنا بأن نقول : إن القرآن الكريم وما تفرع عنه من نظم وقوانين استطاع في الماضي وهو قادر في الحاضر والمستقبل على أن يمد البشرية كلها بأمثل نظام للحياة وأقربه إلى فطرة الناس التي فطرهم الله عليها .

وأما اتهامهم للنظم الإسلامية للحياة ، بأنها عند التطبيق تتضمن وحشية أو همجية فيما يتصل بإقامة الحدود الشرعية من قطع يد السارق ورجم الزاني وجلد شارب الخمر وما إلى ذلك ، فهي اتهامات ضالة مضلة تقوم على الافتيات والمغالطة .

ولنا أن نتساءل قائلين : أين الوحشية والهمجية ؟ أهي في إقامة هذه الحدود لردع المرتكبين وزجر العصاة وتحقيق الأمن والسعادة للناس ؟ أم أن الوحشية والهمجية في تعطيل هذه الحدود وما يترتب على هذا التعطيل من تشجيع العصاة والمجرمين ، وحرمان الناس من أكبر نعمة وأهمها وهي نعمة الأمن والاطمئنان ؟

أمن الوحشية أن تقام الحدود التي شرعها الله لإصلاح الناس ؟

أم الوحشية والهمجية أن تعطل هذه الحدود فيتجرأ المنحرفون وتعجز الدولة ـ أي دولة ـ عن حماية الناس ، فيخاف الناس ويردعون ، ويعجزون حتى عن حمل المال في جيوبهم ، فضلا عما يعانيه أي ضعيف أو صغير من ذل وخوف من أي قوي أو كبير ؟

أمن الوحشية والهمجية على وجه الحقيقة ؟

أهي في إقامة الحدود أم في غيبتها ؟

هل الوحشية فقط في تطبيق الحدود على المجرمين أعداء المجتمع ؟

ولا وحشية ولا همجية عندما يعامل أصحاب الرأي والفكر السياسي بأقصى ألوان التعذيب البدني من ضرب وحرق ونهش للحمه وتمزيق لجسده بوساطة الآلات والكلاب المسعورة والصدمات الكهربائية ؟

أمن الوحشية والهمجية أن تقام حدود الله ؟ وليس من الوحشية والهمجية إذلال

الإنسان وتعذيبه بخلع أظافره وإحراق جسمه وتسليط الصدمات الكهربائية على مخه وأعصابه ، وعصب رأسه بطوق حديدي يقضقض عظمه ، وكيه بالنار وقلع شعره والعبث بكرامته وآدميته ، كما يتعرض لذلك المعارضون في الرأي والسياسة في البلاد التي تتشدق بالحريات والديموقراطية والاشتراكية والشيوعية ، وتتباهى بقوانينها ونظمها ؟

من حقنا أن نتساءل هذه التساؤلات ، ومن حق الأجيال المسلمة الحاضرة والآتية أن تعرف أنها بالإسلام غنية بأحكم نظام للحياة البشرية وأكمل تشريع يحفظ على الإنسان كرامته وآدميته .

وأما اتهامهم للقوانين الإسلامية بأن لم تحظ بإجماع المسلمين عليها في عصر من العصور فإنهم بذلك يغالطون ويضللون ولا ينطلي باطلهم ذاك على عاقل من الناس ، وهناك فارق كبير ما ينبغي أن يخفى على عالم أو عاقل بين دستور الإسلام وقانونه الأساسي ـ وهو الكتاب والسنة الصحيحة ـ وبين ما اتفق عليه الفقهاء المسلمون في عصر من العصور من النظم والقوانين التي فسروا بها حسب ظروفهم وملابسات زمانهم ذلك الدستور الإسلامي الأصيل ـ وهو الكتاب والسنة ـ فمن الواضح أن التفسير والتأويل للكتاب والسنة في كل عصر من العصور أمر يتناوله الفقهاء ويتداوله العلماء ولا حرج في ذلك عليهم ولا غبار ماداموا قد اجتهدوا وسددوا وقاربوا ، فعندنا الآن شيئان : ـ

١ ـ الكتاب والسنة في كل عصر من العصور .

٢ ـ واجتهادات الفقهاء في عصر من العصور .

فأي هذين لم يحظ بإجماع المسلمين ؟

إن قالوا : إنه القرآن والسنة النبوية فهم في غيي يعمهون ، وهم كَذَبة مفتاتون ، لن يستطيعوا أن يسندوا باطلهم ذاك بأدنى دليل أو أوهى برهان ، فلم يحدث على مدى الأربعة عشر قرنا التي عاشتها البشرية في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية أن اختلف المسلمون على نص القرآن أو على نص السنة الصحيحة ، بل لم يحدث غير الإجماع على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم حتى بين المختلفين من المسلمين.

وإن قالوا : إنها آراء الفقهاء واجتهاداتهم وتفسيرهم للكتاب والسنة ، بمعنى أنه لم يحدث إجماع من المسلمين على القوانين والنظم التي أخرجها الفقهاء عن نصوص الكتاب والسنة ، إن قالوا ذلك فإنه لا يضير النظم الإسلامية في شيء ولا يدل على عيب أو قصور في تلك النظم ، بمقدار ما يدل على حرية الرأي ونضج الفكر والقدرة على الانطلاق في تفسير النصوص دون تبعية بل لا نبالغ حين نقول : إن المآخذ التي تؤخذ على بعض المسلمين في بعض العصور هي أنهم قلدوا وتابعوا من سبقهم في تفسير النصوص الإسلامية دون أن ينظروا في متطلبات عصرهم ومقتضيات ظروفهم.

وأما اتهامهم للقوانين والنظم الإسلامية بأنها تتجاهل حقوق الأقليات التي لا تنتسب إلى الإسلام فتحرمهم من حقوقهم ولا تسمح لهم بممارسة الحياة الإنسانية في ظل الكرامة الجديرة بالإنسان ، تلك التهمة التي اتخذها أعداء الإسلام ذريعة إلى احتلال كثير من البلدان الإسلامية في فترات ضعف المسلمين ، وهي تهمة باطلة يكذبها التاريخ المعروف للمسلمين يوم كانوا يحكمون بلاداً فيها أقليات غير مسلمة ، بل التجاهل الحقيقي للأقليات بل سحق هذه الأقليات إنما هو موجود في الدول غير المسلمة التي توجد بها أقليات مسلمة ، والتاريخ المعاصر يمدنا بعشرات الأدلة والبراهين.

أما في ظل الحكم الإسلامي فقد كان للأقليات غير المسلمة من الحقوق المدنية ما يكفل العيش الكريم ، إذ واجب الحاكم المسلم والدولة المسلمة أن يحافظوا لهذه الأقليات على أعراضهم وأموالهم وحرياتهم الشخصية وكل ما تقوم به أو عليه الحياة الإنسانية الجديرة بالإنسان ، وكل ما تحرم منه هذه الأقليات في ظل النظام الإسلامي هو تولي المناصب العامة في الدولة المسلمة.

فالإسلام ينظر إلى غير المسلمين في الدولة المسلمة على أنهم مواطنون لا أقليات ، لهم من الحقوق وعليهم من الواجبات ما تستوجبه المواطنة في ظل النظام الإسلامي . (٤٩)

وإذا أراد مغالط أن يتحدث عن الجزية التي تأخذها الحكومة المسلمة من أهل الذمة الذين يمثلون الأقليات فيها ـ فإنها وإن كانت في الحق ضريبة لإخضاع أهل الذمة إلا أنها تدخل في نطاق ضريبة الأمن والدفاع ، وهي مورد هام من موارد الدولة الإسلامية ، بل هي ضريبة يدفعها الآن جميع المواطنين في أغلب البلاد إسلامية وغير إسلامية .

فإذا عجزت الدولة الإسلامية عن تحقيق الأمن لهذه الأقليات أو عجزت عن الدفاع عنهم ردت إليهم ما أخذت من جزية حتى ولو كانت قبضتها منهم ، كما كتب أبو عبيدة الجراح رضي الله عنه إلى أمرائه أن يردوا إلى الذميين كل ما أخذوا منهم من الجزية ويقولوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم ، فهذه أموالكم التي أخذناها لذلك ، ترد إليكم ، فرد جميع أمراء الجنود كل ما كانوا جمعوه من الأموال (٥٠) .

وقد ذكر البلاذري أثر رد هذه الجزية في نفوس الذميين قال : فقال أهل حمص : « قال أهالي ذلك البلد بلسان واحد ، لَدِينُكم وعد لكم أحب إلينا والله مما كنا فيه من الظلم والغشم » وقالوا : « والتوراة لن يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد » (٥١) .

هكذا كانت تعامل الدولة الإسلامية الأقليات فيها ، أما معاملة الأقليات معاملة غير إنسانية فأمر تعرفه دول الحضارة الغربية حق المعرفة في وقتنا هذا وفي غيره من الأوقات ، وتسأل عنه الأقليات الملونة في أمريكا ، والأقليات المسلمة في روسيا والأقليات المسحوقة المذابة ذوبانا في أنظمة تلك الدول ـ تسأل عنها الأقليات المسلمة

---

(٤٩) للمؤلف بحث بعنوان : مع العقيدة والحركة والمنهج فى خير أمة أخرجت للناس توسع فيه فى الحديث عن هذا الموضوع . نشرته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٣٩٨ هـ .

(٥٠) أبو يوسف : الخراج : ١١١ .

(٥١) البلاذرى : فتوح البلدان : ٧ ط أوربا .

التي أجبرت إجبارا في كثير من دول آسيا وأفريقيا على ترك دينها أو تضطهد حتى الموت ، تسأل عنها بعثات التبشير والتنصير في الشرق الأقصى وفي أفريقيا ، هذه هي الأقليات المضطهدة في ظل النظم الأوروبية التي تدعى الحضارة والتمدن ، بل تسأل عنها الأقليات المسلمة التي ذاقت الوبال والنكال على أيدي الأسبان في أعقاب تفرق المسلمين هناك وذهاب ريحهم .

وبعد : فإن هذه التهم الموجهة إلى النظام الإسلامي للحياة الإنسانية لم يطلقها أصحابها عبثا ، وإنما كانت وما تزال جزءا من خطة اختطوها بقصد تشويه نظام الحياة كما سنه الإسلام وكما أقرته نظمه .

وذلك نمط من الغزو الفكري والثقافي ليس أقل خطرا على المسلمين من الغزو العسكري المؤيد بوسائل الحرب وآلاتها التدميرية الرهيبة .

والهدف من كل ذلك واضح ، وهو تشويه الإسلام في الأنظار لعزل المسلمين وغيرهم عن أن يهتدوا بهديه أو يعيشوا في ظل دستوره وقوانينه .

٦ ـ محاولة تشويه التراث الإسلامي

كلمة التراث بمعناها الأجنبي *Legacy* « الأثري » ليست داخلة في المفهوم الذي نريده في هذا البحث للكلمة ، لأن الكلمة بهذا المعنى الأجنبي تعني ـ في العرف الشائع لها عند الناس ـ شيئا موروثا ، ونحن لا نوافق على أن الإسلام موروثات تتناقلها الأجيال ، بل هو دين حي خالد مواكب لكل جديد متطور من ألوان الحياة ومتغيراتها ، فضلا عن أننا معشر المسلمين لا ينبغي أن نتصور أن الدين ينتقل إلينا بالإرث عن الآباء والأجداد .

أما المفهوم الذي نريده من كلمة التراث الإسلامي في هذا البحث فهو تلك الثروة الفكرية التي أنتجتها عقول المسلمين في مختلف مجالات المعارف والفنون ، وفي سائر ألوان الحضارة ومظاهرها ، مما انتقل إلينا عبر الأجيال ، وأقول : الثروة الفكرية في مختلف الفنون والمعارف لأنفي باديء ذي بدء ذلك المفهوم القاصر الذي يحصر التراث في الغالب في المخطوطات الخاصة بالعلوم الإسلامية عقيدة وشريعة وسيرة وتاريخا وفلسفة ، وبعلوم اللغة العربية من لغة وبلاغة وأدب ، إذ التراث يشمل ما هو أوسع من ذلك بكثير ، يشمل كافة مجالات العلم والمعرفة من طب وصيدلة وكيمياء وعقاقير وفيزياء ، وفلك ورياضيات وهندسة وطرز متعددة للمباني والعمائر ، ويشمل كذلك نظم الحياة المتعددة التي تميزت بها مختلف الشعوب التي دخلت الإسلام واخذته دينا ومنهجا .

وهذا التراث بالمعنى الذي حددته تجب العناية به والاهتمام بالاستفادة منه ، لأن تلك العناية وهذا الاهتمام هو الذي يكشف عن الجذور والعناصر المكونة لأصالة المسلمين والمعبرة عنها أصدق تعبير في عصورها الزمنية المختلفة ، إذ أن هذا التراث بالنسبة لأمة من الأمم هو الأساس الراسخ الوطيد لحاضرها ومستقبلها .

وهناك ما أحب أن أنبه عليه في هذه العناية الواجبة بالتراث ، هو التأكيد على أن العناية بهذا التراث ما ينبغي أن تقف عند حدود الإشادة والاعتزاز ، أو تمتد إلى التباهي

والتفاخر ، لأن ذلك فعل الكسالى والعاجزين ، وإنما نريد أن تمتد هذه العناية لتشمل الإفادة من التراث في تصور حاضر إسلامي ملائم ، ومستقبل للأمة الإسلامية أدعى لأن يضعها من جديد تحت مظلة الإسلام الشاملة المتكاملة .

وليس من التباهي ولا التفاخر أن نؤكد في هذا البحث أن التراث الإسلامي ـ بالمعنى الذي حددناه ـ كان الركيزة القوية التي اعتمدت عليها أوروبا في نهضتها العلمية الأخيرة ، بل ليس من المبالغة أن نقول : إن هذا التراث الإسلامي هو الذي رفد عصر إحياء العلوم في أوروبا والعالم الغربي كله ، فقد كانت العلوم والمعارف الإسلامية العربية تترجم باهتمام بالغ إلى عدد من اللغات الأوروبية ، فمن الثابت المؤكد أن الدولة الإسلامية بمعطياتها الحضارية المتعددة ظلت في مجال القيادة للبشرية معظمها ، قيادة مادية ومعنوية حينا غير قصير من الزمان ترفد الفكر والعلم والمدنية والعمران وتؤثر في مسار الحياة الإنسانية تأثيرا ضخما غير منكور .

ولقد انتقل التراث الإسلامي إلى العالم الغربي عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين وصقلية وإسبانيا ، فكان له أبرز الأثر في حركة إحياء العلوم في أوربا تلك الحركة التي بدأ بها تاريخ النهضة الأوربية الحديثة .

وليس من الخفي أن انتقال الحضارة الإسلامية إلى العالم قد تم قبل عصر إحياء العلوم في أوربا بزمن غير قصير ، عن طريق العلاقات السياسية والاقتصادية والحروب التي دارت بين الدول الإسلامية وبين العالم الغربي ، وليس خافيا كذلك أن الأوروبيين قد انبهروا بتلك الحضارة الخصبة الشاملة فنقلوا منها وعنها ما وسعهم النقل ، وهذه المعابر المتعددة التي انتقلت حضارتنا عن طريقها إلى العالم كله صادفت تلك الفترة الزمنية التي يدعونها فترة العصور الوسطى التي سبقت عصر إحياء العلوم في أوروبا .

وإن أكثر من شاهد من أبناء الغرب ومفكريه يعترفون بذلك التأثير القوي الذي

تركته الحضارة الإسلامية في الغرب مما أضاء لهم طريق النهضة ويسر لهم سبيل إحياء العلوم ، نجد هذه الاعترافات على ألسنة مشاهير الكتاب ـ حتى المتعصبين منهم ضد الإسلام ـ من الأوروبيين ، ونود أن نذكر هنا من هؤلاء المعترفين : ـ

١ ـ هـ . ج . ويلز ـ في بعض ما كتبه وبخاصة كتابه :
معالم تاريخ الإنسانية .

٢ ـ وجوستاف لوبون : في كتابه : حضارة العرب .

٣ ـ ودي بور .

٤ ـ وأوليري .

٥ ـ وتوينبي :

في بعض ما كتبوه ، وفي بعض ما كتبه سواهم .

وأغلب ما نقرأ من كتب في تاريخ أوربا في العصور الوسطى نجد فيها أن الأمير : فردريك أسس جامعة نابولي عام ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م وجعلها مدرسة لنقل العلم العربي إلى العالم الغربي ، ونجد فيها كذلك أن جامعتي بولونيا وباروخا قامتا أساسا على الثقافة العربية وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفي صقلية اعتمدت جامعة باليرمو ـ أقدم جامعة غربية ـ على الثقافة العربية بحيث حرص الأمير : « ريجار روجيرو » على استعارتها منها ، بل استقدم لها الأعلام من علماء العرب ، وكان منهم الإدريسي الذي ألف لأمير صقلية كتاب :
« نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » هذه حقائق يعترف بها الأوربيون أنفسهم .

يقول « جوستاف لوبون » : « وأشهر جغرافي العرب هو الأدريسي ، ومن كتب الأدريسي التى ترجمت إلى اللاتينية تعلمت أوروبا علم الجغرافية في القرون الوسطى » (٥٢) .

ثم يقول بعد ذلك : « وكتب العرب التي انتهت إلينا في علم الجغرافية مهمة إلى الغاية » وكان بعضها أساسا لدراسة هذا العلم في أوروبا (٥٣) .

وفي موضع آخر من كتابه السابق يقول عن علم الفلك عند العرب : « واليوم نعلم أن فلكيي الصين ولاسيما شوكنج ١٢٨٠ م استنبطوا معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ، ولذلك نقول : إن العرب هم الذين نشروا علم الفلك في العالم كله بالحقيقة » (٥٤) .

ولم تكن الحضارة الإسلامية ذات أثر في أوربا العلمية أو الصناعية فحسب وإنما تجاوز هذا التأثير النهضة العلمية الصناعية إلى الأخلاق الأوروبية حيث هذبت طبائعهم وعلمتهم العواطف النبيلة ، وهذا هو مسيو « بازتلمي سنت هير » في كتابه عن القرآن يقول : « أسفرت تجارب العرب وتقليدهم عن تهذيب طبائع سنيوراتنا الغليظة في القرون الوسطى ، وتعلم فرساننا أرق العواطف وأنبلها وأرحمها من غير أن يفقدوا شيئا من شجاعتهم ، وأشك في أن تكون النصرانية وحدها أوحت إليهم بهذا مهما بولغ في كرمها » (٥٥) .

وكل ما نأخذه على ما كتبه جوستاف لوبون أو ما نقله عن بازتلمي « سنت هير » في هذا المجال الذي نقلنا فيه هذه النقول ، كل ما نأخذه عليهما أن الحق كان يقتضي كلا

(٥٢) جوستاف لوبون : حضارة العرب : ٤٧٠ ترجمة عادل زعيتر . ط الحلبي القاهرة .
(٥٣) السابق : ٤٦٩ .
(٥٤) السابق : ٤٥٩ .
(٥٥) السابق : ٥٥٦ ـ ٥٧٧ .

منها أن يقول المسلمين بدل قوله العرب فوضع كلمة المسلمين بدل كلمة العرب يضفي على كلام كل من الكاتبين مزيدا من الحيدة والانصاف .

وربما كان بعض المتعصبين من الأوروبيين ـ مبشرين ومستشرقين لا يحبون أن يعترفوا للحضارة الإسلامية بفضل على حضارة أوروبا أو لتراث المسلمين على أوروبا ، ولابد أن يكون من وراء هذا الإنكار سر وسبب ، ونحن نعرف سلفا أن هذا السر وذاك السبب هو الحقد على الإسلام والمسلمين .

ونحب هنا أن نوضح ذاك السر كما تحدث عنه جوستاف لوبون ، حيث يعلل لإنكار بعض الأوروبيين لفضل الحضارة العربية ـ كما يسميها لوبون وهي الحضارة الإسلامية كما نقول ـ على أوروبا ، فيقول : « لم ينكر تأثير العرب علماء الوقت الحاضر الذين يضعون مبدأ حرية الفكر فوق كل اعتبار ديني كما يلوح ؟

ثم يجيب لوبون عن هذا التساؤل فيقول : « لا أرى غير جواب واحد عن هذا السؤال الذي أسأل نفسي به أيضا ، وهو أن استقلالنا الفكري لم يكن في غير الظواهر بالحقيقة ، وأننا لسنا من أحرار الفكر في بعض الموضوعات كما نريد ، فالمرء عندنا ذو شخصيتين : الشخصية العصرية التي كونتها الدراسات الخاصة والبيئة الخلقية والثقافية ، والشخصية القديمة غير الشاعرة التي جمدت وتحجرت بفعل الأحداث ، وكانت خلاصة لماض طويل ، والشخصية غير الشاعرة وحدها ، ووحدها فقط هي التي تتكلم عند أكثر الناس وتمسك فيهم المعتقدات نفسها مسماة بأسماء مختلفة وتملي عليهم آرائهم فيلوح ما تمليه عليهم من الآراء حرا في الظاهر فيحترم .

والحق أن أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهابا عدة قرون وأنهم كانوا عندما لا يرعدوننا بأسلحتهم كما في زمن « شارل مارتل » والحروب الصليبية ، أو يهددون أوربا بعد فتح القسطنطينية كانوا يذلوننا بأفضلية حضارتهم الساحقة ، وأننا لم نتحرر من نفوذهم إلا بالأمس ، وتراكمت مبتسراتنا

الموروثة ضد الإسلام والمسلمين في قرون كثيرة، وصارت جزءا من مزاجنا ، وأضحت طبيعة متأصلة فينا تأصل حقد اليهود على النصارى الخفي أحيانا والعميق دائما ، وإذا أضفنا إلى مبتسراتنا الموروثة ضد المسلمين مبتسرنا الموروث الذي زاد مع القرون بفعل ثقافتنا المدرسية البغيضة القائلة إن اليونان واللاتين وحدهم منبع العلوم والآداب في الزمن الماضي أدركنا بسهولة سر جحودنا العام لتأثير العرب العظيم في تاريخ حضارة أوربا ، ويتراءى لبعض الفضلاء أن من العار أن يرى أن أوروبا النصرانية مدينة لأولئك الكافرين في خروجها من دور التوحش ، فعار ظاهر كهذا لا يقبل إلا بصعوبة .

ثم يواصل لوبون فيقول : « نختم هذا الفصل بقولنا : « إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وأن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، وأن العرب هذبوا البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان بتأثيرهم الخلقي ، وأن العرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية بتأثيرهم الثقافي ، فكانوا ممدنين لنا ستة قرون » (٥٦)

هذا التراث الإسلامي المعلم الخصيب ، ما رعاه المسلمون حق رعايته ولا اهتموا به الاهتمام الذي يستحقه ، وإنما أصابه ما أصاب الدول الإسلامية من عوامل الضعف والتفكك ، فمنذ بعدت الأمة الإسلامية عن دينها ومنهجها تمزقت وتفرقت وذهبت ريحها وأصبحت دويلات مبددة الشمل طمع فيها عدوها وسهل عليه أن يزدردها واحدة واحدة ، وتوالت النكبات على العالم الإسلامي ، وأخذ ظله في التقلص ورقعته في الضيق ورجاله في الضعف والتخاذل ، وما أصاب التراث ليس أقل مما أصاب أصحابه وصانعيه .

وقد أسهمت الحملات الصليبية المسعورة على مدى الفترة الزمنية التي استطالت في أن توجه لهذا التراث من الضربات ما يبدده ويحاول القضاء عليه بإتلافه حينا والعبث به حينا ، حتى لم يفلت من أيديهم من هذا التراث إلا القليل .

---

(٥٦) جوستاف لوبون : حضارة العرب : ٥٧٧ ـ ٥٧٩ .

وكذلك فعلت الخلافات السياسية والمذهبية التي عصفت بالأمة الإسلامية فعلها في هذا التراث ، فقد كان انتصار فريق على آخر أو حزب على حزب أو مذهب على مذهب كثيرا ما يصاحبه عدوان على كتب خصومهم وعلى تراثهم الفكري والحضاري ، عدوان يصل إلى حد الإحراق والإتلاف والتدمير ، وقد يتصور بعض الناس أن هذا الإتلاف لم ينل سوى كتب الخصوم وحدهم ، ولكن ذلك التصور غير صحيح ـ على الرغم من أن الإتلاف كان يأتي على الكتب كلها مذهبية وغير مذهبية ، فتكون الخسارة عامة والكارثة الحضارية شاملة ، كما يحدثنا التاريخ عن مكتبة العزيز بالله ، وعن أغلب دور الكتب الفاطمية بمصر عندما لقيت أفجع مصير بسقوط الدولة الفاطمية .

وإن الجيوش المتوحشة المتبربرة الآتية مما وراء النهر في أقصى الشرق بقيادة هولاكو لتكتسح أمامها كسيل جارف كل معالم الثقافة والحضارة في بخاري ونيسابور والري وأصبهان ، متجهة إلى بغداد مدمرة محرقة مغرقة لألوف الكتب والكنوز من تراثنا ، ولولا أن صدت هذه الغارة المتوحشة الجبهة الإسلامية الموحدة آنئذ من مصر والشام ، لقضت تلك الحملة على كل كنوز العلم والمعرفة ولضيعت إلى الأبد روائع التراث ولاكتسحت أمامها العالم الإسلامي حتى تصل إلى الطرف الغربي للعالم الإسلامي على ساحل المحيط الأطلسي .

وكذلك كان حال التراث الإسلامي عندما تضعضع أمر المسلمين في الأندلس فأصبحت دولتهم دولا وأمتهم أمما وسقطوا في أيدي أعدائهم واحدة وراء الأخرى في أيدي الإسبان الذين ضربوا أفدح المثل في العصبية الدينية والقوميات والعرقيات ووجهوا أحقادهم إلى صروح العلم والمعرفة يخربون ويدمرون ، فأحرقوا خزائن الكتب ونفائس الذخائر العلمية ، بحيث لم يبق من هذ المجد العلمي الباذخ للمسلمين في الأندلس إلا ما ذهب من قبل إلى أوروبا أو إلى المشرق مع المهاجرين من المسلمين ، ومع طلاب العلم والتجار ، أو ما أفلت من هذه المقتلة بفعل الصدفة وحدها .

ومن عجب أن هذا القليل الناجي قد تكون من بعضه مكتبة تعد الآن من أشهر

مكتبات أوروبا الحديثة التي تزخر بالمخطوطات العربية النادرة ، وهي مكتبة الأسكوريال بمدريد .

وكذلك كان الحال بالنسبة للمكتبات الهائلة التي كونها خلفاء بني عثمان (الدولة التركية العثمانية) وجمعوها بأساليب ربما لم تكن مقبولة في ذاتها ، فقد استطاع الغالبون المنتصرون على دولة الخلافة العثمانية أن يستولوا على هذه المكتبات سرقة أو غصبا وأن يعبروا بها إلى معابر الدردنيل والبوسفور إلى الغرب المتحالف على القضاء على دولة الخلافة .

ولم يكن حظ التراث الإسلامي في الظروف العادية ـ وقد أصاب العالم الإسلامي التخلف والضعف ـ بابتعاد المسلمين عن دينهم ومنهجهم ، بأحسن من حظه على أيدي الأعداء ، فقد هان عليهم أمر تراثهم وحضارتهم ، ونبتت نابتة من أبناء المسلمين ـ في العصر الحديث ـ تتهم هذا التراث بأنه يمثل عصورا غابرة متخلفة ، وتحمل إلينا من القيم مالا يلائم حياتنا المعاصرة ، ونبتت نابتة أخرى من المفتونين بالتقدم الصناعي الآلي في أوروبا تتوهم أن سر تقدم أوروبا هو إهمالها للماضي ، وأن سر تأخرنا نحن المسلمين هو اهتمامنا بهذا الماضي ، وعلى الرغم من ضلال الفريقين وسخف ما يقولون وضيق أفقهم وجهلهم بأن أوروبا الناهضة ـ في نظرهم ـ لم تنهض إلا باهتمامها بتراثها ، على الرغم من ضلال هذا الرأي ، فإن التراث الإسلامي تأثر بآراء هذين الفريقين وأصابه بعض الشلل وقل الاهتمام به إلى حد كبير .

لكن الأمل في عناية بعض الدول الإسلامية بالتراث كبير ، وقد أخذت بعضها تسعى في الطريق نحو الاهتمام به وإحلاله المكانة اللائقة به .

والجدير باهتمامنا في هذا البحث أن نتحدث عن أثر المستشرقين في هذا التراث ، وما قاموا به من أعمال نحوه ، ونحب أن ننبه ـ من باب الإنصاف والحيادية في إصدار الأحكام ـ إلى أن حركة الاستشراق في جملتها خدمت التراث من جانب وخدمت أغراضا سياسية تبشيرية استعمارية من جانب آخر .

وفي الجانب الأول : جانب خدمة التراث الإسلامي كان من المستشرقين الذين قاموا بالاهتمام بالتراث جمعه وتحقيقه ونشره من هو مخلص في عمله راغب في أن يحقق للإنسانية مكاسب وأرباحا فكرية وحضارية ـ وهؤلاء قليلون ـ وكان منهم الحاقد على الإسلام والمسلمين الراغب في التشويه والتحريف والإساءة ، وهؤلاء الأخيرون هم أو بعضهم موضوع بحثنا هذا ، إذ أننا نتحدث عن حملاتهم المنظمة لتشويه التراث الإسلامي .

وفي الجانب الثاني : جانب خدمة أغراض سياسية تبشيرية استعمارية عن طريق التراث ، كان الهدف هو دراسة هذا التراث والتعرف على معالم تلك الحضارة بقصد التعرف والكشف عن طبيعة عقليات الشعوب التي صنعت هذا التراث وتلك الحضارة من الأمة الإسلامية ، ومعرفة طبائعهم وأمزجتهم ومواضع الضعف والقوة فيهم ، ودراسة ما يسوءهم من عادات وتقاليد ، تمهيداً لشن الحملات السياسية عليهم سواء أكانت حملات تبشير بالنصرانية وتنصير لبعض المسلمين أو كانت حملات استعمارية للغزو العسكري المسلح أو حملات احتلال اقتصادي وتسلط على مقدرات تلك الشعوب بالوسائل المعروفة في ذلك الزمان ، وبخاصة في آسيا وإفريقيا ، وعلى وجه الخصوص في الشعوب المسلمة في تلك البلاد .

ونحن عندما نربط في هذا البحث بين الاستشراق والتبشير والاستعمار لا نبالغ ولا نعبر عن وجهة نظرنا وإنما ننقل عنهم أنفسهم اعترافات بهذا الرباط الوثيق بين الكنيسة والاستشراق والاستعمار .

ففي القرن السابع الهجري أخريات القرن الثاني عشر الميلادي كانت حركة الاستشراق الأولى تابعة للكنيسة الكاثوليكية وخاضعة لكبار أحبارها ، لا تتحرك إلا بناء على توجيه منها ، يقرر ذلك كاتب مسيحي مؤرخ هو : « الفيكونت فليب دي طرازي » حين يقول :

« راح البابوات في القرنين الثاني عشر والرابع عشر (م) بقرون قصادهم ورسلهم

ورهبانهم بتعلم العربية ترويجا لخطتهم الكاثوليكية ، وقرر مجتمع فينا المنعقد سنة ١٣١١ هـ برياسة البابا « إقليميس الخامس » أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية في روما على نفقة الحبر الأعظم ، وفي باريس على نفقة الملك ، في أكسفورد وبولان على نفقة الرهبان ، وذلك لكي يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية ، وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية ، ويعدون من المآثر الباقية للبابا « لادن العاشر » أنه احتفل سنة ١٥١٤ م بافتتاح أول مطبعة عربية في مدينة فانو على ساحل الأدرياتيك .

وقد جد رجال الكنيسة في الحصول على كتب التراث الإسلامي ، فكانت بعثاتهم تطوف بالشرق الإسلامي من مصر والشام والعراق إلى ما وراء النهر والهند يشترون أندر المخطوطات ..

وتباري أتباعهم من رجال « الإكليروس » الشرقي لإتحاف مكتبة الفاتيكان بنفائس الذخائر العربية ، وبلغ ما زود به الكاردينال « فردريك رئيس أساقفة ميلانو مكتبة الأمير وزبانا من ذخائر العرب ألوفا عدة ، ثم جاء الأب « واتي » فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط » (٥٧) .

وأن المستشرق المشهور ليون كايتاني (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م) الذي بذل الأموال الطائلة على طبع كتابه المعروف في تاريخ حركة الفتح الإسلامي المسمى « حوليات الإسلام » ليعطينا الدليل على هدفه الحقيقي من تأليف كتابه .
« حوليات الإسلام » ومن عمله في التراث الإسلامي بصفة عامة وإنفاقه تلك الأموال الطائلة من أجل جمعه وتحقيقه ونشره ، نفهم ذلك من مقدمة كتابه ذاك ، حيث يقول في المقدمة : إنه إنما يريد أن يفهم من عمله ذاك سر المصيبة الإسلامية : « كاتاستروفيكا إسلاميكا » التي انتزعت من الدين المسيحي ملايين من الأتباع في شتى أنحاء الأرض ما يزالون يدينون برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) ويؤمنون به نبيا ورسولا » (٥٨) .

(٥٧) دى طرازى : خزائن الكتب : ٢ر٥٧٧ ـ ٥٨٠ .

(٥٨) عائشة عبدالرحمن . تراثنا بين ماض وحاضر : ٥١ ط دار المعارف القاهرة .

ولم يكن كايتاني وحده في هذا الشعور نحو التراث الإسلامي أو نحو الإسلام والمسلمين ، وإنما كان هو الصريح من بين المستشرقين ، وإن كانت صراحة محدودة أيضا .

وإن الناظر إلى التاريخ السياسي الحديث ، وإلى تاريخ استعمار العالم الإسلامي في العصر الحديث ، وإلى تاريخ استعمار العالم العربي على وجه الخصوص ليدرك بغير عناء أن حركة الاستشراق واكبت وسايرت حركة الاستعمار بل مهدت لها في كثير من البلاد ، وليس من الخفي على أحد من المثقفين أن أول جماعة أسست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسيا ، قامت في فرنسا سنة ١٢٠٢ هـ ـ ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات ، وأن هذه المسايرة وهذا التمهيد للاستعمار هو الذي جعل حركة الاستشراق كلها إلا في القليل النادر ـ موضع الشك والريبة ، وهو الذي انحرف بها عن الجادة وحاد بها عن الحق وآداب البحث العلمي النزيه ، وهذا هو ما نعنيه بتشويه التراث الإسلامي كوسيلة من وسائل الغزو الفكري الخبيث الذي يفقد المسلمين ثقتهم في كتابهم وسنة رسولهم صلى الله عليه وسلم ، وتاريخهم ونظام حياتهم وتراثهم .

ولا نستطيع في هذا البحث أن ندلل على تشويههم للتراث الإسلامي بكل الوسائل التي قاموا بها في هذا المجال ، لأن مثل هذا الاستيعاب بالغ العسر من جانب ، وغير ممكن في إطار هذا البحث من جانب آخر ، لاسيا إذا وضعنا في الاعتبار أنهم شوهوا التراث الإسلامي بوسائل عديدة وفي ظروف متعددة وفي ألوف من الكتب والبحوث والنشرات ، من أجل هذا سوف نكتفي بالإشارة الدالة واللمحة المعبرة والاستشهاد ، وهو أمر جعلنا نقصر الحديث هنا في مجال تشويه التراث الإسلامي ، على مستشرقين اثنين لكل منهما صلة وثيقة بتشويه التراث الإسلامي من جانب ، ولكل منهما مكانة مرموقة عند كثير من الدارسين مسلمين وغير مسلمين من جانب آخر .

هذان المستشرقان هما : ـ

١ ـ الأمير الإيطالي : ليون كايتاني (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦ م)
أحد كتاب دائرة المعارف الإيطالية .

٢ ـ يوسف شاخت : (١٩٠٢ ـ ١٩٧٣ م) المستشرق الألماني
وأحد كتاب دائرة المعارف الإسلامية .

أما الأمير الإيطالي : ليون كايتاني فهو معدود من أكبر المستشرقين ـ بل أكبر مستشرق في التاريخ العربي (٥٩) .

وقد سبق أن قلت آنفا : إن مقدمة كتابه « حوليات العالم الإسلامي » قد اشتملت على تصريح له خلاصته : أنه يقوم بهذا العمل الضخم في التاريخ للإسلام ، ليفهم سر « المصيبة الإسلامية » التي انتزعت من المسيحية أتباعها .

ولنا أن نتساءل حول ما يكتبه كايتاني عن الإسلام ألهذا المكتوب قيمة علمية موضوعية ؟ أله تلك القيمة وهو صادر من رجل حاقد سلفا ؟ .

وإن نظرة إلى الكتب التي ألفها كايتاني لتدلنا على هدفه الذي يريد أن يصل إليه من وراء ذلك العمل المضني ، فهو قد أنفق ماله ـ حتى أفلس ـ وفرغ نفسه وضحى بوقته كله في سبيل العلم ـ كما يقولون ـ وجعل همه البحث في تاريخ الإسلام وحركته ، لا لشيء إلا ليفهم « سر المصيبة الإسلامية » كما قلنا .

ومن أشهر كتبه وبحوثه :

١ ـ نمو الشخصية الإسلامية (العالم الإسلامي ١٩١١ م) .

٢ ـ انتشار الإسلام وتطور الحضارة (العلوم ٦ بولونيا عام ١٩١٢ م) .

٣ ـ دراسة التاريخ الشرقي : سيرة الرسول (ميلانو ١٩١٤ م) .

---

(٥٩) نجيب عفيفي : = / ٣٧٢ ط دار المعارف ـ القاهرة .

٤ ـ تاريخ الإسلام من العام الأول الهجري إلى عام ٩٢٢ هـ (٦٢٢ ـ ١٥١٧ م) .

فكانت الحقبة الأولى من العام الأول الهجري إلى عام ١٣٢ هـ في خمسة مجلدات ١٧٣٠ صفحة (باريس ـ روما من ١٩١٢ الى ١٩١٨) .

وتاريخ البحر الأبيض المتوسط والشرق الإسلامي في سنة ١٣٢ هـ إلى ١٤٤ هـ في ٣٣٤ صفحة (مؤسسة كايتاني ـ مجمع لنشاي روما ١٩٢٣ م) .

وحوليات الإسلام ، من المجلد الخامس إلى المجلد العاشر في ٣٢٠٦ صفحات (ميلانو ـ روما من سنة ١٩١٢ ـ ١٩٢٦ م) . (٦٠)

وفي كل ذلك الذي كتبه كايتاني عن الإسلام وتاريخه وتاريخ النبي صلى الله عليه وسلم ، لم تفارقه روح التعصب ، ولا الرغبة في التشويه ، ولم تفارقه أبدا ـ كما قال هو عن نفسه ـ الرغبة الملحة في التعرف على « سر المصيبة الإسلامية التي انتزعت المسلمين من المسيحية » .

ولننظر كيف يعبث « كايتاني » بالتراث الإسلامي عبث الحاقد المتعصب الذي أعمته الكراهية « للمصيبة الإسلامية » على حد قوله ...

في كتابه (الحوليات الإسلامية) في الجزء الأول منه فصل بعنوان :

(ملاحظات نقدية عن القيمة التاريخية لأقدم ما روي من السنة عن شئون الرسول (صلى الله عليه وسلم) ..

وأنا هنا أنقل عن دائرة المعارف الإسلامية حيث يعلق المرحوم أمين الخولي على « مادة أصول » التي حررها المستشرق الألماني يوسف شاخت في الدائرة :

---

(٦٠) السابق : ١/٣٨٤ .

في هذا الفصل عرض ـ كايتاني ـ للسنة سندها ومتنها بما عرض له ، وكان مما جاء في نقد المتن قوله في آخر الفقرة (١٥) عمن بعد الصدر الأول من المحدثين ما ترجمته :

« كل قصد المحدثين ينحصر في واد جدب ممحل ، من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي ، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه » .

وفي الفقرة (١٦) يقول : « لكن إذا كان الإسناد كامل النظام محتويا أسماء حسنة ، استبعد كل اشتباه وسوء ظن » .

وفي الفقرة (١٨) يقول : « سبق أن قلنا إن المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة إلى ما وراء الإسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص ، إذ يرونه احتقارا لمشهوري الصحابة وقحة ثقيلة الخطر على الكيان الإسلامي »

ثم يواصل قوله فيقول : « إذا كان الإسناد من الصحابي في النهاية حتى يؤلف المجموع الحديثي (بخاري أو مسلم مثلا) كان الأساس قويا ، وصار نص السنة قسما من الوحي الإلهي ولذلك لا يناقش ، فإن كان الإسناد على غير نظام كان النص تقريبا كذلك ، ولا يمكن اعتباره موثوقا به ، ولذا فأي امتحان له غير مفيد من هذا الارتباك الغريب ، ومن ذلك الخلط بين الإنساني ـ يعني السند ـ والإلهي ـ يريد السنة المروية ـ نشأت كل الأغلاط في السنة الإسلامية » .

هذا هو عبث « كايتاني » بالتراث الإسلامي ، وذلك مبلغ حرصه على التحقيق والتدقيق والتوثيق ، ذاك هو كايتاني الذي يثق فيه كثير من الباحثين مسلمين وغير مسلمين .

يقول المرحوم أمين الخولي تعليقا على كلام « كايتاني » الذي نقلنا :
ثم يطيب في هذا المقام بما لا يتجاوز هذه المعاني :

وها هو ذا كاتب مادة أصول « يقول هنا : « ومن المهم أن نلاحظ أنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه » وهو مخفف مما قاله « كايتاني » آنفا ـ ..

ثم جاز هذا المعني إلى الشرق ، فقال الأستاذ أحمد أمين في الجزء الثاني من ضحى الإسلام ، ما هو تسليم بجملة هذه الملاحظة إذ يقول : « وفي الحق أن المحدثين عنوا عناية تامة بالنقد الخارجي ـ يريد نقد السند ـ ولم يعنوا هذه العناية بالنقد الداخلي » ، ثم يقول : « ولكنهم لم يتوسعوا كثيرا في النقد الداخلي ، فلم يعرضوا لمتن الحديث هل ينطبق على الواقع أو لا ؟ ....

ثم يعلق أمين الخولي على كلام أحمد أمين فيخطئه بما لا نرى داعيا لذكره هنا .

فترى قول « كايتاني » : إذا كان الإسناد كامل النظام استبعد كل اشتباه » وقوله : إذا كان الإسناد من الصحابى حتى نؤلف المجموع السني كان نص السنة قسما من الوحي الإلهي ولذا لا يناقش الخ » .

فنرى هذه الأقوال وما يشبهها في كلامه من تقرير دوران قوة الحديث مع قوة السند وجودا وعدما تنقضها قاعدة مشهورة عند علماء أصول الرواية هي قولهم : واعلم أنه لا تلازم بين الإسناد والمتن إذ قد يصح السند أو يحسن لاستجماع شروطه من الاتصال والعدالة والضبط ، دون المتن لشذوذ أو علة ، وقد لا يصح السند ويصح المتن من طريق آخر « الأجهوري : حاشيته على شرح البيوقونية ص ٢٦ ، ٢٧ ، وهي قاعدة مشهورة توجد في المختصرات الصغيرة لمصطلح الحديث ، ونقضها لعبارات كايتاني واضح لا يعوزه الشرح .

ثم نرى قوله أيضا : « ما من أحد شغل نفسه بنقد النص نفسه » وقوله : « إن المحدثين والنقاد المسلمين لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسنة إلى ما وراء الإسناد ، بل يمتنعون عن كل نقد للنص الخ » فنرى أن أشياء كثيرة من عمل المحدثين تبطل هذا القول منها :

١ ـ ما أسلفناه من صريح قولهم في عدم ربط السند بالمتن وذكر أشياء تؤثر على المتن بعد صحة السند كالشذوذ مثلا وسنعود إليه بكلمة قريبا .

٢ ـ إعطاؤهم الحديث ألقاباً اصطلاحية من صفات خاصة بالمتن دون السند كتسميتهم الحديث « بالشاذ » أو « المقلوب » أو « المضطرب » أو « مدرج المتن » أو « المحرف » أو « المصحف » ونحو ذلك من أسماء لا مرد لها إلا اعتبارات في المروى نفسه تبين في علم الحديث دراية ولا نطيل بشرحها .

٣ ـ وضعهم قواعد لنقد المتن تصل من الحرية العقلية إلى حد بعيد ، وتقوم حينا على اعتبارات عقلية صرفة ، وحينا على معان أدبية فنية ، وحينا تعتمد على مقررات شرعية .

أ ـ فمن الاعتبارات العقلية الجزيئة ، أن كل خبر يناقض صريح العقل ، حيث لا تأويل فهو باطل ـ على القاريء ، وابن حجر العسقلاني ـ شرح نخبة الفكر ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، وحسب عشاق الحرية العقلية الصحيحة أن من المقررات الإسلامية إخضاع نص القرآن نفسه للعقل على سبيل الافتراض ـ وقولهم : لو تعارضت آية ودليل عقلي فإن الدليل العقلي يكون حاكما عليها « الآمدي : الأحكام ج ٣ ص ٢٢٦ .

ب ـ ومن المعاني الغنية التي حكموها في نقد السند اعتبارهم ركاكة اللفظ للحديث أو ركة معناه علامة على وضعه ... الخ .

جـ ـ ومن الاعتبارات الدينية التي تقوم على جعل المقررات الشرعية وحدة معقولة متماسكة متوافقة أن عدوا من علامات وضع الحديث مخالفة القرآن أو السنة المتواترة أو الإجماع القطعي ... الخ ـ النخبة وشرحها في الموضوع السابق .

٤ ـ أنهم نقدوا المتون الدينية بالفعل نقداً مطبقا على الأصول النظرية السابقة التي قرروها، ومن حسن الاتفاق أن قد سقنا لذلك كله أمثلة من نقد المتن في التعليقة الأولى من تعليقنا على هذه المادة ، وهي الخاصة بما يروي من سبب نزول آية ٥٢ من سورة الحج .

أفيقول كايتاني بعد هذا لهؤلاء إنهم لم يجرءوا على الاندفاع في النقد إلى ما وراء السند ، أو يقول شاخت إنهم أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للسند ؟ (٦١)

هذا ما فعله كايتاني من عبث بالتراث الإسلامي ، وهو أنموذج واحد من مئات النماذج التي يمكن أن يحصل عليها الدارس لكتبه وبحوثه عن الإسلام والمسلمين .

وأما يوسف شاخت (١٩٠٢ م ـ ١٩٧٣ م) فإنه قد اشتهر بين المستشرقين بدراسة التشريع الإسلامي والحديث عن نشأته وتطوره وتأثره وأثره ـ كما يقول نجيب عقيقي في كتابه : « المستشرقون » (٦٢) .

وقد عبث يوسف شاخت ما شاء له العبث بالتراث الإسلامي ، محاولا أن ينفس في هذا العبث عن أحقاده على الإسلام والمسلمين ، ويكفي هنا ـ في هذا المجال المحدود من البحث ـ أن نذكر ما قاله في مادة « أصول » التي كتبها في دائرة المعارف الإسلامية .

جاء في الفقرة الثالثة مما كتبه « شاخت » في مادة « أصول » ما نصه :

« وبموت النبي (صلى الله عليه وسلم) انتهى بالطبع التشريع الذي كان يقوم على التنزيل أو على حجية النبوة ، وكان من الطبيعي أن يحاول الخلفاء الأول السير بالأمة الإسلامية على سنة منشئها مسترشدين في ذلك برأي كبار صحابة الرسول (صلى الله

---

(٦١) دائرة المعارف الإسلامية : ٤٩٦/٣، ٤٩٧ ـ تعليق المرحوم أمين الخولي

(٦٢) نجيب عقيقي : المستشرقون : ٨٠٣/٢ .

عليه وسلم) وكانت المبادئ التي استرشدوا بها هي ما ورد في الكتاب وما صح من أحكام الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما لم يرد له ذكر في الكتاب ، ولما حاولوا بسط هذه المبادئ المحدودة نوعا ما انتهى بهم الأمر إلى التوسع في تأويلها توسعا خرج بها عن معناها الأصلي ، وربما كان سببا في ظهور أحاديث جديدة .

وفي الوقت نفسه لم يكن الخلفاء باعتبارهم رؤساء للدولة وخلفاء للنبي (صلى الله عليه وسلم) محرومين من الجهود التشريعية بل ومن تغيير أحكام النبي (صلى الله عليه وسلم) .. (انظر ما سبق).

وربما صح تاريخيا ما تقوله الروايات من أن أبا بكر كان يحتذى حذو النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الأمر بينما كان عمر أكثر ميلا إلى التعديل والتغيير على أن الصلة بالقانون العرفي ظلت كما هي دون تغيير حتى بعد أن تعرض بكثير من المؤثرات الأجنبية نتيجة للفتوح العظيمة في العراق والشام ومصر .

وفي الفقرة الرابعة من هذا البحث يقول :

« ولما جاء بنو أمية وانتقل مقر الحكم إلى دمشق ، فقدت جماعات المؤمنين في المدينة ـ التي كانت مقر الحكم قبل ذلك ـ كل نفوذ فعلى في أمور الحكومة ، فأخذوا يكرسون أنفسهم في حمية وحماسة لتصوير المثل الأعلى لما يجب أن تكون عليه الأشياء ـ وكان ذلك المثل مباينا لما كانت عليه في الواقع .

وكان القانون العرفي يسود أقاليم الخلافة المتعددة دون منازع ، ويتطور جنبا إلى جنب مع النظام الفعلي للقضاء ـ وذلك لأن خلفاء بني أمية إلى عهد عمر بن عبدالعزيز كانوا بوجه عام لا يميلون كثيرا إلى تغيير ذلك القانون العرفي وإنشاء مقاييس تنهض على أساس ديني .

وقامت مبادئ التشريع الإسلامي لأول مرة في المدينة ثم في العراق والشام وأولئك الرجال الصالحون الذين عملوا بادئ الأمر دون أن تكون لهم خطة مرسومة أو منهج معين ، كانت غايتهم تصحيح مادة القوانين التي كانت موجودة عند ذاك ، والتوفيق بينها وبين مبادئ الدين الإسلامي وسلكها في نظام خاص ، واستمدوا آراءهم الدينية من الكتاب والحديث اللذين كانوا يتقيدون بهما ، وكانوا يحتجون أيضا بأقوال الصحابة وأفعالهم (صحيحها ومنحولها) (٦٣) .

ثم يعلق المرحوم أمين الخولي على ما كتبه شاخت تعليقا شافيا ننقل منه ما يأتي :

« أول ما يلاحظ أن الكاتب في كلامه هنا عن أقوال الصحابة وأفعالهم يضع بين قوسين كلمتي صحيحها ومنحولها كما أنه عندما يذكر فيما بعد هذا بقليل سنة محمد (صلى الله عليه وسلم) التي ينهض الجانب الأكبر من الفقه الإسلامي عليها ، يتوخى كذلك أن يضع بين القوسين كلمتي صحيحها وزائفها فهذا الحرص المريب لا يقوم على أساس من النظر العلمي لأنه إن أراد من هذا القول أن الفقهاء قد فات في نقدهم للسنة شيء من المنحول والزائف فجائز عقلا أن يكون ذلك ولا يقول بعصمة الفقهاء أحد ، ولكن ليس هكذا يطلق القول ، على أن الكاتب لم يبين قوله هذا بمثال ، وإن أراد من هذه العبارة أنهم قصدوا إلى المنحول والزائف فاعتمدوا عليه فهذا باطل لا يتهمهم به أحد ، وإن أراد إدعاءه فليس بهذه السهولة يلقي ويكرر !! فعليه أن يوضح قوله ويحتج له .

ونعود بعد ذلك إلى قوله من أقوال الصحابة وأفعالهم فهو يذكر : أنهم كانوا يحتجون بأقوال الصحابة وأفعالهم ... الخ ، وهذا ليس صحيحا ، لأن أقوال الصحابة من حيث هي أقوال الصحابة لا يحتج بها وإنما يحتج بها من حيث هي سنة عن الرسول عليه السلام ، والأصوليون في الأخذ بها قد جروا على دقتهم ، ففرقوا الفرق العميق بين عبارات الأداء لهذه الأقوال ، واختلفوا حولها ، فعندهم : أن قول الصحابي : قال رسول الله كذا مما يختلف في أنه عن النبي أولا ، وقول الصحابي : سمعت رسول الله يأمر

(٦٣) دائرة المعارف الإسلامية : ٣/٤٩٣ .

بكذا وينهي عن كذا مما يختلف في كونه حجة ، وقوله : من السنة كذا قد اختلف في حمله على سنة الرسول ، « الآمدي : الأحكام ج ٢ ص ١٣٥ ـ ١٣٩ .

ثم مذهب الصحابي المجتهد قد اتفقوا على أنه لا يكون حجة على غيره من الصحابة المجتهدين ولو كان إماما أو حاكما أو مفتيا ، واختلفوا في كونه حجة على التابعين ومن بعدهم من المجتهدين ، والمختار أنه ليس بحجة مطلقا ، ثم بعد القول بأن مذهب الصحابي ليس حجة واجبة الاتباع، قد اختلفوا في أنه يجوز لغيره من المجتهدين تقليده أولا، والمختار امتناع ذلك مطلقا ـ الآمدي الأحكام ج ٢ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ و ج ٤ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ .

وهذا ابن حزم يضع الصحابة في رأس من لا يقلد ، فيقول بعباراته القوية المعروفة « ... أوجد أي الإنسان ـ نفسه تحكم فيما تازعت فيه أحدا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب فمن دونه فليعلم أن الله تعالى قد أقسم ـ يريد قوله تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) الآية ـ وقوله الحق أنه ليس مؤمنا ، وصدق الله تعالى وإذا لم يكن مؤمنا فهو كافر ، ولا سبيل إلى قسم ثالث ، وليعلم أن كل من قلد من صاحب أو تابع أن مالكا وأبا حنيفة والشافعي ، وسفيان ، والأوزاعي وأحمد وداود رضي الله عنهم متبرئون منه في الدنيا والآخرة ويوم يقوم الاشهاد « ابن حزم » : الأحكام ج ١ ص ٩٩ .

وليس القول في أفعال الصحابة على غير هذا التقدير لأقوالهم فلا احتجاج بهذه الأفعال من حيث هي أفعال صحابة ، إلا أن يتعلق الكاتب في ذلك بما يذكره المالكية من عمل أهل المدينة ، كما سيشير إليه بعد ، وليس النظر لهذا العمل من حيث هو عمل الصحابة خاصة ، فلا وجه معروف لما ذكرنا (٦٤) .

وبعد : فهذان أنموذجان لعبث المستشرقين بالتراث الإسلامي ، وهم بعد ذلك ينشرون هذا العبث في لغاتهم ثم يتخذه بعض الدارسين مسلمين وغير مسلمين مراجع ذات أهمية

---

(٦٤) دائرة المعارف الإسلامية : ٣/٤٩٣ ـ ٤٩٤ ط دار الشعب القاهرة .

كبيرة ، وذات ثقة ربما لم تكن محدودة في نظر هؤلاء الدارسين ، كما رأينا منذ قليل كيف نقل عنهم أحمد أمين على النحو الذي ذكره المرحوم أمين الخولي .

ولا أحب أن أنهي هذا الفصل من البحث دون أن ألقي ضوءا على الاستشراق أسبابه ومظاهره .

أما أسباب الاستشراق فان أبرزها سبب ديني في الدرجة الأولى ، فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة .

وجاءت حركة الإصلاح الديني المسيحي فشعر المسيحيون : بروتستانت وكاثوليك ، بحاجات ضاغطة لإعادة النظر في شروح كتبهم الدينية ، ولمحاولة تفهمها على أساس التطورات الجديدة التي تمخضت عنها حركة الإصلاح ، ومن هنا اتجهوا إلى الدراسات العبرانية ، وهذه أدت بهم إلى الدراسات العربية فالإسلامية ، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوي ، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أديانا ولغات وثقافات غير الإسلام وغير العربية (٦٥) .

ومن هذه الأسباب « رغبة المسيحيين في التبشير بدينهم بين المسلمين ، فدعاهم ذلك إلى الإقبال على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي ، وقد التقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق ، وقد أقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق ، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته ، وزودهم بالمال والسلطان ، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار (٦٦) .

---

(٦٥) نجيب عفيفى : المستشرقون مقدمة الجزء الأول .

(٦٦) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوربى ٥٣٣ .

وبجانب هذا وذاك ، كان هناك أسباب أخرى فرعية لنشأة الاستشراق : أسباب تجارية ، وأسباب سياسية ، ودبلوماسية ، وأسباب شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم ، ويبدو أن فريقا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية ، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول إلى مستوى العلماء في العلوم الأخرى ، أو دخلوه تخلصا من مسئولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية ، أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم في الدين ، وتغطية لعجزهم الفكري ، وأخيرا بحثا عن لقمة العيش إذ أن التنافس في هذا المجال أقل منه في غيره من أبواب الرزق (٦٧) .

وهناك ملاحظة لبعض الباحثين تتعلق بالمستشرقين اليهود خاصة ، فالظاهر أن هؤلاء أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية ـ وهي محاولة إضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية على الإسلام بإدعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول ، ولأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرة أولا ثم دولة ثانيا ، هذه وجهة نظر بما لا تجد مرجعا مكتوبا يؤيدها غير أن الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتخلع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي .

وقد تركزت أهداف الاستشراق مع تنوعها أخيرا في خلق التخاذل الروحي وإيجاد الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة، وعملهم من هذا الطريق على الرضا والخضوع للتوجيهات الغربية (٦٨) .

من أسباب الاستشراق ما أشار إليه مؤلفا : التبشير والاستعمار حيث قالا : « ومن المبشرين نفر يشتغلون بالآداب العربية والعلوم الإسلامية أو يستخدمون غيرهم في

(٦٧) نجيب عفيفى المستشرقون : جـ ١ ص ١٩، ٢٨، ٤٠ .

(٦٨) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوروبى ٥٣٤ .

سبيل ذلك ، ثم يرمون كلهم مما يكتبون إلى أن يوازنوا بين الآداب العربية والآداب الأجنبية ، أو بين العلوم الإسلامية والعلوم الغربية (التي يعدونها نصرانية ، لأن أمم الغرب بالنصرانية) ليخرجوا دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب العربية والإسلامية ، وبالتالي إلى إبراز نواحي النشاط الثقافي في الغرب وتفضيلاً على أمثالها في تاريخ العرب والإسلام ، وما غايتهم من ذلك إلا تخاذل روحي وشعور بالنقص في نفوس الشرقيين وحملهم من هذا الطريق على الرضا بالخضوع للمدنية المادية الغربية (٦٩) .

تلك أسباب الاستشراق كما تحدث عنها الكتاب مسيحيين ومسلمين ، وهي أسباب محللة يحتاج كل منها إلى إسهاب وتفصيل .

أما مظاهر الاستشراق وأنشطته فهي كثيرة يمكن أن نشير إليها على النحو التالي :-

« حاول المستشرقون أن يحققوا أهدافهم بكل الوسائل : ألفوا المحاضرات والدروس و « بشروا » بالمسيحية بين المسلمين وجمعوا الأموال وأنشأوا الجمعيات وعقدوا المؤتمرات ، وأصدروا الصحف ، وسلكوا كل مسلك ظنوه محققا لأهدافهم .

وهذه نماذج من صور نشاطهم المتعدد الجوانب :

١ - في عام ١٨٨٧ م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين ألحقوها بأخرى في عام ١٨٢٠ م وإصدار « المجلة الآسيوية » .

٢ - في لندن تألفت جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية في عام ١٨٢٣ م ، وقبل أن يكون الملك ولي أمرها .. وأصدرت « مجلة الجمعية الآسيوية الملكية » .

٣ - في عام ١٨٤٢ م أنشأ الأمريكيون جمعية ومجلة باسم « الجمعية الشرقية الأمريكية » وفي العام نفسه أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، كذلك فعل المستشرقون في كل من النمسا وإيطاليا وروسيا .

---

(٦٩) الخالدى وآخر : التبشير والاستعمار : ص ١٧ .

٤ - ومن المجلات التي أصدرها المستشرقون الأمريكيون في هذا القرن « مجلة جمعية الدراسات الشرقية » وكانت تصدر في مدينة « جامبير » بولاية « أهايو » ولها فروع في لندن وباريس وليبزج ، وتورونتو في كندا ، ولا يعرف إن كانت تصدر الآن ، وطابعها العام على كل حال طابع الاستشراق السياسي وإن كانت تعرض من وقت لآخر لبعض المشكلات الدينية ، وخاصة في باب الكتب .

٥ - ويصدر المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر : « مجلة شئون الشرق الأوسط » وكذلك « مجلة الشرق الأوسط » وطابعها على العموم الاستشراق السياسي كذلك

وأخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون في الوقت الحاضر هي مجلة « العالم الإسلامي » أنشأها صموئيل زويمر في سنة ١٩١١ م ، وتصدر الآن من هارتفورد بأمريكا ورئيس تحريرها كنيث كراج وطابع هذه المجلة تبشيري سافر .

وللمستشرقين الفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة « العالم الإسلامي » في روحها واتجاهها العدائي التبشيري واسمها أيضا

ولعل أخطر ما قام به المستشرقون حتى الآن هو إصدار « دائرة المعارف الإسلامية » بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجزها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها الدائرة ، وقد بدأوا في الوقت الحاضر في إصدار طبعة جديدة تظهر في أجزاء ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراستهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

واستطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى المجمع اللغوي في مصر ، والمجمع العلمي في دمشق والمجمع العلمي في بغداد .

ويعتمد المستشرقون ـ فيما يعتمدون ـ على عقد المؤتمرات العامة من وقت لآخر لتنظيم نشاطها ، وأول مؤتمر عقدوه كان في سنة ١٧٨٣ م ومازالت مؤتمراتهم تتكرر حتى اليوم .

وفي العصر الحديث تقوم المؤسسات الدينية والسياسية والاقتصادية في الغرب بما كان يقوم به الملوك والأمراء في الماضي من الإغداق على المستشرقين ، وحبس الأوقاف والمنح على من يعملون في حقل الاستشراق .

واتجه المستشرقون والمبشرون بمعاونة الاستعمار إلى مجال التربية ، محاولين غرس مبادئ التربية الغربية في نفوس المسلمين حتى يشبوا « مستغربين » في حياتهم وتفكيرهم ، وحتى تخف في نفوسهم موازين القيم الإسلامية (انظر ص ١١٤ من مجلة « الإسلام » الصادرة في ١٦ من مارس سنة ١٩٥٨) (٧٠) .

---

(٧٠) د . محمد البهى : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الأوربى : ٥٣٥ ـ ٥٣٧ . ط دار الفكر، بيروت

الباب الثاني

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

حملات التغريب الموجهة ضد الإسلام

تحدثنا عن حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام فيما سبق من البحث ، حديثا - وإن بدا مسهبا - رأيناه من ضرورات البحث ومتطلباته ، كما تصورنا ..

ونتحدث الآن عن حملات أخرى لا تقل ضراوة عن حملات التشويه ، وهي حملات التغريب للإسلام فكره وتاريخه وحضارته ..

ونعني بهذا التغريب تأثير الغرب فكره وحضارته في المسلمين .

وهذا التغريب مجموعة من الدراسات والأعمال والثقافات والنظم تجري حول المسلمين وتطبق على مجتمعاتهم فتؤدي بهم في النهاية إلى أن يتشبعوا بالفكر الغربي والحضارة الغربية المعادية للإسلام ، أو يكونوا تحت تأثير هذه الحضارة بحيث تحتويهم وتقضي على شخصياتهم وعلى ولائهم لدينهم ..

وهذا التغريب حملة خطط لها بذكاء ودبر لها بليل ، وهي من حيث المراحل تأتي - كما أتصور - في أعقاب حملات التشويه ، لأن من يشوهون الإسلام على النحو الذي ذكرناه فيما سلف من البحث إنما يعملون من أجل أن يكون هذا التشويه خطوة أولى تتلوها خطوات ، من أولى هذه الخطوات - كما أتصور - تغريب المسلمين بتحويل ولائهم للغرب ونظمه وعاداته وتقاليده ، بعد صرفهم عن الإسلام الذي شوه لهم إلى هذا الحد الذي تحدثنا عنه آنفا ، فليس أقرب إلى الارتماء في حضارة الغرب من قوم فقدوا ثقتهم في دينهم ومنهج حياتهم ونظامها ..

ولو شئنا أن نزيد الأمر وضوحا على وضوحه لقلنا : إن الاستشراق بأعماله قد مهد للتبشير وألقى له البذرة في التربة وأن التبشير مهد للاستعمار وسقى البذرة ورعاها حتى

أينعت وحان قطافها وأن الاستعمار جاء ليقطف الثمر ويجني المحصول ويعيد توزيع الأنصباء على الشركاء ، فدعم الاستشراق ماديا ومعنويا وأقام له المؤسسات والمراكز وعقد له المؤتمرات وأنفق عليها طائل الأموال ، ودعم مراكز التبشير وهيأ لها من الوسائل والإمكانات ما جعل شرها يزيد وضررها يستشري وقنائصها وضحاياها يقبلون على الشراك وهم ذاهلون عما يراد بهم ، هذا فضلا عما قام به الاستعمار لصالحه هو من تخريب وتدمير واستنزاف لخيرات البلاد الإسلامية .

ولقد تحكم الاستعمار في العالم الإسلامي والعالم العربي فكان حكامنا والقائمون على أمرنا ـ حينا طويلا من الزمان ـ منهم ، فتصرفوا في العالم الإسلامي تصرف المالك في ملكه ، فصرفوا في البشر فمسخوا شخصياتهم وشوهوا أفكارهم وحولوا ولاءهم من دينهم إلى الحضارة الغربية ، وتصرفوا في الأرض ، زرعوها حسب حاجة مصانعهم ومعاملهم فالقطن والكروم وغيرهما لمصانع الغزل والخمور وغيرهما .

وتحكموا في كل المقدرات الاقتصادية للعالم الإسلامي ، حتى فلول الجيوش المنهزمة أمامهم منعوها في كثير من البلاد المسلمة من أن تتطور أو تزيد ، وجعلوا سلاحها كله وقفاً على مصانعهم ، وحالوا بيننا وبين النهضة الصناعية ودعونا بلادا زراعية فحسب ، وزعموا أننا لا نفلح في صناعة وانطلت الخدعة على ـ الغافلين ـ امتلأت كتب المدارس والجامعات بهذه الافتراءات ، ونقرأ حتى يوم الناس هذا أن معظم بلدان العالم الإسلامي زراعية وأن سكانها يعيشون على الزراعة والرعي !!!

هؤلاء المستعمرون أداروا دفة السياسة في بلادنا فاستوردوا لها من بلادهم النظم والقوانين في الاجتماع والاقتصاد والسياسة ليديروا بها بلادا وبشرا يوقنون بأن هذه النظم تتصادم مع عقيدتهم وتتضارب مع دينهم ومعاملاتهم ، ولا تحقق لهم ـ بناء على ذلك ـ شيئا من نفع ، فضلا عما تلحق بهم من أضرار .

ومن عجب أن وجدوا فينا معشر المسلمين من يروج لهم ولمبادئهم ، ومن يزري بدينه ومنهجه في الحياة من أجل عرض من أعراضهم .

وقد ملك المستعمرون في بلادنا كل مرافقها وكل خيراتهـا وهيمنـوا على التعليم والثقافة وشطروا التعليم إلى شطرين ديني ودنيوي ودعمـوا الثانـي وحاربـوا الأول وقصروا الوظائف والمنح والبعثات على المتخرجين في التعليم الذي وضعوا هم مناهجه وخططه فارتمي الناس على أعتابهم وتعلقوا بأذيالهم وحاربوا كل ثقافة إلا ثقافتهم وكل تعليم إلا تعليمهم ، ولا نزال حتى يومنا هذا نعاني من نتائج هذه السياسة ، سياسة محاربة المسلمين في مستقبلهم وأرزاقهم أو أن يذوبوا في حضارة الغرب ونظمه وعاداته وتقاليده .

وفي كل مجال من مجالات الحياة الإنسانية في عالمنا الإسلامي الكبير كان لهم نشاط وكيد وتدبير ، بحيث فرضوا علينا من النظم والعادات والتقاليد ما يغرينا حقا وما يبعد بنا عن ديننا ونظمه وآدابه .

وسوف نتحدث في الصفحات التالية من البحث عن بعض هذه المجالات ـ وعلى الله قصد السبيل .

١ ـ في مجال التعليم والثقافة

وهذا المجال هو أخطر مجالات الحياة الاجتماعية ، والسيطرة عليه سيطرة على مستقبل الأمة وتحكم دقيق في خطواتها على الطريق في كافة ألوان النشاط البشري وما دخل الاستعمار بلداً إلا وكانت ضربته الأولى نحو سياسة التعليم ونظمه في هذا البلد ، وتاريخهم وتاريخ خططهم في تشويه التعليم في معظم بلدان العالم الإسلامي في أفريقيا وآسيا ليس بخاف على أحد ممن يقرأون ويفهمون .

وعندما استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي في هذين القرنين الأخيرين كانت معظم بلدان العالم الإسلامي تمزج في تعليمها لأبنائها في المدارس والكتاتيب والمساجد والمعاهد وكافة دور التعليم ، بين المعلومات والحقائق الدينية الإسلامية وبين المعلومات والحقائق التي تتطلبها حاجات الناس في مجتمعاتهم المتغيرة ، فكانت سياسة هذه المدارس تقوم على تكوين المسلم الفاهم لدينه القادر على العمل والكسب الشريفين ، وما تخرج من هذه المدارس والمعاهد والمساجد رجل واحد يعجز ـ بسبب القصور في مناهج تعليمه ـ عن ممارسة عمل شريف في حياته فكلما كان يتلقى طالب العلم أصول دينه وفروعه في المساجد والمعاهد والمدارس ، كان يتلقى أصول الحرفة التي يريد وكان المعلمون لهذه الحرف في دكاكينهم وحوانيتهم يقومون بتعليم الراغب في التعليم خير قيام ، وكان المتعلم يذهب إليهم صغير السن نسبيا حتى كان يسمى « صبيا » ولا تزال هذه التسمية تطلق في بعض البلاد العربية على الشادي المبتدئ في تعلم أي حرفة ..

هكذا كان حال التعليم يوم استولى المستعمرون على بلاد العالم الإسلامي ، تعليم يستهدف التبصير بالدين والدنيا معا ، فلما كان الأمر بأيدي هؤلاء الأعداء وجهوا كل اهتمامهم إلى هذا التعليم فأفسدوه ، وفرضوا من خططهم ومناهجهم وموادهم التعليمية ما يؤكد في نفوس المتعلمين احترام فكر الغرب وحضارة الغربيين وثقافتهم من جانب ، وما يزري بالفكر الإسلامي والحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية من جانب آخر ، ورموا بهذا الشر كل المدارس والمعاهد وأماكن التعليم في العالم الإسلامي كله ، وما استعصى

عليهم وعلى خططهم إلا قليل من المعاهد والمدارس التي كانت تعني بدراسة علوم الإسلام كالأزهر في مصر ، وكبعض المساجد التعليمية في قليل من بلدان العالم الإسلامي ، إذ استطاعت هذه الأماكن ـ إلى حد كبير ـ أن تحافظ على اهتمامها بدراسة العلوم الإسلامية وعلوم اللغة العربية فكانت بذلك رمزا لتمسك الأمة بدينها ولغتها وتراثها ـ ومع قلة هذه المعاهد والمساجد وقلة عدد المتعلمين فيها ـ إذا قورنوا بعدد المتعلمين في أماكن التعليم الأخرى ـ فإنها كانت شجى في حلوق المستعمرين ، وكانت سببا في أن يوجه لها المستعمرون أعتى ضرباتهم بأخبث أساليبهم ، فأخذ الأعداء يقللون من شأنها ويضيقون في الإنفاق عليها ـ وهم الذين يملكون وينفقون ـ ويزرون بالمتخرجين فيها ويحاولون عزلها عن الحياة العامة ، وتشويهها وتشويه ما تقوم على تدريسه وتعليمه في أذهان الناس عن طريق الصحف المأجورة والأقلام المشتراة وأدعياء العلم المسيطرين .

ولنضرب على ذلك مثلا واحدا في بلد عربي مسلم ، ذلك هو الأزهر « الشريف بقيامه على أمر علوم الإسلام » في مصر البلد الإسلامي ، كما ينص على ذلك دستوره ، وكما هو واقع المواطنين فيه .

فقد لقى الأزهر من حرب المستعمرين وأذنابهم وأبواقهم والساخرين منه ـ تقربا إلى العدو الكافر ـ بنكاتهم ورسوماتهم ومقالاتهم وبحوثهم وكتبهم ودراساتهم ـ حربا لا هوادة فيها ، فضيق المستعمرون وأتباعهم من الحكام عليه وعلى المتخرجين فيه تضييقا لا يزال بعضه باقيا حتى الآن ، وسخر الأتباع منه ومن العلوم التي يقوم على تدريسها ومن اللغة العربية « المتقعرة كما قالوا ، التي يدرس بها ، ومن عقليات علمائه وما هم عليه من غفلة وسذاجة كما يدعي الأذناب والأتباع » ، ومن الزي الذي يلبسون والكلمات التي ينطقون ، وكان وما يزال القصد من هذه الحملة هي أن ينعزل الأزهر برجاله وعلومه عن الحياة ، وعن التأثير والإيجابية في المجتمع ، ينعزل الأزهر بهذا الاسلوب الخبيث عن المجتمع انعزالا يوهم الناس بأن العيب كامن في الدين الذي يدعو إليه الواعظ وفي العلوم التي يدرسها المتخرج في الأزهر ، وليس في المجتمع الذي أفسده المستعمر والثقافات الشائهة المعادية التي صبها في أذهان الناس .

وليست محاولة انتزاع تدريس اللغة العربية والدين الإسلامي في المدارس العامة من المتخرجين في الأزهر ببعيدة عن الأذهان ، ولن يستطيع الآتي من الزمان مهما تطاول مداه أن ينسى الناس ما سطره بعض هؤلاء الدعاة المحالفون لحضارة الغرب الموالون لها في حرب الأزهر ومحاولة سلب رجالة العمل الذي يقومون به .

ففي كتاب « مستقبل الثقافة في مصر » لطه حسين جاء حول هذه القضية قوله : « فالذين يزعمون أننا نتعلم العربية ونعلمها لأنها لغة الدين فحسب ، ثم يرتبون على ذلك ما يرتبون من النتائج العلمية والعملية ، إنما يخدعون الناس ، وليس ينبغي أن تقوم حياة الأمم على الخداع ، فإن اللغة العربية ليست ملكا لرجال الدين (٧١) يؤمنون وحدهم بها ويقومون وحدهم من دونها ويتصرفون فيها ، لكنها ملك للذين يتكلمونها جميعا من الأمم والأجيال ، وكل فرد من هؤلاء الناس حر في أن يتصرف في هذه اللغة تصرف المالك متى استوفى الشروط التي تبيح له هذا التصرف ، وإذن فمن السخف أن يظن أن تعليم اللغة العربية وقف على الأزهر الشريف والأزهريين وعلى المدارس والمعاهد التي تتصل بينها وبين الأزهر والأزهريين أسباب طوال أو قصار ، هذا سخف لأن الأزهر لا يستطيع أن يفرض نفسه على الذين يتكلمون اللغة العربية ، جميعا ، وفيهم المسلم وغير المسلم (٧٢) .

هذه صورة من صور حرب الأزهر وسلب المتخرجين فيه أعمالهم أو أخص أعمالهم ، وكما نادى طه حسين بأن يقوم بتدريس اللغة العربية غير الأزهريين ، نادى كذلك بأن ينشأ معهد للدراسات الإسلامية يلحق بكلية الآداب مهمته أن يعني بالدراسات الإسلامية على نحو علمي صحيح - كما يقول :

وقد كتب طه حسين يبرر إنشاء هذا المعهد فقال:

« .. كلية الآداب متصلة بالحياة العلمية الأوروبية وهي تعرف جهود المستشرقين في

(٧١) كلمة «رجال الدين» تعبير غربى مستورد غير وارد فى مفهوماتنا معشر المسلمين على مدى أجيال عديدة .

(٧٢) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر : ٢٣٠ ط المعارف ١٩٤٤ م.

الدراسات الإسلامية ومن الحق عليها أن تأخذ بنصيبها في هذه الدراسات لتلائم بين جهود مصر التي ترى لنفسها زعامة البلاد الإسلامية وبين جهود الأمم الأوروبية (٧٣) .

ولعل النص التالي يوضح لنا حقيقة مشاعر الموالين لثقافة الغربيين نحو الأزهر والعلوم الإسلامية التي تدرس فيه ، ففي مؤتمر برنستون « للثقافة الإسلامية الذي عقد في صيف عام ١٩٥٣ م بدعوة من جامعة برنستون الأمريكية ، قدم الدكتور محمد خلف الله بحثا بعنوان : « القيم الإسلامية والحياة الأدبية في مصر الحديثة » جاء فيه قوله فيما نحن بصدده : « فقد بدأ القرن التاسع عشر والثقافة مركزه في الأزهر في فروع الدراسة الإسلامية التي كانت تدرس على مناهج القرون الوسطى ، والأدب مقصور على الآفاق الضيقة .... ثم اتجه النشاط حينا في أواسط هذا القرن إلى حركة الطباعة ونشر الكتب المترجمة عن الغرب في مختلف العلوم ، وبدأت ثروة اللغة العربية تزداد بهذه التراجم ، وبدأت عقول المصريين تتنسم أرواحا جديدة من أدب الغرب وثقافته ... (٧٤)

ولا نحب أن نستطرد في الحديث عن محاربة الأزهر بأكثر من هذا لأن لهذه الحرب أسبابا وبواعث ما نرى بحثنا هذا يتحمل الحديث فيها وبسط القول على النحو الذي يقتضيه التعريف ببواعث هذه الحرب وأسبابها ونتائجها في مصر وفي غيرها من البلاد العربية والإسلامية .

ولقد عمل المستعمر على أن يشن على اللغة العربية الفصحى لغة القرآن الكريم حربا ضارية عن طريق الدعوة إلى استخدام العامية واللهجات الإقليمية المحلية حينا ، وإلى استخدام الأحرف اللاتينية بدل الأحرف العربية حينا آخر .

وإن أعجب أن تصعد حملة الدعوة إلى العامية وإلى إحياء اللهجات الإقليمية ودراستها والعكوف عليها حتى تصل إلى أن ينادي بها ويؤيدها بعض أعضاء مجمع اللغة العربية ـ الذي من أبرز وظائفه المحافظة على الفصحى وتقريبها إلى الناس .

---

(٧٣) السابق : الفقرة ٤٩ .

(٧٤) محمد خلف الله : الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة : ٥٤٠ ط مؤسسة فرانكين القاهرة ١٩٦٢ .

ففي المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذي عقد في دمشق عام ١٩٥٦ م والذي حضره وفد يمثل مجمع اللغة العربية في القاهرة ووفد من المجمع العلمي العراقي ووفد من المجمع العلمي العربي في دمشق ، ووفد يمثل الأمانة العامة للجامعة العربية ، ومندوب يمثل اليونسكو ، ومراقبون مثل : الأردن والسعودية وليبيا ولبنان ، وكان هدف هذا المؤتمر بحث شئون اللغة العربية ، ولكن هذا المؤتمر دعا أعضاؤه إلى العامية وإلى تبديل الخط العربي وتغيير قواعد النحو والصرف والبلاغة .

ولنضرب على ذلك بعض الأمثال :

١ ـ يتحدث أحمد حسن الزيات عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة عن قضية الفصحى والعامية في المجمع فيقول : إن المحافظين من شيوخ الأدب قد سيطروا عليه في أول نشأته ـ يقصد المجمع اللغوي نفسه ـ ثم انتهى زمامه إلى الكتاب والصحفيين الذين نبهوا المجمع إلى أهمية العامية وإلى خطورة جمود اللغة بتخلفها عن مسايرة الزمن ... !!! هكذا يتحدث عن الفصحى أحد حماتها ! ولم يكتف الزيات بذلك ، بل قال : إنه يسهل علينا تطوير الفصحى حتى تقترب من العامية ، وإن علينا أن نشرع في دراسات عاميات الأقطار العربية المختلفة لإقرار ما هو مشترك منها سواء صح في معاجم اللغة أو لم يصح ... !!!

٢ ـ ويتحدث على جسن عودة مندوب الأردن في هذا المؤتمر فيقول : إن على الجامعة العربية « أن تعني بوضع معجم يسمى معجم العامة أو غير ذلك من الأسماء ، يكتفي فيه بالمفردات التي يحتاج إليها في كافة مرافق الحياة ، وتحشد فيه أوضاعا جديدة للدلالة على مستحدثات العصر الفنية المتداولة .. !!

٣ ـ ويتحدث إبراهيم مصطفى عن تيسير قواعد اللغة العربية ، بما هو مخرب للغة العربية وقاض عليها في حاضرها ومستقبلها .

٤ ـ ويتحدث طه حسين في مقال له بعنوان : تيسير القواعد في اللغة ـ فينادي بقريب مما نادى به إبراهيم مصطفى في تغيير قواعد الكتابة العربية .

٥ ـ ويتحدث منير العجلاني وأنيس فريحة وأحمد عبدالسلام أحاديث متقاربة في الدعوة إلى تغريب اللغة العربية وقتلها (٧٥) .

والعجيب أن هذه الدعوات ليست إلا صدى لما ردده أعداء الأمة الإسلامية من أمثال كرومر ودانلوب وويلككس وويلمون ، وأذنابهم من أمثال اسكندر معلوف ورئيف أبي اللمع وفارس عمر وغيرهم ، وحشد من أساتذة هؤلاء من المستشرقين أمثال : وليم سيتا ، وفولارز ، ويوريان ، وماسبيرو وباول ، وفيلوت وغيرهم .

فهي حملة ضارية لتغريب اللسان العربي بقتل فصحاه أولا ثم إحلال لغات أجنبية أو لهجات عامية محل الفصحى ذلك أن أعداءنا يدركون تماما أن اللغة هي فكر الأمة ووجدانها ، وأن لسانها ما هو إلا تعبير عن هذه الأفكار والعواطف ، فالحرب الحقيقية لأمة تبدأ بحرب لغتها للقضاء على تاريخها وحضارتها ومسخ حاضرها ، ومستقبلها ، وقد نجح عدونا في أن يغزو فكر الأمة الإسلامية بلغاته التي أشاعها بل فرضها على أبناء البلدان الإسلامية التي احتلها لغة تعليم ، ولغة وظائف بل لغة يستكثر بها من المال والجاه والسلطان ـ كما صرح بذلك أكثر من واحد من هؤلاء المستعمرين .

كما نجح عدونا في أن يفقد كثيرين من أبناء الأمة الإسلامية ثقتهم بلغة القرآن الكريم ، فسماها أحيانا باللغة الدينية ، وأحيانا اللغة الجامدة الفظة الغليظة ، وأحيانا وصفها بالعجز والتخلف وأحيانا ادعى أنها أصعب اللغات فهما وتعلما ونحوا وتصريفا .

وما يجهل عدونا قيمة اللغة في بعث كيان الأمة والنفخ في روحها ، بل حملها على التحرر والاستقلال ، ما يجهل عدونا ذلك ولا نجهله نحن فلنا وله على ذلك من التاريخ الحديث شواهد وبراهين :

---

(٧٥) محاضرات جلسات هذا المؤتمر الذى نشرته الجامعة العربية ـ متفرقات .

فالأمة التشيكية انبعثت حرة مستقلة عن طريق عنايتها بلغتها على الرغم من محاولة الألمان والنمساويين القضاء على اللغة التشيكية واعتبارها لغة أفظاظ ـ دعما لاحتلالهم للأراضي التشيكية ، وإخلاصا لرغبتهم الشديدة في حرب ماضي التشيكيين لإبادة حاضرهم ومستقبلهم ـ ولكن التشيكيين بتمسكهم بلغتهم وعنايتهم بها وحرصهم عليها فوتوا على عدوهم غرضه ونالوا حريتهم واستقلالهم .

والنرويجيون حينما تمسكوا بلغتهم في مواجهة الاحتلال الدانمركي والسويدي لبلادهم ورفضوا رفضا قاطعا لغة هؤلاء الأعداء ـ على الرغم من التقارب الشديد بين تلك اللغات ـ عندئذ عاشوا أحرارا مستقلين لا ينطقون لغة العدو التي تذكرهم بالذل والهوان .

وفي فرنسا قامت ضجة اجتمعت لها بعض المجالس النيابية واشتركت فيها الصحافة ، حتى إن صحيفة « لموند » أقامت الدنيا وأقعدتها آنذاك ، لأن كلمات أوروبية غير فرنسية قد تسربت إلى اللغة الفرنسية ، فخاف الفرنسيون من ذلك على لغتهم أولا وعلى أمتهم الفرنسية ثانيا .

وفي ألمانيا ـ في عهد النازيين ـ أصر الألمان على أن يضعوا كلمات ألمانية موضع بعض الكلمات اللاتينية اليونانية التي كانت مستعملة ، وقد أكد « فيختة » كاتب ألمانيا المعروف : أن اللغة الألمانية قادرة على رفع معنويات الأمة وإعادة وحدتها وتوطيد أركانها بعد أن كانت جيوش نابليون قد جعلت من ألمانيا ما يقرب من ثلاثين دويلة .

تلك شواهد من التاريخ الحديث على أهمية اللغة أي لغة في الأمة التي يتكلم بها ، فما بالنا إذا كانت لغتنا العربية هي لغة القرآن الكريم أكمل دين وأشمل نظام ؟

العجيب حقا أن يمضي عدونا في حرب لغتنا وإفساد لساننا ثم يجد أبناء اللغة العربية من يستجيبون له ويرددون باطله ، فيكونون حربا على لغتهم وأمتهم ودينهم .

وما تلك العامية التي يروجون لها ؟ أي عامية يعنون ؟ عاميات مصر العديدة أم عاميات الجزيرة العربية المتعددة ؟ أم عاميات المغرب العربي المختلفة ؟ أم عاميات الجزيرة الفراتية ؟ لست أدري ولا أظنهم يدرون كذلك .

ولقد أتيح لي شخصيا أن أزور معظم بلدان العالم العربي وأن أستمع إلى عاميات صعيد مصر ودلتاها ونوبتها ، وعاميات الكويت على ضيق مساحتها ، وعاميات الأردن ، والعراق جنوبه وشماله ، وعاميات المغرب العربي تونس والجزائر والمغرب ، وإلى اللهجات العديدة في المملكة العربية السعودية غربها وشرقها وجنوبها وشمالها ووسطها ـ والمملكة العربية السعودية مهد الفصحى وأمها الرءوم ـ وأشهد ـ في حدود علمي ـ أن هذه العاميات وتلك اللهجات التي لا تكاد تحصى في هذه المنطقة العربية تستعصي على فهم كثيرين من العرب أنفسهم .

أيٌّ هذه اللهجات العامية يشجع دعاة العاميات ؟ ومهما دافع أنصار العاميات فسموها أحيانا لغة الشعب أو تراث الشعب أو المأثورات الشعبية ، ومهما نادوا بأن تعني بها الجامعات وأن تنشئ لها الأقسام العلمية والكراسي والأساتذة ، فإن هذه الدعوة لن تبلغ من نفوس العقلاء مبلغ الرضى بحال .

وليس تشجيع تعلم اللغات الأجنبية واشتراطها في بعض الوظائف في العالم العربي بالذات إلا نوعا من التبعية ، ولونا من الاعتراف بأن لغة العدو والمستعمر لها في بلادنا من المكانة مالا تستحقه ، وهذا التشجيع للغات الأجنبية ليس في حقيقته إلا تبعية فكرية ثقافية ، وتغريبا ضروريا لعدد من أبنائنا ، وهو في الوقت نفسه حرب للغتنا وإحلال للغة أخرى محلها ، وإهمال للغة القرآن الكريم ، غير أن كلامنا هذا لا يعني أن نرفض تعليم اللغات الأجنبية في عالمنا الإسلامي ، وإنما يعني أن تكون للعربية المكانة الأولى في العالمين العربي بالذات والإسلامي بعامة .

وما أحوجني في هذا الموقف مع دعاة العامية ومشجعي اللغات الأجنبية أن أذكرهم بكلمة عبر فيها كاتبها عن موقف الإسبان في إقبالهم على اللغة العربية أيام « عبدالرحمن

الداخل » حينما أعجبوا بها وكتبوا أروع ما كتبوا وهجروا اللاتينية ، الأمر الذي أثار حفيظة متعصب كنسي هاله إقبال قومه على اللغة العربية فأخذ يتباكى على ذلك ـ أريد أن أذكر الآن بهذه الكلمة لأنها تعكس بدقة موقفنا نحن من اللغات الأجنبية لغات أعدائنا وأعداء ديننا .

تحدث الكاتب الإسباني المشهور « الفارو ALVARO » في القرن التاسع الميلادي الثالث الهجري تقريبا يصف إقبال قومه على العربية ، ويصور أسف أحد كبار الإسبان المتعصبين لهذا الإقبال فقال : « إن أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربي فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، ولقد ساء ذلك بعض كبار الإسبان فقال : إن إخواني المسيحيين يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ويدرسون التصانيف التي كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لدحضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربي الفصيح ، فإن اليوم من رجال الدين من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والإنجيل ؟ وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء ؟ وا أسفاه !!! إن الجيل الناشئ من المسيحيين الأذكياء لا يبحثون أدباً أو لغة غير الأدب العربي ، ويجمعون منه المكتبات الكبيرة بأغلى الأثمان ، ويترنمون في كل مكان بالثناء على الذخائر العربية ، بينما هم حينما يسمعون بالكتب المسيحية يأنفون من الإصغاء إليها ، محتجين بأنها شيء لا يستحق منهم مؤونة الالتفات ، فيا للأسى ، إن المسيحيين قد نسوا لغتهم ، فلا نكاد نجد فيهم اليوم واحدا في كل ألف يكتب بها خطابا إلى صديق ، أما لغة العرب فما أكثر الذين يحسنون التعبير بها على أحسن أسلوب (٧٦) .

أنا أهدي هذه الكلمات للعرب الذين يحاربون اللغة العربية ، وأذكر بها تلاميذ طه حسين ومحبيه وأذكرهم بما قاله عميد الأدب العربي في مجال قريب من مجال حديث ذلك الإسباني المسيحي الغيور على لغته ، أذكرهم بكلمة طه حسين في كتابه الذائع الصيت : مستقبل الثقافة في مصر ، ليروا بأعينهم ما يتمنى طه حسين للغته العربية :

---

(٧٦) مولود قاسم : إنية وأصالة ـ منشورات وزارة التعليم الأصلي والشئون الدينية بالجزائر ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م

يقول محاولا عزل اللغة العربية عن الحياة ، وربطها بأن تكون لغة دين وطقوس وعبادات فحسب ، لا لغة أدب وفكر وحياة : « وفي الأرض أمم متدينة كما يقولون ، وليست أقل منا إيثارا لدينها ولا احتفاظا به ولا حرصا عليه ، ولكنها تقبل في غير مشقة ولا جهد أن تكون لها لغتها الطبيعية المألوفة التي تفكر بها وتصطنعها لتأدية أغراضها ، ولها في الوقت نفسه لغتها الدينية الخالصة التي تقرأ بها كتبها المقدسة وتؤدي فيها صلواتها ، فاللاتينية مثلا هي اللغة الدينية لفريق من النصارى واليونانية هي اللغة الدينية لفريق آخر ، والقبطية هي اللغة الدينية لفريق ثالث ، والسريانية هي اللغة الدينية لفريق رابع ... وبين المسلمين أنفسهم أمم لا تتكلم العربية ولا تفهمها ، ولا تتخذها أداة للفهم والتفاهم ولغتها الدينية هي العربية ، ومن المحقق أنها ليست أقل منا إيمانا بالإسلام وإكبارا له وذياداً عنه وحرصا عليه (٧٧) .

أظن هذا الكلام من عميد الأدب العربي غني عن التعليق .

ولنتحدث الآن عن ثمرات هذا الإفساد للتعليم خططه ومناهجه وأهدافه ، لنرى كيف استطاع عدونا أن يغزونا في عقر دارنا ، وأن يفسد علينا أفكارنا ، وأن يحولنا إلى أتباع له في فكره وحضارته .

فمن أبرز ثمرات هذا الإفساد للتعليم أن حدث الاختلاط بين البنين والبنات في معظم بلدان العالم الإسلامي في المرحلة الابتدائية وفي بعضها في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، وفي أغلبها في المرحلة الجامعية ، وترتب على الاختلاط ما ترتب من عيوب ومآخذ وابتعاد عن منهج الإسلام في تنشئة البنين والبنات في ظروف تحفظ لهم حياءهم وكرامتهم الإنسانية وتصون أنوثة الأنثى ورجولة الرجل من الابتذال والامتهان .

ومن ثمراته أن تحول ولاء معظم المتعلمين والمتعلمات إلى الثقافة الغربية والحضارة الغربية فارتمى في أحضانها يعب من فسقها وانحلالها وانحرافاتها بالفطرة الإنسانية عما فطرها الله عليه ، متجاهلا ثقافته الإسلامية وحضارته الراشدة الهادية وآداب كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٧٧) طه حسين : مستقبل الثقافة فى مصر : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ ط المعارف ١٩٤٤ م

ومن ثمراته تلك المؤتمرات التي عقدت ولا تزال تعقد في العالم الإسلامي للنشاط الثقافي وتبادل التجارب التعليمية والميدانية والمعلمين التي تتبناها منظمة « اليونسكو » وذلك الترويج للفلسفات والآراء الاجتماعية والسياسية التي يتبناها الغرب ويدعو إليها هـذا وذاك من ثمرات جهود الأعداء في السيطرة على التعليم في العالم الإسلامي ، فهذه المؤتمرات والندوات تستهدف السيطـرة الكاملـة على العقلية الإسـلامية والمجتمعـات الإسلامية كلها .

ومن أمثلة هذه المؤتمرات المشبوهة في نواياها :

١ ـ مؤتمر تبادل المدرسين بين البلاد العربية الذي انعقد في القاهرة سنة ١٩٥٦ م بدعوة من منظمة « اليونسكو » .

٢ ـ مؤتمر التعليم الثانوي الذي عقد في مصر سنة ١٩٥٥ م وشاركت في الدعوة إليه الجامعة الأمريكية في القاهرة .

٣ ـ مؤتمر الحلقة التربوية التي دعت إلى عقده الجامعة الأمريكية في بيروت سنة ١٩٥٤ م وكان موضوعه « فلسفة تربوية متحدة في عالم عربي متحد » .

٤ ـ حلقة دراسات التربية للتفاهم العالمي التي انعقدت في مقر منظمة « اليونسكو » في بيروت سنة ١٩٥٥ م .

وغير ذلك من المؤتمرات والندوات والحلقات التي عقدت في مختلف بلدان العالـم الإسلامي ، والتي تستهدف السيطرة على التعليم نظمه ومناهجه وأهدافه في العالـم الإسلامي أو تقريبه ليخرج لهم متعلمين يوالون ثقافتهم وحضارتهم ويعادون الحضارة الإسلامية .

وما يشك بصير بالسياسة أن « اليونسكو » خاضعة لنفوذ أمريكي ملحوظ ، وأن أمريكا خاضعة لنفوذ صهيوني ملحوظ ، وأن الصهيونية من ألد أعداء الإسلام والمسلمين

ومن ثمرات السيطرة على التعليم أن نبتت فكرة خبيثة تنادي بأن الدين من الأعمال الشخصية الفردية الخاصة بالإنسان ، والتي تترك له فيها الحرية الكاملة دون التقيد في ذلك بآداب اجتماعية معينة ، ودون أن يكون لهذا التدين أدنى صلة بالنظم السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية السائدة في الحياة ، ودون نظر إلى معايير أخلاقية بعينها ، ودون أن يكون لهذا الدين صلة مؤثرة في الحضارة أو الثقافة أو الفنون ، وهذه الفكرة تستهدف عزل الإسلام عن حياة المسلمين ومسخ الشخصية الإسلامية بتحويل انتمائها إلى الحضارة الغربية .

ومن ثمرات سيطرة أعدائنا على التعليم دعوات الإلحاد والزيغ والفساد ، وتخنث الرجال وترجل النساء ، وكل أبقة من دعوات سفور المرأة ومخالطتها الرجال وتحريرها من سجن البيت ـ كما يزعمون ـ وتحويلها إلى ممثلة وراقصة ومغنية ومسامرة على موائد الخمر والميسر .

ومن ثمرات السيطرة على التعليم والمتعلمين أن مهدت الطريق أمام الأعداء ـ للقضاء على الموانع والعقبات ـ لكي ينشئوا مراكز وهيئات ومؤسسات معادية للإسلام محاربة لفكره وحضارته وأخلاقه وآدابه مثل :

مراكز التربية الأساسية في العالم العربي ، فهي تستهدف القضاء على القيم الإسلامية بدعوى التطوير والتنمية وهذه المراكز من أهم ركائز الغزو الفكري في العالم العربي والعالم الإسلامي ، فهي تحول العادات والتقاليد الموروثة إلى عادات وتقاليد غربية لا تعرف الحياء ولا تستحي من الأحاديث الجنسية المكشوفة بين الناس .

هذه ثمرات السيطرة على التعليم وتغريب خططه ومناهجه وأهدافه ، والهدف الكبير من وراء كل ذلك أن يذوب الكيان الإسلامي من نفوس المسلمين ، ليصبحوا نهبا للفكر الغربي والحضارة الغربية .

٢ ـ في مجال الحياة الاجتماعية

الحياة الاجتماعية وما يسودها من قيم خلقية وآداب سلوكية ، وما يحيط بهـا من عادات وأعراف وتقاليد هدف ضخم لأعداء الإسلام والمسلمين ، فبالسيطرة عليها أو تغريبها يستطيع الأعداء أن يسودوا المجتمعات الإسلامية وأن يغرسوا في نفوس الناس ما شاءوا من قيم وآداب وعادات وأعراف ، وإذا أفلحوا في ذلك استطاعوا بأيسر مجهود أن يقتلعوا من نفوس الناس القيم الإسلامية والآداب القرآنية وكل فضيلة دعـا إليهـا الإسلام .

وفي هذا المجال كان لمحاولة تغريب المرأة أولوية وأهمية ، لأن إفساد المرأة إسراع بالمجتمع كله نحو الفساد ، فمن المعروف أن المرأة ذات أثر لا ينكر في تربية الأبناء وتنشئتهم منذ نعومة أظفارهم ومن هنا يكون تشويهها أو تغريبها تشويها لأفراد الأسرة وبراعمها رجال المستقبل ونسائه .

فكانت الضربة الأولى للمرأة ، فنادوا بأن تخلع حجابها ففعلت وشجعها على ذلك الغافلون من أبناء دينها ، ثم نادوا بأن تتجرد من ملابسها شيئا وراء شئ ووجدت المرأة من أبنائها من يشجعها على ذلك ويزينه لها ، غافلا عما يقول أو ضالعا مع الأعداء .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى أصبح اختلاط البنات والبنين شيئا مسلما به في معاهد التعليم أكثرها وفي الحياة الاجتماعية أغلبها ، ثم زجوا بالمرأة في ميادين العمل ومصارعة الحياة ومزاحمة الرجال ، تقوم بما لم تهيئه لها طبيعتها وما لا تستطيعه في كثير من الأحيان ، فعملت صاغرة ذليلة عاملة في المزارع والمصانع ، وخدمت الرجـال في الفنادق ، وغنت لهم ورقصت ، وقامت بالأدوار التمثيلية لتمتعهم بصوتها وجسمها وما حرم الله عليها فعله ، حتى غدت سلعة رخيصة تباع وتشترى .

ولم تقف حملات تغريبهم للمرأةوسلخهامن إسلامها عند هذا الحد ـ على ما فيه من قسوة وضراوة ـ وإنما تجاوزوا ذلك إلى العبث بحقوقها وواجباتها التي فرضتها الشريعة الإسلامية والتي هي أكرم أسلوب لحفظ كرامة المرأة وصيانة حاضرها ومستقبلها ، فعبثوا بنظام الطلاق في الإسلام ، وعبثوا بنظام الحضانة ونظام الزواج ونظام الميراث .

وأعجب العجب أن نفذت ذلك بعض بلدان العالم الإسلامي ، سعيدة بأن المرأة بهذا سوف تكون مثل المرأة الأوروبية تماما .

ألا ليتهم يسمعون أو يعقلون ما تتحدث به المرأة الأوروبية اليوم عن المنزلة التي هي فيها !!!

ألا ليتهم يعلمون إلى كم تضيق المرأة الأوروبية بما هي فيه وما هي عليه من حال !!!

هذا في مجال المرأة .

وفي مجال الأسرة أخذت حملات التغريب صورة خبيثة ماكرة، فبعد أن بعدت المرأة عن بيتها ومملكتها معظم وقتها وأغلب يومها، كانت النتيجة الطبيعة لذلك أن يعيش أفراد الأسرة ـ وبخاصة الصغار ـ منهم في إهمال وتهاون، وترتب على عمل المرأة أن تترك أبناءها أغلب اليوم ليربيهم الخدم والأغراب، ولا يمكن تجاهل الآثار النفسية والتربوية السيئة التي عاني منها الطفل في مستقبل أيامه حين تحرمه وسائل التغريب من حنان أمه وحدبها وحرصها على توجيهه وتربيته أحسن تربية بوحي من فطرة الأمومة النقية الصافية.. وحتي لو أشرفت المرأة على تربية أبنائها بعد أن شوهتها حضارة الغرب وأفسدت ما فيها فإن هؤلاء الناشئين لن يكونوا في الصورة التي تمكنهم من الإسهام في بناء المجتمع الذي يعيشون فيه...

ومن هنا نستطيع أن نجد السبب وراء الجنوح والانحراف واحتراف الحرف المخلة بالآداب والمنافية للشرف والأمانة هنا ـ في مجال العبث بالأسرة ـ تجد الجواب !!!

وفي مجال حرب المجتمع كله والحيلولة بينه وبين النمو والتزايد ، وجهت ضربة قاسية له في الدعوة إلى تحديد النسل أو تنظيمه ، فهذه الدعوة الخبيثة فضلا عما فيها من إنقاص عدد المسلمين وإضعافهم ، فإن لها من الآثار الجانبية ما هو خطر وشر مبين .

فهذه الوسائل التي يمنع بها الحمل منها ما هو ضار بصحة الأم ـ كما أوضح ذلك بعض أهل الخبرة من الأطباء ، وهي في عمومها ضارة بالأخلاق لأنها تتيح لكثيرات من أهل الفجور ـ والعياذ بالله ـ أن يرتكبن جريمة الزنا ثم يخفين آثارها بهذه الوسائل .

ولنا أن نتساءل قائلين :

لماذا تقوم الدعوة إلى تحديد النسل على قدم وساق في بلدان العالم الإسلامي وحده دون دول أوربا مثلا ؟

ولماذا تشجع البلدان الإسلامية والعربية والنامية ـ كما يقولون ـ على تحديد النسل ، بينما تشجع بعض دول أوروبا على زيادة النسل ؟ كفرنسا على سبيل المثال .

ولماذا لا نسمع عن تحديد النسل في البلد الذي اغتصبت أرضه من أهله ـ وهو إسرائيل ؟

أم القصد أن ينتقص عدد المسلمين دون سواهم ؟

وهل هناك صلة حقيقية بين تحديد النسل والمشكلات الاقتصادية التي يصطنعها عالم الغرب ويغرق فيها معظم العالم الإسلامي والعالم النامي ؟

إنني أدرك أن كلامي هذا سوف يكون شجى في حلوق كثيرين من الدعاة إلى هذه المصيبة المسماة تحديد النسل ، وأدرك أنهم إن قرأوا هذا الكلام فسوف يقرأونه ساخرين من كاتب لا يعرف ـ في نظرهم ـ كيف تتغلب الدول النامية على ما يدعي بالمعادلة الصعبة ـ وهي زيادة عدد السكان عن معدل الإنتاج في بلد ما ـ ولكن ليظن من شاء ما شاء فأنا أتصور أن تحديد النسل تآمر على القوى البشرية وإيقاف لها عند حد القلة والضعف وبخاصة في بلدان العالم الإسلامي ، ما أشك في ذلك ولا أتردد والدلائل من حولي شاهدة معبرة .

ثم وجهت إلى المجتمع ضربة قاسية في عاداته وتقاليده وآدابه العامة ، حاول بها الأعداء أن يغربوا مجتمعاتنا وأن يسعوا بها في الطريق الذي يذيب كيان هذه المجتمعات ويحل عراها ويلقي بها ضحية مسلوبة الإرادة في أحضان الحضارة الغربية .

فقد غربوا طريقتنا في الطعام والشراب فأصبح كثيرون منا يأكلون بيسراهم، ويحشدون على موائد الطعام ما هم في غير حاجة إليه ويتزيدون ويبالغون، ويجمعون إلى الطعام أشربة محرمة، ويسرفون فيه متجاهلين موقف الإسلام من كل ذلك.

وغربوا طريقتنا في اللباس والزي ، فأخذ الناس يلبسون من الملابس ما يكشف عوراتهم وما يصف أجسامهم ويشف عنها ، واختلط أمر اللباس فأصبح الرجال يقلدون فيه النساء والنساء يقلدن الرجال ، وأصبحت النساء بهذه الملابس كاسيات عاريات مائلات مميلات .

واخترع لنا الأعداء احتفالات سموها أعيادا بقصد إغراق الأمة في اللهو والباطل والتفاهات ـ فهذا عيد الأم وذاك عيد الأسرة وذلك عيد العمال ، وعيد الطفولة وعيد المرأة ، وعيد العلم وعيد رأس السنة الميلادية أو الهجرية ، وعيد كذا وعيد كذا ، بينما لا يعرف المسلمون من الأعياد الا عيدين عيد الفطر وعيد الأضحى وما وراء زيادة لا تستهدف إلا شغل الناس بالتافه من الأمور وإلقائهم في خضم التقليد وتيار الانجراف في التبعية للغرب وحضارته .

وما داهية اختلاط النساء بالرجال إلا واحدة من حلقات هذا المخطط الرهيب المعادي للإسلام ، يحاول بها العدو أن يقضي على رجولة الرجال وأنوثة النساء ، ويصل بها من وراء ذلك إلى إشاعة التخنث والميوعة والتفاهة في الرجال ، والترجل والتهتك والعرى في النساء ، فتنسلخ شخصية المسلم من دينها ، وتندفع على غير وعي ولا هدى إلى تقليد الأوروبيين في هذه الدواهي التي يحرمها الإسلام وتخالف روحه ونصوصة .

وليست السينما وما تعرضه من أفلام مثيرة للغرائز ومشجعة على العنف والسطو والانحراف ، وليست المسارح وما تعرضه من مسرحيات تتكشف فيها عورات النساء وتؤكد بها القيم الفاسدة وتتحدى بها سلطة الآباء والأمهات ، وسلطة المربيين والقائمين على أمر التعليم ليس ذلك كله إلا صورة من صور المحاولة المستميتة لتغريب الحياة الاجتماعية في المجتمعات المسلمة .

وعلى سبيل المثال : فإنني لا أجد تعليلا لعرض مسرحية « مدرسة المشاغبين » في أكثر من بلد مسلم إلا دعوة إلى التمرد على سلطة القائمين على التعليم ، ودعوة مماثلة إلى السخرية بهم والزراية بعملهم ، وإغراء الطلاب بهم ، وإلا فما هي الفائدة من عرض تلك المسرحية التي تختلط فيها الدعوة إلى التمرد بالدعوة إلى الجنس وإغراء الشباب بمشاكسة النساء وتتبع عوراتهن ، ما فائدة هذه المسرحية عند دعاة التقدم والتحضر والتغريب ؟

نحن في انتظار العبقري الذي سيجيب .

وما أمر هذا الاهتمام الزائد بالرياضة البدنية وأنديتها ؟

وما الهدف الحقيقي من وراء خلق التعصب لبعض الأندية الرياضية على بعض ؟

وهل هناك أدنى مصلحة اجتماعية أو سياسية من وراء جعل الناس فرقا متضاربة وأحزابا متعاركة من أجل انتصار فريق رياضي على فريق ؟

وهل القصد من ذلك قصد تربوي رياضي ينمي جسم الشاب وعقله وخلقه ؟

ولسنا بهذا من دعاة محاربة الرياضة البدنية ، ولكننا ندعو إلى تطويرها واختيار الأنسب منها لتربية الجسم والعقل والخلق وصناعة الرجال في إطار ما أحل الله للشاب المسلم من عمل ورياضة لا تورث الحقد ولا تعقب المشاحنات والمشاجرات ، ولا تجعل تكوين العضلات في الجسم هدف الرياضي قبل تكوين الأخلاق .

أم أن وراء الاهتمام الزائد بالرياضة والأندية الرياضية المختلطة هدف كبير ، وجزء من خطة تحاول إلهاء الشباب المسلم وشغله بالتافه المنحرف من الأعمال ؟

أما الحديث عن الملاهي والمراقص وعلب الليل ، وما يدور على شواطئ البحار « المصايف » فذلك محاولة جادة لطبع المجتمع المسلم بطابع المجتمع الغربي الذي لا يقيم وزنا للفضائل ولا يحترم الآداب .

هذه بعض مظاهر حملة التغريب في مجال الحياة الاجتماعية ، أتينا منها بالقليل الدال ولم نقصد الاستيعاب والتوسع خشية أن نفيض فيما لا تتطلبه طبيعة البحث وحجمه .

وفي مجال نظم الحكم والسياسة والاقتصاد وكانت خطة دعاة التغريب تقوم على اعتبار هذه الجوانب من الحياة أهم جوانب الحياة إيجابيةً وتأثيراً .

وقد خطط العدو ونجح في تخطيطه لتصبح أنظمة الحكم في أغلب بلدان العالم الإسلامي أنظمة غربية ، ولتصبح القوانين والآداب التي تحكم العلاقة بين الناس بعضهم ببعض ، أو بين الناس وحكامهم قوانين غربية مستوردة غربية ومعادية للإسلام وللمسلمين استهدف منها أصحابها أن تحل محل الشريعة الإسلامية والنظام الإسلامي .

وما المصارف ونظم تعاملها من حيث الربويات والفوائد والعمولات والمزايدات

وغيرها إلا أنظمة قصد منها تحدي النظم الإسلامية في التعامل بالمال ، واستغلال حاجة الناس دون رحمة أو رعاية ، وطبع المجتمع بطابع الغرب المادي الذي لا يقيم وزنا لحاجة المحتاجين ، وإنما يقطع العلاقات الإنسانية التي يجب أن تسود المجتمع وتشوه إلى حد كبير النظرة التي يجب أن ينظر بها الحاكم إلى المحكومين والمحكومون إلى الحاكم ، وليس لقيام الثورات الدموية الرهيبة والانقلابات العسكرية المدمرة من سبب أقوى من هذا القلق الذي تغرسه نظم الحياة الغربية في نفوس الناس هنا وهناك .

وليس القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم في أغلب بلدان العالم الإسلامي إلا صورة من القضاء الغربي الذي يتجاهل القيم الإسلامية في الفصل بين الناس في خصوماتهم ومنازعاتهم .

وليست المجالس النيابية ووسائل ترشيح الناس لها وانتخابهم إلا صورة من صور الأنظمة الغربية التي تتجاهل خلق الإسلام وآدابه ، وكذلك شأن المجالس النقابية وغيرها من المجالس .

والحق أن فرض النظم والنظريات على الناس وهي غريبة عنهم ولا تلائم فطرتهم التي فطرها الله ، ولا تتفق مع الإسلام الذي يدينون به ، وعمل متبربر متوحش فيه من القسر والضراوة ما فيه

وليس الهدف من تغريب نظم الحكم والسياسة إلا أن يعزل الإسلام عن قيادته الراشدة للحياة والأحياء ، وأن تعطل الشريعة الإسلامية التي اختارها الله نظاما متكاملا تقوم عليه حياة الأمن والطمأنينة لكل الناس .

وهذا هو التغريب الذي نعني ، وهو في الوقت نفسه من أخبث التيارات المعادية للإسلام وللمسلمين وهو حلقة من سلسلة كما ذكرنا في صدر الحديث عن حملات التغريب بعد حملات التشويه .

الباب الثالث

ركائز الغزو الفكري وأدواته

ركائز الغزو الفكرى وأدواته

نحاول ـ فى هذا الباب من البحث ـ أن ندل على ركائز الغزو الفكرى وأن نعرف بأدواته ووسائله ، وأن نتحدث عن الظاهر من هذه الركائز والوسائل ، والخفى منها ، رغبة فى أن نعرى هذه الركائز والأدوات عن أثواب الرياء والنفاق التى ترتديها ، وتحاول بها أن تبدو فى صورة البرئ ، فلعل هذا التعريف يكشف لجمهور المسلمين عن أعدائهم ، وينير أمامهم الطريق ، طريق العمل الجاد للاسلام ، العمل الذى نأمل أن يعيد إلى الأمة الإسلامية وضعها الصحيح بين الأمم ، « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ولا أدعى أنى فى هذا البحث سوف أستقصى أو أحصر حصرا دقيقا فأتحدث عن كل مركز من هذه المراكز أو كل أداة من هذه الأدوات ـ لأن ذلك بحث مستقل إذا مد الله فى العمر وأعان ـ ولا أدعى كذلك أنى سوف أتوسع فى الحديث عن كل ركيزة من هذه الركائز وكل وسيلة من تلك الوسائل ، وإنما جهدى أن أعدد من هذه الركائز والوسائل ، ماأتيح لى أن أتعرف عليه ، وأن أعرف بها تعريفا موجزا ، وآمل أن يتاح لى أو لغيرى من المهتمين بقضايا الفكر الإسلامى والأمة الإسلامية مايزيد المسلمين بصرا ومعرفة بهذه الركائز والوسائل والأدوات المعادية للإسلام ، ومايكشف بدقة عن خبايا هذه الركائز وماتجنده من أعوان وأتباع .

وهذه الركائز والأدوات منطلقات خطرة لشن الغارات وراء الغارات على الإسلام فكرا وسلوكا ، وعلى المسلمين أفرادا وهيئات ، وعلى بلاد المسلمين وخيراتهم فى الحاضر والمستقبل .

وهذه الركائز كما بدت لى يمكن أن أدل منها على الآتى : ـ

أولا : الصهيونية أو اليهودية .

ثانيا : التبشير بالمسيحية فى المسلمين أو التنصير وتلك هى التسمية الأدق .

ثالثا : الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتنصير .

رابعا : المبادئ والنظريات المعادية للإسلام مثل :ـ

أ ـ الديموقراطية .

ب ـ الشيوعية والاشتراكية .

جـ ـ القوميات بأنواعها العديدة .

خامسا : الفلسفات الهدامة التى تحركها وتتعاون معها فى أغلب الأحيان ركيزة أو أكثر من تلك الركائز التى أشرنا إليها آنفا ، وهذه الفلسفات أو المذاهب هى :ـ

أ ـ الوجودية .

ب ـ الفوضوية .

جـ ـ القاديانية أو الأحمدية .

د ـ البابية والبهائية .

هـ ـ الماسونية والروتارى وغيرهما .

فكل ركيزة من هذه الركائز ـ فيما يبدو لى ـ منطلق عتيد ، تستعد فيه حملات الغزو الفكرى للعالم الإسلامى والمسلمين ، ثم تنطلق منه بعد أن تتزود بالخطة والأدوات والرجال والأموال والأعوان .

ولئن بدت هذه الركائز فى نظر البعض متعادية أو متخاصمة ، فقد يكون هذا صحيحا حينا ، وباطلا وخداعا حينا آخر ، ولكن الأمر الذى لاتختلف فيه ـ ركيزة مع أخرى هو العداء الشديد للإسلام والمسلمين ، العداء الظاهر حينا والمستتر حينا آخر ، العداء الذى تشنه علينا أجهزة هذه الركائز ورجالها غير المسلمين حينا ، والذى تشنه علينا أجهزة ورجال مسلمون فى بعض الأحيان

وإلى الحديث عن هذه الركائز والأدوات .

أولا : الصهيونية واليهودية

فى مستهل الحديث عن هذه الركيزة ، أحب أن أنبه على أمر ذى أهمية وهـو أن اليهودية والصهيونية شئ واحد أو وجهان لعملة واحدة كما يقال ، وليس من الصحيح مايهرف به المضللون أو المضلون من أن اليهودية دين والصهيونية فكرة قومية سياسية ، إذ الواقع أن الصهيونية تخدم اليهودية وأن اليهودية لها نفوذها وسيطرتها على أولئك الصهيونيين سياسيين وغير سياسيين كما كشف عن ذلك بعض علماء السياسة فى أوربا نفسها .

فالصهيونية حركة خبيثة هدامة ، تستهدف القضاء على المبادئ والقيم وكل ماهو غير يهودى ، ومن مراحلها محاولة إقامة وطن لليهود فى فلسطين المسلمة العربية ، وأما بقية مراحلها فهى خدمة اليهودية العالمية ، حتى يصبح العالم كله ـ مسلمون وغير مسلمين ـ فى قبضة اليهود وتحت سيطرتهم كما تزعم توراتهم التى زيفوها حيث تقول : « سيقوم الرب ويقيس الأرض ويجعل عبدة الأوثان ـ الأميين ـ تحت يد إسرائيل .. ويسلم جميع ممتلكاتهم إلى اليهود (٧٨) .

وإذا كان بلفور سنة ١٣٢٦ هـ الموافقة ١٩١٧ م قد وعد اليهود بدولة فى فلسطين يحميها الانتداب البريطانى فإن الأمر فى معاونة اليهود على إنشاء تلك الدولة لم يقتصر على الإنجليز وحدهم ، وإنما قام الأمريكان فى ذلك بأوفى نصيب ـ وبخاصة اليهود منه وكذلك فعل الروس والفرنسيون وكثير من الدول المعادية للإسلام والمسلمين .

ولكى نتعرف على الصهيونية فى حجمها الصحيح وعلى الخطر الذى تدبره للإسلام والمسلمين ولشعوب الأرض جميعا ـ الأميين ـ أود أن نقرأ هذه الكلمة التى اعترف بها اليهود أنفسهم فى مجلة لهم تسمى « مجلة الجامعة الإسرائيلية » أخذها : لويس داست

---

(٧٨) التوراة : سفر المزامير : مزمور ١٤٩ ـ ١٥٠ ط القاهرة .

« *Louis Daste* مؤلف الكتاب : « اليهود والجمعيات السرية » حيث وضع تلك الكلمة على غلاف كتابه ونصها : « نصادف فى كل التغييرات الفكرية الكبرى عملا يهوديا ، وسواء كان ظاهرا واضحا أو خفيا سريا ، وعلى هذا فإن التاريخ اليهودى يمتد بامتداد التاريخ العالمي بجميع مجالاته ، حيث تتغلغل فيه بالاف الدسائس» (٧٩) .

ويكاد يكون بين الكتاب إجماع على أن اليهود مصدر الفتن والثورات والقلاقل فى كل مكان تناله أيديهم ، يقول فى ذلك : محمد عبدالله عنان : « يقرر الباحثون أن الدور الذى قام به اليهود فى بث روح الثورة وإنشاء الجمعيات السرية وإثارة الحركات الهدامة عظيم جدا ومؤكد جدا ، فهم دعاة الثورة وقادة التقويض ، وعنهم يقول الكاتب العظيم « برنارد لازار » : اليهودى يضطرم بروح ثورى وهو داعية للثورة سواء شعر بذلك أم لم يشعر . ومما يؤكد نسبة أكثر الحركات الهدامة السرية لليهود أنه تظهر دائما فى هذه الحركات آثار التعاليم اليهودية الفلسفية » (٨٠)

وهذه كلمة ثالثة « لسرجى نيلوس » الذى كتب عن اليهود وادعى أنهم سيقيمون دولة فى إسرائيل ، قبل قيام اليهود بتنفيذ ذلك بخمسين عاما على وجه التقريب .

يقول ذلك الكاتب : « ويستفاد من الصهيونية اليهودية السرية أن سليمان والعلماء اليهود من قبل قد فكروا سنة ٩٢٩ قبل الميلاد فى استنباط مكيدة لفتح كل العالم فتحا سلميا لصهيون .. »

وكانت هذه المكيدة تنفذ خلال تطورات التاريخ بالتفصيل وتكمل على أيدى رجال دربوا على هذه المسألة ، هؤلاء الرجال العلماء صمموا على فتح العالم بوسائل سلمية مع دهاء الأفعى الرمزية التى كان رأسها يرمز إلى المتفقهين فى خطط الإدارة اليهودية ، وكان جسم الأفعى يرمز إلى الشعب اليهودى ، وكانت الإدارة مصونة سرا عن الناس

---

(٧٩) د . أحمد شلبى : اليهودية : ٣٠٩ .

(٨٠) السابق : ٣٠٩ نقلا عن : محمد عبدالله عنان : تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة .

جميعا حتى الامة اليهودية نفسها ، وحالما نفذت هذه الأفعى فى قلوب الأمم التى اتصلت بها تسربت من تحتها ، والتهمت كل قوة غير يهودية فى هذه الدول .

وقد سبق القول بأن الأفعى لابد أن عملها متصل ، وأنها معتصمة اعتصاما صارما بالخطة الموسوية حتى يغلق الطريق الذى تسعى فيه بعودة رأسها إلى صهيون ، وحتى تكون الأفعى بهذه الطريقة قد أكملت التفافها حول أوروبا وتطويقها إياها ، وتكون لشدة تكبيلها أوروبا قد طوقت العالم أجمع ، وهذا مايتم إنجازه باستعمال كل محاولة لإخضاع البلاد الأخرى بالفتوحات الاقتصادية .

إن عودة رأس الأفعى إلى صهيون لايمكن أن تتم إلا بعد أن تنحط قوى كل ملوك أوربا ، أى حينما تكون الأزمات الاقتصادية ودمار تجارة الجملة قد أثرا فى كل مكان ، هناك ستمهد السبيل لإفساد الحماسة والنخوة ـ وللانحلال الأخلاقى ، وخاصة بمساعدة النساء اليهوديات المتنكرات فى صور الفرنسيات والإيطاليات ومن إليهن ، إن هؤلاء النساء أضمن ناشرات للخلاعة والتهتك فى حيوات المتزعمين على رؤوس الأمم .

والنساء فى خدمة صهيون يعملن كأحابيل ومصايد لمن يكونون بفضلهن فى حاجة إلى المال على الدوام ، فيكونون لذلك دائما على استعداد لأن يبيعوا ضمائرهم بالمال ، وهذا المال ليس إلا مقترضا من اليهود ، لأنه سرعان مايعود من طريق هؤلاء النسوة أنفسهن إلى أيدى اليهود الراشين ، ولكن بعد أن اشترى ـ هذا المال ـ عبيدا لهدف صهيون من طريق هذه المعاملات المالية (٨١) .

هذه هى الصهيونية أهم ركيزة من ركائز الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، تتخذ إلى ذلك كل سبيل وتسعى فى كل مجال مشوهة للإسلام تاريخه وحضارته ومفسدة للأخلاق ومصطنعة للمشكلات والمتاعب ومثيرة للفتن والثورات ومقتنصة للعديد من المسلمين تضمهم ـ على وعى منهم أو غفلة ـ إلى مؤسساتها ومنظماتها كالماسونية والروتارى وسائر الأنشطة الاجتماعية والرياضية .

---

(٨١) محمد خليفة التونسي : الخطر اليهودى : ٢١٤ ـ ٢١٥ ط بيروت الرابعة .

وهى كانت وماتزال معملا لتفريخ الأفكار الضارة والفلسفات الهدامة والمذاهب الضالة المنحرفة ، مع توجيه تلك الضربات إلى العالم الإسلامى أولا ، وإلى سائر الناس بعد ذلك ، وهى فى كل ذلك تتعاون مع سائر المراكز والركائز ، وتتقارب مع هذه المراكز وتتعاطف إلى حد أن كثيرين من اليهود وكثيرات من اليهوديات يدخلون فى أديان مختلفة عن دينهم زورا وخداعا من أجل الوصول إلى أهدافهم الخبيثة الهدامة التى تحدثنا عنها آنفا .

ثانيا : التبشير بالمسيحية بين المسلمين أو تنصير المسلمين

كلمة التبشير تعنى - كما يفهم ذلك من معاجم اللغة - الخبر الذى يفيد السرور إلا أنه بحسب أصل اللغة : عبارة عن الخبر الذى يؤثر فى البشرة تغيرا ، وهذا يكون للحزن أيضا ، فوجب أن يكون لفظ التبشير حقيقة فى القسمين » (٨٢) .

وبعض علماء اللغة يرون أن الكلمة إذا أطلقت كانت للخير ، وربما حمل عليه غيره من الشر ، ويكون ذلك جنسا من التبكيت » (٨٣) .

وقد أطلق هذا الاسم فى الكتب الحديثة على المنظمات الدينية التى تستهدف تعليم الدين المسيحى ونشره فى دولة ما .

وقد اهتمت الكنيسة بتوجيه جهودها إلى التبشير بالمسيحية فى العالم الإسلامى بالذات - فى القرون الأخيره - لتقتلع الإسلام من نفوس الناس وتحل المسيحية محله ، مما يطلق عليه عند بعضهم « حملات التنصير » يوضح ذلك المبشر « رايد » فى قوله : « إننى أحاول أن انقل المسلم من محمد إلى المسيح ، ومع ذلك يظن المسلم أن لى فى ذلك غاية خاصة ، أنا لاأحب المسلم لذاته ، ولا لأنه أخ لى فى الإنسانية ، ولولا أنى أريد ربحه إلى صفوف النصارى لما كنت تعرضت له لأساعده » (٨٤) .

ويقول : كارل بكر المبشر الألمانى : « إن الإسلام لما انبسط فى العصور الوسطى أقام سدا فى وجه انتشار النصرانية ثم امتد إلى البلاد التى كانت خاضعة لصولجان المسيحية »

(٨٢) الزبيدى : تاج العروس ٤٥/٣ ط الخيرية مصر ١٣٠٦ هـ .
(٨٣) ابن فارس : معجم مقاييس اللغة ط الحلبى - مصر ١٣٨٩ هـ .
(٨٤) مصطفى الخالدى وآخر : التبشير والاستعمار ١٩٢ ط بيروت .

ويكاد يجمع المبشرون فيما بينهم على الكلمة التالية التى جاءت على لسان المبشر جاردنر : « إن القوة التى تكمن فى الإسلام هى التى تخيف أوروبا .

ويصرح لورانس براون بالهدف الحقيقى للمبشرين من عملهم فى العالم الإسلامى حين يقول : « إذا اتحد المسلمون فى امبراطورية عربية أمكن أن يصبحوا لعنة على العالم وخطرا ، أو أمكن أن يصبحوا أيضا نقمة له ، أما اذا بقوا متفرقين فانهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير » (٨٥) .

وكل المبشرين وكل المستعمرين لايخشون شيئا مثل مايخشون الوحدة الإسلامية ، صرح بذلك المبشر القس سيمون حينما قال : « إذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوربى ، ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين فى غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها(٨٦)

يعترف بهذه النوايا السيئة عن الإسلام والمسلمين عدد من المبشرين مثل : صموئيل زويمر الذى يقول : « لاينبغى للمبشر المسيحى أن يفشل ، أو أن ييأس ويقنط عند مايرى أن مساعيه لم تثمر فى جلب كثير من المسلمين إلى المسيحية ، لكن يكفى جعل الإسلام يخسر مسلمين بذبذبة بعضهم ، عندما تذبذب مسلما وتجعل الإسلام يخسره تعتبر ناجحا يا أيها المبشر المسيحي، يكفى أن تذبذبه ولو لم يصبح هذا المسلم مسيحيا»(٨٧)

ويعترف بذلك مبشر آخر هو : أ . ل . شاتليه فى مقدمة كتابه ، « الغارة على العالم الإسلامى « إذ يقول : « ينبغى لفرنسا أن يكون عملها فى الشرق مبنيا قبل كل شئ على قواعد التربية العقلية ، ليتسنى لها توسيع نطاق هذا العمل والتثبيت من فائدته ، ويجدر بنا لتحقيق ذلك بالفعل أن لانقتصر على المشروعات الخاصة التى يقوم الرهبان

(٨٥) السابق : ٣٧

(٨٦) السابق : ٣٧

(٨٧) مولود قاسم : إنية وأصالة ط وزارة التعليم الأصلى بالجزائر .

المبشرون وغيرهم بها ، لأن لهذه المشروعات أغراضا اختصاصية ، ثم ليس للقائمين بها حول ولا قوة فى هيئتنا الاجتماعية التى من دأبها الاتكال على الحكومة وعدم الإقبال على مساعدة المشروعات الخاصة التى يقوم بها الأفراد فتبقى مجهوداتهم ضئيلة بالنسبة إلى الغرض العام الذى نحن نتوخاه ، وهو غرض لايمكن الوصول إليه إلا بالتعليم الذى يكون تحت الجامعات الفرنساوية ، نظرا لما اختص به هذا التعليم من الوسائل العقلية والعلمية المبنية على قوة الإرادة .

وأنا أرجو أن يخرج هذا التعليم إلى حيز الفعل ليبث فى دين الإسلام التعاليم المستمدة من المدرسة الجامعة الفرنساوية » (٨٨) .

ويعود نفس الكاتب بعد سطور من هذا الكلام ليقول : « وكنا منذ أمد بعيد نود أن نخوض فى ذكر تفاصيل أعمال هذه الإرساليات التى اشتهرت بخطتها ووفرة الوسائل التى أعدتها وتوسلت بها لمقاومة دين الإسلام (٨٩) .

وفى نفس المقدمة يقول : « ولاينبغى لنا أن نتوقع من جمهور العالم الإسلامى أن يتخذ له أوضاعا وخصائص أخرى إذا هو تنازل عن أوضاعه وخصائصه الاجتماعية ، إذ الضعف التدريجى فى الاعتقاد بالفكرة الإسلامية ، وما يتبع ذلك الضعف من الانتفاض والاضمحلال الملازم له سوف يفضى ـ بعد انتشاره فى كل الجهات ـ إلى انحلال الروح الدينية من أساسها لا إلى نشأتها بشكل آخر » (٩٠) .

ثم يواصل : « ولكننا نعود فنقول : إنه مهما اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث الشطر الثانى من خطتهم وهو (الهدم) فإن نزع الاعتقادات الإسلامية ملازم دائما للمجهودات التى تبذل فى سبيل التربية النصرانية والتقسيم السياسى الذى طرأ على الإسلام سيمهد السبل لاعمال المدنية الأوروبية ، إذ من المحقق أن الإسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، وسوف لايمضى غير زمن قصير حتى يكون الإسلام فى حكم مدينة محاطة بالأسلاك الأوروبية .

---

(٨٨) (٨٩) (٩٠) أ . ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ١٣ ـ ١٩ تعريب محب الخطيب ومساعد الباقى .

قد يظهر لإخواننا المسلمين أننا نتصرف فى مستقبلهم بحرية وبدون تكليف ولكن من منهم ينكر أن العالم الإسلامى أصبح هدفا لغلطات فتيان جمعية الاتحاد والترقى ، الذين ورثوا عبد الحميد واستعانوا بوسائله السياسية بعد أن خلعوه ، ولم تكن أمامهم وسيلة لإنقاذ السلطنه العثمانية والخلافة الإسلامية غير تنظيم حكومة مؤلفة من ولايات إسلامية متحدة ، وكل وسيلة غير هذه كانت تؤدى إلى نتيجة لابد منها وهى تقسيم المملكة » (٩١)

ويقول المستر « بلس » : « إن الدين الإسلامى هو العقبة القائمة فى طريق تقدم التبشير بالنصرانية فى أفريقية والمسلم فقط هو العدو اللدود لنا . (٩٢) .

ولا أحب أن يفوتنى نقل جدول أعمال المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ ١٩٠٦ م ، فهو قادر على توضيح الصورة التى يضمرها التبشير للإسلام والمسلمين ، أكثر من أى بيان .

وهذا الجدول قد تناول بحث المسائل الآتية : -

١ - ملخص إحصائى عن عدد المسلمين فى العالم .
٢ - الإسلام فى أفريقية .
٣ - الإسلام فى السلطنة العثمانية .
٤ - الإسلام فى الهند .
٥ - الإسلام فى فارس .
٦ - الإسلام فى الملايو .
٧ - الإسلام فى الصين .
٨ - النشرات التى ينبغى إذاعتها بين المسلمين المتنورين والمسلمين العوام .
٩ - التنصير .

---

(٩١) السابق : ٢٠ - ٢١ .	(٩٢) السابق : ٣٦ .

١٠ ـ الارتداد .
١١ ـ وسائل إسعاف المتنصرين المضطهدين .
١٢ ـ شئون نسائية إسلامية .
١٣ ـ موضوعات تتعلق بتربية المبشرين والعلاقات بينهم .
١٤ ـ كيفية التعليم فى الإسلام (٩٣) .

ولعل فى هذه العجالة التى قدمناها عن التبشير مايكفى للكشف عن نوايا المبشرين السيئة نحو الإسلام والمسلمين ، ولعل فيه كذلك إشارة ولو عابرة إلى أولئك الذين يدعون إلى التقارب بين الإسلام والمسيحية من المسلمين تنبههم إلى مايجب أن ينتبهوا إليه من ذلك الخطر الداهم الذى يتهدد الإسلام والمسلمين من المبشرين بالمسيحية فى بلاد المسلمين .

ولانستطيع أن نتجاهل أبداً أن التبشير كان الخطوة الأولى التى مهدت للاستعمار ومكنته من الاستيلاء على بلاد المسلمين وتسخير أرضها وخيراتها وكثير من أبنائها لخدمة الأغراض السياسية والتبشيرية معا .

ومن هنا ندرك خطر هذا المركز فى بث حملات الغزو الفكرى المعادى للإسلام ودفع تيارات الحقد والدس والتشويه والتحريف نحو غايتها المرسومة لها .

---

(٩٣) السابق : ٥١ .

ثالثا : الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتبشير والاستشراق ضد الإسلام والمسلمين

لاشك فى تحالف الاستعمار مع الصهيونية والتبشير والاستشراق وكل مذهب وفلسفة ، وكل جهاز ومؤسسة من أجل أن يصل إلى أهدافه وهى الاستيلاء على العالم الإسلامى استيلاء سياسيا حضاريا إن لم يتيسر الاستيلاء العسكرى .

ونعنى بالاستعمار فى هذا البحث : استعمار دول الغرب لدول الشرق أو للعالم الإسلامى بقصد الاستيلاء على خيراته وأهله وتوجيه كل ذلك لخدمة مصالح المستعمرين .

وليس الاستعمار حديث الميلاد - كما يتوهم بعض الناس - وليس وليد رغبة دول الغرب فى القضاء على دولة الخلافة العثمانية منذ قرنين من الزمان أو يزيد - كما يحلو لبعضهم أن يصوره - ليس هذا بصحيح ولا ذاك .

وإنما للاستعمار أبعاد وجذور امتدت فى ماضى الأمة الإسلامية مايقرب من تسعة قرون من الزمان أى منذ الحملة الصليبية الأولى على العالم الإسلامى بقيادة بطرس الراهب سنة ٤٨٩ هـ - ١٠٩٥ م ، والتى كانت من مراحلها حملة لويس التاسع ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م الذى وقع أسيرا فى دار ابن لقمان بمصر ، والتى ماتزال دول الغرب حريصة على شب نارها حتى الآن ، كما أوضح ذلك القائد البريطانى أدموند هنري ألنبى الذى قاد الحملة البريطانية من مصر لغزو فلسطين سنة ١٩١٧ م حيث استولى على بيت المقدس وقال كلمته المشهورة : « الآن انتهت الحروب الصليبية » وقد كوفئ من دولته بمنحة رتبة « فيلد مارشال » ولقب « فيكونت » .

فلا نبالغ حين نقول : إن الاستعمار امتداد للحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين ، وإن أهداف الحروب الصليبية قد أودعت فى ثقة وأمانة فى أيدى المستعمرين

ليحققوا ، ولقد اعترف بذلك بعض الكتاب الأجانب ، فهـذا رشتـر « *Richter* » يقول : « جهد الصليبيون طوال قرنين لاستعادة الأرض المقدسة من أيدى المسلمين المتعصبين ، فكان عهد الحروب الصليبية من أجل ذلك أروع العهـود فى العصـور الوسطى كلها .. ولكن ذلك الجهد قد خاب وتراجعت الحملة الصليبية أمام سدود عنيدة من التعصب الإسلامى (٩٤) .

وهذا جاردنر « *Gairdner* » يبدو أكثر صراحة من سابقه حيث يقـول : « لقد خاب الصليبيون فى انتزاع بيت المقدس من أيدى المسلمين ليقيموا دولة مسيحية في قلب العالم الإسلامى .... والحروب الصليبية لم تكن لإنقاذ هذه المدينة (القدس) بقدر ماكانت لتدمير الإسلام » (٩٥) .

ولم يعمل الاستعمار الحـديث ضد العالـم الإسلامـى منفـردا وإنمـا اعتمـد على الاستشراق من جانب وعلى التبشير من جانب آخر ، وقام هو بجهوده الخاصة من جانب ثالث فكانت للاستعمار مؤتمراته وندواته وأجهزته ورجاله وأعوانه .

ولننظر الآن فى محتوى مؤتمر استعمارى ألمانى ، تحدث فيه وسجل عنه كاتب يسمى : م . ك . اكسنفلد وهو صاحب التقرير المختص بالإسلام فى هذا المؤتمر وهو فى الوقت نفسه سكرتير جمعية التبشير في برلين .

قال ذلك الكاتب عن المؤتمر الاستعمارى في برلين : إن المؤتمر الاسـتعمارى امتـاز بميزتين : الأولى أنه بحث فى الشئون الصناعية والاقتصادية ، والثـانية إجماعـه على وجوب ضم المقاصد السياسية والاقتصادية إلى الأعمال الأخلاقية والدينية في سياسة الاستعمار الألمانى ، واستشهد بقول رئيس غرفة التجارة فى همبـورج : إن نمـو ثروة الاستعمار يتوقف على أهمية الرجال الذين يذهبون إلى المستعمـرات ، وأهـم وسيلـة للحصول على هذة الأمنية إدخال الدين المسيحى فى البلاد المستعمـرة ، لأن هذا هو

(٩٤) الخالدى وآخر : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية : ١١٥ .

(٩٥) الخالدى وآخر : التبشير والاستعمار فى البلاد العربية : ١١٥ .

الشرط الجوهرى للحصول على الأمنية المنشودة حتى من الوجهة الاقتصادية ، وحض السامعين على تقدير عمل المبشرين وإحلاله فى محلة اللائق به .

وبحث أعضاء المؤتمر الاستعمارى فى شئون تتعلق بالتبشير فكفوا المبشرين مؤونة الكلام عن أعمالهم ، ولم يشترك هؤلاء المبشرون فى المداولات إلا عندما أخذ المؤتمر يبحث فى أعمال فرعه الرابع - الخاص بالمسألة الإسلامية - فأفاض المبشرون وتوسعوا فى القول حتى خيل للجميع أن المؤتمر الاستعمارى تحول إلى مؤتمر تبشير (٩٦) .

وتحدث بعده مبشر مستعمر آخر هو : بكر عضو مجلس المستعمرات فى همبورج فأوضح موقف الحكومة وسياستها وعلاقتها بالتبشير من المسألة الإسلامية ، فقال : « إن الحكومة لابد لها من القيام بتربية الوطنيين المسلمين فى المدارس العلمانية مادام هؤلاء المسلمون ينفرون من المدارس المسيحية ، ونحن نعترف بهذه الحقيقة بالرغم من اعتقادنا بأن المدارس العلمانية تزيد الإسلام نموا وارتقاء .

وإذا نحن طالبنا الحكومة بتقدير مقاصدنا ومصالحنا فيجب علينا بداهة أن ندرك أهمية هذه المعضلة من حيث واجبات الحكومة ومصالحها أيضا (٩٧) .

ومن أهم قرارات هذا المؤتمر الاستعمارى الألمانى مانتقله الآن :

١ - إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، ولذلك فإن المؤتمر الاستعمارى ينصح للحكومة زيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة .

٢ - المؤتمر الاستعمارى - مع اعترافه بضرورة المحافظة على خطة الحياد تماما فى الشئون الدينية .

---

(٩٦) أ . ل . شاتليه : الغارة على العالم الإسلامى : ١٣٦ .

(٩٧) السابق : ٣٦ .

٣ ـ يشير ـ المؤتمر ـ على الذين فى أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل من طريق انتشار النصرانية ، وأن ينتفعوا من أعمال إرساليات التبشير التى تبث مبادئ المدنية خصوصا بخدماتهم التهذيبية والطبية .

٤ ـ من رأى المؤتمر أن الخطر الإسلامى يدعوا إلى ضرورة انتباه المسيحية الألمانية لاتخاذ التدابير ـ من غير تسويف ـ فى كل الأرجاء التى لم يصل إليها الإسلام بعد . (٩٨) .

وقد استطاع الاستعمار أن يخرب فى البلدان الإسلامية ماوسعه التخريب ، ولجأ فى ذلك إلى حيل وأساليب عديدة .

فتدخل الاستعمار بنفوذه وسلطانه لحماية المبشرين وتبرير إفسادهم لعقائد الناس ، وكأنه بذلك يرد لهم اليد التى سلفت لهم عنده .

واستطاع الاستعمار أن يشجع كثيرين من المسلمين على اعتناق الدين المسيحى ، وعلى حمل الجنسية الأجنبية ، ورتبت على ذلك كثيرا من الامتيازات .

وأعان الاستعمار الطوائف التبشيرية اليسوعيين والجزويت وغيرهما من الطوائف على أن يقوموا بما قاموا به من إفساد وتشويه ـ مهما غلفوا ذلك بأغلفة من المساعدات والخدمات .

واستطاع الاستعمار أن يصطنع الأسباب لإثارة الفتن والحروب والقلاقل فى البلدان الإسلامية ، وبخاصة البلاد التى يحس المستعمرون أن تجمع المسلمين فيها ـ يثير سخطهم مثل تركيا ، ومصر والمغرب العربى ومنطقة الشام والجزيرة الفراتية ، فقضى الاستعمار بأساليبه الخبيثة على الاستقرار فى هذه الأماكن وجعلها بركانا يغلى .

---

(٩٨) السابق : ١٣٧ ـ ١٣٨ .

واستطاع الاستعمار فى سبيل إضعاف المسلمين وحصرهم وحصارهم أن يقصيهم عن الشواطئ والثغور كما صرح بذلك شعبا بومان مؤلف كتاب : الجغرافية السياسية للعالم الإسلامى .

واستطاع الاستعمار أن يقضى على معنويات المسلمين وأن يشعرهم بأنهم غرباء فى بلادهم ، بما منحه من امتيازات للأجانب جعلتهم كأنهم أصحاب البلاد الأصليين .

واستطاع الاستعمار أن يقيم من الإدارات السياسية فى داخل بلاد المسلمين مايطبق عن طريقه سياسته الرامية إلى القضاء على كل نزعة إسلامية أو دعوة إلى توعية المسلمين أو حركة استقلالية .

واستطاع الاستعمار أن يصبغ حياة المسلمين بصبغة الحضارة الغربية ، فيحول كثيرا من المسلمين إلى أعوان وأتباع لهذه الحضارة وأهلها .

واستطاع الاستعمار أن يشجع الدعوات القومية كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبابلية والأشورية والبربرية والقومية العربية ، وكل هذه الدعوات إخمال لفكرة تجمع المسلمين حول الإسلام وليس القوميات .

وعن طرق أخرى عديدة استطاع الاستعمار أن يحارب الاسلام والمسلمين .

فعن طريق الدعوة إلى التطوير الاجتماعى للناس ومنحهم المعونات والمساعدات ومد يد الإحسان إليهم .. استطاع أن يستعبد النفوس ويشترى الذمم ، وفى إنشاء المدارس المغرضة والمشافى ودور العجزة وكبار السن ، وفى إنشاء النوادى الاجتماعية والرياضية وتنظيم جمعيات الشبان والشابات فى كل ذلك استطاع الاستعمار أن ينفذ إلى أغراضه وأن ينفث سمومه .

واتخذ وسائل أخرى للوصول إلى أهدافة المعادية للإسلام والمسلمين ، مثل السيطرة على التعليم وعلى الثقافة وعلى وسائل النشر والإعلام ، وعلى عديد من الكتاب والأدباء .

وهكذا استطاع الاستعمار متعاونا مع الركائز الأخرى المعادية للإسلام ، ومنفردا بخططه وأساليبه ، استطاع أن يكون من أخطر المراكز التى تتبنى الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ، وتدفع فى تيارات العداء أسوأ مايحمله تيار إلى من يصل إليهم .

رابعا : النظريات والمبادئ المعادية للاسلام

أعنى بهذه النظريات والمبادئ ، ماأصبح شغل الناس اليوم وموضع جد لهم وخصامهم مما يسمونه : الديموقراطية والرأسمالية والشيوعية والاشتراكية ومايتفرع عن ذلك من نظم ، وماكان كالأصل لهذه المبادئ من فلسفات .

فهذه المبادئ والنظريات التى ذكرت تعادى الإسلام بما تشتمل عليه من نظم لايعترف بها الإسلام ، وبما ترتكز عليه من أسس يحرمها لما تجلبه للناس من مضرة ولما تحرمهم به من منفعه .

فأغلب مافى هذه النظريات والمبادئ من نظم يستهدف تحقيق مصلحة فريق من الناس على حساب فريق ، ولايقيم وزنا للقيم الخلقية ولا للآداب التى يجب أن يتحلى بها الإنسان الراشد المستنير ، وكل مايؤدى إلى ذلك فهو فى الإسلام محرم وخبيث .

فلا النظام الرأسمالى أو الحر - كما يقولون - ومايعيش فى ظله من ديموقراطيات ،ولا النظام الشيوعى أو الاشتراكى ومايعايشه من حتميات وصراعات ، ولا الفلسفات القائمة على أساس المبالغة فى تقدير قيمة الإنسان وتفضيله على الدولة ولا نظيرتها التى تبالغ فى سحق الإنسان وإهدار حقوقه باسم الدولة ، لا هذه الأنظمة ولاتلك يمكن أن تتفق مع الإسلام ومنهجه العادل الحكيم فى تحقيق مصلحة الناس أجمعين وغرس الفضائل والآداب فى نفوسهم ووضع الإنسان والدولة كل منهما فى حجمه الصحيح ، ووضعه السليم ، ومن هنا يكون العداء والصراع بين هذه النظم والنظريات وبين الإسلام .

وليس لهذه النظريات والمبادئ من هدف أكبر ولا أجل أن تجد لها من الأعوان والأنصار من يطبقونها على أبناء الأمة الإسلامية فيباعد بها بين المسلمين ودينهم

ويقارب بها بينهم وبين النظريات والمبادئ المعادية لهم ، وهم بذلك يحققون كسبا فى اتجاهين خطيرين :

الأول : إقصاء المسلمين عن دينهم ومنهجه ونظامه .
والثانى : تحويل ولاء المسلمين عن دينهم إلى تلك النظريات والأنظمة والمبادئ .

ولقد كان ـ وما يزال ـ الهدف الأول من هذين الاتجاهين هو شغل أعدائنا الشاغل، لأنه بالضرورة يؤدي إلى الوصول إلى تحقيق الهدف الثاني، لذلك يبالغون في إغراق العالم الإسلامي في خضم هائل من النظريات والمبادئ والنظم والقوانين الوضعية.

أ ـ الديموقراطية

ففى ظل النظام الديموقراطى الذى يتغنى به كثير من الناس عارفين وغير عارفين ، والذى يراه بعضهم أمل الإنسانية المنشود ، وفردوسها الأرضى ـ كما يقولون ـ فى ظل هذا النظام ومع تطبيق مبادئه وقوانينه ينظر المسلم الواعى الفاهم لدينه ومنهج هذا الدين فى الحياة فيجد فى الديموقراطية عيوبا صارخة تعود بالضرر على الفرد حينا وعلى المجتمع حينا آخر .

وهى عيوب نعد منها ـ فى مجال هذا البحث ـ ولانعددها ، فمن ذلك افتراض الديموقراطيين أن الجماهير هى مصدر السلطات وأن الشعب له السلطة الكلية والسيادة المطلقة .

هذا الافتراض عاجز قصير النظر سقيم الإدراك لايعدو أن يكون خداعا للجماهير وتمويها على الشعوب ، فما دام الإنسان فى ذاته ـ بحكم خلقته وفطرته ـ غير مستقل بأمر كله فى هذ الحياة التى يحياها ، بل يستحيل عليه بحكم سنن الكون وقواميسه أن يستقل بكل أمره فكيف بمجموعة متألفة من هؤلاء الأفراد يمكن أن تكون أهلا للسلطة الكاملة والسيادة المطلقة ؟

ومن أجل هذا التناقض فإن الديمقراطية بعد تطبيقها وتهليل الغافلين لها تنتج واحدا من شكلين اثنين لحكم هذه الجماهير كلاهما أسوأ من أخيه ، فإما أن يؤدى نظامها إلى تركيز السلطة فى أيدى قلة من الواعين المدركين أهل الرأى والقدرة فتصبح الدولة حينئذ دولة هؤلاء الممتازين وحدهم ، وإما أن تتركز السلطة فى أيدى أصحاب رءوس الأموال ، وكلا الأمرين أضر بالإنسان من الثانى .

والحصيلة فى كل من الأمرين أن الجماهير ليست مصدر السلطات وأن الشعوب

ليس لها السلطة الكاملة ولا السيادة المطلقة ، وإنما السلطات والسيادة فى أيدى هذه القلة ، كما هو مشاهد فى كل الدول التى تطبق النظام الديموقراطى .

وكيف يقبل الإسلام أن تقوم حياة الناس على أن تستغل طبقة منهم سائر الطبقات ؟ وكيف يقبل الإسلام أن يميز بين الناس ويفاضل بغير التقوى والعمل الصالح .

ومهما حاول الديموقراطيون ان يصوغوا نظما وأن يسنوا من قوانينهم الوضعية ماينظم العلاقة بين الحاكم والمحكوم فإنها محاولات جديرة بالفشل والتخبط لأنها تقيم أسسها على أرض غير صالحة وتبنى مبادئها على افتراضات غير صحيحة .

أما الإسلام فإن قوانينه ونظمه ومنهجه كله من صنع الله سبحانه رب الناس العالم بما يصلحهم ، وهي قوانين ونظم لاتفترض في الإنسان أنه هين الشأن ، ولاتخدعه بأنه صاحب الاستقلال التام بحياته وصاحب السلطة الكاملة والسيادة المطلقة ، إذ يصرح الإسلام في هذا المجال بأن الأمر كله لله والسلطة كلها له ومنه يستمد الإنسان السلطة والأمر وفق الشرع الذى أوحاه إلى رسوله ووفق القوانين التى فصلها من لاينطق عن الهوى ، صلوات الله وسلامه عليه ، فالإنسان مقيد بهذا الشرع وفي هذا التقيد به كل خير له في دنياه وآخرته .

والديموقراطية تقع في تناقض حاد حين تدعي أنها بنظمها تحقق مصالح الجماهير كلها ، فما دامت هذه المصالح متضاربة بين فئة وأخرى من فئات هذه الجماهير فهذا هو التضارب الذى تعجز عن حله ، فلو تجاهلت هذه المصالح المتضاربة فقد تجاهلت مصالح الجميع ، ولو عنيت بمصالح بعض الناس دون بعض فذلك ظلم اجتماعي ليس له مايبرره ، وهو الذى سيؤدى إلى الطبقية والامتيازات كما هو مشاهد الآن .

والديمقراطيون يخدعون أنفسهم ويخدعون الناس عندما يتصورون أن مجالسهم النيابية التى تنتخب لتمثيل طبقات الشعب تعبر فعلا عن مصالح الشعب .

فهؤلاء المنتخبون سياسيون محترفون كل همهم أن يحققوا مصالحهم الشخصية ومصالح ذويهم وطبقاتهم دون بقية المصالح ، والبارع من هؤلاء السياسيين هو من يخدع هذه الجماهير عن نفسها ويخدرها بإعلان البرامج والوعود ، ولنا على ذلك ألف شاهد وشاهد في عالمنا المعاصر .

ب ـ الشيوعية والاشتراكية

وكذلك الشأن فى النظريات والمبادئ الشيوعية أو الاشتراكية ، فهى النظريات وإن كان أصحابها اكثر كلاما وضجيجا ودعاية وإعلانا ، وأكثر قدرة على انتقاء الكلمات الفخمة الضخمة والعبارات الطنانة الرنانة إلا أنها تقوم ـ فى الواقع ـ على خدمة طبقة بعينها ، مهما تشدقت بكلمات الشعوب والجماهير والمكاسب والانتقاضات والثورات والتقدميات والطلائعيات وأى مكاسب تلك التى تحرم الإنسان من رغبته الفطرية فى أن يتملك ثمرة عمله وجهاده ؟

أى تقدمية تلك التى تحرم على الإنسان الحرية فى أى شيء ؟

إن الإنسان فى ظل هذا النظام مسحوق فعلا بين المطرقه والسندان مطرقة الفئة الحاكمة المختارة من الحزب الواحد وسندان القاعدة الواسعة للحزب ، والإنسان فى ظل هذا النظام لايستطيع أن يفكر ولا أن يعمل ولا أن يعبر إلا فى الإطار الذى يرسم الحزب ابعاده ـ وماترتئيه الأطر المنبثقة عن الحزب الواحد المتسلط المستغل المهين لكرامة الإنسان هو المجال الوحيد الذى تتحرك فيه الفكرة او الكلمة أو أى نوع من العمل ومن فكر غير هذا ـ وماأقل المفكرين ـ اعتبر من الثورة المضادة وسحقته المطرقة على السندان ، ومئات الضحايا من هؤلاء يعدون معوقات لمكاسب الشعب يجب أن تزول من الطريق لتندفع الطلائع التقدمية نحو مزيد من المكاسب الجماهيرية الشعبية !!!

وماوقع نظام من النظم فى تناقض صارخ كما وقع النظام الشيوعى أو الاشتراكى ، فالتناقضات التى وقع فيها هذا النظام كافية لمحق مبادئه ونظرياته ومايدعو إليه ، فلم يحقق الشيوعيون ولا الاشتراكيون نجاحا فى أخص مايدعون إليه وهو النظام الاقتصادى وملكية الدولة لوسائل الإنتاج ، فإن التخبط فى هذا المجال بلغ مداه حتى لتوشك هذه النظرية أن تعلن على الملأ إفلاسها .

ولم يكن فشلهم فى الاجتماع والسياسة بأقل من فشلهم فى الاقتصاد وتوجيه رأس

المال ، وكم قرأنا وسمعنا عن الرغبة فى العودة لنظام الأسرة بعد إلغائه وإلى تشجيع العمال بالحوافز الإنتاجيةليجيدوا أعمالهم ، وكم سمعنا عن دولة تبنت النظام الشيوعى أو الاشتراكى ثم انقلبت عليه أو عدلت فيه ووقفت تناهضه وتعاديه !!!

وليس فيما رآه « هيجل » ولا ماتابعه أو خالفه فيه « كارل ماركس » غناء أو نفع للإنسان ، فليست العملية الجدلية عند هيجل ولا المادية التاريخية أو الجدلية عن ماركس بخارجة عن نطاق ينتج نتيجتين اثنتين يتغنى بهما أتباع هذه النظريات بينما لاتستساغ واحدة منهما فى عقل عاقل ، فضلا عن مصادمتهما للدين والأخلاق والنظم الاجتماعية الراشدة .

وأولى هاتين النتيجتين أن الدين والأخلاق والفضائل العلم والفلسفة مظاهر للروح العالمية السائدة فى عصر من العصور (فلا إله ولا خالق ولا وحى ، ولا أنبياء ولا مرسلين ولا ... ولا .... الخ

وثانى هاتين النتيجتين : أن مدنية ما عندما تنضج وتبلغ رشدها يتولد عنها طائفة ذات ميول وأفكار جديدة تصارعها وتحاربها وتتنكر لكل معطياتها ثم تأتى بالجديد (فلا ثبات ولا استقرار ولا اعتراف بخالق ولا رب ولا خلق ولا فضيلة ولا .... ولا ... الخ)

وقد زاد أتباع ماركس على هاتين النتيجتين نتيجة ثالثة ملخصها أن الدين والخلق والقانون متولد أبدا عن النظام الاقتصادى لمجتمع ما من المجتمعات (فلا إله ولا خالق ولا دين ولا خلق ولا .... ولا ... الخ)

هذه هى النظريات والمبادئ الشيوعية والاشتراكية فى كلمات فقط وتلك هى مناقضاتها للإسلام وهذه حربها للإسلام والمسلمين مايجهلها أحد من الناس الذين يتابعون الأحداث ويرقبون أعمال أصحاب هذه النظريات .

فهى إذن من أخطر المراكز التى تنطلق منها حملات الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، تتخذ منها تيارات العداء للإسلام زادها وتستمد منها قوتها ووحشيتها فى تسديد الضربات للفكر الإسلامى وللمجتمعات الإسلامية فى كل مكان تناله أيديهم .

جـ ـ القوميات بأنواعها العديدة

القوميات التى تعصف بالعالم الإسلامى اليوم ، بل بكثير من العالم ، ليست إلا وليدة النظرة الضيقة للحياة والأحياء ، وهى إن حملت فى ظاهرها رغبة أصحابها فى أن يكون لهم كيان خاص ومصلحة خاصة إلا أنها تنطوى على نزعة تعصبية عرقية عطنة تتجاهل أبسط المسلمات عند الناس وهى أن الناس جميعا لآدم عليه السلام .

ولندع جانبا التطور التاريخى للقوميات لأن ذلك يخرج بنا عن موضوع البحث ، ولنكتف بالنظر فى هذه القوميات فى هذين القرنين من الزمان الذى نعيشه كما جعلنا ذلك إطارا زمانيا للبحث .

فالقومية المعاصرة لنا صدَّرها لنا مفكرو أوروبا وسيلة من وسائل الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين ، وهى تعنى عندهم : رفع شعار وطنى يتمكن به جمع من الناس من أن يتوحدوا عليه فى ظل حكومة مركزية ، كما فعل نابليون عندما استحدث القومية الإيطالية والقومية الألمانية ، وهو أمر أدى فى نظر المفكرين إلى تفكيك الوحدة الأوروبية الموروثة عن الامبراطورية الرومانية، هذه الوحدة الأوروبية التى حافظت عليها ورعتها الكنيسة الكاثوليكية مايعرف عندهم بالقرون الوسطى والحق أن شعار القومية وشعار الوطنية شئ واحد .

وأول ماغزت هذه الفكرة القومية العالم الإسلامى فى العصر الحديث كان فى عهد نابليون كذلك ، حيث عانت جنوده فى مصر من حرب ترفع شعار : «الله أكبر والعزة للمسلمين . فلم يجد نابليون حلا لهذه الوحدة إلا أن يخرج عن الناس ـ بوساطة العلماء المستشرقين المصاحبين لحملته على مصر ـ بفكرة القومية ليفتت بها وحدة الأمة الإسلامية .

فتركزت خططهم على الادعاء بأن العثمانيين ليسوا الا شعبا آخر غير الشعب المصرى وأن هذا الشعب التركى لاتربطه بالمصريين إلا الدين ـ والدين ليس له أن يتعدى الطقوس إلى النواحى السياسية ، واهتم الفرنسيون حينذاك بإقناع النـاس بأن دولـة الخلافة العثمانية دولة استعمارية جاهلة متخلفة .

ويؤكد الدكتور فيليب حتّى العربى اللبنانى المسيحى الموالى لحضارة الغرب المعادى للإسلام وأهله ، يؤكد أن القوميات وافدة علينا من الخارج حيث يقول : «كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكرى الغربـى أن تولـدت مبـادئ القومية العربية الشاملة ، واستمدت وحيها بالأكثر من النظريات السياسية الأمريكية ، بخلاف القومية التركية التى جاءت متأخرة عن العربية والتى أستمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية .

ولقد كـــان ظهور مبادئ القومية العربية فى العقد السابع من القرن الفائـت (العقد التاسع من القرن الثالث عشر الهجرى) على يد رجال الفكر السوريين وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين الذين تثقفوا فى المدارس الأمريكية فى بلادهم» (٩٩)

ويعود فيؤكد هذا الاستيراد فيقول : «ومما لا ريب فيه أن القومية إنما هى بضاعة غربية استوردها العالم بما فيه الشرق العربى من أوروبا» (١٠٠)

ويكشف عن خبايا هذه القوميات وتأثرها بأوروبا المسيحية ورغبتها فى إقصـاء الإسلام عن حياة المسلمين ، الكاتب المعروف بصليبيته «حازم نسيبه» : حيث يقول : «بدأت فكرة القومية العربية فى أوساط المثقفين المسيحيين قبل أن تبدأ عند المسلمين .. إذ كان المسيحيون على صلة وثيقة بالثقافة الغربية ، وأقرب إلى التأثر بتياراتها وسبق لهم أن اطلعوا على التاريخ العربى من خلال الدراسات الغربية الحديثة .

---

(٩٩) فيليب حتى : العرب : تاريخ موجز : ٢٥٦ .

(١٠٠) السابق : ٢٥٧ .

وقد أنصب المستشرقون فى القرن التاسع عشر بكل قواهم على بحث النواحى الدنيوية أكثر مما اهتموا بالنواحى اللاهوتية من التاريخ العربى الذى أظهر أن الأمة العربية أقامت حضارة متقدمة راقية قبل الإسلام وبعده على السواء ، وبهذا لم تكن الحضارة العربية إذن حادثا دينيا صرفا لا يملك العرب النصارى أن يشاركوا فيه ،بل العكس هو الصحيح ، وهو أن لتلك الحضارة ملامح منقطعة الصلة بالدين كما أثبت الواقع الذى أنصب الباحثون الغربيون على كشفه»(١٠١)

فالقوميات المصطنعة بشكولها وألوانها فى العالم الإسلامى كله كالطورانية والفرعونية والفينيقية والبربرية وغيرها ماهى إلا معاول هدم للإسلام وللوحدة التى يقيمها بين معتنقيه ويجعلها أكبر وأجل من روابط الجنس واللون والإقليم واللغة ، وهذا هو هدف الذين يصطنعون هذه القوميات .

ومن عجب أن يستجيب بعض المسلمين لهذه الدعوات الهدامة ويجندون أقلامهم وجهودهم لها .

فهذه القوميات من أخطر مراكز الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين فى عصرنا هذا .

---

(١٠١) القومية العربية فكرتها ـ نشأتها ـ ترجمة عبداللطيف شرارة .

خامسا : الفلسفات الهدامة

هذه الفلسفات تؤثر فى الركائز التى تحدثنا عنها كالصهيونية والتبشير والاستعمار والنظريات والمبادئ الهدامة ، ثم تتأثر بها فى كثير من الأحيان فتخدم أهدافها وتعين على الوصول إليها ، وهى فى بعض الأحيان تغذيها وتوجهها وتوضح لها الطريق .

وقد يبدو للناظر أن هذه الفلسفات وما تردده من أفكار وماتروجه من أزياء الفكر والسلوك بمعزل عن تلك الركائز والوسائل المعادية للإسلام ، والحق أن هذه الفلسفات من تلك الركائز ، وتلك الركائز من هذه الفلسفات ، وما يجهل ذلك من مثقفى المسلمين أحد .

وإذا كانت بعض هذه الفلسفات تستهدف تحطيم القيم الخلقية فى الناس ، والقضاء على نوازع الخير فيهم فإن أغلب هذه الفلسفات تقف من الإسلام موقفا واحداً هو العداء والرغبة الشديدة فى صرف الناس عنه بما تبتدع لهم من أفكار وما ترغبهم فيه من أنماط سلوكية تقتلع من نفوسهم الايمان بالله والإيمان برسله وأنبيائه ، بل تقتلع منهم الاحترام لأى فضيلة نادى بها الإسلام ، وتزيف عليهم الأمور فتغلب لهم الحق باطلا والفضائل رذائل .

ومن أبرز هذه الفلسفات الهدامة والمعادية للإسلام والمسلمين ـ فيا أرى ـ الوجودية . فلنلق عليها بعض الضوء فى هذه السطور .

أ ـ الوجودية

وهى فلسفة مليئة بالتناقض خارجة على حدود كثير مما يقره العقل ويرضاه المنطق ، فضلا عن مخالفتها لما جاء به الإسلام من منهج رضيه للناس دينا ونظاما فى حياتهم الدنيا ، فالوجودية من هذه الزاوية تعد من أهم المراكز التى تحارب الإسلام بإشاعة مبادئها الضارة المنحرفة ، المناقضة للفطرة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها .

فالوجوديون ـ على اختلاف مابينهم ـ يتفقون جميعا على مبدأ واحد هو تقديس حق الفرد وحمايته من طغيان الجماعة عليه ، بعد ظهور الديموقراطية الحديثة ، ثم ظهور الشيوعية والفاشية فى العهد الأخير ، وهم يبنون مبدأهم هذا على اعتبارهم أن الفرد هو الموجود الحقيقى فى الخارج ، وأن النوع الإنسانى لا وجود له إلا فى عالم التصور والفروض الذهنية ...

وتقديس حق الفرد هو الجانب السليم فى الوجودية ...

أما السخف والمرض فإنما يظهران عند الانتقال من تقرير وجود الفرد إلى النتائج التى تترتب على هذا فى اعتقادهم ، ثم يبلغ السخف غايته حين يخلطون بين وجود الفرد وغاية الوجود كله ، ومنهم من يقول : إن الوجود كله عبث لا معنى له على الإطلاق ولا غاية من ورائه لمخلوق ولا لخلاق .

يظهر السخف والمرض حين يقولون أن الفرد هو الموجود الحقيقى ويرتبون على ذلك أنه لا معنى إذن للقول بالطبيعة البشرية والقول بالأخلاق التى تفرضها هذه الطبيعة، أو بالاقدار التى رسمت لها طريقها قبل أن تبرز إلى عالم الوجود»(١٠٢)

ثم يتحدث العقاد عن الوجودية فى روسيا والوجودية فى فرنسا ويوضح بينهما فروقا هامة ، ثم يخص وجودية فرنسا بحديث فيقول : «إنما وجدت فى فرنسا مدرسة الوجودية الإباحية إلى جانب الوجودية الأخلاقية لأسباب غير تلك الأسباب التى أشرنا إليها ،

(١٠٢) عباس محمود العقاد : بين الكتب والناس ٢٦ ط بيروت ١٩٦٦ م .

وهى الأسباب التى لا مشابهة فيها بين نشأة الوجودية الروسية ونشأة الوجودية الفرنسية .

وجدت تلك المدرسة الإباحية لأسباب يتعلق بعضها بفرنسا ويتعلق بعضها الآخر «بسارتر» أمام تلك المدرسة .

أما الأسباب التى تتعلق بفرنسا فهى الولع «بالزى الموسمى» الذى يتخذ صورة النحلة الاجتماعية ، كما لحظناها فى المقالين السابقين (١٠٣)

وأما الأسباب التى تتعلق «بسارتر» فهى اختلال تكوينه واتصال نسبه بالصهيونية ففى تكوينه دلائل اختلال تبدو أعراضها فى شئ كالشلل يعترى شقه الأيمن ، وهو فى نسبه نصف يهودى أو أكثر من نصف يهودى ـ لأن أمه يهوديه ومعظم أيامه يقضيها بين اليهود ، وله عناية شديدة بالدفاع عن السامية والحملة على حركة المقاومة لها ...

ذلك هو فحوى الفارق بين وجودية تخرج إلى التصوف كما خرج «برديف» ووجودية تخرج إلى الإباحية كما خرج سارتر ، ولن تفهم المدارس الحديثة فى أوروبا مالم تفهم هذه الحقيقية التى لا شك فيها ، وهى إن إصبعا من الأصابع اليهودية ـ كامنة وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم مجتمع الإنسان فى جميع الأزمان عليه .

فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والآداب وتقوض دعائم الأوطان والأديان .

واليهودى دوركاييم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب .

واليهودى ـ أو نصف اليهودى ـ سارتر وراء الوجودية التى نشأت معززة لكرامة الفرد فجنح بها إلى إباحة حيوانية تصيب الفرد والجماعة معا بآفات القنوط والانحلال»(١٠٤)

فالوجودية إذن مركز خطر من مراكز الغزو الفكرى للعالم الإسلامى ، تمد تيارات العداء للإسلام بكل المقومات التى تدفع نحو غايته .

---

(١٠٣) مقال : المدارس الأدبية فى الغرب ومقال الوجودية ـ الجانب السليم منها .

(١٠٤) السابق : ٣١ ـ ٣٣ .

ب ـ الفوضوية

وهى من الفلسفات الهدامة المعادية بذاتها ومبادئها لكل نظام وكل قانون ، والتى تقف من الإسلام بوصفها ذاك موقف العداء والتحدى ، وقد بلغ من سفه ما تنادى به أنها لا تعترف بنظام إذ ترى الدولة أداة للاستبداد بالأفراد فى أى نظام اجتماعى ، ولذلك تنادى بضرورة مقاومة الدولة والأنظمة التى تنبثق عنها فى صورة فوضوية لها من اسم هذه الفلسفة نصيب أكبر نصيب .

ولقد يتصور أن الفوضوية وهى تنادى بتقويض الدولة وإلغاء أنظمتها إنما تفعل ذلك محافظة منها على الفرد وحقوقه ...

ولكن هذا التصور يذهب هباء حينما نعلم أن الفوضوية تنادى بأن الملكية الفردية مبعث الظلم وأنها من أجل ذلك تطالب بإلغاء الملكية الفردية إلغاء تماما !!!

وهذا أعجب العجب فيما ينادى به مذهب فلسفى حين ينادى بإلغاء الدولة لأنها تستبد بأنظمتها بالأفراد وبإلغاء الملكية الفردية لأنها مبعث الظلم .

ومن بين ماتنادى به الفوضوية الثورة على كل سلطة منظمة ، وتحدى كل قانون ونظام .

والفوضويون يقولون ـ على الرغم من كل مادعوا إليه ـ يقولون بأنه لا وجود للحرية الكاملة .

ويقولون بأن العدالة المطلقة لا يمكن أن تتوفر فى ظل نظام يقوم على فكرة الدولة والملكية الفردية .

نعم إنها فوضى حقيقية تدعو إليها هذه الفلسفة وبعض الباحثين يعتبرون الفوضوية مذهبا سياسيا واقتصاديا متطرفا(١٠٥)

والحق أنها فوضى وكفى .

ومما هو قريب من الفوضوية مايدعو إليه الآن بعض العابثين بالشباب ومستقبله

---

(١٠٥) الموسوعة العربية الميسرة : ١٣٣٤ .

من العرى والخنفسة وتخنث الرجال وترجل النساء ، وكل شاذ غريب مما يشوه إنسانية الإنسان ويباعد بينه وبين التكريم الذى خصه به الله سبحانه من بين سائر مخلوقاته .

هذه الفلسفات والمذاهب معاول هدم لكل فضيلة وحرب على الأديان وعداء سافر للإسلام والمسلمين ، وهى من أخطر مراكز الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام .

جـ - القاديانية أو الأحمدية

وهى من المذاهب الهدامة للإسلام التى اصطنعها أعداء الإسلام من المستعمرين واختاروا لها أكثر بلاد المسلمين ازدحاما بالمسلمين - شبه القارة الهندية - وقد كان من هدف هؤلاء الأعداء باستحداث هذه المذاهب وغيرها أن يزيدوا من هذه الخلافات المذهبية بين المسلمين ، وأن يعمقوا فى نفوس المسلمين البعد عن دينهم الصحيح بإغراقهم فى هذه الأباطيل والخرافات .

فالقاديانية مذهب خبيث هدام أنشأه وموّله وساعده أعداء الإسلام من المستعمرين الإنجليز فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجرى - الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادى - يوم استطاع هؤلاء المستعمرون أن يقتنصوا من بين المسلمين رجلا تقلب أبوه فى خدمة الإنجليز ونعمتهم ، ونشأ هو كما نشأ أبوه خادما ذليلا لأعداء دينه - ذلك هو غلام أحمد القاديانى المولود فى بنجاب سنة ١٢٥٥ هـ - ١٨٣٩ م فقد غرس الإنجليز بذور هذا المذهب الخبيث فى شبه القارة الهندية - وكانت مستعمرة لهم - وقد نمت البذرة وخرجت على المسلمين بالكفر البواح والشرك الصراح وخاض مأفونها فى ذات الله وشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ماشاء له ضلاله وما أرضى به سادته وموجهيه .

وقد أنتقلت ثمار هذه البذور إلى أفريقية بين المسلمين هناك ، فسمى القاديانيون هناك أنفسهم «أحمدية» تمويها على الناس وإيهاما لهم بأنهم منتسبون إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، بينما الحق أنهم ينتسبون إلى غلام أحمد القاديانى .

ولا أحب أن أفصل الحديث عن القاديانية فى هذا البحث ولكنى أشير إليها إشارات تدل عليها وتكشف خبث مواردها ومصادرها ، وأن أدينها بما قاله مؤسسها غلام أحمد القاديانى ، وبحسبى ذاك فى هذا المجال لكى أكشف عن خيانتها وضلالها وتبعيتها للإنجليز .

أولا : من كلمات غلام أحمد القديانى :

١ ـ أكثر من دخلوا فى جماعتى هم أعضاء الحكومة الإنجليزية الشاغلين المناصب العليا أو رؤساء هذه البلاد وتجارها ، أو المحامون والمتعلسون الدراسة الإنجليزية أو العلماء والفضلاء الذين خدموا الحكومة الإنجليزية فى الماضى أو يخدمونها الآن وأقاربهم وأحبابهم ، فالحاصل إن هذه الجماعة كونت من مربيتها الحكومة الإنجليزية وحصلت على رضاها وأصبحت مورد إنعاماتها .. فأنا والعلماء الذين اتبعونى بينوا للناس إحسانات هذه الحكومة ورسخوها فى ألوف القلوب»(١٠٦)

٢ ـ نحن نتحمل كل البلايا لأجل حكومتنا المحسنة وسنتحمل أيضا فى المستقبل لأنه واجب علينا أن نشكرها لإحسانها ومننها علينا ، ولا شك نحن فداء بأرواحنا وأموالنا للحكومة الإنجليزية ، ودوما ندعو لعلوها ومجدها سرًّا وعلانية (١٠٧)

٣ ـ نص العريضة التى قدمها غلام أحمد لنائب الملك فى الهند وهو : «العريضة التى أعرضها إلى حضرتكم مع أسماء أتباعى ، ليس المقصود منها إلا أن تلاحظوا الخدمات الجليلة التى أديت أنا وآبائى فى سبيلكم ، وكما ألتمس وأرجو من الدولة العالية أن تراعى الأسرة التى أثبتت بكمال وفائها وإخلاصها طوال خمسين سنة بأنها من أخلص المخلصين للحكومة والتى أقر وأعترف بولائها أكابر أمراء الحكومة العظمى وحكامها وكتبوا لها وثائق وشهادات على أن هذه الأسرة أسرة خدام وأسرة مخلصة ، فلذا أرجو منكم أن تكتبوا للحكام الصغار برعاية هذه الشجرة وحفظها ، التى ماغرسها إلا أنتم ، كما أرجو أن ينظروا إلى أتباعى بنظرة خاصة ودية ، لأننا ماتأخرنا أبدا من التضحيات فى سبيلكم لا بالنفوس ولا بالدماء ، كما لا نتأخر بعد ذلك فلأجل هذه الخدمات الجليلة نستحق أن نطلب من الحكومة العظيمة المد والعون لكى لا يجروء أحد علينا (١٠٨)

---

(١٠٦) الحافظ إحسان إلهى ظهير : القاديانية : ٦ ، ٧ .

(١٠٧) السابق : ٢٦ .

(١٠٨) السابق : ٢٨ ـ ١٩ .

ثانيا : من كلمات خليفة غلام أحمد وولده :

١ ـ حينما دخلت جيوش أنجلترا العراق المسلم منتصرة مزهوة بالقضاء على حصن من حصون الإسلام أقام القاديانيون حفلا أعلنوا فيه سرورهم وفرحهم بهذا الانتصار ، وألقى خليفة غلام أحمد وولده خطابا بهذه المناسبة هذا بعضه :

«إن علماء المسلمين يتهموننا بتعاوننا مع الإنجليز ويطعنوننا على ابتهاجنا على فتوحاته فنحن نسأل لماذا لا نفرح ؟ ولماذا لا نسر ؟ وقد قال إمامنا : بأني أنا مهدى وحكومة بريطانيا سيفى ـ فنحن نبتهج بهذا الفتح ونريد أن نرى لمعان هذا السيف وبرقه فى العراق وفى الشام وفى كل مكان ... إن الله أنزل ملائكته لتأييد هذه الحكومة ومساعدتها (١٠٩)

٢ ـ عندما جند القاديانيون رجلين منهم للتجسس على المسلمين فى أفغانستان لحساب الإنجليز هناك فقبض على الجاسوسين وأعد ماكتب خليفة غلام أحمد وولده يقول : لو سكت رجالنا فى أفغانستان وما أظهروا عقيدتنا فى الجهاد لما كان عليهم شئ ولكنهم ما استطاعوا أن يكتموا حبهم ومودتهم لحكومة بريطانيا التى حملوها من عندنا فلذلك لقوا حتفهم (١١٠)

أما تطاول القاديانى وخليفته وأتباعه على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى المسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، فلا أبيح لنفسى أن أذكره ، كذلك ماتخبط به فى فهم القرآن الكريم ـ مما يدل على جهله وضلاله ، وماكتبه ذلك المأفون من نبوءات تكشف عن حمقه وسفاهته .

فالقاديانية ـ ركيزة من ركائز الغزو الفكرى للإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا .

---

(١٠٩) السابق : ٣١ .

(١١٠) السابق : ٣٢ .

د ـ البابية والبهائية

البابية والبهائية من المذاهب الخطرة والفلسفات المعادية للإسلام ، والتى كان لليهود فيها يد طولى ، وإن اختيار بلاد فارس ليفرخ فيها هذان المذهبان لم يكن عبثا من المدبرين والكائدين للإسلام .

فبلاد فارس ظلت على مدى فترات طويلة من تاريخ الإسلام مصدرا للقلاقل والفتن والحركات المعادية للإسلام

وأثر اليهود فى الحركتين الخبيثتين واضح لا نجد عليه من الأدلة ماهو أنصع ولا أقوى من أن زعيم البهائية فى فترة مامن فترات تاريخها كان أحد حاخامات اليهود

ومنشأ البابية ـ التى هى أصل البهائية ـ أن الميرزا على محمد الشيرازى ، أغواه يهوديان فأوهماه أنه سيكون له شأن ، وأدخلا فى روعه أنه سيصبح منقذ الإنسانية ، فنادى بما ينادى به اليهود ، فأنكر البعث والجنة والنار ، وقال بوحدة الوجود كما يقول اليهود وأودع ذلك فى كتابه «البيان» وصادفت دعوة الميرزا هوى فى نفوس بعض الضالين من الفرس ، فاغتر ميرزا بهذا وسمى نفسه «الباب» أى الطريق الوحيد الذى يوصل الإنسان إلى الله ، وسميت الفرقة التى تبعته «بالبابية » ثم زاد غرور هذا المخدوع فادعى أنه «النقطة» أي منبثق الحق وروح الله ، وجعل الباب إليه أحد مريديه المخلصين له واسمه «حسين يسرويه» من خراسان.

وفى مؤتمر برشت ١٢٦٤ هـ ـ ١٨٤٧ م أعلن البابيون انسلاخهم عن الإسلام ، وحاربوا الإسلام واللغة العربية ودخلوا مع الحكومة فى فارس فى حروب ومنازعات أدت فى النهاية إلى إصدار الحكم بإعدام الميرزا «النقطة» وخبا صوت هذه الفلسفة الضالة ، والمذهب المعادى للإسلام حينا غير طويل من الزمان ، ثم أخذ أتباعه يعملون فى الخفاء والسرية ودخل فيها عدد كبير من اليهود .

وفى عام ١٢٨٥ هـ ١٨٦٨ م خرجت البابية من عكا باسم جديد هو البهائية نسبة إلى زعيمها الجديد ميرزا حسين على المازندرانى الذى يلقب بهاء الله «ومن المقرر أن حياة

البهائيين فى عكا بين جماعات اليهود أثرت فيها تأثيرا كبيرا وباعدت بينها وبين الإسلام إلى حد أنها أصبحت وجها آخر لليهودية .

ولما مات البهاء فى عكا خلفه ابنه عباس أفندى الذى كان فى خدمة الحلفاء أثناء الحرب العالمية الأولى فأنعمت عليه بريطانيا بلقب «سير» وبرتبة فارس ولما توفى عام ١٣٥٠ هـ - ١٩٣١ م خلفه ابن بنته «شوقى ربانى» الذى مات دون أن ينجب ولدا .

وقد رعى اليهود - ولا يزالون يرعون - البهائية ودفعوا بها إلى أقطار الأرض يؤيدونها بالفكر والمال ، فأصبحت حركة «صهيونية أمريكية» وأسفرت عن وجهها الصهيونى حين توفى ميرزا شوقى ربانى فاجتمع المجلس الأعلى للطائفة البهائية فى إسرائيل وانتخبت صهيونيا أمريكيا اسمه «ميسو» ليكون رئيسا روحيا لجميع أفراد الطائفة البهائية فى العالم كله .

هـ - « الماسونية والروتارى »

الماسونية ، ونوادى «الروتارى» لونان من نشاط اليهود المعادى للأديان عموما وللإسلام على وجه الخصوص .

فالماسونية جمعية سرية أنشأها اليهود ليمارسوا من خلالها الأعمال التى توصلهم إلى أهدافهم وأغراضهم ، ولأن هذه الجمعية من الجمعيات السرية اختلف الباحثون فى تاريخ إنشائها ، فمن الباحثين من يربطها بالكهانة فى عهد الفراعنة ، ومنهم من يربطها بهيكل سليمان ، ومنهم من يربطها بالحروب الصليبية ، ومنهم من يربطها بجمعية الصليب الوردى سنة ١٦١٦ م ، ومنهم من يقول إنها أنشئت فى القرن الثامن عشر الميلادى .

ويكاد يجمع الباحثون على أن الماسونية هى جمعية البنائين الأحرار التى وجدت منذ أقدم العصور فى مصر وفلسطين واليونان .

وأهداف الماسونية الحقيقية كما يقول الحاخام الدكتور «إسحق وايز» : مؤسسة يهودية ، وليس تاريخها ودرجاتها وتعاليمها وكلمات السر فيها وشروحها إلا أفكارا يهودية من البداية للنهاية»(١١١)

أما أهدافها الظاهرية كما يقول مكاريوس شاهين : فهى : «جمعية أدبية تخدم الإنسانية وتنور الأذهان وتنشر الإخاء ، وتوطد الحب بين الأعضاء وتحثهم على فعل الخير والإحسان لإخوتهم المحتاجين»(١١٢)

ولعل نظرة على القسم الذى يقسمه الماسونى تؤكد لنا أن هذه الأهداف الظاهرة التى تحدث عنها مكاريوس شاهين لا وجود لها ، ونص القسم هو :

«أقسم بمهندس الكون الأعظم أنني لا أفشى أسرار الماسونية ولا علامتها وأقوالها ولا تعاليمها وعاداتها ، وأن أصونها مكتومة فى صدرى إلى الأبد .

أقسم بمهندس الكون الأعظم ألا أخون عهد الجمعية وأسرارها لا بالأشارة ولا

---

(١١١) د . أحمد شلبى : اليهودية ٣٢٤ .

(١١٢) السابق : ٣٢٤ .

بالكلام ولا بالحروف ، وألا أكتب شيئا منها ولا أنشره بالطبع أو بالحفر أو بالتصوير وأرضى إنْ حنثت فى قسمى أن تحرق شفتاى بحديد ملتهب وأن تقطع يداى ويحز عنقى وتعلق جثتى فى محفل ماسونى ليراها طالب آخر ليتعظ بها ، ثم تحرق جثتى ويذر رمادها فى الهواء ، لئلا يبقى أثر من جنايتى»(١١٣)

وإن خطر الصهيونية لفادح يدركه المتأمل لأعمالها ولهذا القسم الذى يقسمونه ولقد أدرك هذا الخطر جميع العارفين لأهداف الماسونية ، حتى إن بعض المجتمعات قد قررت إلغاء المحافل الماسونية فيها ، وقد أدرك بعض المسيحيين خطر الماسونية على الدين المسيحى فصدر المرسوم البابوى ذو الرقم ٨٦٤ يحذر الكاثوليك من الأشتراك فى الهيئات السرية والمشتبه فيها على الأطلاق .

وأما أنديه «الروتارى» فهى أنشطة علنية تؤدى مهماتها أو بعض هذه المهمات تحت ستار الإخاء الإنسانى .

وهى أندية منبثة فى أغلب العواصم والمدن الكبرى وأهدافها الظاهرية كما يقولون : هى النظر فى الشئون الأجتماعية والاقتصادية بإلقاء المحاضرات والخطب ، والعمل على التقارب بين أتباع الأديان المختلفة والبلدان المتعددة .

أما الغرض الحقيقى فهو أن يمتزج اليهود بالشعوب الأخرى باسم الإخاء والود ، ثم يحاول اليهود عن هذا الطريق أن يصلوا إلى جميع المعلومات التى تساعدهم فى تحقيق أغراضهم اقتصادية كانت أو صناعية أو سياسية .

ولقد فطن الفاتيكان أيضا إلى خطر هذه الأندية «المساة الروتارى » فصدر مرسوم من المجلس الأعلى المقدس فى العشرين من ديسمبر سنة ١٩٥٠ م قرر فيه الكرادله مايلى

«دفاعا عن العقيدة وعن الفضيلة تقرر عدم السماح لرجال الدين بالانتساب إلى الهيئة المساة «بنادي الروتاري»، وعدم الاشتراك في اجتماعاتها، وإن غير رجال الدين يطالبون بمراعاة المرسوم ذى الرقم ٨٦٤ الخاص بالجمعيات السرية والمشتبه فيها»(١١٤)

(١١٣) السابق : ٣٢٥ ـ ٣٢٦ نقلا عن : محمد على الزعبيى : الماسونية منشئة ملك اسرائيل .

(١١٤) السابق : ٣٢٨ .

فالماسونية وأندية الروتارى مراكز خطر محدق دائما بالعالم الإسلامى .

وبعد : فهذه صورة مجملة للمراكز والركائز التى ينطلق منها الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام والمسلمين ، أردت من رصدها والتعريف بها أن أدل عليها وأعرف المسلمين بكامن الخطر المحيط بهم وبدينهم لعل الله أن يهدى بكلماتى هذه من يستطيع أن يرد عن هذا الدين كيد الكائدين وحقد الحاقدين ، إننى بهذا البحث إن وصلت إلى ذاك أعد نفسى من الموفقين .

خاتمة

كما أفتتحنا هذا البحث بحمده سبحانه والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله نختتم كلامنا فيه بشكر الله سبحانه وتعالى والثناء عليه بما هو أهله ، والصلاة والسلام على محمد عبده ورسوله .

وقد حاولت فى مدخل هذا البحث أن أعرّف بالغزو الفكرى وأن أحدد مفهومه وأبعاده التاريخية .

وفى الباب الأول حاولت أن أرصد مظاهر هذا الغزو وتياراته ، وأن أكشف عن حملات التشويه التى وجهها أعداء الإسلام - وعلى رأسهم المستشرقون والمبشرون وأدعياء العلم من هنا وهناك - إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وصاحبها عليه الصلاة والسلام ، وإلى تاريخ المسلمين ونظام الحياة الإسلامى والتراث الإسلامى بعامة .

وفى الباب الثانى جعلت جهدى أن أتتبع نوعا آخر من الحملات الموجهة ضد الإسلام هو حملات التغريب أى تحويل المسلمين عن إسلامهم وتاريخهم إلى الغرب وحضارته ، تلك الحملات التى أستهدفت التعليم والثقافة بالدرجة الأولى ، وتناولت تغريب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمجتمعات الإسلامية كلها ، ودللت - ماوسعنى البحث والتحرى - على الأصابع والقوى التى تحرك هذه الحملات وترسم لها خطوطها ومخططاتها وأوضحت أن الهدف من هذا التغريب هو صرف المسلمين عن إسلامهم وإلقاؤهم أتباعا خاضعين على اعتاب الحضارة الغربية المعادية .

وفى الباب الثالث : رصدت ركائز هذا الغزو الفكرى وأدواته ووسائله ، ووجدت من أبرزها الصهيونية أو اليهودية ، والتبشير والاستعمار ، والنظريات والمبادئ المعادية للإسلام مثل : الديموقراطية والشيوعية والاشتراكية ، والقوميات بأنواعها العديدة ، والفلسفات الهدامة كالوجودية والفوضوية والقاديانية أو الأحمدية والبابية والبهائية والماسونية والروتارى وغيرها ، ودللت كذلك على الأصابع التى تحرك هذه المراكز وعلى العقول التى تخطط وتدبر لها ، كيدا للإسلام وحقدا على المسلمين .

وقد أعاننى الله وأمدنى من الأسباب بما مكننى من إنجاز البحث على هذا النحو الذى عرضت ، فإن كنت قد وفقت إلى ما أردت فذلك فضل من الله لانه يستوجب

منى أجزل الشكر وأعمق الثناء ، وإن كنت جانبت الصواب فى بعض ماقلت ، فأنا أعترف بأننى المخطئ المقصر ، وبأن عملى يحتاج إلى إعادة نظر وإجالة فكر ، وبأنى محتاج أبدا إلى مغفرة الله وتجاوزه عن غفلتى أو تقصيرى ، وحسبى أننى سدَّدت وقاربت وقصدت وجه الله ، ورجوت نفع المسلمين .

وما ادعيت ـ ولن أفعل ـ أنَّ ماكتبت عن الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام هو العمل الكامل ـ لأن الكمال لله وحده ـ ولا هو التحليل الأخير ـ كما يقولون ـ وإنما كل ماأرجوه أن يكون ماكتبت فى هذا الموضوع حافزا لبعض إخوانى على أن يزيدوا البحث عمقا ويولوه اهتماما اكبر ، لعلهم يصلون بذلك إلى مالم أصل إليه .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

ونحمده فى الأولى وفى الأخرة ، بل آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د . على عبدالحليم محمود

كلية اللغة العربيـــــة

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الغزو الفكري
والتيارات المعادية للإسلام

القسم الثاني

إعداد
الدكتور عبد الستار فتح الله سعيد
الأستاذ المساعد بكلية الشريعة بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبدالله ورسوله ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن موضوع (الغزو الفكري) وما يلحق به من تيارات هو أخطر ما يواجه العالم الإسلامي في حاضره ومستقبله ، خاصة ونحن نرى آثاره قد تغلغلت في القلوب والعقول والأذواق ، وملأت على المسلمين كل شعب حياتهم ، وتركتهم على وضع بئيس غير مسبوق في تاريخهم .!

ومن ثم كان خليقا بالدراسة الواعية، والنظرة الفاحصة ، والرؤية المستوعبة حتى تتحدد أبعاده الرهيبة ، وتتضح ألغازه المتشابكة ، وتستبين ضراوته وجنايته على أجيال برمّتها، وقعت فريسة له ، ولاتزال سمومه تسري في كيانها كله، ثم لا سبيل لها إلى الخلاص منه إلا بمعرفة بصيرة بالداء والدواء جميعا، وإلا إذا شمرت عن الساق والساعد لتأخذ عليه طريقه من حيث سرى، ثم استشرى حتى عمت به البلوى ! !

ومن البين أن جهد الفرد ـ أو الأفراد ـ لا يغني كثيرا في مثل هذا الباب الخطير الذي تنؤ به العصبة أولو القوة ، والذي يحتاج في مقاومته إلى جهد الأمة كلها ، وفي دراسته إلى عمل جماعي واسع النطاق والآفاق ، ليستطيع مقارعة هذا السيل العرم من الإلحاد والأباطيل ، ومنازلتها بأمضى من أسلحتها ، حتى يدمغها وينجي البشرية قاطبة من غوائلها .

ولذلك كان من حسن التوفيق اختيار هذا الموضوع ، وطرحه على قادة الفكر والرأي للبحث، والدراسة، والمناقشة ، والإفادة من خلال أعمال وتوصيات هذا المؤتمر الإسلامي الجامع ، وإنه لاختيار يدل على فقه وبصر بالأزمة الحقيقية التي تطوق العالم الإسلامي ، والتي تشيع الخلل في أوضاع حياته عامة ، والفقه الإسلامي منها بوجه

خاص ، وقد تعرض لأوفر نصيب من مؤامرات الغزو الفكري حتى عزل عن الحياة ، واستبدلوا به شرائع وأحكاما لم يأذن بها الله تعالى ، كما سنبين في هذا البحث إن شاء الله تعالى .

هذا وإني أعترف سلفا بقصوري في هذا الباب ، وما أقدمه فإنما هو جهد المقل الذي يحفزه شعور بخطورة التبعة ، وفظاعة الغزوة ، وفداحة النتائج التي تركتها الجاهلية المعاصرة في حياة المسلمين ، والذين يحتاجون الآن إلى كل صوت يوقظ وينبه ، ويدعو فلولهم في أخراهم ليجتمعوا من جديد حول راية القرآن ، بعد أن فاتهم صوت النذير العريان ، حتى اجتاحهم عدوهم ، وفتنهم عن صميم دينهم ! !

وسيكون هذا البحث في أربع نقاط أساسية ، ثم نذكر بعض النتائج والمقترحات فنقول وبالله التوفيق :

أولا : تمهيد عام

« الغزو الفكري » تعبير دقيق بارع ، يصور خطورة الآثار الفكرية التي قد يستهين بها كثير من الناس ، لأنها تمضي بينهم في صمت ونعومة ، مع أنها حرب ضروس لا تضع أوزارها حتى تترك ضحاياها بين أسير أو قتيل ، أو مسيخ كحرب السلاح أو هي أشد فتكا.

وهذا التعبير على حداثة مبناه إلا أنه قديم المدلول والمعنى، وتتفاوت الامم والجماعات فيه من حيث الدرجة لا النوع، ذلك لأن الجماعات البشرية تعيش أبدا متنافسة في سبيل هدف ما : كالاعتقاد حقا أو باطلا ، وكالتفوق المادي أو الأدبي وحب السيادة ، والاستئثار بالمنافع ونحو ذلك مما عبر عنه القرآن الكريم في إيجاز وإعجاز: (أن تكون أمة هي أربى من أمة) النحل ٩٢ .

ومن ثم تبذل كل أمة غاية جهدها لكسب هذا الصراع باليد والسلاح أو بالفكر واللسان ، أو بأي من أنواع المؤثرات الأخرى التي زينت للناس ، كالمال هدية أو رشوة ...الخ

« فالغزو الفكري » واحد من شعب الجهد البشرى المبذول ضد عدو مّا لكسب معارك الحياة منه ، ولتذليل قياده ، وتحويل مساره ، وضمان استمرار هذا التحويل حتى يصبح ذاتيا إذا أمكن ، وهذا هو أقسى مراحل الغزو الفكرى بالنسبة للمغلوب وإن كان ـ في نفس الوقت ـ هو أقصى درجات نجاح الغزاة .!

وسلاح هذا الغزو هو: الفكرة ، والكلمة ، والرأي ، والحيلة ، والنظريات والشبهات ، وخلابة المنطق ، وبراعة العرض ، وشدة الجدل ، ولدادة الخصومة وتحريف الكلم عن مواضعه ، وغير ذلك مما يقوم مقام السيف والصاروخ في أيدي الجنود ، والفارق بينهما هو نفس الفارق بين وسائل وأساليب الغزو الفكري قديما ، وحديثا .

ويتميز « الغزو الفكري » بالشمول والامتداد ، فهو حرب دائمة دائبة ، لا يحصرها ميدان ، بل تمتد إلى شعب الحياة الإنسانية جميعا ، وتسبق حروب السلاح ، وتواكبها ، ثم تستمر بعدها لتكسب ما عجز السلاح عن تحقيقه ، فتشلّ إرادة المهزوم وعزيمته حتى يلين ويستكين ، وتنقض تماسكه النفسي حتى يذوب كيانه ، فيقبل التلاشي والفناء في بوتقة أعدائه أو يصبح امتدادا ذليلا لهم ، بل ربما تبلغ حدا من الإتقان يصل بها إلى أغوار النفس ، فتقلب معاييرها ومفاهيمها ، وتشكل لها أنماطا جديدة في السلوك ، والأخلاق ، والأذواق إلى الدرجة التي تجعل المهزوم يفخر فيها بتبعيته، ويراها شرفا خليقا بالرضا والشكران ، أي « أن الرمية تحتفي بالرامي » كما قال الشاعر (١) .

ولا نبالغ إذا قلنا : إن كل جماعة بشرية (قبيلة، أو أمة أو دولة...إلخ) قد عرفت هذا اللون من الغزو، واستخدمته في سبيل كسب معارك حياتها الاجتماعية، والاقتصادية بل والعسكرية ذاتها .

وقصص الأنبياء عليهم السلام أبلغ شاهد على ضراوة ما واجهوه من هذه الحروب الفكرية التي قادها شياطين الإنس ، وبرعوا في وسائلها من : إرجاف ، وتشنيع، واختراع النقائص ، وإلصاق التهم ، وإثارة الجدل ، وإطلاق الشبهات ، واقتراح المعجزات تعجيزا ، وكثرة السؤال عنادا ، حتى أساليب الاستهزاء والاستخفاف والاستضحاك لم تفتهم في هذا المجال ، بغية أن يسقطوا عن الرسل الأكرمين ما يحيطهم من هالات القداسة ، والرزانة والكمال .

بيد أن هذا القصص نفسه يعطينا الوجه الآخر للقضية ، فيقدم لنا المبادئ الأصول ، والوسائل والأساليب الصحيحة للغزو الفكري القائم على الحق ، الهادف إلى

(١) هذا عجز بيت قاله الشاعر شوقي في روايته الشعرية عن الملكة المصرية القديمة (كيلوباترا) وفيها تصوير دقيق لغفلة الأمم ، وقد عرفت أمتنا للأسف هذا النمط ، ومن أبرز أمثلته ما جاء في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) للدكتور طه حسين ، وما كتبه ملاحدة الأتراك ، كما سنبين بإذن الله

خلاص البشر مما هم فيه من ضلالة ، وقيادتهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم بلا طلب لمجد شخصي ، أو غلب قومي ، أو شيء مما يصطرع عليه وحوش البشر .

ولقد كان من تمام حكمة الله تعالى أن جعل حجة الرسالة الخاتمة معجزة تخاطب القدر الثابت في الإنسان، على اختلاف الأجيال ، فكان القرآن العظيم خطابا للعقل والفكر ، يعتمد على الدليل والبرهان ، بل يوجب الفقه ، والنظر . ويحض على التيقن والاستدلال، ويطاول خصومه ويطالبهم بالحجة حتى في دعواهم الباطلة عن تعدد الآلهة . (. . . أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ـ النمل/٦٤، (قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ـ الأحقاف/٤ .

لذلك كان محور هذا الكتاب المعجز في غزو الجاهلية ، واقتلاع جذورها الغائرة هو التأثير النفسي ، والتغيير الفكري ، والاقناع الذاتي ، والإلزام العقلي بالحجة البينة ، والدليل المستقيم ، والكلمة الصادقة ، التي لا يملك منصف معها إلا أن يقول ما علمنا الله إياه : (قل فلله الحجة البالغة) الأنعام/١٤٩

وقد قرر النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة ، والتي تؤكد بدورها الأهمية البالغة للعمل الفكري فيقول صلى الله عليه وسلم :
(ما من الأنبياء من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .) (٢) .

وقد اشتمل هذا الوحي العظيم على أوفى تفصيل لجوانب الغزو الفكري ، بشقيه : الهجومي ، والدفاعي ، تعليما للمؤمنين حتى يواصلوا الدعوة إلى الله تعالى على هدى وبصيرة ، وردا على الكافرين ، والمنافقين وأضرابهم من أهل الكتاب ، خاصة اليهود الذين احترفوا الجدل ، ومردوا على الشبهات . . .

(٢) رواه الشيخان وأحمد عن أبي هريرة

وقد دمغ القرآن الكريم قادة هذا اللون من الحرب بأسماء وصفات غاية في النكارة مثل : الشياطين ، والسفهاء ، والمعوقين ، والمرجفين وأكابر المجرمين وأئمة الكفر ، والذين في قلوبهم مرض . . .ألخ

كذلك سمي هذا اللون ذاته بصفات أساليبه الخسيسة ، ونتائجه الخبيثة مثل: زخرف القول ، والغرور ، والخبال ، والفتنة . . .إلخ ومن ذلك قوله تعالى : (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها) البقرة/١٤٢

(وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) ـ الأنعام/١١٢

(لوخرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين () لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون .) ـ التوبة/٤٧ ، ٤٨ .

والآيتان الكريمتان نزلتا مع معظم سورة التوبة بصدد الحرب الفكرية التي تولى كبرها المنافقون في غزوة تبوك وقبلها ، من التخذيل ، والإرجاف والإشاعات الكاذبة ، والتسخط على كل ما لا يرضى أهواءهم ، والعمل على تفريق المؤمنين ، وتسريب الشبهات إلى الصفوف المؤمنة من داخلها . . .إلخ .

وقد بين القرآن الكريم أن نتائج وغايات هذا اللون من الحرب هي أخبث وأنكد من آثار السيف والقتل قال تعالى : (والفتنة أكبر من القتل) ـ البقرة ٢١٧ .

والعبارة الكريمة جاءت في سياق ما نزل من الآيات ردا على قريش ومن والاها ممن شنعوا على المسلمين لأنهم قاتلوا في الشهر الحرام ، مع أن حرمته محل اتفاق واحترام من الجميع .

وقد نزل القرآن الكريم ليقرع هؤلاء النائحين المتباكين على حرمة الشهر ، وهم

ينتهكون كل حرمة ، ويعبثون بكل القيم ، فقارن بين خطأ وقع عرضا ـ لا غرضا ـ وبين خطايا المشركين ، الصادين عن سبيل الله ، الملحدين في حرمه بنصب الأوثان ، ومطاردة أهل الايمان . ثم يعقب على ذلك بقوله :(والفتنة أكبر من القتل) .

والفتنة قد يراد بها الشرك والكفر ، وقد يراد بها كل الأساليب المؤدية إلى ذلك من تعذيب المؤمنين في أبدانهم ، أو الحجر على حرياتهم وأرزاقهم أو تشريدهم في البلاد بعيدا عن الأهل والوطن ، أو مطاردتهم في كل واد حتى لا يهنأ لهم عيش أو يستقر بهم مقام ، أو ضربهم بالشبهات وألوان التشكيك حتى يتزلزلوا معنويا كما زلزلوا ماديا ، وكل هذا وأمثاله أصعب وأشق على النفس من القتل الذي قد يستريح به المرء من العناء ، ومعاناة القتل البطيء ، وهو حي يرى ويسمع ، ولا يأمن على نفسه الردة ـ تحت وطأة المحنة ـ التي هي غاية الغايات لوسائل الفتنة المذكورة . .

ولهذا عقب الله تعالى على هذا بقاعدة تمثل قانونا من قوانين الصراع بين الإسلام والجاهلية على مر العصور فقال تعالى : (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) . والقتال المذكور هنا عام يراد به ما وقع فعلا من الأساليب السابقة ، وما هو محقق الوقوع في الغد القريب من الحرب المسلحة التي شنها المشركون على المسلمين بعد نزول الآيات ثم مايشابه ذلك ويشاكله إلى يوم القيامة .

على أنه في الجانب الآخر كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يقارعون المشركين بكل فنون الحرب الفكرية المتاحة لهم ، وكان عمادها الأكبر آيات القرآن الكريم ، ومحاوراته مع المشركين والمجادلين ، بما لها من أسلوب فذ ، بذّ الشعر والنثر وسائر ما يعهده العرب من فنون القول ، لذلك كان ألد أعدائه لا يطيقون طويلا كتمان إعجابهم به ، وإن اختلفت مذاهبهم في واقع الحياة بين ماض على عناده ، وبين متجاوب مع إعجابه ، وملق قياده لهذا الكتاب المعجز ، ولهذا كان زعماء المشركين أنفسهم لا يفلتون من دائرة إشعاعه وتأثيره ، فكانوا ـ كما ورد في السير ـ «يتسمعون إليه خفية » والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي به ، ثم تواصوا ألا يفعلوا خشية على أنفسهم ، وقومهم من تأثير هذا الكتاب الغلاب .

ولهذا أيضا حجرت قريش على أبي بكر رضي الله عنه أن يصلي في فناء داره ، لأنه كان رجلا رقيقا بكّاء إذا قرأ القرآن ، فيتقصف عليه نساء المشركين وأولادهم يتسمعون ، ولقد كان من مهمة البلاغ على النبي صلى الله عليه وسلم أن يسمع الناس جميعا ما أنزل عليه ، لذلك دأب صلى الله عليه وسلم على غزو المشركين بالقرآن يغشاهم به في منازلهم ، ومضاربهم ، وأسواقهم ومجامعهم ، وحجهم . . .إلخ .

ولما هاجر صلى الله عليه وسلم ، ووجد الأعوان والأنصار ، توسع في استخدام أساليب الغزو الفكري ، فاستعمل سلاح الفكر العربي على أوسع نطاق ، كالشعر والخطابة ، مع طبعهما بالنمط الإسلامي ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يسر غاية السرور بمن يسلم من الشعراء ، كالنابغة الجعدي ، وكعب بن زهير وكان يضيق صدره - على حلمه - بألسنة الشعراء القادحين في الإسلام من مشركين ويهود إدراكا منه صلى الله عليه وسلم في الحالين بخطورة هذا اللون الفكري في التأثير على الناس ، وجذبهم للإسلام ، أو دفعهم عنه .

وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم قد اختار خطيبا من الأنصار هو ثابت بن قيس واختار شاعرا هو حسان بن ثابت ، وكان صلى الله عليه وسلم يحتفى به كثيرا ويحثه على الدفاع عن الإسلام والمسلمين ، وينصب له منبرا في المسجد ، ويقول له ما معناه : أجب عنى اللهم أيده بروح القدس ، وقد أحاله إلى أبي بكر رضي الله عنه ليستفيد بخبرته في أنساب العرب وقريش (٣) .

ولذلك وفق حسان رضي الله عنه في هذا الباب غاية التوفيق ، وكان شعره كما جاء في الأثر : أشد وقعا على الكفار من السهام في غبش الظلام وكانت القصيدة منه تقوم أحيانا مقام الكتيبة ، وقد توسع في هذا الأمر حتى إن شعره ليعتبر سجلا نابضا لأحداث صدر الإسلام ، بحيث لا نكاد نجد واقعة إلا وله فيها الأبيات أو القصائد التي تسير بها الركبان ، دفاعا عن الإسلام ونبيه وأتباعه ، وتنديدا بالجاهلية وأربابها وأعرافها ، وردا على المناوئين للإسلام بألسنتهم أو أسلحتهم ، وتحريضا على الغادرين ...إلخ .

---

(٣) راجع ترجمة حسان رضي الله عنه في كتاب « أسد الغابة في معرفة الصحابة »

وفي كتب الحديث والسير نجد من ذلك فيضا زاخرا ، ونجد عبارات حسان اللاذعة القارعة التي كانت تهز أعداء الإسلام هزا أليما ، كشعره في « قريش » قبل الفتح ، وشعره في « هذيل » لما غدرت بأصحاب الرجيع الذين بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاة ومعلمين ، وقد أكثر حسان في ذلك وأوجع (٤) .

وقد أجاد بعض المعاصرين في تصوير آثار هذا العمل الفكري الذي قام به حسان رضي الله عنه ، والذي لم يقلّ خطرا ولا أثرا عن الأعمال الحربية يقول :

أرأيت منبر للنبي يقيمـــــــه :: فيقوم حسان برجّ المســـــجدا
ويذود عن شرف النبي ودينـــــه :: ويبين للإسلام نهجا أمجـــــدا
فترى الجزيرة روعت أووادعـــت :: حتى كأن على الأعنّة خالــــدا

والحديث في هذا يطول ، وإنما غرضنا هنا الإشارة والتنبيه ، وتاريخ العالم كله حافل بالأمثلة والشواهد على خطورة الغزو الفكري الذي يبرز أحيانا فيكون أقوى عامل في حياة الأمم ، وأحداث التاريخ أو يكون على الأقل نذيرا بين يدي عظائم الأمور ، كما قال نصر بن سيار والي (مرو) حين رأى نذر الثورة في خراسان :

أرى بين الرماد وميض نـــــار :: وأخشى أن يكون له ضـــــرام
فإن النار بالعودين تذكــــــو :: وإن الحرب مبدؤها كـــــلام
فقلت من التعجب ليت شعـــري :: أأيقاظ أمية أم نيـــــام؟!

(٤) راجع سيرة ابن هشام جـ ٣ ص ١٨٩ وما بعدها ...

ثانيا: غزو قديم

ومع الأسف انطبق هذا القول على أمتنا الكبيرة ، فكما نامت أمية من قبل ، نامت هذه الأمة العظيمة ، عبر أجيال طويلة وبطيئة ، ودب إليها دبيب الأمم ، وتسرب إليها وهن كثير ، صرفها عن مصدر قوتها وعظمتها ، وسر تفوقها وسعادتها .

وكان في مقدمة الأسباب التي أوهت هذه الأمة تسرب الثقافات والأفكار الغربية إليها ، وشيوعها في جوانبها رغم مجافاتها الصريحة أحيانا لمعايير الإسلام وروحه ، ورغم التحذيرات القرآنية والنبوية الصارمة ، والتي من أجمعها قوله صلى الله عليه وسلم لما رأى في يد عمر رضي الله عنه صحيفة نقلها عن بعض أهل الكتاب : (لقد أتيتكم بها بيضاء نقية ، فلا تتهوكوا ، ولا يغرنكم المتهوكون) (٥) .

والعجيب أن هذه الأمة العظيمة تهوكت في مجاهل (الإسرائيليات) التي غصت بها فنون الثقافة حتى في تفسير القرآن الكريم ..

ثم غرها المتهوكون حين ترجموا الفلسفة الإغريقية وغيرها وسربوها إلى لباب العقيدة نفسها ، واتخذوها وسيلة (راقية) ـ بزعمهم ـ للفكر ومناقشة مسائل التوحيد والإلهيات رغم أنها فلسفات وثنية في جملتها ، وتجافي مقررات الوحي عن حقائق الغيب ..

وبهذا البلاء الطافح مرج على الأمة أمر دينها ، وابتعد الكثير منها عن هدي الكتاب ، وسمت النبوة ، والتبس السبيل على الراعي والرعية (قال ابن درباس : وقد أكثر أهل الزيغ القول على من تمسك بالكتاب والسنة أنهم مقلدون ، وهذا خطأ منهم بل هو بهم أليق ، وبمذاهبهم أخلق ... لأن هؤلاء نسبوا ذلك إلى التنزيل ، وإلى متابعة الرسول ، وأولئك نسبوا إفكهم إلى أهل الأباطيل ، فازدادوا في التضليل ، ألا ترى أن الله

---

(٥) الحديث في قصة طويلة رواه أحمد وغيره ، والتهوك : الوقوع في الأمر بلا روية ، وقيل معناه التحير .

أثنى على يوسف حيث قال : (إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ... الآية) ، فلما كان آباؤه عليهم السلام أنبياء متبعين للوحي وهو الدين الخالص الذي ارتضاه الله ، كان اتباعه آباءه من صفات المدح ، ولم يجيء فيما جاءوا به ذكر الأعراض ، وتعلقها بالجواهر ، وانقلابها فيها ، فدل على ألا هدى فيها ، ولا رشد في واضعيها .

وقال ابن الحصار : وإنما ظهر التلفظ بها زمن المأمون بعد المائتين لما ترجمت كتب الأوائل ، وظهر فيها اختلافهم في قدم العالم ، وحدوثه ، واختلافهم في الجوهر وثبوته ، والعرض وماهيته، فسارع المبتدعون ومن في قلبه زيغ إلى حفظ تلك الاصطلاحات ، وقصدوا بها الاغراب على أهل السنة ، وادخال الشبه على الضعفاء من أهل الملة ، فلم يزل الأمر كذلك إلى أن ظهرت البدعة ، وصار للمبتدعة شيعة ، والتبس الأمر على السلطان ، حتى قال الأمير بخلق القرآن ، وجبر الناس عليه ، وضرب أحمد بن حنبل على ذلك .

فانتدب رجال من أهل السنة كالشيخ أبي الحسن الأشعري ، وأبي عبدالله بن كلاب ، وابن مجاهد ، والمحاسبي ، وأضرابهم فخاضوا مع المبتدعة في اصطلاحاتهم ، ثم قاتلوهم وقتلوهم بسلاحهم ....) (٦).

ولقد كان من المقبول أن يستمر هذا العلم على هيئته التي نشأ عليها يدافع عن العقيدة الاسلامية بأساليب الشبهات المحدثة ، شريطة أن يلزم حدوده الدفاعية فقط ، وبذلك يكون علما نافعا يستطيع أن يجدد نفسه كلما استحدث أهل البدع والإلحاد جديدا من الأقاويل والأفكار .

ولكن المؤسف أن هذا العلم تحول من وسيلة دفاع ، إلى أصل تقرر العقائد من خلاله وتلتمس لها الأدلة من جدلياته ونظرياته ومن ثم أخذ سمة الثبات الفكري ، وتوطد

(٦) تفسير الإمام القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) عند الكلام على الآية رقم ١٧٠ من سورة البقرة (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)

سلطانه ، وأصبح يتلقى بالاحترام والتسليم شأن القوانين ، والأصول المحكمة ، التي لا يتطرق إليها النقد ، فضلا عن الشك ، والنبذ .

ولا ريب عندي أن هذا كان إحدى الكبر ، والجنايات الفاحشة على مجتمعات المسلمين ، عامتهم وخاصتهم ، ذلك لأن علما جدليا فلسفيا لا يمكن بحال ما أن ينشئ عقيدة ، أو يغرس إيمانا أو يحرك وجدانا ، وإنما حسبه (إن أمكنه) أن يكون وسيلة دفاع ـ بعد النص المنقول عن الوحي ـ ضد من يثير الشبهات . فمرتبته إذن تالية ، لا تأتي إلا بعد أن تتقرر العقيدة على منهاج الوحي ، وبأدلته الخاصة ، وبوسائله وأساليبه المنفردة .

ومكانه إذن خاص ، لا يجاوز حلقات الدرس ، والتخصص لمن يعدون لهذا الأمر ليقوموا بواجب كفائي عن أمتهم .

ودوره إذن دفاعي متجدد مع الأنماط الفكرية التي يثيرها الملاحدة في كل جيل ، ملونة بلون عصرها وبيئتها ..

ومن العجيب أن كثيرا من مراكز التعليم الديني لا تزال تدور في متاهات هذا الخلل الفكري الذي انتهى زمانه ، فهي لا تدرسه دراسة تاريخيه مجردة ، وإنما دراسة تقريرية ، لتثبت به العقائد ، والأصول الدينية العليا ، بينما اندثرت الفرق التي صنعت جدلياته ، أو قامت حولها ، بل نقض الفكر المعاصر نفسه كثيرا من مصطلحاتها وأقوالها ، وجاء بجديد من القول والنظر ، طعنا في الدين كله ـ والإسلام منه بوجه خاص ـ مما يستوجب الدراسة والتمحيص والتفنيد ، لأنه يشكل واقعا حيا متحركا ، فاحش الخطر والأثر ، وسنعرض لبعض ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى .

على أنه ينبغي التنبه إلى الفارق الخطير بين العلوم والثقافات فالعلم الذي يأتي نتيجة التجارب الصادقة ، والنظر الصحيح هو نتاج أممي يتأثر فيه اللاحق بالسابق ، لينقله إلى غيره بدوره ..

والثقافات الفكرية النظرية هي نتاج خاص بأمتها ، وقد تكون ضربا من الأساطير والخرافات ، أو تكون في أحسن صورها تعبيرا عن خصائص أمتها وظروفها ، لا تصلح لغيرها ، بل ربما كانت أفسد الأشياء لهذا الغير .

وقد جمع الإسلام ـ بفضل وجهته العالمية ـ عباقرة الأمم في صعيد واحد فتضافروا على إخراج حضارة زاهرة ، واستفادوا من علوم السابقين بقدر ما أفادوا الدنيا بعد ذلك .

ولكن المسلمين دخلوا في مرحلة « الجمود الحضاري » الذي ظهر فيهم بوضوح في القرن العاشر الهجري وما تلاه نتيجة عوامل كثيرة مثل : الاستبداد السياسي ، والمظالم الاجتماعية ، وإهمال السير والنظم وعلوم الحياة ، مما عطل فيهم روح الابتكار وأفقدهم نزعة الحركة والتجديد ، وأقعدهم عن الاجتهاد والتفتح ، وجعلهم وقوفا في أماكنهم يجترون آثار حضارتهم القديمة ، ويدورون حول إرثهم العظيم ، ينفقون منه ، ولا ينمونه مع حاجات الحياة المتجددة ، حتى وصل الأمر إلى درجة احتقار دراسة التواريخ ، ومعرفة البلدان والأقاليم ، وعد ذلك بدعة في الدين ، أو مضيعة للوقت في عبث عقيم ! !

ومن الناحية العلمية أدى هذا إلى ركود الفكر ، وخمول جذوة النظر ، والبحث ، والاجتهاد ، فالتزم علماء الأمة ومفكروها دائرة الحواشي والمتون ، وعكفوا على نصوص السابقين وكتبهم ، ينزلونها أحيانا منازل العصمة والقداسة ، وينفقون الأعمار في حل ألفاظها ، ويبذلون غاية الجهد في الدفاع عنها ، وردّ ما يرد عليها ، ويرتكبون في ذلك غاية التكلف واللجاج . .

ولقد كان من أخطر ضحايا هذا الوضع هو « الفقه الإسلامي » نفسه الذي يقوم في أساسه على سعة الاجتهاد ، وحسن النظر ، وصحة الموازنة والتجرد من الهوى والتعصب الفكري الذميم ، بل هو في معناه ومبناه يعتمد على فهم الأمور ، والنفاذ إلى لبابها ، وتنزيل الوقائع الحادثة على قواعد الدين الثابتة ، ونصوصه المحكمة .

ولقد كانت أوضاع المجتمع نفسه ـ بحكم الجمود العام ـ تدفع النابغين أنفسهم إلى جانب الخمول والركود ، وتتغلب على التوهج الفكري ، الذي كان ينبثق في جنبات هذه الأمة الكبيرة مصلحا ومجددا ، فلا يلبث أن تضيع آثاره العظيمة ، أو تخبو، ويقبع أصحابه عاجزين عن الإصلاح رغم إدراكهم لحقائق الأمور ..

وفي مجال الفقه والاجتهاد ـ على سبيل المثال ـ نجد هذه المحاورة الغنية عن التعليق لدلالتها البالغة :

« سأل أبوزرعة شيخه البلقيني قائلا : ما تقصير الشيخ تقي الدين السبكي عن الاجتهاد وقد استكمل آلته ؟ فسكت البلقيني .. فقال أبو زرعة : فما عندي أن الامتناع عن ذلك إلا للوظائف التي قدرت للفقهاء على المذاهب الأربعة ، وأن من خرج عن ذلك لم ينله شيء من ذلك ، وحرم ولاية القضاء ، وامتنع الناس عن افتائه ، ونسبت إليه البدعة ..

فابتسم البلقيني ووافقه على ذلك ..» (٧).

ثالثا : طور جديد خبيث

ومن سوء حظ البشرية عامة ، والمسلمين خاصة أنه في هذا الطور من الضعف بدأت عناصر الغلب والقوة تتوثب صاعدة في أوربا ، بعد نوم طويل ، فأخذت تركض في مدارج العلم والحضارة ، وتلقفت الراية من المسلمين أنفسهم لتبدأ بها دورة من دورات الحضارات الكبرى في التاريخ .

وكان من أهم أسباب هذه اليقظة أمران :

الأول : تلك الروح الدافعة التي بثها الإسلام وحضارته في أرجاء العالم ، فأخذت تسري في أوصاله مجددة حياته وقواه ، وقد تلقتها أوربا عن المسلمين إبان

(٧) يراجع في هذا كتاب « فقه السنة » للشيخ سيد سابق ج ١ ص ١٨

الحروب الصليبية في الشرق وعن طريق حضارة الأندلس العظيمة في الغرب .

الثاني : التمرد على الكنيسة الجاهلة ، ونبذ سلطانها السياسي والديني بكل ما يمثله من خطايا وأخطاء ، وحجر على الفكر ، وكبت للعلم ، واضطهاد للعلماء باسم دين الكنيسة الزائف .

ولقد كان من أخطر جنايات هذه الكنيسة دعايتها الكاذبة ضد الإسلام طوال الحروب الصليبية وبعدها ، وتصويرها له بصورة الدين الوثني المتخلف المنحرف ، مما عبّأ النفس الأوربية عامة بعقدة الكراهية العارمة ، والمقت البالغ للإسلام والمسلمين ، يتوارثونها كأنها من المسلمات البدهية بلا فهم ولا تمييز ، ولا تزال هذه الروح سارية في أغوار النفس الأوربية إلى يومنا هذا . ولعل هذا أحد الأسباب الأساسية التي حالت بين أوروبا وبين الإسلام ، حتى بعد تمردها على الكنيسة ، فارتدت إلى أصولها الوثنية ، وأحيت تراث الرومان واليونان القائم على إلحادية مادية ، فصارت أوروبا بذلك أعجب مركّب حضاري ، أخذ من الإسلام روحه الحضارية ، ومن اليونان والرومان مثله وقيم حياته الجديدة ، التي قامت على انقاض مجتمع الكنيسة ودينها المهزوم .

ومن العجيب أن هذه الحضارة حين تمت لها الجولة ، أخذت تتعامل مع العالم الإسلامي بروح هي خليط من هذه المتناقضات ، فكانت ملحدة في كل شئ ، إلا مع المسلمين فهي صليبية مسيحية تتحالف فيها الدولة « العلمانية » مع الكنيسة ، ويقوم فيها الرجل بدور الراهب المبشر ، والعالم المستشرق ، والجاسوس المحترف في آن واحد أحيانا ..

ولما حان لهذا الطور الحضاري المتفوق أن يمتد خارج حدوده المحلية وقع معظم امتداده على العالم الاسلامي المواجه له ، وأخذ شكل الغارة الشاملة ، وكان الغزو في هذه المرة ماكرا عنيدا ، إذ وعى قادته تماما مكامن القوة والضعف في نفوس المسلمين ،

وعرفوا دور الإسلام الخطير في حياة أتباعه ، وكيف هزمهم في كل مرة كان فيها حاضرا شاخصا ، وكيف تغلبوا على أتباعه كلما رث في نفوسهم ، وضعف تمثلهم له ..

ولذلك استهدف هذا الغزو الفاجر كل شئ : الأرض والناس والثروات والعقول، والمعادن والعقائد ، والأخلاق والأذواق ، والعادات والأفكار ... إلخ .

ولقد كانت جنايته على قيم هذه الأمة ومثلها أفدح - بما لا يقاس - من جنايته على الأموال والثروات ، رغم جسامة ما انتهبه منها .

ولذلك كان تركيزهم على مهاجمة الإسلام ، والعمل الدائب على التشكيك فيه ، وتنحيته عن مجالات الحياة الأساسية ، وتتبعه حتى في داخل النفوس بالطمس والتشويه.

وقد برعت هذه الحضارة الغازية في أساليب الغزو الفكري وتأصيل المناهج الضالة ، وعرضها عرضا مغريا ، واستخدام كل تجاربها العلمية وطرائقها الحضارية في بهرجة ذلك وتدعيمه ، حتى لتعد وسائل الأمم والحضارات السابقة فنونا ساذجة إذا قيست بما استخدمته - ولا تزال تستخدمه - الجاهلية المعاصرة من فنون المكر والخداع والتضليل والتي تقف وراءها أجهزة مدربة عاتية لتأصيلها ، وفلسفتها والتخطيط لها، واعداد برامجها ومناهجها، ومتابعتها بالتنفيذ والرصد والتعديل والإحصاء والتحليل والمقارنة حتى ليصدق عليهم تماما ما وصف به الشاعر حافظ إبراهيم الاحتلال الإنجليزي :

لقد كان هذا الظلم فوضى فهذبت .. حواشيه حتى بات ظلما منظما

وهذا الغزو المنظم المدروس يستخدم القصة ، والتمثيلية ، والمسرح « والسينما » والإذاعات بأنواعها ، والكتب والمجلات ، والصورة والمقالة حتى الطرائف والملح الشائعة لا يتأخر في استعمالها لكسب قضاياه ، وتحقيق أهدافه ، والوصول إلى ما يسمونه هم أنفسهم بعمليات (غسيل المخ) ، وزرع ذاكرة جديدة في رؤوس الأجيال ، لتنشأ على ولاء فكري ونفسي للغرب ومثله وحضارته ! !

ولقد كانت نتائج هذا الغزو - فعلا - ضارية ومروعة ، إذ نجحت في تنشئة الأجيال على حب الغرب ، والتسبيح بحمده ، والفناء العميق في مناهجه وأساليبه « وطريقة عيشه في الحياة كما يقول المؤرخ (توينبي) !!

وما كان لأوروبا أن تصل إلى معشار هذه النتائج ، ولو ظلت ألف سنة تحمل السلاح ، وتقذف بالجيوش ، وتنتصر في الحروب ..
وما أصدق الشاعر الهندي المسلم حين عبر عن هذا بما يقطر مرارة وأسى ، فيقول :

« يا لبلادة فرعون . الذي لم يصل تفكيره إلى تأسيس الكليات ، وقد كان ذلك أسهل طريقة لقتل الأولاد ، ولو فعل ذلك لم يلحقه العار ، وسوء الأحدوثة في التاريخ » ! !

بل ما أصدق أن نقول : إن ماوصلت إليه هذه الحرب الخبيثة كان أكبر وأشد من القتل ، لأنها فتنت أجيالا متتابعة من المسلمين فتنة عارمة ، وتركتهم على الردة الصامتة البالغة غاية الفكر حين دثروها لهم بثوبي زور ، ودلسوها عليهم باسم التقدم والحضارة ثم بلغت الغفلة غاية مداها حين قابل المسلمون ذلك بالإقبال ، وكان خليقا أن يستثير فيهم عزائم النزال والقتال ، والتأبي والاستعصام ، وسيتضح ذلك في الصفحات التالية إن شاء الله تعالى ...

رابعا: مراحل هذا الغزو

لقد مر هذا الطور من الغزو الفكري بمرحلتين أساسيتين ، تبعتهما النتيجة الطبيعية لكل غزو متقن الأساليب ، وهي ما عليه أوضاع المسلمين الآن من تجانف عن الإسلام ، وميل إلى شتى الطرائق الضالة على ما نعرضه في الصفحات التاليه إن شاء الله تعالى :

المرحلة الأولى : الغزو الفكري في فترة الضعف

كانت هذه المرحلة تمهيدية ، قصد بها تجهيز الفريسة ليسهل الانقضاض التام عليها، والاستيلاء الكلي على مقدراتها .

وكما قلنا كان الغزاة الجدد قد استوعبوا دروس الجولة السابقة ووعوا إلى درجة اليقين مكامن القوة في نفوس المسلمين بهذا الدين ولذلك جعلوه هدفهم المباشر ، وركزوا عليه الضربات في عنف وضراوة وتسديد لا يكاد يخطىء أو يفتر ، مع ما استحدثوه من براعة الأساليب ونعومة المداخل ، بعد أن عز عليهم قهر هذا الدين بالقوة المسلحة طوال قرون .

ولقد وافق هذا السعي الخبيث دخول المسلمين في فترة ضعف وانحلال حضاري عام، ولذلك استقبلوا بواكير هذه المرحلة وقلوبهم شتى ، وهذا أول الهزيمة ، ثم لم يكونوا جميعا ـ خاصة قادتهم ـ على وعي وثيق بمصدر قوتهم الحقيقي كوعي أعدائهم لهذه الحقيقة ، وهذا لب الهزيمة لأنه سهل مهمة العدو الغازي ، في تصويبه المبكر لقلب المفاهيم وتشويه الحقائق ، وإثارة الشبه والشكوك ، خاصة في نفوس وقلوب الطلائع المستنيره ، والمرشحه في غدها لقيادة أمتها في شتى مجالات الحياة ..

ويذكر « إدوين بلس » في كتابه (ملخص تاريخ التبشير) : أن «ريمون لول» الأسباني هو أول من تولى التبشير بعد أن فشلت الحروب الصليبية في مهمتها ، فتعلم (لول) اللغة العربية بكل مشقة ، وجال في بلاد الإسلام ، وناقش علماء المسلمين في بلاد كثيرة ...

ثم ذكر تحريك البارون « دوويتز » ضمائر النصارى عام : ١٦٦٤م إلى تأسيس مدرسة كلية تكون قاعدة لتعليم التبشير المسيحي ، وتعلم فيها لغات الشرق للطلاب الذين يناط بهم أمر التبشير ..» (٨).

وكما قدمنا صحب ذلك بوادر النهضة الأوروبية ، وصراعها الهائل مع الكنيسة وانتهى بما هو معلوم من هزيمة الكنيسة ، وقيام الدولة الأوروبية على أساس لا ديني أو ما يسمونه « بالعلمانية » .

ولما تطلعت هذه الدول إلى إعادة الغارة على العالم الإسلامي ، عمدت إلى دراسة موسعة عن الحروب الصليبية ، ومعرفة تجاربها وأخطائها ..إلخ

كذلك توسعت في دراسة أحوال المسلمين من حيث اللغات ، واللهجات ، والمذاهب ، والطوائف ، والفرق ..إلخ ، ثم في دراسة الإسلام نفسه من حيث هو دين ، ومصادر ، وتاريخ ، وكان ذلك كله بقصد خدمة أهداف الحملات المرتقبة .

ولم يكن هذا العمل فرديا ، ولا عفويا في هذا الطور ، وإنما كان يقوم على إعداد صبور ، وتخطيط دؤوب ، وتدبير حقود يستهدف غاية مزدوجة هي : تدمير الإسلام ، وقهر المسلمين ، وامتصاص ثرواتهم ، وتحويل مسارهم في الحياة ..

وكانت تقف وراء هذا النشاط المحموم جهتان هما : الكنيسة الأوروبية بكافة مذاهبها ، والدول الطامعة بكافة قومياتها وأنواعها ، وربما كان هذا الهدف الخطير ، هو الشيء الوحيد الذي تجتمع عليه الدولة ، والكنيسة بعد هزيمتها وعزلتها ، لذلك تعاونا وتعاضدا كل لخدمة غرضه الخاص ، أو لخدمة الغرضين جميعا ، حتى كان كثير من

---

(٨) راجع تفصيلا وافيا عن ذلك في كتاب « الغارة على العالم الإسلامي » ص ٢٧ وما بعدها فصل « تاريخ التبشير ، حيث يذكر اشتراك أمم أوربا كلها في هذا الغزو التبشيري المبكر.!

القساوسة والمبشرين يعملون مباشرة لخدمة الاستعمار والاحتلال ، تحت ثياب الاستشراق ، والبحث العلمي ونحوه وبنفس القدر كانت الدول تدعم حركات التبشير وتمهد لها كل السبل !

« ومنذ البداية كان هناك تجاوب متبادل ، إن لم يكن هناك تماثل في القصد بين المستشرق الأكاديمي ، والمبشر الإنجيلي ... وعاش التحالف بين الجانبين ـ على وهنه ـ خلال القرن التاسع عشر ، وبقي قائما بصورة من الصور إلى عهد « مرجليوث » في هذا القرن ، .. وتعلم الفريقان أن يراجعوا أهدافهم ومناهجهم ، ولكن ظل هناك على حاله تيار عميق من الفكر السائد ـ ربما غدا الآن كامنا في أعماق ما رواء الشعور ـ يذهب إلى أن الإسلام لابد أن يعاد تشكيله في قوالب غربية *WESTERNIZATION* أو عصرية *MODERNIZATION*: ، أو إصلاحية : *REFORMATION* وهكذا صال المبشرون ، وجال المستشرقون وكتب الفريقان ، أو واصلوا الكتابة بدرجات متفاوتة من الدهاء وبعد النظر في تناول الموضوع » (٩)

ولقد كانت خطة الدول ، والكنائس تدور حول محور واحد هو ضرب الاسلام وتنحيته عن الحياة ، وكان هذا هو العامل الرئيسي الكامن وراء كل التصرفات حيال العالم الإسلامي عامة ، وكل إقليم يراد غزوه والاستيلاء عليه بوجه خاص ، وقد أعلنوا هذه الحقيقة مرارا ، تارة بالقول الفج ، وتارة بالقول الملتوي الخبيث ومن ذلك أن جلادستون (١٠)وقف يخطب فقال وهو يشير إلى القرآن الكريم :

« إننا لن نستطيع الاستقرار في الشرق ما دام فيه هذا الكتاب »

(٩) راجع الدراسة القيمة التي كتبها أ.ل . طيباوي وترجمها الأستاذ فتحي عثمان وهي بعنوان : المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ، ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام » وقد نشرها الدكتور محمد البهي ملحقا لكتابه : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ص ٥٧٣ وما بعدها .

(١٠) جلادستون زعيم حزب الأحرار البريطاني ، ومن مشاهير الخطباء في القرن التاسع عشر وكان من ألد أعداء الخلافة الإسلامية

أما « وليم جيفورد بالكراف » فيقول : « متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا أن نرى العربي حينئذ يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه » (١١) ، وسنعرض لأهم الوسائل التي اتبعوها لتحقيق هذا الهدف الإجرامي

١ ـ التعليم والثقافة الأجنبية :

ليس من غرضنا هنا استقصاء الوسائل ، وإنما حسبنا أن نشير إلى أخطر ماستخدم منها تمهيدا للغزو العسكري ، الذي أمكنهم في ظله تخريب الشخصية الإسلامية ، وصياغتها على طراز فاسد أعوج بعد ذلك

وفي البدء تنبه كثير منهم إلى سذاجة فكرة التبشير بمسيحيتهم بين المسلمين . لأن عناصر الإسلام ، وحقائقه الراقية ، تسمو إلى غير ماحدود عما لدي المبشرين من عقائد وأخلاق وعادات ، وتطبع المسلم بطابع الإحساس بالتفوق والاعتزاز بدينه .

لذلك اتجه التفكير إلى إيجاد « حامض » مذيب لهذه المناعة الإسلامية في نفوس المسلمين ، وقد كان التعليم والثقافة الأوربية هما أخطر المواد التي استخدمت في تحقيق هذا العمل التخريبي الهدام على أوفى الوجه . !

يقول « شاتليه » في تقديمه لأعمال الإرساليات التبشيرية :

« لاشك في أن إرساليات التبشير من بروتستانية ، وكاثوليكية تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية في نفوس منتحليها ، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التي تتسرب مع اللغات الأوربية ، فبنشرها اللغات الإنكليزية والألمانية ، والهولندية ، والفرنسية ، يتحكك الإسلام بصحف أوربا ، وتتمهد السبل لتقدم إسلامي مادي ، وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية ، التي لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها »(١٢).

---

(١١) الغارة على العالم الإسلامي ص ٩٣

(١٢) الغارة على العالم الإسلامي ص ١٧ ، ١٨ . وواضح زيف الجزء الأخير من كلام شاتليه لأن تاريخنا شاهد على عكس ذلك .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم ذلك حتى قال بعض غلاتهم (زويمر) : « المدارس أحسن ما يعول عليه المبشرون في التحكك بالمسلمين » (١٣)

وفي مقالة جامعة حلل الشيخ علي يوسف رحمه الله هذا السرطان الخبيث ، الذي تسلل إلى جسد الأمة الإسلامية ، في نعومة الأفعى وخطورتها ومنها :

« ما طمحت الدول الأوروبية إلى الاستيلاء على بلد أو إقليم من الشرق عموما إلا وسبقت إليها بافتتاح المدارس بمرسليها الدينيين ، ومن تخلق بأخلاقهم ليمهدوا لها طريق الاستعمار ، علما منهم بأن مأمورية هؤلاء المعلمين ليست إلا عبارة عن بث أخلاق، وعوائد ، وتعاليم ـ دينية كانت أو فنية ـ وهم إذا دخلوا قرية ، وظهروا بهذا المظهر ، لا يلاقون معارضة أو ممانعة ، لأن حجتهم نشر العلم والتهذيب ، ورفع لواء التمدن ، ومن لا يرضى بذلك فليس له من اسم الإنسانية نصيب ، وتقوم عليه قائمة حرب التعنيف والتنديد بلسان كل خطيب ، وقلم كل كاتب ، فلا مناص أن تقبل هذه الأقاليم الشرقية الوافدين إليها من المرسلين الذين هم نصراء الهداية ، والمعارف ، والتمدن في ظاهر العين ، وسفراء الاستعمار والاستيلاء في الحقيقة ، وهل يتصور أن قوما جاوزوا البحار وتجشموا الأخطار لمحض منفعة من وفدوا إليهم خدمة للإنسانية كما يقولون ؟!!

كلا... ولاهي محض التكسب ، واستجلاب الدرهم والدينار ... إننا نعلم حق العلم أنه ما من مدرسة من هذه المدارس ، إلا ولها جمعية من الجمعيات الخيرية في مملكتها ، تنفق عليها النفقات الطائلة ولايكون ذلك عبثا ، ونرى بأعيننا من جهة أخرى أن كل دولة غربية ، ما وضعت يدها على أمة أو قبيلة ـ تملكا أو حماية ـ إلا وجعلت مقدمة ذلك هذه المدارس .

فبان أن المقصد العظيم ، والباعث القوي هو سياسي ومليٌ في آن واحد » (١٤).

ونكتفي هنا بذكر مثالين صارخي الدلالة على صدق هذا التحليل وهما بلسان الغزاة أنفسهم :

---

(١٣) السابق ص ١٠١

(١٤) منتخبات المؤيد ص ٥٠ (السنة الأولى) وقد نقلنا ذلك عن كتاب : الاتجاهات الوطنية جـ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧

المثال الأول :

من مؤتمر «أدنبرج» التبشيري الذي عقد عام ١٩١٠م وحضره ١٢٠٠ من المندوبين ، وتفرع إلى ثماني لجان ، وخاضت اللجنة الثالثة منها في « الأعمال المدرسية التي يقوم بها المبشرون ، واكتفت بهذه الكلمة عن المسلمين فقالت :

آراء سفراء الدول الكبرى في عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التي أسسها الأوربيون ، كان لها تأثير على حل المسألة الشرقية ، يرجع على تأثير العمل المشترك الذي قامت به دول أوروبا كلها » (١٥) .

المثال الثاني :

ما صرح به القائد الفرنسي الجنرال « بيير كيللر » عن وسائل التأثير الفرنسي في الشام قبل احتلاله يقول :

« فالتربية الوطنية كانت بكاملها تقريبا في أيدينا ، وفي بداية حرب عام ١٩١٤ م كان أكثر من أثنين وخمسين ألف تلميذ يتلقون دروسهم في مدارسنا ، وكان بين هؤلاء فتيان وفتيات ينتمون إلى عائلات إسلامية عريقة ، مما جعل الجمعية المركزية السورية التي تألفت في باريس تعلن عام ١٩١٧ م أن جميع ميول السوريين وعواطفهم تتجه نحو فرنسا ، بعد أن تعلموا لغتها وخبروها على مر الأجيال وتأكدوا من إخلاصها ، وتجردها » !!

ويقول أيضا: « إن كلية عينطورة في لبنان هي وسط ممتاز للدعاية الفرنسية » ويقول : « إن مؤسساتنا تعمل دون ملل لتغذية النفوذ الفرنسي مثل : معهد الدراسات العبرية في القدس ، ومعهد الدراسات الإسلامية في القاهرة ، والمدرسة الإكليريكية

(١٥) الغارة على العالم الإسلامي ص ١١٩ ، وراجع فيه الإحصاءات المذهلة عن عدد المبشرين ، ومدارسهم ، وتلاميذهم ، ونفقاتهم الباهظة .. إلخ ص ١٠٦ وما بعدها ، وصفحة ٢٠٥ وما بعدها ..

الدومينيكانية في الموصل ..» إلخ (١٦) وما وقع لهذه البلاد وقع مثله لغيرها بصورة أو بأخرى ، وتكالبت فيه على المسلمين أمم أوروبا خاصة الدول الطامعة في الاستيلاء على غيرها كانجلترا وهولندا ، وألمانيا القيصرية ..إلخ

ومن أعجب الأمور أن الولايات المتحدة الأمريكية ـ رغم عزلتها الشهيرة ـ كانت على أوثق الصلات بهذا الغزو ، تسهل طرقه ، وتؤثر في أطرافه بوسائلها المتعددة ، وعلى سبيل المثال بلغ عدد مندوبي أمريكا ٥٠٥ من المندوبين في مؤتمر أدنبرج التبشيري سنة ١٩١٠ م (وقد سبق ذكره) وكان منهم كبار الشخصيات كالمستر روزفلت رئيس جمهورية أمريكا (السابق) ولم يتخلف عند الحضور إلا لعذر طارئ .

وهذا العدد الرهيب يفوق عدد مندوبي أعتى دولة استعمارية في ذلك الوقت ، وهي انجلترا التي اشترك عنها ٥٠٢ من المندوبين (١٧)

ومن المدهش حقا أن الدولة العثمانية كانت أحيانا تحد من نشاط المبشرين الأجانب وأعوانهم ، حين رأت الدور التخريبي الهدام الذي يقومـون به سياسيا ، واجتماعيا ، وفكريا ، ولكن: « كانت معاملة الحكومة العثمانية للمبشرين تتحسن بواسطة سفراء الولايات المتحدة » كما يقول المستر « بلس » المبشر البروتستانتي (١٨).

---

(١٦) راجع كتاب : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر جـ٢ ص ٢٦٤ وما بعدها وهو ينقلها عن كتاب « بيير » : « القضية العربية في نظر الغرب » .

(١٧) راجع كتاب : الغارة على العالم الإسلامي ص ١٠٩

(١٨) الكتاب السابق ص ٤٢ ، وراجع أيضا ص ٢٧ منه (فصل تاريخ التبشير حيث ينسب هذا القول لكتاب « بلس » وعنوانه : ملخص تاريخ التبشير . وراجع أيضا ص ٢٣٤ وما بعدها حيث يوجد تفصيل واسع عن جمعيات التبشير الأمريكية .

٢ ـ محاربة الشريعة الإسلامية :

وفي هذا الجو المظلم تخرجت أجيال من أبناء المسلمين ، أو بالأحرى من متعلميهم ومثقفيهم ، متأثرة بضروب هذا الغزو المنظم متطلعة إلى الأفق الغربي تستلهمه الرشد ، وترى فيه النموذج والمثل الأعلى وتتشرب ـ في نهم ـ أنماط حياته سلوكا وفكرا بلا فحص ولا بصيرة ولا رأي سديد ! !

وكان أخطر ما ألقي في روع هذه الطلائع النكدة ، قياس الإسلام بدين أوروبا وكنيستها ، مع فارق ما بين الأمرين شكلا وموضوعا وتاريخا وظروفا ، كذلك ربطوا في أذهانهم التخلف المادي بالإسلام وهذا عكس الحقيقة ، ونقيض الواقع على طول الخط..

وقد انعكس هذا كله على تصرف هذه الطلائع في نظرتها لدينها العظيم ، وفي درجة استمساكها به ، وفي استعدادها النفسي والفعلي لقبول الفكر الوافد ، واستبداله بالإسلام في كثير من النواحي ، خاصة في المجال القانوني التشريعي ...

وكانت مؤامرات أعداء الإسلام دائبة في تكميل الدائرة ، وضرب النطاق الحاقد حول الشريعة الإسلامية ، ومحاولة انتقاصها وتنقيصها ، وإبعادها عن مجالات الحياة الأساسية ، أولا بأول في واقع حياة المسلمين ، بعد أن كسبوا جولتهم داخل عقول الطلائع المستنيرة ، المرشحة لقيادة أمتها باطراد والتي استعانوا بها في هدم حصون أمتهم من داخلها !!

وليس أدل على ذلك من أن دولة الخلافة نفسها كانت نهبا لغزو فكري شامل ، تمثل في المدارس ، والمعاهد ، وإرساليات التبشير الأوربية ، ثم في حملات الدعاية الكاذبة في صحف أوربا ، ودوائرها السياسية والأدبية ، والاجتماعية ، مما شل إرادة دولة الخلافة وأوقعها في النهاية بين براثن ما يراد لها من كيد لئيم ، رغم مقاومتها الشديدة من الناحية الإسلامية . ولكن الغزو الفكري كان قد نجح في تهيئة أنصار له من الداخل ، قربوا له

الجولة من حيث يعلمون أو يجهلون . وهل كانت الزعامات التي قادت تركيا إلى الإلحاد والفسوق والانحلال ، إلا وليدة هذه الفترة وحصاد هذه التربية المنكودة ، كما هو معلوم من التاريخ.!

يقول الدكتور محمد حسين حول هذا :

« كانت الحضارة الأوربية ، والثقافة الغربية ، تغزو الشرق الإسلامي وتغزو تركيا نفسها في أشكال مختلفة : معاهد علمية ، وشركات أجنبية وبضائع وملابس ، وفرش وأثاث ، وقد دأب الأمراء والأثرياء والطبقات العليا من المستوزرين ، والحكام على إرسال أبنائهم وبناتهم إلى هذه المدارس التي كانت تعد تلاميذها لأسمى المناصب وأقبل عليها أبناء الطبقة المتوسطة تقليدا لهؤلاء الأثرياء في بعض الأحيان ، وإعجابا بنظامها المحكم الدقيق ، وببراعة تلاميذها في اللغات الأجنبية ، التي تعد صاحبها لكثير من الأعمال المربحة في أحيان أخرى » (١٩) .

وبالنسبة للمجال القانوني التشريعي ، التقى الأمران : الوهن الداخلي ، والتآمر الخارجي ، على الكيد لشريعة الإسلام وتشويه معالمها فكريا ، وصرف المسلمين عنها واقعيا .

وفي البدء كانت دولة الخلافة توصم بالتخلف المادي ، والرجعية والجمود ، وكانت الامتيازات الأجنبية قد تغلغلت في أحشائها ، حتى أصبح للدول الأجنبية سيادة قضائية وتشريعية بالنسبة لرعاياها في داخل دولة الخلافة نفسها ، ثم لما وقعت الحرب الطاحنة بين روسيا وتركيا (١٨٥٣ ـ ١٨٥٥) م والتي انتهت بعقد مؤتمر الصلح في باريس (١٨٥٦) تحت إشراف أعتى دولتين تحاربان الإسلام وأهله وهما : انجلترا وفرنسا استطاعت الدول الكافرة ، أن تدفع دولة الخلافة إلى منزلق خطير جدا ، يأخذ اسم الإصلاح وشكله بينما ينطوي في داخله على أكبر المفاسد ، وقد أعان على ذلك جنود الغزو الفكري من أبناء الدولة نفسها ورعاياها .

(١٩) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر : جـ ١ ص ٢٥٩

وقد تضمنت القوانين التي أصدرتها الدولة عقب هذا المؤتمر ـ والتي عرفت باسم «التنظيمات الخيرية» ـ إنشاء ما يسمى : « بالمحاكم المختلطة » « والمحاكم التجارية » تابعة للدولة نفسها وتطبق قوانين أجنبية باسم دولة الخلافة الإسلامية ، ذات السيطرة الواسعة على المسلمين ، وكان هذا هو حدث الأحداث في بداية انهيار التشريع الإسلامي ـ من حيث التطبيق والتنفيذ ـ وحتى مجلة « الأحكام العدلية » التي أصدرتها الدولة عام ١٨٦٩ ميلادية ، وقننت فيها أحكام المعاملات من مذهب الإمام أبي حنيفة لتقابل ما يسمى « بالقانون المدني » في الأنظمة الوضعية ـ حتى هذه المجلة لم تكن تطبق إلا على رعايا الدولة فقط ، وفي الأحوال التي لا يكون أحد طرفي النزاع أجنبيا ، ثم مع ذلك استمرت عرضة للتحيف والانتقاص ..

وعلى سبيل المثال كانت هذه « التنظيمات » الجديدة أعنف لطمة صريحة ومباشرة للحدود والجزاءات الإسلامية ، تنفذ بأيدي المسلمين أنفسهم ، ويبلغ الجهل ببعضهم أن يعدها إصلاحا ، وتقدما ، وكسبا ، وهذا هو ذروة ما تستهدفه الحرب الفكرية ، ودليل على براعة مدبريها من أعداء الله ثم هو حصاد طبيعي لهذا الغرس النكد الذي غذى في صبر وأناة بكل أفكار الضلال والإلحاد

يقول الدكتور محمود مصطفى :

« كان قانون العقوبات الفرنسي الذي صدر سنة ١٩١٠م حدثا في تاريخ القانون الجنائي ، ونموذجا في عهده، نقلت عنه دول كثيرة في داخل أوربا وخارجها ، ورغبت تركيا في كسب سياسي بالتقريب بين نظامها والنظم الأوربية الحديثة ، فأصدرت قانون «الجزاء العثماني» ١٨٥٨م ، مستمدا أحكامه من القانون الفرنسي ، وبصدور هذا القانون انتهى عصر تطبيق الشريعة الإسلامية في كثير من الأقطار العربية، حيث طبق عليها بحكم تبعيتها لتركيا ، وهو ما حصل في سوريا ، ولبنان ، والعراق ، وفلسطين ، وقد ظل «قانون الجزاء العثماني» مطبقا في هذه الأقطار ، إلى أن أصدرت قوانينها الخاصة في القرن العشرين (٢٠)..» .

---

(٢٠) أصول قانون العقوبات في الدول العربية ص ٩ ، ١٠ .

(مثال تطبيقي لهذا الغزو وآثاره على الشريعة الإسلامية)

ولنأخذ (مصر) على سبيل المثال ، في فترة ما قبل الاحتلال ، أو بعبارة أدق : في فترة تجهيز الفريسة وإعدادها ، ليسهل الاستيلاء عليها ، والاجهاز على بقية مقوماتها وقيمها .

فقد أدرك الغزاة من أول الأمر خطورة دور مصر ، وثقلها في هذه المنطقة ، وقدرتها العارمة على تبديد موجات الغزو المسلح ، كما حدث في معارك التتار ، والصليبيين من قبل ، ولذلك ركزوا عليها في الجولة الجديدة ، فكانت الحملة الفرنسية (١٧٩٨م) ، والحملة الإنجليزية (١٨٠٧م).

وقد ثبت من هاتين الحملتين أن الشعب المسلم في مصر - رغم تأخره المادي الشديد - لا تزال فيه بقية دينية ، وحمية إسلامية جارفة ، خاصة إذا هدد في قيمه ، وأخلاقه التي غرسها فيه الإسلام أو أحس بخطر الكفار على دينه وبلاده وإخوانه ، ومن ثَمّ استحال بقاء الحملة الفرنسية لأن المسلمين وضعوها في موضعها الصحيح من حيث هي حكم الكفار أعداء الإسلام - رغم ادعاء نابليون - ، وهذا ما جعل الأزهر يتصدى لقيادة الثورة من الداخل ، وهو عين ما حفز « سليمان الحلبي » طالب العلم الأزهري (الشامي وليس المصري) ، ودفعه لقتل قائد الحملة الثاني : « كليبر » باعتباره عدوا للإسلام والمسلمين .

وبنفس المقياس هزم مسلمو رشيد الحملة الإنجليزية ، قبل أن يتمكن حاكمهم الجديد من معونتهم (وهو محمد علي) . أي أنه في أقل من عشر سنين هزم مسلمو مصر أعتى دولتين في عصرهم .

ومن اليقين أن الغزاة قد أعادوا النظر في خططهم وعادوا يتقنون التصويب والتسديد إلى مصدر الخطر ومبعث القوة وهو هذا الدين العظيم .

وقد ثبت تاريخيا أن هذا الهدف كان من أكبر الأسباب الحاملة لفرنسا على تدعيم محمد على ، والترحيب ببعثات الطلاب المصريين في بلادها ، وبعث العلماء والأطباء والقادة العسكريين إليه ليكونوا في الحقيقة رسل التغيير ، وحملة الحضارة الفرنسية ، وليبذروا في التربة المصرية بذورها وفكرها ، ليؤدي دوره المرسوم في التطوير المبتغى !!

وكان في بداية هذا إدخال بعض القوانين التجارية والحربية إلى مصر نقلا عن قوانين فرنسا ، وكان بعض المبعوثين إلى فرنسا في هذا العهد الجناح الداخلي لعملية التطوير ، والتأثير الفكري الذي أريد لهذه المنطقة كلها من مدخلها الواسع أعني (مصر) !!

وقد ظل النفوذ الفكري الفرنسي يتسلل إلى مصر ، ويستشري خاصة في الطبقات العليا من الأمراء وأشباههم ، حتى كان الخديوي إسماعيل ، الذي ربى في فرنسا ، واستدعى لحكم مصر هناك ولمّا يكمل تعليمه فيها ، وقد عاد هذا الغلام من باريس ، وقد ذابت تماما كل حرارة للإسلام في صدره ، وصاغته « صالونات » باريس ، وصداقاته المتعددة لرجالها ونسائها صياغة جديدة ، غريبة تماما عن الأمة التي ابتليت بحكمه ، فكان مبهورا بما رأى وسمع ، ولم تكن لديه قاعدة أصيلة لماهيّة أمته ودينه وكانت أمنيته التي صرح بها مرارا أن يجعل « مصر قطعة من أوروبا » !!

وكأي مقلد فقد أصالته أخذ من أوروبا الشكل والمظهر دون الجوهر والمخبر ، فأسرف إسرافا فاحشا في تشييد القصور ، وإقامة التماثيل والحدائق والمتنزهات ، والمسارح ودور الغناء بلا ضرورة ولا وعي ..

ويعجب دارس التاريخ من هذا الحاكم ، الذي أغرق بلاده في الديون وفوائدها الباهظة ، نتيجة هذه المظاهر كيف أنفق الملايين على حفل افتتاح قناة السويس (١٨٦٩ حتى اضطر إلى بيع حصة مصر فيها إلى ألد أعدائها ؟! وكيف أنشأ في مصر ـ على ما فيها من فقر وجهل ـ « دار الأوبرا » ، واستقدم لها المغنيين والمغنيات واستأجر أشهر موسيقي أوروبا ليضعوا لها الألحان ...الخ ؟!

ومن النظرة الشاملة لهذا كله نستطيع القول أن المدة التي حكمها هذا الشاب السفيه (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) كانت من أخطر المراحل في تدمير الشخصية الإسلامية، وإذابتها، وحل عروتها، وهدم شريعة الإسلام جملة هدما غير مسبوق في تاريخها، بل كان هذا الحاكم أول من تجرأ على هدمها بهذا القدر من الاستبدال والتأصيل والتثبيت لشرائع الكفار !!

فقد أنشأ أول مدرسة « للحقوق » على النمط الفرنسي، فكانت تدعيما عمليا لوجهته الإستبدادية، وقد أصبحت فيما بعد مصدرا أساسيا لتخريج أجيال مبتوتة الصلة بشريعة الإسلام، لصيقة بشرائع الكفار، ثم طورت لتصبح « كليات » واسعة النطاق !!

وقد تلاقت رغبة إسماعيل المبهور، برغبة أخرى أذكى وأنكى وهي رغبة أعداء الإسلام، الطامعين في محوه، واستبعاد أمته، ويذكر محمد طلعت حرب ـ الاقتصادي المصري الشهير ـ واقعة تاريخية لم نجد من يكذبها وهي: « أن إسماعيل لما أراد أن ينفصل بمصر عن الدولة العثمانية، وعد ملوك أوروبا إن أيدوه من أجل تحقيق هدفه، أن يبدل أحكام القرآن فيما يتصل بالحياة السياسية والاجتماعية، ويفصل السياسة عن الدين، ويطلق الحرية للنساء بحيث يسرن في أثر المرأة الغربية، وينقل إلى مصر معالم المدنية الأوروبية » (٢١).

وسواء كان هذا اتفاقا، أو استدراجا، أو إغراء فلقد كانت النتيجة المروعة هي غرق مصر في الديون، ثم تدخل الكفار الأجانب في شئونها بحجة حماية أموالهم حتى كان في الوزارة المصرية وزيران: انجليزي وفرنسي، ومن هذا الباب النكد دخلت رياح الانقلاب التشريعي، وانتهت باحتلال البلاد كلها، ثم فرض شريعة الكفار عليها، على ما نوجز بيانه فيما يأتي:

---

(٢١) جاء هذا في كتابه « تربية المرأة والحجاب » الذي نشر عام ١٨٩٩ م ردا على كتاب قاسم أمين « تحرير المرأة » وكان ذلك في عهد عباس الثاني حفيد إسماعيل مما يجعل لكلام طلعت حرب قيمة أوثق، على أن كل تصرفات إسماعيل هي ترجمة لهذا الوغد الخسيس وقد نقلت هذا النص عن كتاب « قاسم أمين » للدكتور ماهر حسن فهمي ص ١٤٠ (ط: وزارة التعليم المصرية) أو صفحة ٦٥ من (ط: سلسلة أعلام العرب)

أ-المحاكم القنصلية :

وقد نشأت على أثر توسع الامتيازات الأجنبية التي صحبت تدفق الأجانب على مصر ـ وقد أصبح لهذه المحاكم : « سلطة الحكم فيما يرتكب رعايا من جرائم على المواطنين وكذلك سلطة الفصل في القضايا التي يرفعها رعاياهم على الأهالي ، بل وعلى الحكومة المصرية نفسها ..

وكان كل قضاء قنصلي طبقا لقانون بلاده ، فكان يوجد بمصر سبع عشرة محكمة قنصلية ، تمثل سبع عشرة دولة كانت تتمتع بالامتيازات الأجنبية في مصر ، وبهذا تعرضت المعاملات في البلاد لقوانين مختلفة ومتباينة .. بل أكثر من ذلك كان لايجوز الاستئناف في هذه الأحكام إلا أمام محاكم الاستئناف في البلاد الأجنبية، التابع لها القاضي القنصلي ...» (٢٢).

ب ـ المحاكم المختلطة :

وقد نشأت في غمرة التدخل الأجنبي، وفوضى الامتيازات ، وفي ظل الخراب الاقتصادي الذي جلبته القروض الربوية، والانفاق السفيه على مظاهر حضارية عقيمة النفع للأمة ، خاصة في مرحلة حياتها وقتئذ !!

وكانت نشأة هذه المحاكم واحدة من أبلغ الأدلة على خطورة الغزو الفكري ، وعلى سوء عاقبة تربية القادة على معايير الكفار ، وثقافاتهم ، وأذواقهم وأيضا على خطورة عزلهم عن قيم الإسلام ومثله العليا ، وشرائعه الهادية !!

---

(٢٢) « تاريخ العرب الحديث والمعاصر » للدكتور أحمد عزت عبدالكريم وزملاؤه ص ٩٣ و ٩٤ ـ مع بعض التصرف ـ

فلقد أراد إسماعيل أن يوحد القضاء ، فاستبدل الوباء بالداء وحول المحاكم «القنصلية» إلى محاكم تابعة للدولة المصرية ذاتها ، وسميت « بالمختلطة » وكان أغلب قضاتها من الأجانب وكانت الشريعة التي يحكمون بها باسم مصر - هذه المرة - هي شرائع فرنسية محضة ، حررت على عجل نقلا عن القانون الفرنسي ، وعلى نسق مجموعاته بل وبواسطة المحامي الفرنسي (*MONORI*) (٢٣) وقد أشرف على هذا التحول الانقلابي الخطير كافر متمصر هو الأرمني « نوبار » ، الذي لا تزال تماثيله قائمة في مدن مصر وتسمى باسمه أكبر الشوارع فيها ، وهذا غاية الغفلة والجهل ، وتسرب سموم الغزو الفكري إلى نخاع الذين يقودون هذه الأمة المغلوبة على أمرها ، والتي لبست عليها الحقائق ، وضيعت فيها معايير الاعتزاز حتى بالمقاييس الوطنية ، إذا عز عليهم الاعتزاز بمقاييس الإسلام السامية !!

ولنقرأ - تاريخيا - قصة هذه المحاكم :

« عندما فكر إسماعيل في إصلاح فساد المحاكم القنصلية نهج نهجا خاطئا إذ بدلا من أن يلغي هذه المحاكم ، ويجعل الجميع سواء أمام القانون، تحمس لتنفيذ المشروع الذي وضعه وزيره « نوبار » ، وهو يقضي بنقل سلطة المحاكم القنصلية ، المتعددة ، إلى « محاكم مختلطة » أغلب قضاتها من الأوروبيين ، ولم تكن هذه المحاكم سوى امتياز جديد ، مهد لتغلغل نفوذ الأجانب في سلطة « القضاء والتشريع » وفي كيان البلاد المالي والاقتصادي .

وقد جاء نظام المحاكم المختلطة (١٨٧٥ م) قلبا للأوضاع إذ بدلا من خضوع الأجانب للقضاء القومي ، ولقوانين الدولة ، أصبح المصريون خاضعين للقضاء المختلط ، وغدوا بذلك غرباء في بلادهم ...، وأظهرت هذه المحاكم من التحيز للأجانب في دعاواهم على الحكومة ما جعلها مضرب الأمثال في امتهان العدالة !!

---

(٢٣) انظر في هذا كتب مداخل القانون مثل :«نظرية القانون» للدكتور عبدالفتاح عبدالباقي فقرة ١١٠ .

ولم يقتصر خطر المحاكم المختلطة على الناحية القضائية بل امتدت إلى « السلطة التشريعية » كذلك ، لأن إنشاء هذا النظام أكسب الدول المتمتعة بالامتيازات الأجنبية حقا جديدا مؤداه : أن التشريع الذي يسري على الأجانب لا يكون نافذا إلا إذا صدقت عليه الجمعية العمومية لقضاة المحاكم المختلطة ، وبذلك شاركت المحاكم المختلطة في سلطة التشريع بالنسبة للأجانب ...» (٢٤)

ج ـ المحاكم الأهلية :

وهذه المحاكم هي النسخة العربية من المحاكم المختلطة حذو النعل بالنعل ، إذ لم تكد أقدام الإنجليز تدنّس مصر بالاحتلال (سبتمبر١٨٨٢) حتى شرعوا في إتمام الخطة الإجرامية لنقل هذه الأمة عن شريعة الإسلام ومن ثم أنشأوا بجوار « المحاكم المختلطة » ما أسموه بالمحاكم «الأهلية»، ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم ، فيما يشجر بينهم ، وقد صدرت قوانينها ابتداء من نوفمبر ١٨٨٣م مأخوذة بنصها تقريبا عن القوانين الفرنسية التي وضعت للمحاكم المختلطة .

أي أنه في الشهور الأولى للاحتلال شرع الغزاة الكفار على عجل في العمل الجاد لطرد شريعة الإسلام من مجالات التعامل الحيوي في المجتمع المسلم ، وإحلال القوانين الغربية مكانها !!

وسيأتي لهذا مزيد من التفصيل بإذن الله في حديثنا عن مرحلة الاحتلال (٢٥)

---

(٢٤) راجع كتاب تاريخ العرب الحديث (السابق) ، ولم تلغ المحاكم المختلطة في مصر إلا سنة ١٩٤٩م .

(٢٥) المحاكم الأهلية من نتاج فترة الاحتلال ، ولكننا ذكرنا عنها هذه النبذة هنا إتماما لوحدة الموضوع ، وباعتبارها امتدادا مباشرا لما حدث قبل الاحتلال وسنعود للحديث عنها في فترة الاحتلال

المرحلة الثانية : الغزو الفكري في فترة الاحتلال

نعني أولا بفترة الاحتلال : تلك الأحقاب النكدة التي كان للكفار الأجانب فيها وجود عسكري ثابت على أرض الأمم المسلمة ، وما يتبعه من وجود جالياتهم ورعاياهم ، وتفردهم بالنفوذ والسلطان .

وكانت هذه الجولة الجديدة غارة ساحقة على العالم الإسلامي ، أخبث وأعنف من موجة الحروب الصليبية، التي انحسرت نهائيا في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد جاءت هذه الغزوات القديمة والعالم الاسلامي لما تزل فيه بقية صالحة من قيم الإسلام ومثله العليا ، ثم كانوا هم في موضع الضعف حضاريا فتعلموا منه ونقلوا عنه، وأيضا فقد انحصروا في رقعة محدودة من قلب العالم الإسلامي ، واستهدفوا الأرض ، وطردوا السكان ، وأقاموا مجتمعا نافرا مغلقا ، علاقته بمن حوله علاقة عداء ، لا مكان فيها لغير صوت الحرب والسلاح ..

لهذا كله لم يكن للغزو الصليبي الأول تأثير حضاري أو فكري ، وإنما كان أشبه شيء بمرض عارض على جسد قوي وأقرب الأمور إلى سنن الحياة ، أن يستثير المرض فيه كوامن المناعة وأن يستحثه إلى أسباب الوقاية والعلاج ، ليطرد العلة الوافدة ، وكذلك كان .

أما الغارة الجديدة ، والتي بدأت عمليا بغارات الأسطول البرتغالي على سواحل العالم الإسلامي ، ثم استيلاء هولندا على جزر الهند الشرقية في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، والتي بلغت ذروتها في القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ـ بعد سقوط الخلافة ـ إذ استولى الكفار على العالم الإسلامي كله إلا مناطق قليلة، لم تنج من الخضوع لنفوذهم ، ودسائسهم (٢٦).

(٢٦) راجع في وصف وتفصيل هذه الحالة المحزنة رسالة « بين الأمس واليوم » للأستاذ حسن البنا ، رحمه الله ، خاصة الفقرة (د ـ هجوم جديد) .

ولم تكن أوربا في هذه المرة مجرد قوة هوجاء ، متهوسة كأسلافها وإنما جاءت ومعها حضارة جديدة ، براقة ومؤثرة ، وانساحت على امتداد الرقعة الإسلامية كلها تقريبا ، ومهدت طريقها بغزو فكري واجتماعي غلاب ، وأخذت مراكز الحكم والتوجيه واستجلبت معها جاليات من كل لون ، ومكنت لهم في الأرض وانسابت في علاقات انسانية واجتماعية مع شعوب هذه الأمة في التعليم ، والثقافة، والصداقة ، والتجارة، والفنون ، والمسارح ...إلخ.

وقد وافق ذلك كله جسدا منهكا، ضعفت مناعته، فزادته العلة الوافدة ضعفا ، وإنهاكا !!

وهذا هو في جملته الفارق الخطير بين الغارتين ، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم إلى جانبه النفسي المعنوي ، محذرا ومنذرا في حديث هو من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم فيقول : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟. قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل: وما الوهن ؟ . قال : حب الدنيا وكراهية الموت » (٢٧) .

وهذا الوهن الخطير كان من أكبر الأسباب التي مكنت الكفار الغزاة من بلاد الإسلام بعد انحلال الشخصية الإسلامية نوعا ما، ثم استطاعوا بعد ذلك من تبديل وجهتها ومسارها ، وتنفيذ مخططهم الرهيب في اقتلاع هذا الدين من نفوس اتباعه ، أو تفريغهم من مضمونه الصحيح..!

ذلك أن الغزاة الكفار لم يضيعوا وقتهم عبثا بعد تمكنهم من مراكز الحكم والتوجيه في بلاد المسلمين، بل شرعوا على الفور في تنفيذ خطتهم التي كانت ترمي إلى أمرين أساسيين :

(٢٧) رواه الإمام أحمد عن ثوبان ، وهو عند أبي داود رحمه الله عن ثوبان أيضا في السنن (كتاب الملاحم ـ الباب الخامس : تداعى الأمم على الإسلام) ج ٢ ص ٤٤٦

« أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ليسهل عليهم الاتصال به ، والتفاهم معه .

والثاني : (وهو أخطر الأمرين جميعا) أن تخلو الأجيال المقبلة من الدين ومن الثقافة الإسلامية ، ومن الحمية الدينية » (٢٨)

وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من إحداث انقلاب جذري في حياة المسلمين يصادم المنهاج الإسلامي في جملته الأساسية ، وما كان لهذا الانقلاب أن يتم ، أو يبلغ مداه إلا في حراسة الجيوش الكافرة وعلى يد أئمة الكفر المباشرة.!

ونستطيع إيجاز العناصر المشتركة وراء هذا الانقلاب في ثلاث :

أولها : الانحلال الأخلاقي .

وثانيها: الغزو الفكري بشعبه المتعددة

وثالثها: التربية الجديدة للطبقة البديلة.!!

وهذه العناصر قدر مشترك بين ألوان « الاستخراب » الانجليزي ، والفرنسي والهولندي ...إلخ كما هي بلاء مشترك لا فرق فيه بين المسلم في أقصى المغرب ، وأخيه في أخر المشرق ، وهي أيضا عوامل متشابكة ، متداخلة ساند بعضها بعضا حتى وصلت بالمسلمين إلى ما هم عليه الآن من أوضاع غير مسبوقة في تاريخهم ، ولا معقولة في التصور ، فضلا عن أن تكون واقعا ثقيلا يشكل مسيرة حياتهم كلها!!

وسنتحدث عن كل منها بشئ من الإيجاز :

الأول: الانحلال الخلقي

كان المجتمع الإسلامي - رغم كل ما يموج به من مخالفات لدينه - يتميز بطابع خاص في أخلاقه وعاداته الأساسية التي غرسها القرآن وأسسها الإسلام ، وجعلها من لب العبادة والتقوى .

(٢٨) راجع الكتيب الصغير الذي نشرته مجلة الأزهر ملحقا لها بعنوان : « التربية الدينية التي يحتاج إليها العالم الإسلامي » للدكتور إبراهيم اللبان .

وقد جهد الاحتلال الكافر بشتى الطرق ، حتى تمكن من تحطيم مظلة الأعراف الأخلاقية في المجتمعات الإسلامية ، فانطلقت تسري في أوصالها كل موبقات الحضارة الأوروبية ، حتى وصلت في ظل الاحتلال ، إلى مرحلة الشيوع والاستعلان ، ثم إلى مرتبة الاستقرار والاستحسان ، ثم إلى درجة الشرعية ! التي تحميها القوانين الوافدة ..

وكان أخطر ما في الأمر أن الاحتلال الكافر يمثل حضارة غالبة فيها الصحيح الجيد ، وفيها الردئ الفاسد، فدخل أو أدخل في روع المغلوبين تلازم الأمرين وتوهموا أن مظاهر الانحلال والفساد هي من ضرورات التحضر والمدنية في جوانبها الصحيحة !

وللأسف أخذت أمتنا المفاسد ، ولم تستطع أن تأخذ الصحيح ، بل ما كان أعداؤها ليسمحوا لها بذلك ، فكانت النتيجة هي بحق ما قاله أحد الكتاب ساخرا :

« نحن جزء من الحضارة الغربية في الفساد ، والخمور والتحلل الخلقي »!!

يقول الدكتور إبراهيم اللبان في تحليل يكاد يكون عاما :

« وقد ظهر هذا الانحلال في البداية في السلوك الفردي ، فانحرف الناس عن « نهج الدين » واستهوتهم مظاهر الحياة الغربية، فأقبل كثير منهم على الخمور والفجور والقمار والربا ونحو ذلك ، ثم دب دبيب التهاون في الدين ، فتناول العبادات والعقائد وغيرها من أنواع الانحلال فتكاسل الناس عن أداء العبادات ، وانتشرت في الجو ضروب من الفلسفة ، والمذاهب الضالة ، واستمالت الشباب وغير الشباب ، وصارت العلاقة الجنسية ، والنزعة الإباحية الشغل الشاغل « للسينما » وكثير من المجلات والصحف ، ابتغاء وفرة الربح والدخل ، فانحرف الشباب ، وفسدت روابط الأسرة ثم عم السيل وطم فانهارت الفضائل الاقتصادية والاجتماعية ...» (٢٩)

---

(٢٩) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها .

وإذا أخذنا « مصر » على سبيل المثال ، حتى في السنوات الأولى للاحتلال ، فإننا نجد : « الحياة الأوربية بخيرها وشرها تغزو مصر دائبة ، لا تني ولا تفتر، فتأسست شركة « التليفونات » الإنجليزية سنة ١٨٨٤، وافتتحت السينما الأولى بالقاهرة سنة ١٨٩٦ .. وافتتحت الخمارات في كل مكان ، حتى تغلغلت إلى الريف ، وإلى أحياء العمال ، وفتحت دور البغاء المرخصة من الحكومة في كل العواصم وتجرأ الناس على ارتكاب الموبقات ، والجهر بها باسم الحرية الشخصية، التي لم يفهموا منها إلا أن يحل الناس أنفسهم من كل قيد، لا يبالون دينا ولا دنيا ولا عرفا ولا مصلحة.» (٣٠)

وتحت مختلف دعاوى المدنية ، والترفيه وأمثالها أدخل الكفار جيوشا أخبث من جيوش الاحتلال العسكري، وهي أفواج الممثلين والممثلات وأمثالها من البغايا ، والراقصات ، وشجعوا إنشاء المسارح وفرق الغناء والتمثيل ، والمراقص والملاهي المتنوعة وكانت الأجنبيات أولا ، ثم الوطنيات من غير المسلمات ، هن العنصر الأساسي في هذا الغزو، وقد شجع ذلك المرأة المسلمة نفسها على السفور والتعري ، والاختلاط الماجن ، ثم تقليد الكافرات في كل شيء بعد ذلك .!!

ولم يكن هذا تغييرا في القشرة السطحية للمجتمع الإسلامي ، وإنما كان زلزالا رهيبا ومدمرا ، نقض بنيان الأخلاق من قواعده ، وكانت له نتائج بالغة غاية السوء ، في كل نواحي الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، من شيوع الزنى ، والربا والمسكرات ، والمخدرات، والتي أدت بدورها إلى تخريب اقتصادي ، تجسّم في انتقال الثروة الوطنية تباعا إلى أيدي الكفار الأجانب من كل لون ، وكان جزء كبير منها ينتقل إليهم عبر المراقص ، والخمارات ، وغانيات أوربا ، أو ساقطاتها ممن وجدن في ظل الاحتلال مناخا ومرتعا خصيبا .!

---

(٣٠) راجع الكتاب : الاتجاهات الوطنية .. جـ ١ ص ٢٤٤ ، وفي هوامشه إشارات إلى مراجعه مثل تقرير « كرومر » عن سنة ١٩٠٦ ، وكذلك كتابه : *Modern Egypt* .

الثاني : الغزو الفكري في عهد الاحتلال

كان الغزو في هذا الطور على غاية الضراوة ، وعنف التركيز والتأثير وساعده ـ بداهة ـ استيلاء الكفار على مقدرات المسلمين ، ومراكز الحكم والتـوجيه ، ثم بريق الحضارة المادية ، وإتقان أصحابها لما خططوا له من ضرب الإسلام في نفوس أبنائه ومبادرتهم إلى تشديد الكرة عليه ..

ولقد امتد هذا الغزو في كل اتجاه ، ودخل على المسلمين في أزياء خادعة وتحت دعاوى المدنية ، والتقدمية والتجديد ...إلخ وقد تركزت في شعب ثلاث ، كانت كلها شرا ووبالا على المسلمين ، من حيث ظنوها تقدما ورقيًا ، أو زعم لهم أعداؤهم أنها كذلك ، سواء في الناحية التعليمية ، أو الثقافية ، أو التشريعية ، فكانت في الحالين أشبه بما وصف به القرآن الكريم دخان جهنم بشعبه الثلاث ، ونوعية تظليله للمكذبين :

﴿ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب ، لا ظليل ولا يغني من اللهب، ﴾ المرسلات ٣٠، ٣١

وسنعرض لشعب هذا الغزو الثلاث على الترتيب السابق :

١ ـ الشعبة التعليمية:

وجد التعليم في المدارس الأجنبية فرصته الذهبية في ظل الاحتلال ، الذي أطلق أيدي غلاة المبشرين والقساوسة وأضرابهم في وضع برامج التعليم لمدارسهم ، حتى كانوا يلقنون فيها أطفال المسلمين مبادئ المسيحية وتعاليمها ، ويحفظونهم صلواتهم ونصوص كتبهم الدينية ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك سابقا ، ومن أبرز ما يمثل هذا ما كتبه (هـ . دانتي) في كتابه عن مؤتمر المبشرين المنعقد في القدس سنة ١٩٣٥ م يقول في أول الكتاب :

« كان التعليم وسيلة قيمة إلى طبع معرفة تتعلق بالعقيدة المسيحية ، والعبـادة المسيحية في نفوس الطلاب » .

والمؤلف يفرق بين المدارس المسيحية، والمدارس التبشيرية بأن الأخيرة تحاول نقل الطلاب من مذاهب مختلفة إلى مذهبها هي ، أما المدارس المسيحية فإنها تحاول أن تهيئ للطالب من أي مذهب كان جوا مسيحيا ، وتحمله فيه على ممارسة التقوى المسيحية ، والسلوك المسيحي .. وخصوصا ما دام طفلا « وهكذا ينشأ الطالب وتنشأ معه فلسفة مسيحية للحياة » (٣١) .

ويقول المبشر جون موط « إن الأثر المفسد في الإسلام يبدأ باكرا جدا ومن أجل ذلك يجب حمل الأطفال الصغار إلى المسيح قبل بلوغهم سن الرشد ، وقبل أن تأخذ طبائعهم أشكالها الإسلامية » (٣٢).

وأخطر ما في المسألة أن هؤلاء الأطفال هم خاصة المسلمين وخلاصتهم من ناحية الأسر والبيوتات ، التي ينتمون إليها ومن ناحية الثقافة التي يحصلون عليها ، ومن ناحية المستقبل الذي ينتظرهم في قيادة أمتهم ـ تبعا لذلك ـ فكريا وسياسيا واجتماعيا.

أما المدارس الوطنية ، التي تضم عامة أبناء الأمة ممن يقدرون على التعليم ، فقد سارع الاحتلال بالسيطرة عليها ، عن طريق رجاله وعملائه ، الذين تولوا وضع المناهج الجديدة ، والسهر على تنفيذها ، وخدمة أغراضها القريبة والبعيدة ، مثل القس الإنجليزي « دنلوب » الذي رسم سياسة التعليم في مصر، ونفذها هو وتلاميذه من بعده ، ولا تزال لها آثار وذيول سيئة تطبع بعض جوانب التعليم المصري ، ومقلديه في الوطن العربي .!

وكان من دأب الاحتلال الدائب أن يبدأ بتطويق التعليم الديني ، وحصاره والعمل على سحب جمهوره منه ، إلى وجهة ما يسمى بالتعليم المدني .

ثم يكر على مناهج الدين والتاريخ الإسلامي بالذات في هذه المدارس ، فيعرضهما

(٣١) ، (٣٢) راجع كتاب « التبشير والاستعمار » ص ٦٧ ، ٦٨ (ط : خامسة) وفى هوامشه مراجع أجنبية عديدة .

عرضا منفرا مغرضا ، ويجعلها على هامش المنهج الدراسي ، مما يغرس في نفوس الأطفال والتلاميذ عامة عدم الاهتمام بها ، ويطبعهم على الاعتقاد بعدم جدواها دراسيا ، ممايرسب في نفوسهم بالتالي الاستخفاف بالدين من حيث هو سلوك وعبادات ، وبالتاريخ الإسلامي من حيث هو سجل لأمجاد الأمة الإسلامية والعربية !!

والخطير أنه في نفس الوقت كان يقوم بإحياء النعرات الإقليمية الجاهلية، وتسريبها إلى مناهج الدراسة ، وعرضها من زواياها البراقة التي تغري باعتناقها والاعتزاز بها والاهتمام بمعرفتها ، كما حدث بالنسبة لتاريخ الفراعنة في مصر ، والأشوريين والبابليين ، والفينقيين في غيرها ...إلخ

وأخطر من هذا أن الاحتلال كان يقوم بنصب مثل عليا جديدة أمام أجيال المتعلمين، فيعرض لهم تاريخ أوربا، وحياة أبطالها ، وعلمائها ، ومذاهبها الفلسفية ، والاجتماعية ونظرياتها العلمية ... كل ذلك يعرض بطريقة لامعة جذابة ليتم استقطاب المسلمين عن دينهم بأحد الطريقين :

طريق الاعتزاز بما قبل الإسلام، وفي هذا فرقتهم وتباعدهم !

أو طريق الفناء في الحضارة الغازية ، وفي هذا محوهم وردتهم !

وكلاهما شر محض ، واستبدال للوجهة الإسلامية ، في صمت قاتل أو في جلبة براقة ، وبأسلحة خفية لا تفيق فيها الضحية إلا بعد فوات الأوان!

ولقد كان من أبشع وسائل الاحتلال في هذا هو تغيير لغة الدراسة وجعل لغات المحتلين الغزاة مكان اللغات المحلية في التعليم وفي الحصول على الشهادات ، التي جعلها مفتاح الوظائف ، وبذلك ضمنوا لأنفسهم ألا يمر متعلم إلا من خلال فكرهم ، ولغتهم ، ونظرتهم للحياة، بل حاولوا في ضراوة أن يجعلوا لغتهم هي لغة التخاطب في الشعوب التي ابتليت بهم .

وقد فعلوا ذلك في الهند، وجنوب شرق آسيا، والمغرب العربي ومصر ، وغيرها على تفاوت في درجات نجاح الاحتلال في ذلك.!

ويذكر مؤرخ معاصر ـ على سبيل المثال ـ : « أن الأنجليز حين أعادوا في مصر تجربتهم التي نجحت في الهند، وهي نشر اللغة الإنجليزية حتى تكون لغة تخاطب ، ففرضوا التدريس بها ، لم يقف في وجههم إلا الإسلام الذي يقدس اللغة العربية ، في حين أن الطريق كان ممهدا في الهند ، التي لم تكن لها لغة مقدسة ..) (٣٣).

ولم تنج مصر ـ مع ذلك ـ من المحاولة إلا جزئيا ، ولعوامل خاصة كثيرة أهمها وجود الأزهر ، ولكن بلدا كالجزائر مثلا ، فرضت عليها الفرنسية في كل مجال ، حتى كان كبار كتابها وأدبائها يعجزون عن التعبير ـ بل التأليف ـ باللغة العربية ، ولم يكن أمام المتعلم فيها إلا إتقان لغة العدو الغازي ، ولو لا الجهود الخارقة ـ التي تفوق التصور ـ لجمعيات علماء الجزائر ، ودعاة الإسلام لما بقي للغة العربية ، أو الإسلام نفسه هناك عين ولا أثر ، وخاصة في أوساط المثقفين ، والمفكر الجزائري المسلم « مالك بن نبي » (٣٤) رحمه الله أوضح مثال لذلك، إذ لم يستطع إجادة العربية إلا في أخريات حياته ، وبعد حرب التحرير العاصفة وكتبه الإسلامية ـ على عمقها ودقتها ـ مكتوبة كلها باللغة الفرنسية.!

أما المدارس الأهلية ، وخاصة المدارس العليا والكليات ونحوها فلها حديث يطول ، وقد قام الاحتلال بتوجيهها بطريق مباشر ، أو غير مباشر حتى أخرجت أخبث الثمار لأمتها ، ومنها ـ على سبيل المثال ـ بعض المدارس أو الكليات التي أسسها السير : أحمد خان في الهند ، وكلية الآداب في مصر التي قام المستشرقون بدور رئيسي في تربية أجيالها

---

(٣٣) تقرير أحمد شفيق باشا المؤرخ المصري ـ عن حالة التعليم في مصر عام ١٨٨٣ في كتابه «مذكراتي في نصف قرن» جـ ٢ ص ٨٨ وما بعدها (يراجع بالتفصيل كتاب الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٩١)

(٣٤) هو المفكر الإسلامي المعاصر ، وكان يتميز بعمق الفكر والنظر وشدة الاعتزاز بالشمول الإسلامي للحياة ، توفى عام ١٣٩٣ هـ (١٩٧٣م) رحمه الله !

الأولى ، وكان منهم طه حسين وأضرابه ممن قادوا الحركة الفكرية في مصر وغيرها بعد ذلك ، وجنحوا بأمتهم إلى ما أشربته قلوبهم ، وعقولهم من فكر وافد ، وفلسفات فاسدة ، ومناهج زائفة ، إلا من عصمهم الله ، وهداهم، ونجاهم من غوائل هذه التربية الخبيثة !!

وفي مجال التعليم أيضا كانت البعثات تتقاطر على الدول الأوربية من أبناء المسلمين ، استكمالا لتعليمهم العالي ، وما ماثله ، وكانت هذه هي نهاية المطاف في الإجهاز على بقايا الإسلام ، وطباع الشرق وعاداته في نفوسهم ، حيث لا يرجعون إلا وقد تأثروا بوجهة الغرب وفلسفته ، أو أخذوا « طريقة العيش الأوروبي » على حد تعبير المؤرخ «توينبى» وبذلك أصبحوا رصيدا في حساب أعداء الإسلام بالسلوك ، والتربية ، والعادات الجديدة ، وهؤلاء وأمثالهم هم الذين كتب على أمتنا أن يقودوا حركتها في شتى مجالات الحياة ، حتى أحلوها دار البوار ، وبدلوا وجهتها في الحياة، وكانوا هم الجنود المجندة في يد أعداء الإسلام لإحداث هذا الانقلاب الجذري في حياة المسلمين من حيث علموا ، أو جهلوا ، ومن حيث أرادوا ، أو انساقوا مع التيار بلا فهم ولا وعي !!

ولعل من أسوأ الأمثلة لهذا النمط أن « قاسم أمين » بعد أن درس في مدرسة الحقوق المصرية ذات المناهج الفرنسية وتخرج منها في سنة ١٨٨١م ذهب إلى فرنسا ليستكمل تعليمه العالي ، متزودا من شريعة أعداء أمته ودينه ، ولما شاهد الفنون الفرنسية ومتحف « اللوفر » كتب يقول :

« لعل أكبر الأسباب في انحطاط الأمة المصرية تأخرها في الفنون الجميلة : التمثيل ، والتصوير ، والموسيقى ، هذه الفنون ترمي جميعا على اختلاف موضوعها إلى غاية واحدة هي تربيةالنفس على حب الكمال والجمال،فإهمالها هو نقص في تهذيب الحواس والشعور»(٣٥).

---

(٣٥) كتاب « كلمات » لقاسم أمين ص ٢٤ (وقد جاء هذا في كتاب : « قاسم أمين » للدكتور ماهر فهمي ص ٣٤) ـ ط : وزارة التربية والتعليم المصرية ١٩٦٤ م.

ولم يكن هذا بداهة هو سبب تدهور الأمة المصرية ، ولا كان هذا ما تحتاجه ولا في المرتبة الأخيرة ، خاصة بعد غرقها في الديون الربوية بسبب عبث حاكمها إسماعيل ، وموسيقاه « ودار أوبراه » ..إلخ !! ثم هي كانت مشرفة على خراب اقتصادي كامل ، ويوشك أعداؤها على احتلالها ، وكان التشريع الفرنسي قد تغلغل في أحشائها ، ولكن « «قاسم أمين» كان نموذجا لما يمكن للغزو الفكري وللتعليم الأجنبي أن يفعلاه في النفوس ، من خلع ولائها لأصلها ، وفصل مشاعرها عن ظروف أمتها ، ودفعها إلى مظاهر فارغة تقتل أصحابها في الرخاء ، فكيف بها في أزمان البلاء والعناء ؟!

وهذا أيضا واحد ممن كتب على أمتنا أن يتصدوا لتغيير حياتها الاجتماعية وأن يتولى أخطر قضايا المجتمع الإسلامي وهي « قضية المرأة » ، فقادها هو وشيعته ـ ومن ورائهم تخطيط الاحتلال ـ إلى أشنع مصير ، وحرروها فعلا من كل كريم وشريف من القيم والمعايير !!

ونذكر هنا تحليلا بالغ الخطورة ، ويطابق تماما الواقع الأليم الذي أحدثه التعليم الأوروبي في نفوس أبناء المسلمين ، وهو صورة تتكرر في كل إقليم ، وعلى يد كل كافر محتل مهما اختلفت قوميته وجنسيته ...

كتب (ك.ك. برج) الأستاذ بجامعة « ليدن » يقول : « اضطر الأندونوس من جانبهم إلى انتجاع الجامعات الهولندية لاستكمال دراستهم ، وعلى ذلك سكنت في عقل الشباب الأندونيسي الممتاز وقلبه ـ في أحسن فترات حياته استعدادا ـ أفكار وآراء مستمدة من الخصائص الهولندية ، والثقافة الهولندية ، مختلفة أتم الاختلاف عن الأفكار التي كانت التقاليد تدعو إلى اعتناقها واحترامها في أندونيسيا ، وفي الجملة ففي حين أن المعلمين الهولنديين كانوا غير قادرين ـ بسبب انتمائهم لشعب نبذ وحدته الروحية منذ قرون ـ على أن يحلوا محل الثقافة القديمة ، ونظام التعليم القديم ، ثقافة جديدة ، ونظاما في التعليم جديدا لهما مالسابقيهما من القوة الذاتية ، والتماسك والملاءمة لحال البلاد ، نجد أولئك المعلمين من جهة أخرى ينسفون بقوة ثقافتهم الغربية من نفوس الناس اعتقادهم

بالعادات القديمة واحترامهم لها ، ومعنى هذا أنهم يوهنون أساس المجتمع القديم ، وأساس الاسلام أيضا ...

إن التعليم الأوربي يعمل على قلب وجهة نظر النَاس قلبا لا يقف عند حد ، وقوة الضربة التي تعانيها الثقافة الأهلية كل يوم إنما يحس بها تمام الإحساس الأندونيسيين الذين هم أكبر سنا ، أما الجيل الجديد فقد شب بين أحضان النظام الجديد ، ولم يظهره المعلم الأوربي على شيء من الثقافة الأهلية ، حتى إن هذا الجيل ، لا يحس بما بين الثقافتين من فرق إحساسا قويا .

إن تغيير نزعة الشباب الأندونيسى المستنير إزاء ثقافته القديمة بتأثير التعليم الأوربي ، وبتأثير البيئة الهولندية يشبه ما حدث عند الشباب المصري ، منذ نصف قرن أو ثلاثة أرباع قرن ، ومسلك الشباب الأندونيسي إزاء التعليم الغربي يسير على مثل ما سار في مصر ، يظهر الشباب عداءه للعقلية الغربية ، ولكنه لا يستطيع في الوقت

نفسه الاستغناء عن الثقافة الغربية .. وهو ينزع نزعة قومية شديدة ولكنه رغم ذلك منقطع من وجوه كثيرة - بسبب ثقافته الغربية - عن جمهور الأمة التي ولد فيها ..» (٣٦) ويقول :

«للكثيرمن صغار الشباب المثقفين مسلك إزاءالاسلام، يختلف عن مسلك الجيل السابق أتم الاختلاف، فقدأصبحوا بتأثير التعليم العلماني، لايعبأون بالدين في الجملة»(٣٧).

---

(٣٦) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ١٩٠ (ترجمة أبي ريدة)

(٣٧) السابق ص ١٩٢

٢ ـ الشعبة الثقافية :

ونعني بها ما يتعلق بفكر العدو ، وفلسفة حياته ، وأنماط سلوكه ، وعاداته وتقاليده الخاصة ، التي تغاير في جوهرها الكلي أنماط الحياة الإسلامية ، ثم هي ضرب يجاور التعليم المدرسي ، ويزيد عليه امتدادا مع مجالات الحياة المتعددة .

وفي هذا المجال العريض ، انطلق أئمة الكفر يغزون المسلمين غزوا مركزا، يستهدف هدفا محددا مرسوما هو: ردّة المسلمين عن دينهم ، إن لم يكن « بالتنصير » المباشر ، « فبالتغريب »الكامل ، الذي يعني فناء مطلقا في حضارة أوربا «خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب»(٣٨).

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تعاونت الأطراف المتناقضة جميعا ، من سياسيين واقتصاديين ، ومبشرين ومستشرقين ، وممثلين وراقصين ..إلخ

بل في سبيل هذا الهدف كانت تتلاقى دول الاستعمار المتنافسة على المغانم والأسلاب ، المتصارعة في كل الميادين ، إلا ميدان الكيد للإسلام، بل في سبيله كانت تتناسى العداوات التقليدية الرهيبة بين المذاهب المسيحية ، وكنائسها المختلفة ، لأنهم كانوا يرون أنفسهم بإزاء عدو مشترك هو الإسلام المتمثل في مصدريه الأصليين : الكتاب والسنة ، وفي تاريخه المجيد ، وسيرة نبيه والسلف الصالح من بعده .

ولقد كان أئمة الكفر على غاية الدهاء ، حيث حددوا هدفهم من أول الطريق وسددوا الرماية إلى قلبه بلا تسويف ، في الوقت الذي كان كثير من قادة هذه الأمة لا يفقهون هذه الحقيقة كوعي عدوهم لها ، أو يجهلونها البتة !!

---

(٣٨) هذه كلمات د/ طه حسين في كتابه « مستقبل الثقافة في مصر » وهي تمثل مأساة أجيال كاملة أعطت أوربا ولاءها نتيجة هذا الغزو الفكري العنيف

لم يكن أئمة الكفر يخشون النزعات الوطنية ، ولا النعرات القومية ، بل كانوا في أكثر الأحيان هم الذين اصطنعوها ، وأغروا المسلمين بها ، وزينوها لهم ، وعلموهم إياها، لتكون مزاحما للرابطة الإسلامية ، وبديلا يمكن احتواءه ، والتعامل معه ، وخديعة أصحابه ، بعد أن استعصى عليهم دائما احتواء الإسلام بمبادئه الفذة ، ودعوته القارعة للجهاد والاستشهاد في سبيل الله عز وجل !

ومن أخبث أساليب هذا الغزو الثقافي المبكرة، الالحاح على استبدال كلمة «الأجانب» «بالكفار» حتى يخف ويتميع في النفوس ضرورة جهادهم وحربهم أو على الأقل لا تصبح عقيدة مقدسة تؤجج الضمائر ، وتلهب المشاعر!!

وقد استدرجوا قادة الأمم المسلمة إلى هذا المنزلق الخطير ، فكانت النتيجة المروعة ضعف هذه الأمم وتشتتها في ظل الوطنية، والقومية، والإقليمية مما أطال فترة الاحتلال، ومد له في حبال الأمان ، على عكس ما رأيناه في الفترات السابقة ، كمقاومة الحملة الفرنسية على مصر ، وما فعله عبدالقادر الجزائري ، وعمر المختار ـ في الشمال الإفريقي ـ وغيرهما من دعاة الجهاد على النمط الإسلامي !

ومن ثم لم يستطع الزعماء الوطنيون ، المفرغون من المضمون الإسلامي ، أن يستثيروا عزائم أممهم ، ولا أن يستنهضوها لعمل حاسم ، ولذلك كانوا يلجأون للإسلام في الأزمات الحازبة ، حتى إذا حرك الأمم ، وأجج العزائم ، ودفع حَمَلتُه المغارم ، كان جزاؤه الخيانة ، والطرد ، والإبعاد عن نشاط الحياة بعد تمكن أدعياء الزعامة (٣٩).

لذلك كان أكثر ما يشغل بال أئمة الكفر ، هو قدرة الإسلام العارمة على الإلهاب والتأجيج ، وفي ذلك يقول الاستاذ « ماسينيون » :

(٣٩) وفي هذا المجال نذكر دور الأزهر في الثورة المصرية (١٩١٩) م ، ودور علماء الإسلام ودعاته في الجزائر، والمغرب ، وتونس ، والهند ، حتى طاغية الترك (مصطفى كمال) أحرز انتصاراته الأولى باستثارة الإسلام في نفوس الأتراك !! ومع هذا لم يجد الإسلام أمة تحمله للناس بعد استقلالها ، بل كان ظلم ذوي القربى أشد وأنكد عليه من كيد أعدائه الكاشحين !!

« ... الحركات التي تواجهنا في الغالب كالبرق الخاطف ...، والحركات الفكرية في الإسلام تستعد في خفاء وصمت ، وتندلع فجأة دون أن يسبقها نذير .. وبعبارة اصطلاحية أكثر دقة نستطيع تحليل ما يقع هكذا :

أول الأدوار هو دور « النداء الباطن » ، الذي يهيب بالضمير الاجتماعي ويوقظه ، وإن ظل في حالة « قعود » أو « تقية » أو « كتمان» . وإذا نضج هذا النداء تبعه الدور الثاني مباشرة وهو دور « الدعوة » للتغير العام الذي يجاهد جنوده ليستردوا بالسيف ما تعطل من حقوق الشريعة .

هذا هو المفهوم الذي يصدق على كل الحركات ، والذي يسمى عند مختلف الجماعات وفي مختلف الأوقات « بالظهور » ، أو « بالدفع » ، أو « الخروج » أو « الشراء » (شراء الانسان نفسه ابتغاء مرضاة الله) .

يجب أن نجعل هذه الحقائق نصب أعيننا إذا أردنا أن ندرك أي أساس واه ، تقوم عليه المنشآت الأوربية في بلاد الإسلام ، فبعد أعوام من السكينة ، ربما تندلع بغتة نار الدعوة إلى الجهاد أبعد ما تكون توقع لها..(٤٠) .

وهذا تحليل صادق يؤكد فهم أعدائنا لطبيعة الإسلام ، ويوضح وضعهم لهذا الأمر في بؤرة الاعتبار ، عند تصميم خطط الغزو الفكري ، ورسم طرق التعامل مع المسلمين على المدى البعيد ، وهذا ما يزيده المستشرق الإنجليزي « جب » توضيحا إذ يقول :

« هناك ظاهرة كثيرا ما يهملها الباحثون في حركات المجتمع الإسلامي ، مهما كان نوعها ، وهي أنها تنضج بسرعة مدهشة ، حتى إن وجودها ـ كما أشار الأستاذ«ماسنيون»ـ يندر أن يخطر على بال أحد قبل أن يندلع لهيبها ، ويروع العالم ، والمسألة الكبرى هي مسألة الزعامة ، فحينا يجد الاسلام « صلاح الدين » الجديد ، رجلا يجمع بين الحنكة

---

(٤٠) كتاب : وجهة الإسلام ص ٥٤ ، ٥٥ .

السياسية العظيمة ، وبين شعور برسالته الدينية يبلغ أعماق نفسه ، فان ذلك ينحل من تلقاء نفسه » (٤١).

لاجرم بعد هذا الفهم الدقيق لطبيعة الإسلام ، أن تحكم الخطط لضربه ، وتصفيته ، خاصة في نفوس الزعامات التي تقود حركة أمته حتى لا ينبعث منها أمثال « صلاح الدين » وبالتالي تموت حركة بعث الإسلام وإحياء أمته ويطويها الطوفان الغازي !!

وقد تعددت أساليب هذا الغزو الثقافي وتنوعت ومنها على سبيل الإيجاز والتمثيل :

أ ـ سيل الكتب والمطبوعات المتنوعة التي تمجد أوربا ، وتصف حضارتها وتطورها وكيف وصلت إلى هذا كله عبر الصراع مع الكنيسة ورجال الدين ، وعزلهم عن الحياة ، والدعوة (تصريحا ، أو تلميحا) إلى سحب هذا المعنى على كل دين ، باعتباره طورا متخلفا من أطوار الحياة ، أدى دوره في القرون الوسيطة ، ولا يصلح لمجاراة العصر الحاضر بتقدمه العلمي ، إلى آخر ما يزعمون !!

وكان من أخطر الأدوات العصرية التي اعتمدوا عليها : « الصحافة » باعتبارها أكثر شيوعا، وأبعد تأثيرا سواء كانت محلية أو مستوردة مجلوبة من وراء البحار والحدود ، تحمل للمسلمين قيما جديدة ، وتحفل بضروب من الأفكار المخربة ، وأحاديث الجنس الفاضحة والصور العارية ، والقصص البذيئة ، والمقالات والبحوث التي تتناول كثيرا من المقدسات الدينية بالنقد والتجريح في غير ما حرج!!

ولقد يكون هذا شيئا عاديا بالنسبة لمجتمعاتنا بعد أن قطعت شوطا طويلا في الانحلال والتفرنج ، ثم قد يكون هذا كله أيسر وأسهل بالنسبة للمجتمع الأوربي ، الذي قطع شوطا أبعد في التمرد على كنيسته ، وما تمثله من قيم ومثل ، وسقط في لجة الانحلال الجنسي ...إلخ!!

---

(٤١) السابق ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

لكن ما كان ينشر على مجتمعاتنا في ذلك الوقت ـ حين كانت تتسم بالحفاظ على بقايا دينها ـ كان له وقع الزلازل والبراكين في تصديع عقدة التماسك الديني ، وفي تشجيع الانحراف والفساد تحت مظلة الاحتلال وفي حماية قوانينه المستجلبة من بيئته الفاسدة !!

وكان من أكثر الأشياء تلبيسا على الأمة ، وتغريرا بها ، أن الصحف الوطنية نفسها التي كانت تحارب الاحتلال ، وتصاوله في ميدان السياسة ، ترضى ـ في نفس الوقت ـ بدور التابع الضائع في ميدان الفكر والثقافة ، بل وربما تصدى بعضها لحرب الإسلام كحرب العدو أو أشد ، فضلا عما كانت تقوم به من تشجيع النعرات القومية ، والإقليمية وتسريب ألوان الحياة الغربية إلى جمهورها ، لأن القائمين عليها في أغلب الأحيان كانوا تلاميذ أوفياء للحضارة الأوربية « بخيرها وشرها ...» بل ربما كان كثير منهم في داخلهم عبّادا خاشعين في محاريبها الخسيسة !!

ليس من شك في أن الصحافة وأمثالها أسلحة عظيمة في نهضات الأمم وتطورها في العصر الحاضر ، ولكنها في ظل الاحتلال ، وعلى يد تلاميذه تحولت إلى أسلحة فاسدة ، مرتدة إلى صدور أمتها اجتماعيا ، وفكريا ، ودينيا !!

ولندع الحديث لراصد أوربي خبير، يشهد على قومه ، لتتضح لنا أبعاد المعركة ، وأنها عداوة شاملة للإسلام ، يقول الأستاذ « جب » المستشرق الإنجليزي ، حين يستعرض أنجع الوسائل « لتغريب » المسلمين تغريبا حقيقيا، يهضمون فيه الحضارة الغربية ، حتى تصبح فيهم شيئا ذاتيا، لا مجرد تقليد للغرب يقول:

« وللوصول إلى هذا التطور الأبعد ... الذي تصبح الأشكال الخارجية بدونه مجرد مظاهر سطحية، يجب ألا ينحصر الأمر في الاعتماد على التعليم في المدارس ، بل يجب أن يكون الاهتمام الأكبر منصرفا إلى خلق رأي عام ، والسبيل إلى ذلك هو الاعتماد على الصحافة »! ثم يستطرد مقررا:

«إن الصحافة هي أقوى الأدوات الأوربية، وأعظمها نفوذا في العالم الإسلامي »
كذلك يبدي « جب » ملاحظة عن النتائج الرهيبة لهذا الغزو فيقول :

« إن النشاط التعليمي والثقافي ـ عن طريق المدارس العصرية والصحافة ـ قد ترك في المسلمين ـ من غير وعي منهم ـ أثرا جعلهم يبدون في مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ... وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامي على حضارته من آثار.

إن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلا من قوته وسلطانه ، ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية قد فقد مكانته ، فهناك مؤثرات أخرى تعمل إلى جانبه وهي ـ في كثير من الأحيان ـ تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحا ، ولكنها تشق طريقها بالرغم من ذلك إلى المجتمع الإسلامي في قوة وعزم ... وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت في طقوس محدودة (٤٢).

(٤٢) هذه نقول من ترجمة الدكتور محمد حسين لبعض فقرات كتاب « وجهة الاسلام » ، تراجع في كتابه الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥.

ب ـ الشبهات الدينية والطعن في الإسلام !!

وهذه الشبهات والمطاعن نوعان :

النوع الأول : شبهات ومطاعن ساذجة : ومعظمها كان يصدر عن المبشرين المتعصبين ، ولغرض ديني محض ، متصورين أنهم بذلك يدخلون المسلمين في دينهم، ولم يكن لهذا النوع أثر يذكر، بل ربما أتى بعكس ما أريد منه ، لأنه يهيج العاطفة الإسلامية ، لذلك غيروا خطتهم ، واعتمدوا على مدخل آخر يغيرون به « المفاهيم » بواسطة الاحتكاك اليومي في التعليم ، والطب وملاجئ الأيتام ونحو ذلك (٤٣)

وفي مقال كتبه « المردوغلاس » بعنوان « كيف نضم إلينا أطفال المسلمين في الجزائر يعلق على هذه الوسائل فيقول :

«إن هذه السبل لا تجعل الأطفال نصارى ، ولكنها لا تبقيهم مسلمين كآبائهم ، ومثل هذه الجهود يبذلها المبشرون في شمال إفريقية ومصر » (٤٤)

النوع الثاني : الدراسات الاستشراقية !!

وهي دراسات في كثير من نواحيها تتميز بالصبر والجلد ، ومحاولة الاستيعاب والتحليل ، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على أخطاء جسيمة : عمدا أو جهلا ثم هي في غالبها لم يقصد بها خدمة العلم والفكر، ولإشباع رغبة خاصة أو عامة في البحث والاطلاع ، وإنما كانت في جملتها خدمة مباشرة للدول الاستعمارية ، أو للكنائس الأوربية ، بغرض تطويق الإسلام ، وضربه على وعي وبصرٍ به ، واقتلاع جوهره الحي النابض الذي يشكل أكبر الأخطار بالنسبة لهم .

(٤٣) راجع في ذلك تفصيلا « الغارة على العالم الإسلامي » ص ٥١ وما بعدها .

(٤٤) راجع كتاب : التبشير والاستعمار ص ١٩٤ .

ومن ثم حفلت هذه الدراسات بضروب التشكيك ، والنقد الجائر ، وانطلقت منها الشبهات المدروسة واحدة تلو الأخرى ، طعنا في كل نواحي الإسلام بدءا بالقرآن العظيم ذاته ، وانتهاء بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ورواتها ، وما بين ذلك من اتهام للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وطمس لكل معالم المجد والخير في التاريخ الإسلامي المشرق ، حتى لنستطيع القول أنه لم تسلم ناحية واحدة من نواحي الإسلام : عقيدة ، ومنهجا، ونظاما، وتطبيقا، وتاريخا ، وأمة، بل أرسلت عليها سهام حاقدة ، من هذه الدراسات المنظمة، التي تصطنع منهجا في البحث يجذب القارئ المسلم، الذي لم ينل قسطا وافيا من التعليم الصحيح عن دينه وتاريخه الإسلامي ، ولذلك سهل تعبئته بهذه الدراسات الخبيثة ، وتطاولت في تشكيل فكر المثقفين المسلمين حتى فيما يتعلق بفهم الإسلام نفسه .

ومتى كان ذلك؟! في وقت كانت هذه الأجيال مهزومة سياسيا ونفسيا، وموصومة بالتخلف ماديا وحضاريا، ومفرغة من أصالتها روحيا وعلميا، ومحرومة من أي تربية دينية صحيحة، أو تعليم إسلامي سليم ، بل كانت كما قلنا مشحونة بأفكار وأنماط الحضارة المادية الغالبة، وهي في جملتها ذات طابع الحادي مناقض للإسلام..!!

وتحت ستار هذه الدراسات الاستشراقية الخبيثة ، وما ادعته من منهجية علمية كاذبة، أمكن إصابة مقاتل هذه الأمم المسلمة، خاصة حين اصطنعوا لهم تلاميذ من بينها، أرضعوهم طرائقهم وأفكارهم، ودفعوا بهم إلى قلب أمتهم ليكونوا أقدر على غزو حصونها من داخلها، والاتيان عليها من قواعدها !

ولقد يفسر لنا هذا تشجيع الاحتلال لإقامة كليات الآداب وأشباهها ابتداء ، وفي بلد كمصر- على سبيل المثال ـ دفع إلى كلية الآداب في عهدها الأول بمستشرقيه، وصنائعه ، والمفتونين بفكره ووجهة نظر الغرب ، ليناقشوا أخطر قضايا الإسلام تحت ستار العلم ، وحرية الفكر، وجدّة المناهج !!

ومن المؤكد ـ علميا وتاريخيا ـ أن ما طلع به د/ طه حسين على أمته من طعن في القرآن والسنة، ومن تكذيب لقصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ومن أقوال في الشعر الجاهلي، ونحوه كل ذلك قد استقاه مباشرة من أساتذته في « الجامعة الأهلية » المصرية ، كالدكتور « جويدي » الإيطالي وكذلك من غلاة المستشرقين المتعصبين ضد الإسلام كالاستاذ « ماسنيون » اليهودي الفرنسي ، السربوني وهو أستاذه، وكذلك « مرجليوث » الإنجليزي (٤٥) .

(٤٥) راجع في هذا كتاب « نقض كتاب في الشعر الجاهلي » للشيخ محمد الخضر حسين رحمه الله ! وكذلك مقالتين هامتين للأستاذين فتحي رضوان ، ومحمد صبيح ، بالعدد الخاص من مجلة «الثقافة المصرية » ! الذي صدر في ديسمبر ١٩٧٣ م تأبينا لطه حسين .

خطة المستشرقين في الهجوم على الإسلام وآثارها المدمرة!

ولقد دأب هؤلاء على خطة مدروسة ، يلحّون بها على فكر الطلائع المثقفة من أبناء المسلمين ، خاصة المفكرين والأدباء ، وأصحاب الدراسات القانونية في نمطها الأوربي ، وأمثالهم!

وكانت هذه الخطة متعددة الوجوه والأبعاد ، تعتمد على إلقاء الشك والحيرة في نفس المثقف المسلم أولا، وتستمر ـ ثانيا ـ على نقد جوانب معينة من الإسلام في إلحاح مريب حتى تثبت في الأذهان مفاهيم مشوهة، ثم تسرب إلى هذه النفوس الفارغة ـ من غير وعي منها في الغالب ـ تفسيرات وتخريجات جديدة لأحكام الإسلام تلتوي بها عن حقيقتها ومقاصدها تماما !

ومن أمثلة ذلك ، إلحاحهم على نقد مبدأ تعدد الزوجات عامة ، وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، وتجريح التشريع الإسلامي في هذا الشأن ، وكذلك نقدهم الدائب للفكرة التي اخترعوها وجسموها وألصقوها بالإسلام ، وهي فكرة انتشاره بالسيف، وكذلك إلحاحهم على اتهام الإسلام بالجمود والرجعية ، وأنه هو العائق لانطلاق المسلمين وتقدمهم ، ثم المحاولة الدائبة لاقناع المسلمين « بعلمانية » الدولة ، ووجوب فصل الدين عنها ، حتى يتقدموا ماديا وحضاريا كما فعلت أوربا !!

وقد أثمرت هذه المحاولات الخبيثة ـ بكثرة الالحاح وتنوع وسائله ـ انقلابا فكريا في مفاهيم هذه الطلائع المثقفة ، والتي كانت تؤول إليها قيادة أمتها فكريا ، وسياسيا ، واجتماعيا، وقانونيا ..إلخ ، فوقف بعضهم حينئذ حائرا متشككا في دينه العظيم ، وبذلك عزل هؤلاء عن المعركة الفكرية الضارية وأمكن شلّ إرادتهم ـ من أول الطريق ـ فلم يستطيعوا الدفاع عن مآثرهم الخالدة !!وانماع كثير منهم في التيار ، فانقلبوا يهاجمون دينهم ، ويسخرون منه، ووقف آخرون موقف الخجل من دينهم وتاريخهم ، أو محاولين الدفاع عنه عصبية وحمية لا عن اقتناع بتفرده في السمو والعظمة .!

وكان من أخبث آثار هذا الهجوم الفكري هو قيام مدرسة فكرية جديدة بين المسلمين ، ترمي إلى تقريب الشقة بين تعاليم الإسلام ، وبين ما جاءت به حضارة الغرب من أفكار ونتائج ونظريات في ميادين الحياة ، وكان عماد هذا العمل هو تفسير الإسلام تفسيرا عصريا ، يلائم الفكر السائد ، ومحاولة إيجاد نقط التقاء بين الخطين على تباينهما ،أو على الأقل تباعدهما .

وقد ألجأ الهجوم الفكري هذه المدارس إلى مواقف دفاعية غريبة عن الإسلام ، إذ جردته من كثير من أحكامه الصريحة ، وجاءت لها بمعان جديدة بعيدة كل البعد عما تلقاه المسلمون عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وذلك مثل : تعدد الزوجات ، والطلاق ، والحدود ، والربا، والتماثيل، حتى الجهاد في سبيل الله لم يسلم من التحوير، والإغراب، وغير ذلك كثير!!

وهذه الأمور كلها بلغ فيها الإسلام الغاية العليا في الإحكام والسمو، ولكنها عادت في منطق العقول المهزومة ، وفي رؤية المدارس المغلوبة أمام الضغط الفكري الغازي - عادت مثالب ، أو نقاط ضعف في الإسلام تحتاج إلى دفاع ، أو هي - في أوهامهم - كانت فضائل صالحة لزمانها ، واحتاج التطور البشري إلى تعديلها ...إلخ!!

ومن هنا رأينا منهم من يفرق بين « ربا الانتاج »، و« ربا الاستهلاك » ومنهم من يحاول إثبات منع تعدد الزوجات مستدلا بالقرآن العظيم ، ذاته ، لأنه علقه على مستحيل وهو العدل المنفي في قوله تعالى (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) - النساء /١٢٩ ، وليس بعد هذا تخليط أو التواء!

وكذلك رأينا من يبيح إقامة التماثيل محاولا ليّ أعناق النصوص الإسلامي الصريحة، ليبرر أنماط جاهلية ، جاءت في ركاب الحضارة الغازية ، وهي داء قديم في الأمم الضالة.

ومن هنا أيضا رأينا أعجب شيئ في تاريخ المسلمين ، واحدا ممن ينتسب للإسلام ويتسمى باسم « العلماء » ويتخرج من أعظم معاهد الإسلام العلمية ، يقوم على رؤوس الأشهاد بكتاب يجرد فيه الإسلام من جوانب الحكم والتنفيذ ، ويرده إلى مفهوم أوربي المولد والمنشأ (٤٦)، وينتهي به إلى معنى ضيق محدود، فيدعي أنه « رسالة لا حكم ، ودين لا دولة » (٤٧)، وأغرب من هذا أن يستدل بنصوص القرآن الكريم ، فيحرف الكلم فيها عن مواضعه ، ويعتسف تأويلها ، ويأتي بما لم يقله أحد قبله (٤٨) .

أما الحدود الإسلامية فلم يكتف أعداء الإسلام بتعطيلها ، بل ظلوا ينعون عليها قسوتها وهمجيتها الوحشية ، حتى ألقوا في روع المسلمين تخلفها عن الحياة العصرية ، وعن نتائج تجاربها العلمية والاجتماعية ، وبثوا في قلوب المسلمين النفرة والفزع منها، وجعلوها دائما عنوانا مرادفا لمعنى « الحكم بالإسلام » مع أنها جزء من منهاجه الشامل ، يأتي في موضعه الحكيم ، ليحقق أعظم النتائج ، وأبرها بالأفراد ، والمجتمعات ، وبعد أن سبق ببرنامج كامل في العقيدة ، والأخلاق ، والعبادات ، والمعاملات .

ولكي يجاري بعض المسلمين هذا الفكر الغازي ، أخذوا يأتون بالمضحكات المبكيات في تفسير النصوص الشرعية ، خاصة المتعلقة بالحدود ، ويحرفون فيها الأحكام تحريفا ، ويلتمسون لذلك أوهى الأدلة ، وأسقط البراهين ، حتى ليصدق على هذا النوع من الفكر ، ما وصفه به بعض الكاتبين من أنه : « الفكر الإسلامي المغرّب

---

(٤٦) رجع في هذا « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ج٢ ص ٧٤ حيث يذكر أمثلة تفصيلية لاعتماد « علي عبدالرازق » حتى فيما يتعلق بالإسلام على كتب المستشرقين ، وراجع كتاب « الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار » حيث يذكر تأثره بالفكر الغربي (فصل دين لا دولة) .

(٤٧) هذا عنوان للباب الثالث من كتاب : (الإسلام وأصول الحكم « ص ٦٤ ومابعدها

(٤٨) راجع في بيان هذا والرد عليه كتابي « المنهاج القرآني في التشريع» ص ٢٩٥ وما بعدها (من النسخة المكتوبة على الآلة الكاتبة) .

Westernized » (٤٩) بل تستطيع القول أنه شر من ذلك ، لأنه حين صدر من المسلمين أنفسهم حمل كل ضروب التلبيس ، ذلك لأنه فكر العدو الغازي ورد متنكرا في ثياب وطنية ذاتية ينبعث على المسلمين من داخلهم، فلا يحسون بفداحته ، إحساسهم بفداحة الفكر الوافد على لسان العدو من مبشرين ، ومستشرقين .!

ومن أمثلة هذا اللغو المثير، ماقاله بعضهم: «من أن النص القرآني لم ترد فيه عبارة من سرق ، بل ورد فيه (والسارق والسارقة) ، وهاتان الكلمتان وصفان ، لا فعلان ، والوصف لا يتحقق في الشخص إلا بالتكرار ، فلا يقال عمن ظهر منه الجود مرة أو مرتين أنه جواد ... ويرى البعض أن عقوبة قطع اليد إنما يقصد بها أن تكون أقصى العقوبة للسارق العائد ، الذي تكررت منه السرقة أي أنه يجوز العدول عن هذه العقوبة القصوى ، في بعض الحالات ، إلى عقوبات أخرى رادعة ... (٥٠).

وفي النهاية كان من أخطر وأخبث نتائج هذا الغزو أن انحلت روح المقاومة والجهاد ، أو فترت وتراخت عن العهد بها دائما ، ذلك العهد الذي وثقه القرآن عبر التاريخ في نفوس المسلمين ، والذي كان يرهب أعداء الله دائما !!

وقد سارت حركة الاستشراق في عديد من الاتجاهات ، لحل عقدة الجهاد ، وتهوينها في نفس المسلم ، منها الدعوة إلى الحياة « الزوجية المثالية » وتمجيد النزعة الصوفية الاعتزالية ، والنعي الدائب على غزوات الإسلام وفتوحاته ، وانتشاره بالقوة بين الأمم ، وادعاء تناقضه بين المناداة بالجهاد ، وتقريره للمبدأ العام (لاإكراه في الدين) البقرة/٢٥٦...إلخ

---

(٤٩) كتاب «الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي » ص ١٧٦ ، وإن كنا نرى تعديل العبارة لأن هذا ليس فكرا إسلاميا ، وإنما هو فكر بعض المنتسبين للإسلام !! والإسلام وأمته بريئان من هذا اللون كله .

(٥٠) راجع كتاب « مبادئ نظام الحكم في الإسلام » ص ٣٩٨ ـ ٤٠١ وفي هوامشه مراجعه وفيه كلام كثير حول هذا الهراء !!

ومن وسائلهم في ذلك ما يقرره الأستاذ المودودي :

«وقد جرت عادة الإفرنج، أن يعبروا عن كلمة «الجهاد» بالحرب المقدسة» *Holy war* ، إذا أرادوا ترجمتها بلغاتهم، وقد فسروها تفسيرا منكرا، وتفننوا فيه، وألبسوها ثوبا فضفاضا من المعاني الملفقة، حتى أصبحت كلمة «الجهاد» عندهم عبارة عن شراسة الطبع والخلق، والهمجية وسفك الدماء، وقد كان من سحر بيانهم، وتشويههم لوجوه الحقائق الناصعة، أنه كلما قرع سمع الناس صوت هذه الكلمة «الجهاد» تمثلت أمام أعينهم، مواكب من الهمج المحتشدة مصلتة سيوفها، متقدة صدورها بنار التعصب، والغضب، متطاير من عيونها شرر الفتك والنهب، عالية أصواتها بهتاف «الله أكبر» .. ما أن رأت كافرا حتى أمسكت بخناقه وخيرته بين أن يقول كلمة .. «لا إله إلا الله» أو أن يضرب عنقه» (٥١) .

وكان رد الفعل لهذا في أوساط كثير من مثقفي المسلمين ـ خاصة الذين درسوا في أوربا ـ مزيجا من الخجل ، أو التبرير ، أو التسليم بهذه الأباطيل والانخداع بها ، ومتابعة أعداء الإسلام في القول بها ، والدعوة إلى فهم جديد للاسلام ، يجعله دينا مقبولا في نظر العالم المتحضر ، مع أنهم لا يرضون عنا حتى نتبع ملتهم !!

ومن آثار ذلك دعوة السير أحمد خان في الهند لتحريف معنى الجهاد وتفسيره لآيات القتال تفسيرا غاية في الالتواء ، يبطلها من حيث المعنى أو الزمان ، ومنه أيضا دعاوى المذهب القادياني ، الذي يجيز نسخ الأحكام وينادي بتطويرالإسلام ليصلح ـ في زعمهم ـ لهذا الزمان !!

ومن هذا الباب أيضا تلك الآراء التي تفسر الجهاد تفسيرا دفاعيا محضا ، وتجرد الإسلام من أصله الأصيل في الدعوة إلى دين الحق ، دعوة تحرسها قوة قادرة على ردع أعداء الله ، وعلى شق الطريق أمام الدعاة ليبلغوا كلمة الله ، وقادرة كذلك على تأمين الشعوب والأمم من عسف طواغيتها لتقبل الإسلام ، أو على الأقل تسالمه حتى يمضي إلى

(٥١) رسالة « الجهاد في سبيل الله » للأستاذ أبي الأعلى المودودي ص ٣ وما بعدها بتصرف يسير .

غايته ، وهذه إحدى غايات القتال كما حددها القرآن الكريم : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) ـ الأنفال/٣٩ .

ونلفت النظر ـ في ختام هذه العجالة ـ إلى الدراسة القيمة التي لخصت الدراسات الاستشراقية في جوانبها الثلاثة وهي: الأسس التي قامت عليها ، وتقديرها لمصادر الإسلام ، وتقييمها للإسلام كدين . والتي استهدفت غرس عديد من المعاني في نفوس المسلمين منها :

« الجماعة الإسلامية ـ كي تتطور ـ يجب أن تسير وفق المثل الغربية ، وتتفاعل معها في بيئتها الشرقية ... إذ اتجاهات الغربيين في الفكر والحياة قامت على مجموعة من التجارب الإنسانية ، استخدموا في تكوينها الطريقة « العلمية » ، وهي طريقة لا تتأثر بخرافة ، أو عقيدة خاصة ، بل تستهدف خير الإنسانية وحدها .

وإذن يجب على المسلمين باسم « العلم »، « التطور » ، « والخير العام » ، أن يكونوا مسيحيين في موقفهم في الحياة ، وفي فهمهم الإسلام كدين ، ولا يجب أن يعتنقوا المسيحية كدين ، بل يجب فقط أن يكون سلوكهم في الحياة سلوكا مسيحيا ، على نمط موقف « الجماعةالغربية » وأن يضعوا دينهم على نمط وضع المسيحية في المجتمع الغربي ، أعني نمط (العزلة) عن الحياة العامة ، وطريق ذلك :

- أن يبعدوه عن الحكومة ، والدولة والسيادة العامة .
- وعن علاقة الأفراد بعضهم مع بعض.
- وأن ينحوا عنه مظاهر القوة المادية ، وأسبابها ، كالجهاد ،والرغبة في الحرب ، والاعتداء .
- وأن ينحوا عنه مظهر« العنصرية » و« الاستعلاء الذاتي » ، المتمثل في عدم قبول ولاية غير المسلم على المسلم ، وفي عدم زواج المسلمة بغير المسلم .
- وأن ينحوا عنه كذلك مظاهر« الحياة الحيوانية » المتمثلة في إباحة تعدد الزوجات [٥٢].

---

(٥٢) راجع هذه الدراسة بتمامها في كتاب « الفكر الإسلامي الحديث » للدكتور محمد البهي ص ١٩٣ ـ ١٩٨ . وقد نقلنا عنه ببعض التصرف .

٣ ـ الشعبة التشريعية :

ظلت الشريعة الإسلامية ـ بمعناها القانوني ـ تحكم المجتمعات الإسلامية أكثر من ألف سنة وتلبي حاجات هذه المجتمعات ، وتساير قضايا حياتها المتجددة ابتداء من مجتمع شبه الجزيرة العربية القريب من البداوة ، وانتهاء بالمجتمعات في ذروة الحضارة ، والتي بلغت حد التفوق العالمي ، والسيادة الواسعة في دمشق ، وبغداد ومصر والأندلس ...إلخ.

ولكن هذه الشريعة العظيمة واجهت في القرنين الأخيرين حربا عاصفة من التشكيك في صلاحيتها ، والتآمر الخبيث على وجودها ، والعمل الجاد لطردها من ميادين الحياة ، تحت مختلف الدعاوى ، كرميها بالجمود ، والتعصب ، والتخلف عن مسايرة الحياة ...إلخ .

وقد استطاعت هذه السموم الفكرية ، أن تسري في عقول مريضة من المسلمين أنفسهم ، حتى انتهت إلى ما قلناه سابقا من بداية انهيار عهد الحكم بالشريعة العظيمة قبيل الاحتلال !!

وفي عهد الكفار المحتلين ، تم تنفيذ مخططاتهم الحاقدة ، فأسقطوا هذه الشريعة عن عمد ، بالخديعة تارة ، وبالقوة تارة أخرى ، وبتأثير الكفار المباشر أو بأيديهم الباغية ، ثم وضعوا مكانها شتاتا من شرائع الكفار وقوانينهم !

وقد بلغت الخديعة غايتها حين أوهموا أغرار المسلمين بأن شريعتهم قد سقطت في صراع المناهج ، وسباق الشرائع المتطورة !!

وينبغي أن نفرق هنا بين الشريعة الإسلامية في أصولها ومبادئها وأحكامها كما جاء بها الوحي ، وأثرت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ، وبين « الفقه » الذي يقوم على الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية ، وقد أصابه الركود مثل ما أصاب أمته جميعا في كل نواحي حياتها، ولكن الشريعة بأصولها وقواعدها ظلت على حالها شامخة

راسخة، لاتدانيها اجتهادات العقول، ولا تقاربها تجارب أوربا القانونية، ولا شرائعها، وأنظمتها التي كانت دائما محل نظر ، وخلاف شديد بين أساطين الفكر والقانون فيها ، والذين جاءوا بمذاهب ومدارس متعددة متناقضة ، كما هو معلوم لكل من درس نظريات القانون الحديث وتاريخه .

ومن العجيب أنه في الوقت الذي كانت تسري فيه الغفلة إلى كثير من المسلمين تجاه شريعتهم ، كان سمو الشريعة الإسلامية ، وتفوقها المعجز يدفعان بعض الأوربيين أنفسهم لإنصاف هذه الشريعة ، والإشادة بها .

يقول دكتور « أتريكو انساباتو » في كتابه « الإسلام وسياسة الخفاء » مقررا ومحذرا : « إن الإسلام إذا كان محدودا غير متغير في شكله، فإنه مع ذلك يسـاير ما تقتضيه الظروف ، فهو يستطيع أن يتطور دون أن يتضاءل مع مرور القرون ، ويحتفظ بكامل حيويته ومرونته ، ولا يجوز أن تهدم الخلافة هذا الصرح العظيم من العلوم الإسلامية ، أو أن تغفله ، أو أن تمسه بسوء ، فقد أوجد للعالم أرسخ الشرائع ثباتا ، شريعة تفوق في كثير من التفاصيل الشرائع الأوربية » .

ولكن دولة الخلافة لم تصغ السمع لهذا النذير ، وغشيتها الدسائس الفكرية ، والسياسية ، والحربية من كل جانب ، فزحزحتها عن شريعة ربها ، وجرت وراءها كل الأقطار التابعة لها !! ، وقد قدمنا طرفا مما يتعلق بضرب الشريعة قبيل فترة الاحتلال ، ولكن الأخطر هو ما حدث بعد ذلك .

هدم الشريعة في ظل الاحتلال الكافر

يشهد التاريخ أن الكفار الغزاة ، قد وقفوا لهذه الشريعة بالمرصاد ، وأعلنوها حربا سافرة عليها بمجرد دخولهم بلدا من بلاد المسلمين ، وكانوا يسارعون بإحلال قوانينهم محل الشريعة في غفلة من المسلمين ، لأن الغزو الفكري كان قد مهد لهم الطريق ، واحتل سلفا عقول وقلوب كثير من المثقفين وذوي الرأي من أهلها ، لذلك سهل على الكفار إحداث هذا الانقلاب الخطير ، وهم آمنون ، بل شجعهم هذا على التدخل لإعداد مناهج خاصة لعلماء الشريعة نفسها من طلاب مدارس القضاء الشرعي ، كما سنبين إن شاء الله (٥٣).

ولنأخذ أمثلة محددة لما فعله الاحتلال الكافر بهذه الشريعة :

الأول في الهند:

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي : « إن أول قطر بدأ فيه إلغاء الشريعة الإسلامية هو الهند ، وكانت هذه الشريعة هي قانون الدولة العام في الهند حتى بعد أن قام فيها الحكم الانجليزي ، فكانت يد السارق تقطع إلى سنة ١٧٩١ م ولكن الانجليز أخذوا بعد ذلك يلغون القانون الإسلامي آنا بعد آن ، ويستبدلون به القوانين الوضعية ، حتى تم إلغاؤه في أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يبق منه تحت النفاذ إلا ما كان يتعلق بمسائل النكاح والطلاق وغيرهما ، على اعتباره قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية.

ثم على منوال الحكومة الإنجليزية في الهند نسجت الأقطار التي كانت حكومات المسلمين أنفسهم قائمة فيها ، فصاغت جميع ولايات الهند المسلمة قوانينها العامة شيئا فشيئا حسب قالب القانون الجاري في الهند البريطانية .

وضيقت نطاق الشريعة إلى قانون المسلمين لأحوالهم الشخصية (٥٤) .

(٥٣) انظر ص ٧٢ من هذا البحث .

(٥٤) راجع رسالة « القانون الإسلامي وطرق تنفيذه » ص ١٠ ، ١١ (هامش)

المثال الثاني : في مصر

فقد ذكرنا سابقا كيف انتهت الأحوال بحاكم مصر « إسماعيل » إلى استجلاب القانون الفرنسي بنصه ليكون شريعة للمحاكم « المختلطة » ، وبقيت الشريعة محكمة بين المسلمين ورعايا الحكومة المصرية إذا لم يكن طرف الخصومة أجنبيا .

ولكن بعد سبع سنوات فقط من استجلاب القانون الفرنسي احتل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، ثم بعد عام واحد أقدم الإنجليز على عمل خطير ، إذ قصروا القضاء الشرعي الإسلامي على ما سمي « بالأحوال الشخصية »، أما بقية المعاملات الهامة ، من تجارية ومالية وزراعية كالإجارة والرهن والبيوع والمبادلات والشركات ونحوها ، فقد أحالوها إلى القانون الفرنسي ، المطبق في المحاكم المختلطة » وجعلوه - مترجما بنصه - شريعة لما أسموه « بالمحاكم الأهلية » ليتحاكم إليها أهل البلاد أنفسهم في سائر معاملاتهم !!

وبهذا الكيد السافر وقعت الأمة في انفصالية خطيرة ومدمرة بين ما سمي « بالقضاء الشرعي » وما سمي « بالقضاء الأهلي »، وما يستلزمه كل منهما من تشريع مختلف المصادر والوجهة ، وكان من أخبث أساليب التهوين تسمية هذه المحاكم « بالأهلية » !!

إن « الأهلي » يقع في مقابلة « الأجنبي » فكأن هذه المحاكم وطنية أهلية ، لا أثر للأجنبي فيها، ولقد كان فعلا معظم قضاتها من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا ، ويحكمون باسم حكومة مصر ، وفي غمرة الاسم ، والشكل ، والمظهر نسي الناس نوع الشريعة التي فرضت عليهم ليتحاكموا إليها ، وأنها شريعة العدو الغازي الكافر ، وقد بلغت الغفلة مداها حين أدخل هذا الأمر على المسلمين تحت دعاوى : « الإصلاح التشريعي ، والقضائي !» ، وكان عماد هذا الخداع والتضليل تلك الطلائع النكدة ، التي أشربت قلوبها ثقافة العدو ، وفكره ، والتي تعلمت في مدارسه ومعاهده ، وعلى رأسها « مدرسة الحقوق » التي أقيمت في عهد إسماعيل على النمط الفرنسي ، مادة ، ولغة ، ونظاما !!

ولو سارت القضية على طبيعتها لكان البدهي أن يقارن « الأهلي » « بالشرعي » لأنهما هما الوجهان المتقابلان في واقع الحياة ، وحينئذ يفهم على الفور أن ما عدا « الشرعي» فهو مضاد للشرع ، ولو أخذ من الأسماء ما شاء فسيكون في كل حال كفر بالإسلام ، وفسوق عن أمره ، ومروق عن شريعته ، وبذلك تستثار عزائم الأمة دائما لحربه ، ورفضه ، ونقضه ولو بعد حين .

لكن المسألة سارت على ما رسم لها من تضليل وتزوير فكري مروع ، فاستبدلت كلمة « الأجانب » « بالكفار » و« الأهلي » « بغير الشرعي »، وسار الخداع تحرسه القوة ، ويعينه أغرار المثقفين من أمتنا ، حتى تم الاستبدال ، واستقر ، وأصبح بمرور الأيام معروفا مألوفا ، ثم اكتسب « شرعية » من ثباته الواقعي ، الذي تمضي به الأيام فلا ينكر ولا يغير ، وإنما يمتد، ويشتد ، ويزحف على مساحات جديدة من أمور الحياة ، متحيفا على شريعة الإسلام العظيمة !!

ولقد يبدو غريبا أن تسمح انجلترا بقيام التشريع والقضاء في مصر على أسس فرنسية واضحة، مع ما في هذا من كسب ثقافي وفكري وحضاري لعدوتها اللدود التي كانت تشتبك معها في صراع شامل .

وتفسير الأمر واضح تماما، فإنه ما دام الهدف واحدا وهو ضرب الإسلام فان الجهود تتناسق ، والأعمال تتوافق ، والخلافات تتناسى أمام هذا العدو المشترك، وهو نفس الهدف الذي جمع الكنيسة والدولة على ما بينهما من صراع كما بينا ذلك سابقا !!

ويضيف « أهل القانون » سببا موضوعيا آخر ، يوضح لنا مدى ارتكاز هذا الاستبدال التشريعي » على أسس الغزو الفكري الذي سبقه، ومهد له الطريق ، في فترة ما قبل الاحتلال ، يقول الدكتور محمود مصطفى أستاذ القانون المصري : « كانت هناك أسباب متعددة لتفضيل القانون الفرنسي ، منها.... أن القانون الفرنسي كان أقرب من غيره إلى فهم دارسي القانون المصريين ، فقد كانت ـ ولا زالت ـ ثقافتهم القانونية فرنسية ، ثم إن القانون الفرنسي كان مر بتجربة تطبيقه عشرات السنين فصدرت عليه شروح وتطبيقات قضائية كثيرة ، مما يجعل مهمة تطبيقه في مصر ميسرة (٥٥)!!!

(٥٥) كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » ص ١١

وقد قدمنا كيف بدأت دولة الخلافة نفسها في إضاعة الشريعة الإسلامية ، واستبدال قوانين الكفار بأحكام الإسلام تحت وطأة الأمتيازات الأجنبية ، وبتأثير الدول الأوربية المباشر ، مستغلين ضعف الدولة وبعض هزائمها الحربية !!

ونضيف هنا بيان الدور الخطير ، الذي قام به الكفار المحتلون لتدمير كل ما يتعلق بالإسلام وشريعته في تركيا ، مستعينين بالأجيال المفرغة من عقيدتها، ودينها، والمشحونة بكل ضلالات الغزو الفكري ، وأباطيله ، وهذه قصة يرويها شاهد معاصر ، ومعاين لخلفيات الأحداث ، التي انتهت بردة السلطة الحاكمة في تركيا عن الإسلام ، وقيمه وآدابه ، وشريعته جملة ، نتيجة لفساد دين رجال هذه السلطة ، الذين وجد منهم الاحتلال تجاوبا وقبولا لتنفيذ ما أشربته قلوبهم من عداوة الإسلام ، وميل عن طريقه ، وذلك عقب هزيمة تركيا في الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، واحتلال أرضها !

يقول مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني رحمه الله : « ... ولكن كمال بك أوخري (أحد هيئة أركان حرب مصطفى كمال) الذي كان على اتصال مستمر بمصطفى كمال ، والذي لقيته مرارا في برلين عام ١٩٤٣، روى لي عن أوثق المصادر ما انتهت إليه المفاوضات ، فقال إن «كرزون» (وزير خارجية بريطانيا وقتئذ) وقف وقفة المتصلب ، وقال « لعصمت » (المندوب التركي في المفاوضات) : إننا لا نستطيع أن ندعكم مستقلين ، لأنكم تكونون حينئذ « نواة » يتجمع حولها المسلمون مرة أخرى فتعود المسألة الشرقية التي عانينا منها كثيرا ...

وكان « عصمت » يعود للبحث والمشورة إلى أنقرة ، التي اتخذها مصطفى كمال مركزا لحكومته ، ثم يرجع إلى لندن ، لاستئناف المفاوضات ، وكانت تركيا حينئذ منهوكة القوى من الحروب الطويلة ... فرأى مصطفى كمال ، أن يخضع للضغط ويتعهد للإنجليز وحلفائهم بكل ما يطمئنهم إلى أن استقلال تركيا لن يكون خطرا عليهم ، ولن يسبب لهم في المستقبل ما يقض مضاجعهم !!

« شروط كرزون الأربعة »

وعندئذ أملى الإنجليز شروطهم المعروفة بشروط « كرزون » الأربعة وهي:

١ ـ أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام .
٢ ـ أن تلغي الخلافة .
٣ ـ أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة .
٤ ـ أن تختار تركيا لنفسها دستورا مدنيا ، بدلا من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية ، والقائم على قواعدها .

وأضاف « كمال بك أوخري » إلى ذلك قوله : إن تركيا اختارت دستور سويسرا المدني ، ونفذت شروط الإنجليز الأربعة التي أمليت عليها ، وكان مما تفرع على ذلك استعمال الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية ، ومنع إقامة الآذان باللغة العربية ، ومنع تعليم الدين والقرآن في المدارس ، وغير ذلك مما تحدده الشروط المذكورة (٥٦).

وإننا على ثقة ويقين بأن الكفار المحتلين ما كانوا ليبلغوا ما بلغوه ، لولا أن طاغية الترك وأضرابه كان لديهم الاستعداد الكامل لشراء دنياهم بدينهم وعقيدتهم ، التي رثت في نفوسهم ، وتلاشت ، بفعل الغزو الفكري الطويل ، الذي غرس في قلوبهم الشبهات والشهوات ، والأباطيل ، ولقنهم مناهج « وأيدلوجيات » تكفر بالله وبالمرسلين ، وتلحد في الوحي والدين ، حتى لقد كتب بعض أنصار طاغية الترك يقول : « إنا عزمنا على أن نأخذ كل ما عند الغربيين ، حتى الالتهابات التي في رئيهم ، والنجاسات التي في أمعائهم » !!

(٥٦) مذكرات مفتي فلسطين (الحلقة ١١) المنشورة بمجلة أخر ساعة المصرية عدد ١٩٩٢ . بتاريخ ٢٢ من ذي القعدة ١٣٩٢ هـ (١٩٧٢/١٢/٢٧م) ، والحاج أمين توفي بعد ذلك (١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م) رحمه الله تعالى !

وقد نقل مثل هذا القول عن « عصمت إينونو » المفاوض التركي ، الذي تمت على يديه الشروط السابقة ، وكان هذا القول يمثل تماما ، خطة زعيمهم طاغية الترك (مصطفى كمال!) وأفكاره ، واتجاهاته ، كما نفذها على مسرح الحياة التركية ، حين تم له الأمر (٥٧) .

وعن هذه الطرق الثلاثة (الهند ، مصر ، تركيا) وما شابهها تغلغل تشريع الكفار في أحشاء الأمم الإسلامية ، ثم لم تلبث هذه القوانين ـ بمرور الوقت ، وارتباط مصالح الناس بها ـ أن اكتسبت صفة الثبات والاستقرار « والشرعية » الواقعية ، فصارت تنقل لشعوب المسلمين بأسمائها الجديدة المزورة مثل : القانون الهندي ، والقانون المصري ، أو العراقي ...إلخ ، وكان هذا ذروة التلبيس ، حيث لا يفطن كثير من الناس إلى جذور هذه القوانين ، وأصولها الأجنبية ، المضادة لشريعة الله عز وجل !!

وعلى سبيل المثال : ظل السودان يحكم بالشريعة الإسلامية ، منذ الفتح وحتى القرن التاسع عشر الميلادي (في عهد دولة الفونج وسلطنة دارفور) وما إن استقرت أقدام الإنجليز في السودان ، حتى أخذوا في وضع قوانين جديدة كقانون العقوبات رقم ١١ لسنة ١٨٩٩ ، وقد أخذ أساسا من قانون العقوبات الذي وضعه الإنجليز للهند سنة ١٨٦٠ م

ويعلق أحد أساتذة القانون الجنائي على هذا فيقول :

« كانت ظروف الهند مشابهة لظروف السودان ، ليس فقط من حيث الاحتلال الإنجليزي لها، وإنما أيضا من حيث تطبيق الشريعة الإسلامية ، فقد كانت كذلك مطبقة في الهند في المسائل الجنائية ، حتى حل محلها القانون الإنجليزي ، في المدن الكبرى،

---

(٥٧) يراجع في هذا كتب ومقالات شيخ الإسلام « مصطفى صبري » رحمه الله مثل كتابه « موقف العقل والعلم والدين ....» وكتابه : « النكير على منكري النعمة » وفيهما تفصيلات وافية ، للآثار المروعة التي حققها الغزو الفكري في الأجيال التي تم على يديها الانقلاب التركي والردة عن الإسلام !!

إلـى أن صدر قانون العقوبات الهندي ، وقد استقيت أحكام هذا القانون من قانون «لويزيانا»، والتشريع الانجليزي ، ومن القانون الفرنسي ، وكذلك صار القانون الهندي مصدرا لقوانين باكستان ، وسيلان ، وبورما ، والملايو ، وسنغافورة ،وعدن وحكومات الخليج الفارسي ، وغيرها » (٥٨) .

وفي العراق : استبدل الانجليز فور الاحتلال بقانون الجزاء العثماني قانونا جديدا أصدره قائد قوات الاحتلال (١٩١٨) باسم : « قانون العقوبات البغدادي » وقد اعتمد شارعوه على قانون التحقيق الجنائي السوداني ، في وضع قانون المحاكمات الجزائية البغدادية ، أما قانون العقوبات ذاته ، فاستمد من قانون الجزاء العثماني ، (الذي بينا سابقا انحرافه عن الشريعة بسبب كيد الدول الكافرة) (٥٩) مضافا إليه قانون العقوبات المصري ، الذي وضع سنة ١٩١٧ م ، ولم يقدر له أن يصبح قانونا رسميا ، واشتهر باسم مشروع « بردونيوت »

وفي تونس : صدر قانون العقوبات بعنوان : « المجلة الجنائية » سنة ١٩١٣ ونفذ عام ١٩١٤ ، واقتبست نصوص هذه المجلة من قوانين فرنسا ، وتركيا ومصر ، وإيطاليا .

أما لبنان : فاستمد قانونه من القانونين : الايطالي والسويسري ثم من القانون اللبناني استمدت سوريا والأردن (٦٠).

ومن هذا يتضح دور الكفار المحتلين في تدمير الشريعة الإسلامية لافرق بين احتلال انجليزي ، أو فرنسي ، أو هولندي ... أو أي اسم آخر إلا في الوسائل والأشكال ،

---

(٥٨) راجع كتاب « أصول قانون العقوبات في الدول العربية » (هامش ص ١١) حيث ينقل عن كتاب : (القانون الجنائي ، مبادؤه الأساسية ونظرياته العامة في التشريعين المصري والسوداني) ص ٢٦ للأستاذ محمد محيى الدين عوض .

(٥٩) راجع ص ٢٤ ، ٢٥ من هذا البحث .

(٦٠) أصول قانون العقوبات ص ١٣ ، ١٤ .

ومقتضيات الأحوال ، كاللجوء إلى الحيلة ، والتغيير الهادئ ، أو استخدام القوة في فرض شرائعه إذا قامت في وجه مقاومة جادة .

ومن هذا الأخير ما فعلته فرنسا حين أصدرت في مايو ١٩٣٠ مجموعة القوانين التي أطلق عليها اسم : « الظهير البربري » والتي عزلوا بها مسلمي البربر عن التشريع الإسلامي ، حتى في مسائل الأحوال الشخصية ، وعن التثقيف الإسلامي ، والمدارس القرآنية !!

وقد تحدث « سوردون » : *Sordon* واضع هذا التشريع فقال : « إن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد البربرية ، فلأصحاب هذه الأسلحة الحق في اختيار التشريع الذي يجب تطبيقه في البلاد ... وإذا كانت العادات العرفية البربرية (أي التي كانت للبربر قبل إسلامهم) لم يكن لها مناص من الإضمحلال أمام مشروع مدون ، فلماذا لا تضمحل أمام شرعنا نحن الفرنسيين (٦١).

---

(٦١) راجع مقال « من الإسلام إلى الإيمان » للأستاذ محب الدين الخطيب رحمه الله المنشور في مجلة الأزهر (المجلد ٢٩ ـ المحرم ١٣٧٧ هـ)

أهداف هذا الانقلاب التشريعي وآثاره

إن الغاية الأساسية لدى كهنة الإلحاد العالمي ، هي غاية قديمة ورثوها عن آباء الكنيسة الحاقدين ، وتنحصر في هدم الإسلام ، وقد اشتبكت بها رغبة مادية عارمة ترمي إلى استنزاف ثروات الشعوب الإسلامية ، وكنوز أرضها فجاءت هي الأخرى باعثا وحافزا لهم ليشددوا التركيز على إزاحة الإسلام من طريقهم ، باعتباره أكبر عائق لهم عن الوصول إلى أغراضهم ، لأنه ينفث في صدور أتباعه حمية مقدسة ، لا تعرف إلا إحدى الحسنيين ، وتؤجج في الضمير كل بواعث الجهاد والاستشهاد .

وكان هذا التغيير التشريعي واحدا من الوسائل الخطيرة التي استخدموها لتحقيق مآربهم الدنيئة ، وقد حققوا به أمورا على غاية النكر والبشاعة منها :

١ ـ تغيير المجتمع تحت مظلة القانون الوافد :

ذلك لأنه من المقرر أن القانون ـ من حيث هو ـ يستهدف أحدأمرين :

إما الحفاظ ـ بقوة السلطة ـ على وضع قائم يراد له البقاء والاستمرار .

وإما العمل لتحقيق وضع غير موجود ، يراد له التمكن والانتشار .

وقد أقام الإسلام مجتمعاته على أسس أخلاقية سامية ، وتولت الشريعة الإسلامية ـ بمعناها القانوني ـ تحديد هذه الأخلاق ، وحمايتها بالحدود والتعزير فاستقرت في المجتمع قرونا عديدة ، وهي تشكل أنماط سلوكه الظاهر ، وواجهته العلنية ، فلم تعرف مجتمعات المسلمين دور البغاء المرخصة ، ولا حانات الخمور ولا بيوت المراهنات والقمار ، ولا وسائل إشاعة الفاحشة كالملاهي والمراقص ..إلخ.

وغاية ما وجد من ذلك أن يكون منكرا يتخفى ، ويلوذ بالجدر ، لأن الشريعة ـ

باعتبارها قانون الأمة السائد ـ تحرمه ، وتعاقب عليه ، والعرف العام الذي رسخته الشريعة في المجتمع يستنكره ، ولا يسكت عليه .

فلما هبت على المسلمين أعاصير الاحتلال ، حملت معها كل الموبقات الأوربية فأخذت تندلع وتشيع ، ثم جاء القانون الوافد حاميا لها، بل لا نغالي إذا قلنا أنه أنشأها ، وشجع عليها ، ويتضح ذلك في الأمرين التاليين :

الأول : دور القانون الوضعي في الانحلال الخلقي:

وهذا أمر على غاية العجب والخطورة ، لأن من شأن القانون ـ أي قانون ـ حماية المجتمع لا إفساده وضبط المعايير الاجتماعية ، لا حلها وإطلاقها ، لكن القانون الوافد وضع ليحدث في المجتمع الإسلامي عكس المشروع والموضوع على طول الخط !! ويشرح الدكتور إبراهيم اللبان هذا الأمر فيقول بعد أن عد الشرور الوافدة : « ويمكن أن نقول إن من أهم العوامل في هذا المجال ، حلول القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية في ضبط حياة الأمم الإسلامية ، والسيطرة عليها ، وتوجيهها ثم ما طرأ على التربية الدينية من تغيير عميق ...

أما الانقلاب الذي جاء به التشريع ، فلم يكن مجرد إحلال قانون محل قانون آخر ، بل إنه هز الأخلاق الإسلامية من أساسها ويرجع هذا إلى أن مبادئ القانون الوضعي تختلف عن أسس الشريعة الإسلامية ، اختلافا أساسيا ، فالقانون الوضعي يرى مهمته مقصورة على تنظيم الصلات الاجتماعية أما السلوك الفردي ، فإنه لا يتردد في التصريح بأنه يقع خارج نطاق سلطانه وأنه من أجل ذلك متروك لحرية الفرد ، ومن ثم فإنه لا يعاقب على المنكرات والفواحش ، أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت على أساس مبدأ مختلف فالسلوك الفردي ، كالسلوك الجماعي يقع تحت طائلة القانون الإسلامي ، وعلى هذا الأساس يقوم تشريع الحدود ، وضروب التعزيرات ، في شرب الخمر والقمار ، والزنى، ونحوه ...

وما كاد القانون الوضعي يحل في البلاد الإسلامية محل الشريعة ، ويعطل الحدود ، والتعزير حتى سنحت الفرصة لشذاذ الآفاق ، وطلاب الربح الحرام من الغربيين فأقبلوا من كل صوب ، وشرعوا ينشرون الحانات ، ودور الفساد في جميع أرجاء البلاد الإسلامية، فكان هذا بداية انقلاب أخلاقي واسع المدى، يقوم على أساس الانطلاق من قيود الأخلاق والدين ... وكانت الخطة العامة التي رسمها الاستعمار لبلوغ مآربه هي الاستعانة بالقانون الوضعي على إطلاق سراح الشهوات ، من قيود الشريعة (٦٢).

الثاني : دور القانون الوضعي في التخريب الاقتصادي :

فمن المعلوم أن الشريعة الإسلامية تحرم تحريما قاطعا جميع الفوائد الربوية في سائر المعاملات كالرهون ، والمضاربات (القراض)، والقروض بنوعيها : الإنتاجي ، والاستهلاكي ...إلخ

ولذلك ظلت المجتمعات الإسلامية بنجوة من لعنة الربا طوال تاريخها بسبب تعاليم هذه الشريعة الهادية ، فلما خالفوا عن أمرها حق فيهم نذير الله للمرابين : (فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) البقرة/٢٧٩ ، ومن ثم اجتاحتهم النكبات، وعضتهم الأزمات ، واجتالتهم الشياطين عن دينهم .!!

ولقد كان أول من نقب في بناء الشريعة الإسلامية ، وأول ثغرة تسللت منها قوانين الكفار وشرائعهم ـ هي ثغرة القروض الربوية ، التي توسع فيها بعض حكامهم لإرضاء نزواته ، وقد شرحنا طرفا من ذلك فيما مضى .

فلما دخل الاحتلال كان أول ما استهدفه هو اسباغ ثوب « الشرعية القانونية » على هذا اللون من المعاملات المحرمة دينا ، والمستنكرة غايةالاستنكار عرفا ولذلك عمد المحتلون إلى جميع ما حرمته الشريعة من الأرباح، والفوائد فأباحوه عن طريق القانون

(٦٢) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها

الوضعي ، وقد أدى هذا الوضع ـ مع ضعف المسلمين ـ إلى تسرب معظم الثروات إلى أيدي الكفار من كل جنس ولون ، حتى وصلت قيمة الرهون ، والديون ، وفوائدها الربوية ، إلى حد استغراق ثمن جميع الأرض الزراعية ، وحاصلاتها لآماد طويلة ، في بلد عريق الخصوبة مثل القطر المصري .!!

« وهذا ما دعا الإنجليز في كل مفاوضاتهم إلى التمسك بمستشار لوزارة العدل (الحقانية وقتئذ) يسيطرون به على المجتمع المصري عن طريق التشريع ، وبمستشار لوزارة المالية ، يسيطرون به على القوة التي تجعل الكلام عملا ، وتحيل الأفكار إلى بناء ماثل ، وكانت حجتهم التي يسترون بها أهدافهم الحقيقية في التمسك بمستشاري العدل والمالية ، هي المحافظة على مصالح الأجانب (٦٣).

٢ ـ هدم الاسلام في جانبه القانوني العملي :

وذلك عن طريق ربط مصالح الناس الحيوية بقانون آخر يستقطب جهودهم ويصرفهم عمليا عن الاهتمام بأحكام الشريعة الإسلامية فتموت هي الأخرى عمليا ولو بالتدريج ، على حين تنتقل الحياة ، والحركة، والاهتمام ، والنشاط إلى شرائع الكفار ، ويتركز حولها !!

وقد أخذ هذا الاتجاه طريقين نكدين حققا الغايات المستهدفة إلى أبعد الحدود :

الطريق الأول: عام، يربط جمهور المتقاضين المسلمين أنفسهم، بشرائع الكفار، لأنها أصبحت قوانين الدولة، صاحبة القوة، والتنفيذ والتي لا سبيل إلى قضاء مصالحهم إلا من خلالها، خاصة في الخصومات ومن ثم اتجه الناس إلى محاكم هذه الشرائع وقضاتها، ومحاميها، وخبرائها، يسألونهم عن حكم القانون في كذا، وكيت، لا عن حكم الشريعة، التي حصرت في زوايا الأحوال الشخصية، وكان هذا من أخطر الانقلابات الفكرية، والعملية، التى أدخلت على المسلمين، وزينت لهم في ثياب: الاصلاح والتقدمية،

(٦٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ج ٢ ص ٢٦٤ (الأصل والهامش)

والمدنية .. إلخ . والمستشرق الانجليزي «جب» يسجل هذه الظاهرة، وهو يعدد تسرب مظاهر التأثير الغربي على المسلم العادي رغم أنفه فيقول :

« وهو يجد الرجوع إلى المحاكم الشرعية لا يغنيه شيئا في كثير من مصاعب حياته ومشاكلها ، بل يجد نفسه خاضعا لقانون مدني ، قد لا يعلم له مصدرا صحيحا ، يستمد سلطانه منه ، ولكن لا شك أن هذا القانون لا يستمد سلطانه من القرآن ، ولا من السنة الصحيحة (٦٤) .

الطريق الثاني : خاص ، يربط فئة من خلاصة المثقفين المسلمين بدائرة نفوذه الفكري ، ربطا محكما ، وهم الطبقة القائمة على هذا القانون الوافد دراسة ، وتعليما ، واستاذية ، وقضاء ، ونيابة ، ومحاماة ...إلخ وكل هذا يقتضي استمرار اتقان لغات العدو ، ومصطلحاته القانونية ومتابعة شروح فقهائه ، وشد الرحال إلى عواصمه للتلقي عن أساتذته ، والتخصص القانوني في جامعاته ومعاهده ، واطراد الاقتباس والأخذ والرجوع إلى نظمه التشريعية، وسوابقه القضائية ، مع ما يتبع ذلك عادة من فتنة المبهور ، واعتزاز المغلوب بالتتلمذ على أعلام القانون والتشريع في دول الحضارة الغالبة !!

ولقد أدى هذا كله إلى تخريب مزدوج النتائج في الشخصية الإسلامية ، حيث اتجه الفكر والولاء ، والتلقي التشريعي إلى قبلة الغرب ، واستدبرت بالتالي قبلة الشرق العملية جملة ، فكان الطالب وأساتذته المسلمون أنفسهم يذكرون « سافنين وأوستن » وأضرابهما من أساطين القانون الغربي بالفخر والاعتزاز ، في الوقت الذي يخجلون أو يجهلون كل ما يتعلق بأئمة الفقه الإسلامي كأبي حنيفة والشافعي وأضرابهما ممن يكفي الواحد منهم لفخر الدهر كله . وكانوا يشيرون بالبنان إلى مجموعات « نابليون » القانونية ، ولا يكادون يعلمون شيئا عن المجموعات الفقهية الإسلامية « كمدونة » مالك، «والأم» للشافعي ونحوهما .

---

(٦٤) كتاب : « وجهة الإسلام » ص ٢١٨ (الخاتمة)

فاذا لا حظنا أن هؤلاء كانوا قادة لأممهم في ميدان القضاء والتشريع ، وأن كثيرا منهم كان يتصدى لقيادة أمته في المجال السياسي ، ويصل إلى مناصب عالية في دوائر الحكم ، والتوجيه ، والتنفيذ ، إذا لاحظنا هذا علمنا كيف أدى هذا الغزو التشريعي في جانبه القانوني ، والفكري ، إلى أفدح النتائج ، وأبشع صور التخريب في كيان الأمة المسلمة ، وشريعتها!!!

التعليم الحقوقي :

ومن المناسب أن نذكر هنا شيئا عن آثار التعليم الحقوقي بذاته ، وقد كان من أهم دعائم القانون الوافد ، بمدارسه، ومعاهده ، ثم كلياته الجامعية التي انتهت إلى « التعريب» الكامل ، في البلاد العربية ، ناهيك عن غيرها من البلاد التي لا تتكلم بلغة العرب ، وقد أصبحت هذه الكليات في جميع البلاد تبدو للناظر ـ بادي الرأي ـ جهدا وطنيا ، ذاتيا للغاية ، كأنه لا يستمد أصوله ، ومقوماته كلها من وراء البحار، وشرائع الكفار !!

ولعل من أقدم المؤسسات الحقوقية في بلاد المسلمين مدرسة «الحقوق المصرية» التي أسسها الطاغية إسماعيل في فترة حكمه لمصر (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) لدراسة القانون علي نمطه الأوربى وكان المتفوقون والقادرون من خريجيها يستلمون دراستهم القانونية فى جامعات فرنسا ومعاهدها ويتتلمذون على أعلام القانون والتشريع فيها!!

أعلام القانون والتشريع فيها !!

وكان إنشاء هذه المدرسة عملا متسقا تماما مع قيام « المحاكم المختلطة » في مصر (١٨٧٥) بتشريعها الفرنسي ، وكذلك كانت هذه المدرسة أكبر الوسائل الفكرية والعملية ، لتدعيم هذا القانون الوافد ، الغريب على المسلمين ، ومده بكل أسباب البقاء ، والنماء ، لأنها أدت إلى قيام طبقة « قانونية » جديدة من المسلمين أنفسهم ، لتحل محل الأجانب في دوائر القضاء والتشريع حتى يصبح هذا الانقلاب الخطير ذا شكل وطني في ظاهره ،

ويقوم على جهود ذاتية من داخل البلاد تكفل له الاستقرار، والاستمرار حتى بعد رحيل الكفار !

وقد تطورت هذه المدرسة وأمثالها في بلاد المسلمين حتى أصبحت « كليات » جامعية، توسعوا في مناهجها، وترجموا لها أمهات كتب القانون الأجنبية ثم جاء الطور الأخير الخطير، وأصبح التعليم، والتدوين القانوني، عربيا بحتا أو باللغات الوطنية في كل إقليم، وكان هذا هو غاية التلبيس، لأن هذا كله يستمد جذوره، وأصوله، وفلسفته، ونظرياته، بل حتى سوابقه القضائية، وشروحه الفقهية، يستمدها من القوانين، والمصادر الأجنبية عامة، والفرنسية منها بوجه خاص !!

وفي ظل الاحتلال ـ وتحت حراسته ـ غدت هذه الكليات تقذف المجتمع الإسلامي كل عام بألوف من خريجيها، وفتح أمامهم الطريق ليحتلوا مراكز أساسية في حياة أممهم، كالقضاء، والنيابة، والمحاماة، ولجان التشريع ..إلخ .

وأصبحوا بذلك « طبقة » جديدة، متميزة في قلب الأمة المسلمة، تقوم حياتها ومعاشها، وأفكارها، وثقافتها، وتعليمها التخصصي على أساس غربي وافد، يحاد الشريعة، ويقوم على أنقاضها، مهما تزيى في طوره الأخير بأزياء وطنية، أو قاده قوم «من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا » كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الفتن (الذي رواه البخاري) .

ولكن الحقيقة تبقى وراء ذلك كله، ناطقة بالأصل الذين ينتسبون إليه والمورد الذين يستقون منه، والذي وصل بهم كما يقول الدكتور عبدالحليم محمود : « إن الأمر قد وصل بالاستعمار أن صاغ خريجي كليات الحقوق بحيث لا يفهمون بعد (الليسانس) كتابا عربيا في المواد التشريعية، وليس الأمر بغريب ... إن جدول التدريس في كليات الحقوق يخصص عشرين محاضرة في الأسبوع للقوانين الأوربية، ومحاضرتين فقط للشريعة الإسلامية !

أترى لو أنشئت هذه الكليات في فرنسا ، وانجلترا أكانت تفعل أكثر من ذلك ؟! وهذه الكليات هي سر تخلفنا في التشريع » (٦٥)

وليس هذا التخلف الحالي ناتجا عن قصور في الشريعة الإسلامية ، وإنما نشأ بسبب العزلة القاتلة التي سيق إليها الفقه الإسلامي ، والتي أدت إلى عزل أصحابه وانحصارهم في دوائر ضيقة ، ولو لا أن هذا الفقه دين ، لبادت آثاره ، لكثرة ما صب عليه من التآمر ، والحقد ، والإهمال !!!

وقد وصل الأمر إلى نتائجه المقصودة ، فأصبح لهذه الطبقة القانونية الجديدة انفصال تشريعي كامل ، له مؤلفاته الخاصة ، ومناهجه ، ومدارسه وأساتذته ، ومشرعوه ، ومؤصلوه ، وشراحه ، ومفسروه ، ومجتهدوه ، ومترجموه ، وأصبحت الأمة في النهاية ، تحكم بهذا « الدين » الوضعي المبتدع ويقوم عليها في التنفيذ والتطبيق : المسلم ، والكافر ، قضاء ، وتشريعا وما بينهما !!

وكما قدمنا أدى هذا الوضع الخطير إلى اكتساب القوانين الوافدة ، شرعية واقعية ، لأنها أصبحت شريعة الدولة ، التي تقوم ـ بقوتها ـ على تنفيذها وتنفق أموال المسلمين على إعداد القائمين بها ، ثم يقومون بدورهم ـ كما رأينا ـ بتدعيمها ، ومدها إلى كل آفاق الحياة ، واقعيا : بالتقنين والتطبيق ، وفكريا : بتعريبها ، وهضمها ، وتسريبها إلى حياة المسلمين وكأنها فكر ذاتي!!

على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، بل حاول الاحتلال محاولة فكرية أخرى ترمي إلى تطوير الشريعة نفسها تطويرا غربيا ، يقربها من مناهجه ، وشرائعه ويزيل الفجوة الهائلة بين النمط التشريعي الإسلامي ، وبين القوانين الوضعية على ما بينهما من خلاف في الأصل ، والهدف ، والأسلوب .

(٦٥) راجع مقال « الجنة تحت ظلال السيوف » ، المنشور في مجلة « آخر ساعة » المصرية بتاريخ ١٤ رمضان ١٣٩٣ هـ (أكتوبر ١٩٧٣) .

وكانت الخطة تعتمد على تربية جيل جديد من رجال الشريعة الإسلامية ، على مناهج خاصة ، تنتهي به إلى هذا القارب الفكري والعملي بين الأضداد ..!!

وعلى سبيل المثال لهذا الكيد الذي لا ينام ، جاء في تقرير اللورد كرومر ، ـ عميد الاحتلال الإنجليزي في مصر ـ بصدد مشروع مدرسة القضاء الشرعي الذي وضعه الشيخ محمد عبده مع آخرين بتكليف من كرومر ، جاء فيه قوله:

«كنت أتصل بين الحين والحين بالبارون «كالي» حاكم البوسنة(٦٦)، لتبادل الرأى فى الموضوعات، ذات الطابع المشترك وقد أستطعت أن أحصل بفضل مساعدته ومساعدة خلفه على معلومات وافية عن الكلية التى أنشأتها حكومة النمسا والمجر في «سارجيفو» لتخريج القضاة (يقصد قضاة الشرع المسلمين(وهي كلية قد أثبتت نجاحها من كل الوجوه ، وقد وضعت هذه المعلومات تحت تصرف لجنة ذات كفاية ممتازة، يرأسه المفتى الأكبر السابق، بقصد وضع خطة متشابهة ، تلائم ظروف مصر وحاجاتها ، وقد أتمت اللجنة عملها في شهر يونيه السابق، ووضعت النظم المقترحة تحت تصرف الحكومة، وهي الآن قيد البحث في وزارة العدل (الحقانية وقتئذ) وهذه النظم تزود الطالب، ببرامج ثقافية ذات طابع تحرري *of aliberal character* لا تحصر الطالب فى الدراسات الدينية الخالصه» (٦٧).

ولقد كان هذا العامل مقدمة لما يراود المحتلين من أماني في تطوير الأزهر كله ، وتغيير معاييره ومفاهيمه الاسلامية ، ليصبح شيوخه أكثر قبولا للأوضاع الوافدة، كالوطنية، والقومية، ولتنحلّ فيهم عقدة الرفض لكل ما هو « غير إسلامي » ، حتى يمكن التفاهم مع أجيالهم الحديثة، لتعايش «العلمانية» ـ على الأقل ـ إن لم يكن احتواؤهم ، ونقل ولائهم التام!!

---

(٦٦) البوسنة : إقليم إسلامي يقع في البلقان (شرق أوربا) وهو الآن جزء من « يوغسلافيا » يعاني أهله العذاب من التسلط الإلحادي .

(٦٧) تقرير سنة ١٩٠٥ م فقرة ٩٨ ص ٤٩ من الأصل الإنجليزي (كما جاء في كتاب الاتجاهات الوطنية ... جـ ١ ص ٣٣٥ وما بعدها) .

وقد عجز الاحتلال الانجليزي عن تنفيذ كثير من مآربه في الأزهر خوفا من الهياج الديني ، ولكن خلفاءهم من « الطبقة البديلة » جاءت بما عجز عنه الاحتلال تحت ستار الوطنية ، والإصلاح تارة ، وبسلاح البطش ، والاستبداد والإرهاب تارة أخرى !!

ونستطيع أن نذكر مثالين وصلت الفاجعة فيهما إلى ذروتها ، وكانا امتدادا لما أسسه الاحتلال ، وبذر بذوره الخبيثة ، حتى أخرجت ثمارها النكدة في عهد « الاستقلال المزعوم » » !!

أ ـ إلغاء القضاء الشرعي جملة ، وإدماج محاكمه في « دوائر » تابعة للمحاكم الأهلية ، التي قامت من أول يوم على القانون الوضعي (٦٨).

ب ـ إدخال « القانون الوضعي » في صلب البرامج الدراسية لكلية الشريعة بجامعة الأزهر ، وتسميتها « كلية الشريعة والقانون » بموجب القانون المريب ، المعروف «بقانون تطوير الأزهر» !

إن هذه التسمية التي فرضت على الجامع الإسلامي العتيد ، هي تسمية في غاية الخبث ، وتجمع بين المتناقضات : (الشريعة والقانون) ! وهذا عمل يقصد به تقريب الشقة بينهما ، وحل عقدة الرفض في الرؤوس والنفوس التي يخشى دائما أن تنبعث فيها قيادة جادة ، لحركة تحكيم الشريعة ، وإعادتها إلى التفرد بالهيمنة على شئون الحياة الإسلامية . إن دراسة القانون في كلية الشريعة ـ أو غيرها ـ يجب أن تكون بهدف واضح هو معرفته لاستخدامه في خدمة الشريعة ، والعمل لتنحيته عن مجال الهيمنة والتوجيه ، وضربه على بصر به .

أما دراسته بقصد مزجه بالشريعة ، وتحكيمه بين الناس ، والرضا الضمني والفعلي عنه ، وقبول وظائف السدانة له ـ كما هو حادث الآن في الأزهر ـ فهذا ما يأباه الإسلام

(٦٨) ألغيت المحاكم الشرعية المصرية بتاريخ ١٩٥٥/٩/٢١ م في عهد الحكم العسكري الاستبدادي الذي جنى على الإسلام ودعاته من الجنايات ما عجز عن مثلها العدو الكاشح !!

كل الإباء ، ويحرمه كل التحريم ، بل هذا هو عين ما خطط له العدو المحتل من قديم ، وتحقق على أيدي الدعاة على أبواب جهنم من « الطبقة البديلة » التي سهرت على تربيتها ـ طويلا ـ دوائر الاحتلال ، والتبشير والاستشراق وآخرون من دونهم على ما نبينه في إيجاز بإذن الله في النقطة التالية :

الثالث «٦٩» التربية الجديدة للطبقة البديلة :

إن أي خطة يراد لها النجاح ، ثم الاستمرار والاستقرار بعده ، لابد أن تسير في تسلسل محكم ، يبدأ من تحديد الهدف بدقة ، ثم وضع خطة فكرية واضحة لتحقيقه، ثم إخراجها إلى حيز التنفيذ بالدعوة والإقناع ...، ثم التركيز على البعض حتى يصل اقتناعه إلى درجة عالية ، تجعله نموذجا ، ومؤثرا في غيره ثم العمل على ربط هؤلاء برباط فكري أو عملي حركي، بحيث يصيرون بداية « لنمط جديد » في الحياة ، يشق طريقه ، ويستقطب الناس حوله .

وقد يقف هذا« النمط الجديد» عند حدود التأثير الفكري فقط ، أو يمضي في طريقه ، حتى يتبلور في جهاز تنفيذي ، يقوم على تطبيق خطته ، وحراستها ، ومدها إلى آفاق وأبعاد جديدة لا تبلغ بالفكر المجرد !

وهذا عين ما سلكه الكفار لتحطيم الإسلام في نفوس أتباعه ، ونقلهم إلى طريق آخر، « بتربية جديدة » ، تنبثق منها « طبقة بديلة » ، لتعين هذا الاحتلال في وجوده ، وتتولى قضية التغيير بجواره ، ثم تحمل المهمة بعد رحيله ، وتسلمها للأجيال الوريثة ، في صيغة أخرى أخطر ، وأفحش ، حين تدخلها عليهم ، في ثياب « الذاتية ، الوطنية »، وكأنها ليست حصاد مؤثرات خبيثة ، بيّت أمرها بليل الأحقاد، وسهر على رعايتها غلاة الماديين ، والمبشرين ، والمستشرقين وأصحابهم ممن أعماهم التعصب ، أو الأطماع !!

---

(٦٩) ذكر العنصر « الأول » ص ٣٤ ، و «الثاني» ص ٣٦ .

لذلك كان عماد هذه «التربية الجديدة» كما يقول الدكتور إبراهيم اللبان:«إحلال مبدأي:«اللادينية والعقلانية» محل الهداية الدينية في الفكر والقانون، والتربية وسواها..

فقد رأى القوم الحمية الدينية التي قابلتهم بها المقاومة ، وعرفوا أنها صادرة عن الروح الدينية ، وأيقنوا ألا قرار لهم في البلاد التي استعمروها ، إلا إذا قبضوا على هذه الروح في الأجيال المقبلة من أهلها ، بل الواقع إن خطتهم كانت ترمي إلى أمرين أساسيين : أحدهما : إنشاء جيل مجانس لهم في ثقافتهم ، ليسهل عليهم التفاهم معه . والثاني : أن تخلو الأجيال المقبلة ، من الدين ، ومن الثقافة الإسلامية والحمية الدينية ، وكان لابد لبلوغ هذا الهدف من النظر في الوضع القائم في جو « التربية والتعليم » ، وتغييره تغييرا أساسيا » (٧٠).

وقد ذكرنا سابقا مقدار تخوف الدارسين الأوربيين من : « العامل المجهول » الذي يجعل منشآتهم واهية الأساس في بلاد الإسلام ، والذي قد يقلب التيار رأسا على عقب ...إلخ (٧١).

ولذلك كان التركيز على بناء هذه « الطبقة البديلة » قضية حياة أو موت بالنسبة للاحتلال .

ومن المعلوم أن التربية ليست هي فقط ، العلوم ، والمعارف ، أو التشريعات والقوانين ... وإنما هي مزيج مركب من عناصر شتى متداخلة ، ومتفاعلة ، وهي وسط تجري من خلالها عمليات التغيير ، و« محاضن » للعلاقات الإنسانية المختلفة ، حتى تفرخ بدفء الاهتمام ، والتقارب ، والاتصال المستمر ، وتؤثر في النهاية تأثيرا بالغا في السلوك ، والوجدان ، والفكر ، من حيث يشعر الإنسان أو لا يشعر .

---

(٧٠) رسالة « التربية الدينية » السابق ذكرها

(٧١) انظر ص ٤٥ من هذا البحث .

ومن ثم فلم يكن أحد هذه العوامل هو المؤثر المتفرد أو المطلق في الانقلاب الذي حدث ، وإنما تجمعها ، وإلفها ، وتربية الأجيال على تقبلها فكريا ، وعمليا خاصة الذين كانت تؤول إليهم قيادة أممهم ـ بكفاءتهم ، أو بتخطيط وتدبر العدو ـ كل هذا أعطى في النهاية لهذه التربية ـ وطبقتها ـ قوة تدميرية هائلة ، لم يقف أمامها شيء !!

وهذه العناصر المؤثرة في « التربية الجديدة » منها ما جاء عفـوا نتيجـة للوضـع الحضاري ، ومنها ما جاء عمدا ، وقصدا بتخطيط العدو ، وكيده اللئيم ، ويمكن إجمال ما تم ـ عفوه وعمده ـ على النحو التالي :

١ ـ التقليد :

فكما قدمنا ، فاجأت صحوة أوربا الهائلة المسلمين وهم في غفلة من أمرهم ، وجاءهم الاحتلال ومن بين يديه ، ومن خلفه « مخاريف » حضارية ، أخاذه وفاتنة ، وزاد الطين بلة أن كان المسلمون في فترة « ركود حضاري ، وجمود اجتماعي» ، سببه الأول التفريط في تطبيق دينهم تطبيقا صحيحا ، ولذلك كانوا هم الطرف الضعيف في هذا الصدام ، وتبعا لذلك كانت لديهم قابلية شديدة للتأثر وتشرب الأنماط الوافـدة ، ذات البـريق الاجتماعي ، ومن هنا بدأت دورة التقليد والمحاكاة ، ومضاهاة الكفـار في كثـير من عوائدهم ، وأحوالهم الفاسدة ، والانكباب على أشكال حياتهم ، وأساليبها المظهرية ، وقد دخل هذا كله على مشاعر الناس ، وأذواقهم ، وأخلاقهم ، مدخلا ناعما خادعا باسـم «التجديد والتقدمية» . و « التهذيب والإصلاح » ، و « مسايرة العصر » ...إلخ

وبداهة لم تكن عوائد الكفار شرا كلها ، ولكن قانون الاجتماع البشري وطبائـع الأشياء تقضي بأن التقليد هنا لا يكون إلا في قشور الأشياء ، وليس في لباب الحضارة ، وقد سجل المؤرخون ، وعلماء الاجتماع هذه الظاهرة مرارا ، ومنهم العلامة ابن خلدون ، الذي طبقها على أهل زمانه ، وصح استنتاجه تماما وفي ذلك يقول رحمه الله :

« إن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب ، في شعاره ، وزيه ، ونحلته وسائر أحواله ،

وعوائده ... حتى إنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها ، فيسري إليهم من هذا التشبه ، والاقتداء خطر كبير ، كما هو في الأندلس ، ولهذا العهد ، مع أمم « الجلالقة » فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم ، وشاراتهم ، والكثير من عوائدهم وأحوالهم ، حتى في رسم التماثيل في الجدران ، والمصانع ، والبيوت حتى لقد يستشعر الناظر بعين الحكمة ، أنه من علامات « الاستيلاء والأمر لله ...» (٧٢).

وما قاله رحمه الله ، هو ما جرى هنا حذو النعل بالنعل ، ولنأخذ مثالا عن « مصر » بعد فترة من الاحتلال ، وهو ينطبق تماما على معظم بلاد المسلمين في ذلك الوقت ، يقول الدكتور محمد حسين في تصوير هذا :

« كان المترفون من الأغنياء ، يتهافتون على ما تخرج المصانع الأوربية من وسائل الترف ، حتى غدت توافه الكماليات ، من ألزم الضروريات ، وأصبح قصارى ما يبلغه أحدهم من التمدن ، أن يتقن تقليد الأوربيين في استعمال أدوات المائدة الأوربية ، وأن يحسن حفظ أساليبهم في استعمال الملابس ، والتمييز بين ما ينبغي أن يستعمل منها في مختلف المناسبات ، وأن يحسن استقبال النساء والتودد إليهن ، والتلطف في معاملتهن وأن يعود من سفرته السنوية إلى أوربا ، حيث يقضي شهور الصيف ، ليتبجح في ندوات الفارغين بمغامراته ، ويدير لسانه بألوان من الرطانات ، ثم يرسل أبناءه ، وبناته إلى المعاهد الأجنبية، مباهاة .. وإتماما لما يريد أن يسبغ على نفسه ، وعلى بيته من جو أوربي خالص ، يظن أنه هو المقياس الحق للمدنية ، وللرقي » (٧٣).

---

(٧٢) مقدمة « ابن خلدون » الفصل ٢٣ ص ١٢٣ طبعة كتاب الشعب (القاهرة) .
(٧٣) الاتجاهات الوطنية جـ ٢ ص ١٨٤ .

٢ ـ الاختلاط :

وهو وسيلة للتربية أخص من التقليد ، وأكثر تركيزا وأثرا في نقل العادات واقتباس الأخلاق والسلوك .

وقد كثر اختلاط المسلمين بالكفار الأجانب من كل لون ، لكثرة الوافدين إلى بلادهم في ركاب الاحتلال ، وقد تعددت أيضا شعب هذا الاختلاط : في الأعمال ، والوظائف والبيوت ، والنوادي ، والتجارة ..إلخ ، وامتد إلى روابط الصداقة أو الحياة الأسرية حين التزوج بأجنبيات ، أو الزمالة في أسفار الدراسة ، أو الرحلات والتنزه ..إلخ

وكان من أخطر وأخبث الأجواء التي تم فيها هذا الاختلاط التربوي هو الجو المدرسي بمناهجه الخبيثة ، وبيئته الخاصة ، المكيفة تكييفا مخططا مرسوما ، والتي كان يشرف عليها الرهبان ، والراهبات ، والمبشرون المحترفون ، ورؤساء الإرساليات التبشيرية ، والتي هيأوا فيها لأطفال المسلمين ، مناخا مزدوج التركيب: من فلسفة الحياة المسيحية ، وألوان العادات والأخلاق الأوربية !

وكما قدمنا كان هؤلاء هم أبناء الأمراء ، والوزراء ، والأغنياء ، وأشباههم ممن تؤول إليهم قيادة أممهم في شتى مجالات الحياة ، حتى ليندر أن تجد زعيما ـ أو زعيمة ـ ممن تصدوا لقيادة التغيير الاجتماعي ـ المصادم للإسلام ـ إلا وهو خريج هذه المدارس الأجنبية، أو متزوج بخريجة منها!!

وقد كان هذا الاختلاط في كثير من الأحيان مدعما بتخطيط ماكر ، ماهر ، ليؤدي دوره « التربوي » الخطير ، وليحقق التغيير المطلوب ، ويكفل له الاستمرار والاستقرار بواسطة هذه الطبقة الجديدة ، الممتدة في قلب أمتها .

وعلى سبيل المثال نجد اللورد « كرومر » عميد الاحتلال الانجليزي في مصر ،

يقترح في هذا الصدد : « أن يكون هناك نظام مدبر لعرض وجهات النظر ، التي تبدي عطفا معقولا على المصريين ، عن طريق أفراد من المشتغلين بالسياسة الشرقية ـ لا عن طريق الحكومة ـ وكان يؤمل من رواء ذلك أن تجد أجيال المصريين المقبلة ، من الحكمة، وسعة الأفق ـ حسب تعبيره ـ ما يحفزها للعمل بصبر وإخلاص ، مع الأوربيين الذين يعطفون عليهم ، حتى يستطيعوا متعاونين ، وضع مثل عليا جديدة تحل محل المثل الأعلى للمسلم المتدين ، الذي لم يعد صالحا لهذا الزمان حسب زعمه » (٧٤) .

ولقد كان من أفحش النتائج المدمرة ، بسبب هذا الاختلاط ، ظهور عادات وأخلاقيات جديدة في المجتمع ، تحاد الدين ، وتضاده ، أو تتنافر مع ذوقه وآدابه في أقل الأحوال !!

وكان ما أصاب المرأة المسلمة من ذلك بالذات هو المقتل الذي أسرع بالمجتمع نحو هاوية سحيقة ، ما لها من قرار !!

فلم تكن الدعوة إلى ما أسموه « تحرير المرأة » !! إلا مؤامرة رهيبة ، على البيت المسلم لتدميره من الأساس ، وتحويل مساره إلى وجهة مضادة ، لم تحدث قط في تاريخ المسلمين حتى في أشد فترات ضعفهم ، أو فسادهم ، أو هزيمتهم ، فكان من ذلك سفور المرأة المسلمة حتى العرى ، والتهتك ، ثم انحلالها الخلقي ، واندفاعها الفجائي إلى خارج البيت لتزاحم الرجال في كل مجال ، حتى مجالات الخلاعة ، والمجون والاستهتار !!

لقد كانت المرأة في بلاد المسلمين ـ بلا شك ـ محتاجة إلى التعليم ، والثقافة، والدراسة، لكن حين تولى قضيتها المفسدون في الأرض ، قادوها إلى شر مهلك ، وجعلوها نكبة النكبات على أمتها ، ودينها ، ومستقبل الأجيال التي تقوم بتربيتها ، وقد استغل المفسدون حاجة المرأة ، وغفلة الأمة ، وجهل قادتها ، أو فسوقهم عن أمر الله عز وجل ،

وليس أدل على ذلك من قول المبشرة « أنا بلمان » :

(٧٤) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٢٤١ ، نقلا عن كتاب « كرومر » : *Modern Egypt* .

في صفوف كلية البنات بالقاهرة ، بنات أباؤهن باشوات ، وبكوات ، وليس ثمة مكان آخر يمكن أن يجتمع فيه مثل هذا العدد من الفتيات المسلمات ، تحت النفـوذ المسيحي ، وليس ثمة طريق إلى حصن الاسلام أقصر من هذه المدرسة » (٧٥) .

ولقد ذكرنا سابقا تعهد الطاغية إسماعيل (حاكم مصر) لملوك أوربا بأن يطلق (الحرية) للمرأة المسلمة (٧٦) ، لأنهم كانوا يدركون تماما خطورة هذا الأمر ، وأهميته البالغة في إحداث الانقلاب الحاسم في مسار الإسلام ثم كفالة امتداد آثار هذا الانقلاب لآماد بعيدة ، لا يبلغونها عن غير هذا الطريق ، ولعل هذا هو عين ما لحظـه المبشر المتعصب القس « زويمر » في وصاياه للمبشرين إذ يقول مركزا آماله على هذا الجانب الاجتماعي الخطير :

« تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها !

ينبغي للمبشرين ألا يقنطوا إذا رأوا نتيجة تبشيرهم للمسلمين ضعيفـة ، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما في قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين ، وتحرير النساء»(٧٧)

٣ ـ بين العزل والتمكين :

وبمرور الوقت ، وتحت حراسة الاحتلال ، بدأ تيار « التفرنج » ، و« التغريب » يقوى ويشتد ، وتتربى عليه أجيال ، وطلائع ، أخذ العدو الكافر يشد أزرها ، ويمكن لها في قلب أمتها ، ويفتح لها طريق القيادة ، والشهرة ، ويسلط عليها أضواء الدعاية ، لتصبح « النموذج » ، أو المثال الذي ينبغي تقليده ، واحتذاؤه والتشوق إلى مضاهاته !!

(٧٥) انظر كتاب « أباطيل وأسمار » ـ المقالة الأخيرة بعنوان ـ وأيضا ص ٢٩٥ منه .

(٧٦) انظر من هذا البحث ص : ٢٨ .

(٧٧) الغارة على العالم الإسلامي ص ٨٠ .

ومع الأسف لم يستطع العالم الإسلامي ـ أو بعضه على الأقل ـ أن يضع لنفسه خطة رشيده ، تؤدي إلى أخذ علوم الحضارة ، مع الاحتفاظ بمنهج الإسلام العظيم ، وطابعه في الحياة ، فتكون قوة إلى قوته ، وقد فعلت بعض الأمم الكافرة ما عجز عنه العالم الإسلامي ، كاليابان ، التي احتفظت بطابعها الذاتي ، في حين أخذت تزاحم الغرب في أعلى شعب العلوم ، والصناعات ، مع أنها لا تملك من وحي السماء مثل ما نملك من منهاج مبين ، ولا كتاب منير !!

على أنه من المؤكد أيضا أن خطة « التربية » التي وضعها أعداء الإسلام لم تكن تسمح بالمرورخلالها لأخذ النافع المفيد من الحضارة ، إلا بعد أن تحدث التغيير المطلوب في باطن الفرد وظاهره ، وتستقطبه ، أو تمتصه من طريق أمته الحقيقي ، بحيث يصبح في واقعه قوة جديدة ، تضاف إلى رصيد الاحتلال ، وتدعم وجوده ، واستمراره فكريا ، وثقافيا ، واجتماعيا ، وإن بدا في الظاهر أن هذا الفرد من قوة التجديد في أمته ، وبلاده !!

حقا لقد تعلم آلاف من أبناء المسلمين العلوم ، والطب والهندسة على يد أوربا وربما أفادوا أمتهم ماديا ، ولكنهم في الحقيقة كانوا نواة التدمير لطابع أمتهم الإسلامي ، وكانوا المسئولين عن تحويل مسارها ، وسقوطها في براثن الغزو الفكري ، سقوطا لا مثيل له بين الأمم لأن حصونها غزيت من داخلها ، ناهيك عمن تعلموا الفلسفة ، والآداب ، والفنون الماجنة ، والقانون ، وأمثالها من أسلحة الغزو الفكري المباشرة !!

وقد ظهرت آثار الكارثة حين تولى هذا التيار قيادة أمته في شتى مجالات الحياة ، وتحت شعارات خادعة من « الإصلاح الاجتماعي » و « التقدم ، والحضارة » ...إلخ

ولقد صحب ذلك خطة ضارية لعزل دعاة « الطابع الاسلامي » عن الحياة وحصرهم في أضيق نطاق ، وتصفيتهم ، وإبعادهم عن كل مجالات التأثير ، والتوجيه الحيوية!!!

ويقود إلى ذكر أمثلة واقعية ، ما جرى في «مصر» أيضا ، وهي « نماذج » لما حدث في العالم الاسلامي المنكوب بحكم الكفار ، والمخدوعين بحضارته الزائفة !!

« فقد أدى نظام التوظف منذ عهد إسماعيل ، وفي عهد الاحتلال الانكليزي خاصة إلى اختفاء أصحاب الثقافة الدينية ، من ميادين الإصلاح ، وتخلفهم عن ركب الحياة ، وانحصار وظائفهم في المساجد ، وأصبحت الوظائف الحكومية ، وأدوات التوجيه الاجتماعي في أيدي أصحاب الثقافة الأوربية ، الذين ينشئون مشاريعهم الاجتماعية ، والعمرانية على نمط ما تعلموه » (٧٨).

« وأصرح من ذلك ما قرره « كرومر » - واضع أسس السياسة التي جرى عليها الاحتلال الانجليزي في مصر - من أن الإسلام بطبيعة تعاليمه ، عدو للحضارة الأوربية ، وأن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوربيين ، لا يقوى على حكم مصر في هذه الأيام ، لذلك سيكون المستقبل الوزاري للمصريين المتربين تربية أوربية » (٧٩).

وتنفيذا لهذه الخطة أخذ الاحتلال يفتح الطريق أمام أعوانه ، « الذين نشأهم في أحضانه صغارا حتى إذا رضي عنهم ، ورضوا عنه استخلفهم على قومهم ينظرون بعينه ، ويفكرون بعقله ، فأصبحت مناصب الدولة المهمة في قبضة هذه العصبة من المتفرنجين ، ومن المتزوجين بالأجنبيات والإنجليزيات منهن خاصة ، يوجهون الأمور ، ويخططون السياسات - والسياسة التعليمية خاصة - على ما يرجو الإنجليز ، وعلى ما يحبون » (٨٠).

وهذه النتيجة المروعة هي عين ما سجله المستشرق الإنجليزي « جب » ، واستنبط آثارها المزعجة ، من وقائع الأحوال المشاهدة في أوائل هذا القرن حيث كانت خطة قومه تطبق ، وتنفذ على أوسع نطاق ، ويقول :

---

(٧٨) راجع « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » ج ١ ص ٢٢٥ .

(٧٩) السابق ج ٢ ص ٢٥٤ ، وهو في الموضعين ينقل عن كتاب « كرومر » *Modern Egypt* وتقريره عن سنة ١٩٠٩ م .

(٨٠) المرجع السابق (الاتجاهات الوطنية) ج ٢ ص ٢٦٤ .

« ربما كانت أسلم نتيجة نقررها هي أن نقول : إن هناك طبقتين رئيسيتين : طبقة عليا تشمل أفرادا من القادة ، ولكنها تشمل أيضا أكبر مراكز الفكر الإسلامي تأثيرا ، وفيها يظهر أثر الأفكار الغربية ظهورا قويا .

وطبقة دنيا تشمل جمهور الرأي الإسلامي ... وفيها نجد أثر الأفكار الغربية ضيقا إلى حد ما ، وإن ندر أن تقاوم هذه الطبقة أفكار الغرب ـ إلا في جزيرة العرب ـ وما دام الزعماء هم الذين يعتد بهم ـ ولا سيما زعماء الجيل الناشئ ـ استطعنا أن نستنبط أن الجزء الأكبر من العالم الإسلامي سيكون بعد قليل من الزمان قد أخذ نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها ، إلا إذا طرأ عامل جديد ، وغير اتجاه التيارات الموجودة إلى ناحية أخرى ..» (٨١)

٤ ـ التحول الذاتي :

على أن هناك هدفا خطيرا تغياه أعداء الاسلام في تربية هذه « الطبقة البديلة » وربما كان يتفوق على كل ما عداه من مؤثرات الاحتلال ، بل تبلغ خطورته أنه الآن هو أساس « الاستمرار » الذي تمضي على خطه مجتمعات المسلمين ، وكأن « عهد الاستقلال » ليس إلا امتدادا « للاحتلال » ، وإن اختلفت ـ فقط ـ الصور والأشكال !!

وهذا الهدف هو غرس مثل الحضارة الغربية ، وطرائقها ، وفلسفة حياتها في نفوس هذه الطبقة ، حتى تتشربها قلوبهم ، وتختلط بكيانهم ويتمثلونها خلقيا ، وفكريا ، على المستوى الفردي ، والاجتماعي ، بحيث يصبح « المركب » الأوربي هو مزاج هذه الطبقة النفسي ، والفكري ، وميزان تصرفاتها ومعيارها الذي تقايس به الأمور ، أي أنه يتحول إلى : « مركب ذاتي » ، تصدر عنه الأعمال تلقائيا ، وتطرّد معه الحياة على نمط « الحضارة الأم » بغير إحساس بغربة ، أو نقل ، أو صفة وافدة .!!

---

(٨١) راجع خاتمة كتاب : (وجهة الإسلام) ص ٢١٩ وما بعدها .

ومن المعلوم أن بين الإسلام وكثير من الأنماط الأوربية تباينا عميقا لا سبيل معه إلى لقاء ، خاصة في أصول الفكر ، والاعتقاد ، وضروب السلوك والأخلاق ، وطرائق المعاملات ، وهو نفس الفارق بين حياة تنبعث من الإيمان ، وحياة تنبثق من الإلحاد ، مع ما يتبع ذلك في كل نواحي الحياة من سلوك ملتزم بمنهاج الله رب العالمين وسلوك متمرد على دينه الحق ، يدعو إلى التحرر من كل التزام إلا ما أشربه من هواه وأضاليل قادته !!

ولذلك كانت هذه الطبقة البديلة هي الوسيلة المتفردة لحسم المعركة مع منهاج الإسلام ، وكلما أمعنت في « هضم » الحضارة الغربية ، وتحويلها إلى خلاياها ، وخلايا أمتها ـ كلما قرب ذلك أمد الصراع ، وقطع الطريق على مستقبل البعث الإسلامي المخوف!!

ومن ثم كان التركيز ضاريا وعنيفا في سبيل تحقيق هذا الأمر ، لتقوم الطبقة التي تأخذ « نهائيا بوجهة نظر لا سلطان للدين عليها » ، كما قال المستشرق « جب » ، وحينئذ يمكن « الجلاء » عن أرضها ، وتسليمها زمام السلطة فيها ، لأنها امتداد لفكر المحتل ، وتحقيق مجسد لأهدافه الخبيثة وحتى إذا وقع بينه وبينها خلاف اليوم أو غدا ، فهو عداء « مصالح » يخضع للمساومة والتبادل ، وليس كما كان من قبل عداء « عقائد » وصدام «أفكار ومناهج» لا سبيل إلى حله إلا بما علموا وذاقوا عبر تاريخ الإسلام الطويل .

ومع الأسف أفلح أعداؤنا في تربية هذه الطبقة ، التي لو ت ـ بدورها ـ زمام أمتها ، وأحلتها دار البوار ، ولنستمع هنا إلى شهادة « جب » على قومه ، وما توصلوا إليه من نتائج بواسطة الطبقة البديلة ، يقول في بحث طويل : « أظهر علامة تميز العالم الاسلامي في هذه العقود الأولى من القرن العشرين ، ليست هي صيرورته إلى الأخذ بمنازع الغرب ، ولكن رغبته في ذلك ... »

ثم يعد أطوار ما أسماه « بالاستغراب » ، أي محاولة حمل العالم الإسلامي على الحضارة الغربية ، والتي يختمها بقوله :

«وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح الذي نسبر به غور التأثير الذي أحدثته الثقافة الإسلامية في العالم الإسلامي، يجب أن ننفذ إلى لباب الأمور، وأن ننفذ أولا إلى الحركات التي تقوم على تشرّب الأفكار الغربية، تشربا يبعث على الابتكار، بعد استعداد داخلي قوي، وكل ما عدا هذا فهو سطحي ومهما شق الأمر، فلابد من بذل الجهد لتبين تلك العناصر التي تكوّن حقا صرح « ثقافة جديدة » من مجموعة العناصر المنقولة، التي تراكمت في العالم الإسلامي، والتي كثيرا ما تكون قشورا زائفة.

والتعليم هو أكبر العوامل الصحيحة التي تعمل على « الاستغراب » ـ والحق أنه العامل الوحيد ـ إن فهمنا من كلمة تعليم كل ما تدل عليه (المدرس، والفني والجامعي والأخذ بأساليب الغرب في الإدارة والسياسة، وتربية الرأي العام بالصحافة خاصة، التي تتميز بنزعة علمانية غالبة كما يرى) (٨٢).

وبعد:

فإذا أخذنا بأيدينا هذا المقياس : (التربية الجديدة، والطبقة البديلة) فسوف لا يشكل علينا تفسير شيء مما يموج به العالم الإسلامي اليوم من تناقضات وتخبطات، حتى بعد أن استرد سلطانه السياسي على أرضه، ودخل في مرحلة الوهم الكبير التي أسموها « عهد الاستقلال ».

كذلك يعطينا هذا المقياس المدخل الصحيح لتشخيص الداء، والدواء إذا صحت النيات لبناء العالم الاسلامي من جديد، والعودة به إلى طريقه الأصيل، ورسالته المتفردة، على ما نبينه في إيجاز إن شاء الله تعالى، في هذه الصفحات الختامية.

---

(٨٢) انظر الموضوع بتمامه في كتابه (وجهة الإسلام) من ص ٢٠٨ ـ ٢١٧).

النتائج

« عهد الاستقلال » .. إلى أين ؟!!

اتضح مما سبق أن « الاحتلال العسكري » لبلاد المسلمين كان سرطانا مركبا امتد في كل اتجاه ، وتفرعت عنه ، أو تأكدت في ظله ، أنواع منه مثل :

١ ـ الاحتلال السياسي وذلك باستيلاء الكفار على مقاليد الحكم والإدارة في الأقاليم الإسلامية ، ومباشرة العمل فيها بأنفسهم أو بواسطة أعوانهم ...

٢ ـ «الاحتلال الاقتصادي» الذي سيطروا به على منابع الثروات ، وجعلوا به بلاد المسلمين أسواقا لتصريف بضائعهم ، أو مصدرا للمواد الخام اللازمة لبناء صناعاتهم...إلخ

٣ ـ «الاحتلال الفكري والاجتماعي » الذي فصلنا ذكره سابقا ، ابتداء من الانحلال الخلقي والإبدال التشريعي ، وانتهاء قيام الطبقة البديلة على أساس التربية الوافدة والتغيير الفكري الشامل ....!!

وقد أذن الله تعالى بانتهاء الاحتلال العسكري عن غالب ديار المسلمين وبذلك استردوا حريتهم السياسية ، والاقتصادية ، إلى حد كبير . غير أنهم اعتبروا ذلك غاية الغايات في التحرر « الاستقلال » ...

وكان هذا الشعار وهما كبيرا لهّيت به جماهير المسلمين فقنعت بالأدنى من الأهداف ، دون الأجلّ الأكبر من مهمتها ، ورسالتها في هذه الحياة .

ولقد كان البدهي المأمول أن يعي المسلمون السبب الأصلي فيما منوا به من كوارث الاحتلال ، وما خلفه فيهم من انهيار وانحلال فيكون يوم « الجلاء » في كل إقليم هو

بداية العمل الجاد ، للاستقلال الحقيقي ، الذي يتمثل في العودة الشاملة ، إلى منهاج ربهم .

بيد أن الأمور سارت على غير هذا الأمل البدهي ، حتى لتبدو لنا هذه المرحلة ، وكأنها مرحلة « الاستمرار » على موروثات عهد « الاحتلال » بل هي أحيانا تزيد عليها ، لأنها تتم على أيدي المسلمين أنفسهم حتى ليصح أن توصف : بمرحلة « الاستبدال » أو «الاستحلال » .!! لسنا بداهة نقول بتفضيل « الاحتلال » على « الاستقلال » ، ولكننا ـ بعد مراجعة شاملة ومستأنية لأحوال المسلمين ـ نقول جادين : أين هو الاستقلال ؟!

إن أمتنا لم تزل محتلة القلاع ، مستباحة الحصون ، مشدودة بأغلظ قيود التبعية ، في أخطر وأجل ما ينبغي أن تستغل به أمة ، وتتميز به عما عداها ، أعني في الفكر والتشريع والأخلاق والسلوك ، والتربية والاتجاه ، والغايات والأهداف وغيرها من حصاد هذا الغزو الفكري ، وثمرات الانقلاب الاجتماعي ، التي تمت على أيدي الكفار ، ومن خلفهم من « الطبقة البديلة » ..

وإذا كانت الامم تحرص على استقلالها الفكري ، والاجتماعي بدافع من العزة القومية ، أو الكرامة الوطنية ، أو غيرهما من دعاوى الجاهلية ، فإن المسألة عندنا تختلف تماما ، لأن استقلالنا في هذه الأمور هو قضية عقيدة ودين ، ومسألة وجود ومصير ، ومسئولية رسالة ودعوة ، وضرورة بعث وإنقاذ لأنفسنا وللعالمين ، ثم هي مهمة قيادة وهداية ، وتمكين لخط الوحي الإلهي المشرق ، وتمييز له عن المناهج ، والنماذج البشرية التي سيطرت على الأرض ، وملأتها ضلالا، وإلحادا ، وعنادا .!!

وهذا كله يأبى علينا التبعية كل الإباء ، بل إن التبعية هنا تصبح خيانة لرسالتنا وجناية على أمتنا، وشرودا بالقافلة البشرية عن طريق ربهاالواحد القهار .

ويزيد الأمر سوءا الإصرار على المضي ، والاستمرار في خط الكفار ، خاصة بعد أن

تحررت الإرادة السياسية ، وسقطت معاذير الإكراه بجلاء الجيوش العسكرية ، حتى أصبح الأمر ـ كما قلنا ـ « استبدالا » بالاختيار ، يصل إلى حد الاستحسان والاستحلال!!

ومن ثم فإن على « دعاة الإسلام » ، وأصحاب النمط الاسلامي للحياة ، أن يكونوا على تمام اليقظة ، والانتباه لطبيعة المرحلة التي يعيشون فيها ، وطبيعة المعركة التي يخوضونها ، وأنها معركة أشد شراسة وفداحة من معارك الكفاح ، والسلاح التي خاضتها أمتهم لتحصل على استقلالها الجزئى المحدود .

ومن هنا أيضا وجب ألا يضيعوا أوقاتهم في معارك جانبية ، أو في محاولات الترقيع ، وإنما يجب أن يلفتوا نظر أمتهم ـ دائما ـ إلى واقعها الأليم ،ومصادمته للإسلام ، وأن هذا أثر مباشر من آثار الكفار ، حاكوا خيوطه ، ورسموا خطوطه ، عبر قرون من الحقد والتآمر، والكيد للإسلام . !!

ولا يجدي غير هذا السبيل في مواصلة استنفار عزائم أمتنا ، حتى تتخلص ـ باسم الاسلام ، وتحت رايته ـ من أخطر وأخبث ما منيت به ، من ألوان الغزو والاحتلال ، والذي يكفي في التدليل على فظاعته ، أنه ترك المسلمين كالمريض ، الذي فقد مناعته ، وهزلت مقاومته واختلط عليه أمره ، فهو يستشفي بالداء ، ويفر من الدواء ، ويتعرض كل يوم لجديد من الوباء .

فتراخى الأمر حتى أصبحت :: هملا يطمع فيها من يراها

وعلى دعاة الإسلام أن يتنبهوا جيدا إلى أن أعداءهم وحلفاءهم من « الطبقة البديلة » قد أفلحوا في غرس بواعث وأهداف جديدة ، في نفوس المسلمين ، بديلا عن الإسلام ، كالنعرات القومية ، والوطنية ، وقضايا الاقتصاد والإنتاج والاستهلاك والتوزيع ، ودعاوى الاشتراكية ، أو غيرها من الدعوات المذهبية التي روجوا لها ، وزينوها للمسلمين، وبنوا حولها زعامات وقيادات لتستقطب الناس عن راية الإسلام بعد ماتبين شمول

منهاجه، وسمو شريعته، وتفوقه في وضع الحلول لمعضلات المجتمعات ، ومشكلات الحياة ..

على أن أخطرما يجب التنبه إليه هو موت الشعور - في الأجيال الوريثة - بمصادر وأصول التربية ، التي يدرجون عليها في كل نواحي الحياة لأن صفة « الذاتية » في التحول والتغيير ، أصبحت - في ظل الاستقلال الجزئي - ذاتية اندماج وتفاعل » اختفت فيها أصولها الوافدة ، وبرزت فيها معالم وطنية خادعة ، ومن ثم غدت الأجيال المتعاقبة، تدرج عليها في غفلة، وموات ، ومن ثم غدت الأجيال المتعاقبة ، تدرج عليها في غفلة ، وموات ، لا تستشعر حرجا ، ولا تبدي سخطا ولا تنكرولا تعرف إلاما ربيت عليه من قيم وافدة ، ومثل غربية ، ومع علمها في كثير من الأحيان بمصادمتها لدينها ، وكتاب ربها !!

ولنأخذ من ذلك - على سبيل المثال - الطبقات المتعاقبة من أصحاب « القانون الوضعي» وملايين المسلمات من الكاسيات العاريات ، ومحترفات اللهو والمجانة ، والألوف المؤلفة الذين يعبون عبّا من فكر الحضارة المادية الملحدة ، ويستقون من مستنقعات ثقافتها ، وتصوراتها وفلسفاتها الجاهلية ، ثم يقذفون به أمتهم في كل ميدان ، كالصحافة ، والتعليم ، و« الفنون المختلفة » : من التمثيل ، والغناء ، والشعر ، والقصة ، والآداب، والفلسفة ..إلخ

والعجب - كل العجب - أن يمضي هذا كله الآن بلا حرج بل ويقبل عليه الناس في شوق ، وارتياح ، ويظل يربو حتى يغلب على كل ما عداه ، ويغمر المجتمعات من أقطارها إذ تمده روافد لا تنضب ، أولها في ديار الكفار وآخرها في قلوب إخوانهم من «الطبقات البديلة» ممن بدلوا دينهم ، وصاروا شيعا بين ركام المناهج ، والنماذج ، والشرائع والاتجاهات ، والمذاهب ، وإن كانوا في النهاية يمثلون تيارا واحدا ، تشابهت قلوبهم في حرب الإسلام ، والانصراف عن قيمه وتوجيهاته واختيار أي صبغة أخرى تخالفه وتضاده!!

وما كان هذا كله ليستمر يعد رحيل الكفار عن ديار الإسلام ، لو لا أن هيؤوا له امتدادا ذاتيا في نفوس حلفائهم وخلفائهم من قومنا ، يضمن له اطراد النمو والتأثير

وانتشار السلطان والأنصار ، حتى ليستشعر دعاة الإسلام بينهم القلة ، والغربة ، وهذا عكس للموضوع وقلب للمشروع يحتاج إلى جهاد ـ أي جهاد ـ حتى يعتدل الميزان ، وتحسم القضية ـ بإذن الله ـ لصالح الإسلام (والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون) يوسف /٢١

خـاتمة

ننبه في ختام هذا العرض والتحليل ، إلى أننا لا نرمي إلى جانبها السلبي الذي يستهدف محاكمة المنحرفين ، وإدانتهم ، والتنديد بما جلبوه على أمتهم ودينهم في شتى مجالات الحياة ، وإنما هدفنا الأصيل هو : تشخيص الداء ومعرفة أسبابه ، ومضاعفاته ، حتى يمكن تطبيب هذه الأمة على بصيرة ، ووصف الدواء الناجع لها ، من هدى القرآن ، وشرائع الإسلام ، وإرث النبوة الخاتمة .

لذلك أختم هذا البحث ببعض مقترحات ، رجاء أن يجد فيها مؤتمركم الموقر ما يصلح لأن يضمنها توصياته الختامية ، ويدعو المسلمين إلى وضعها موضع التنفيذ الواسع الناجز ، الذي يرد عن أمتنا كيد قرون ، ويستنقذها من أخطر وأخبث ما منيت به عبر تاريخها الطويل .!

١ ـ دعوة أصحاب الاتجاه الإسلامي ـ على اختلاف مواقعهم ـ إلى العمل الجاد لإبراز « خطة بديلة » في مجال التربية والتعليم ، والفكر والثقافة ، يمكن بواسطتها إعادة صياغة الفرد المسلم ، والبيت الإسلامي والأمة المسلمة ، وفق معايير الإسلام .

وأساس هذه الخطة : أخذ الإسلام بمأخذ شمولي ، باعتباره منهاجا كليا كاملا للحياة، أي من حيث هو عقيدة ، وشريعة ، ونظام شرفنا الله تعالى به ، وكلفنا حمل أمانته ، وألزمنا تطبيقه ، ودعوة العالمين إليه . وجعله قضية وجودنا ،ومهمة حياتنا ، ويجمعنا للحساب والجزاء على أساسه .

وروح هذه الخطة : تربية الأجيال على الاعتزاز المطلق بدينها واستشعار عظمته وسموه ، وسبقه ، وتفرده عما لدى البشر من حطام الفكر ، وركام المذاهب والشرائع كما قال ربنا بحق : (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) الاسراء/٩ .
(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا) المائدة /٣

٢ ـ ضرورة إبراز مادة علمية دراسية جديدة باسم « الغزو الفكري » أو ما شاكله من الأسماء ، تشرح دور هذا الغزو ، وتاريخه ، وظروفه ومدى تأثيره في حياة المسلمين المعاصرة : فكريا ، وقانونيا ، وتعليميا ..إلخ وتقرر هذه المادة على مراحل التعليم المختلفة ـ كل بقدر ما يناسبه ـ ابتداء من السنة السادسة الابتدائية ، وانتهاء بآخر مراحل التعليم الجامعي .

ونقترح في هذا الصدد إسناد تدريسها إلى مدرسي المواد الدينية في المدارس ، و إلى العناصر الموثوق في اتجاهها الإسلامي من أساتذة الكليات والمعاهد العليا .

وتدريس هذه المادة ضرورة دينية ، وقومية حتى تضع الأجيال الجديدة يدها على مصادر الداء الذي يغشى حياتها ، وتتربى في نفوسها النفرة من كل ما يخالف دينها من العادات والتقاليد والأفكار المستجلبة ، خاصة إذا أبرز لهذه الأجيال طرق التآمر والغدر، والاحتيال التي اتبعت في جلب هذا الداء لأمتها وما صاحبها من استغلال أصعب الظروف الإنسانية واستعمال أخس الوسائل كما بينا في هذا البحث طرفا منه !!

٣ ـ دعوة الكتاب ، والأدباء والقصصيين الإسلاميين ، وأمثالهم إلى التركيز على إبراز هذا الجانب ، بمختلف الفنون ، حتى يحدث تيارا مضادا لآثار الغزو الفكري ، كاشفا دوره التخريبي المدمر خاصة في جنايته على المرأة المسلمة ، التي تربي الأجيال الآن ـ في غفلة ـ على وفق ما ربيت عليه هي من فساد القيم والمعايير !!

٤ ـ وندعو المؤسسات الإسلامية كالجامعات ، والهيئات إلى تنظيم هذا ، وإخراجه إلى حيز الوجود ، بتوجيه الرسائل العلمية إلى دراسته ، وبتنظيم المسابقات والجوائز لأحسن كتاب أو قصة أو دراسة في موضوعات مختارة ترمي إلى عمل متكامل ، يحس بأثره الفرد ، والمجتمع وينشر على أوسع نطاق حتى يتكافأ ـ على الأقل ـ مع درجة شيوع الباطل واستعلانه.

٥ ـ دعوة المؤسسات الإسلامية ـ في كل مكان ـ إلى الانتباه البالغ لآثار الغزو الفكري ، وموجاته المستحدثة ، وأن تكون هذه المؤسسات نموذجا يحتذى في محاربتها ، لا في مزاولتها !

وعلى سبيل المثال ينبغي على الجامعات ذات الطابع الإسلامي ، أن تتجه إلى تدريس العلوم باللغة العربية ، وأن تعمل جادة على وضع التراجم الأصيلة ، والمراجع الوثيقة بهذه اللغة ، وأن تنبذ النظريات التي لم تثبت علميا ، والتي تعلم لأبناء المسلمين باعتبارها « حقائق علمية » كنظرية ـ دارون ـ وكثير من نظريات علم النفس والاجتماع ..إلخ

إن عمل الجامعات العربية لتحقيق هذا لهو خطوة عظيمة الشأن في سبيل جمع الأمة المسلمة من جديد على لغة القرآن ، لتقوم بديلا عن لغات أعداء الإسلام ، التي تحتكر حقول التعليم العلمي في ديار المسلمين !!

ولسنا ندعو إلى إهمال إتقان اللغات الحية في العالم المعاصر خاصة ذات المستوى الباهر في علوم المادة ، والتي يوجب علينا الإسلام أخذها ، والتفوق فيها .

وإنما ينبغي التفريق بين مأخذين : مأخذ الفناء في لغة العدو وعلومه ونظرياته ، وفلسفاته ...إلخ ومأخذ الانتقاء النافع ، الذي يقبل أو يرفض ـ على بصيرة ـ وفق معايير ثابتة ، وموازين مستنيرة خاصة في الجامعات ذات الكيان الإسلامي البحت ، أو ذات الارتباط الإسلامي الواضح .

ومن تمام هذا ـ بل من لبّه ـ أننا ندعو « جامعة الأزهر » باعتبارها الإسلامي العريق ـ إلى إلغاء لفظ « القانون » من اسم كليتها العظيمة « كلية الشريعة » ، وإلى تغيير النظرة التي يدرس بها « القانون » الآن فيها إذ يجب أن تربى في خريجيها كل معاني رفضه ، وعدم مهادنته ـ باعتباره غير شريعة الله ـ لا أن تؤهلهم للحكم به بعد تخرجهم ،

وتعيين الممتازين منهم في وظائف « وكلاء نيابة » وما شاكلها وهذه رشوة على الدين تأبّى عليها « الأزهر » طوال تاريخه وكذلك يجب أن يكون خاصة وقد زال عهد الطاغية الذي فرض هذا الإثم .

٦ ـ دعوة المسلمين في كل مكان ، إلى العمل الجاد للتخلص من آثار أعدائهم ، خاصة في ميدان التشريع والقانون ، ونبذ التسويف ، وانتحال الأعذار الواهية ، كتلك الحجة الداحضة التي يتذرع بها أصحاب القانون الوضعي ومن على شاكلتهم من زعمهم أن الشريعة الإسلامية لا يمكن تطبيقها الآن إلا بعد إعداد ، وتدرج ، وفترة انتقال ..إلخ

ولقد رأينا في هذا البحث ، كيف أدخلت شرائع الكفار في بلادنا طفرة ، وبأوامر إدارية كما حدث في مصر سنة ١٨٧٥ ، ١٨٨٣ ، وكما حدث في تركيا (٨٣) عام ١٩٢٤ـ ١٩٢٨ م مع أنها شرائع غريبة اللسان ، والمنشأ والمنزع ، ولم يقل قائل بفترة انتقال أو تدرج ، أو مراعاة الظروف ...إلخ

أما شريعة الإسلام فهي دين هذه الأمم ، وكلمة ربها ، وهدى كتابه الذين يتعبدون بتلاوته بكرة وعشيا ، ثم هي قانونها العام والخاص طوال تاريخها ، وهي لم تنسلخ عنها إلا بكيد أعدائها ، وغفلة بعض سادتها وكبرائها !

ومن ثم فالعودة إليها أسهل وأيسر ، وهذا هو الأمر الطبعي فضلا عن أنه أمر الله الملزم ، وحكمه النافذ ، الذي تهون أمام تنفيذه كل عقبة ، إن وجدت ، ولا وجود لهذه العقبات في الحقيقة ، وإنما هي محاولات ومزاعم أعداء الله ، ثم ضحايا الغزو الفكري من أمتنا «يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) التوبة / ٣٢

---

(٨٣) كان آخر عهد تركيا بشريعة الإسلام صدور قانونها رقم ١٢٢٢ في ١٩٢٨/٤/١٠ الذي ألغى كل أثر للشريعة ، بعد أن ظلت تحكم بها أكثر من خمسة قرون !! وإنها لعائدة إليها بإذن الله

اللهم حقق وعدك الحق ، ووفق العاملين لدينك في كل مكان ، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم ، واجعل عملنا كله خالصا لوجهك الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما .

كتبه الفقير إلى عفو الله تعالى :

عبدالستار فتح الله سعيد

كلية الشريعة ـ الرياض

أهم مراجع البحث (٨٤)

١ ـ القرآن الكريم ...

٢ ـ بعض كتب السنة المطهرة (ورد ذكرها في الهوامش)

٣ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة... لابن الأثير (طبعة طهران)

٤ ـ السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ تحقيق مصطفى السقا وزميليه ...

٥ ـ تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)

٦ ـ فقه السنة (جـ ١) ... للشيخ سيد سابق

٧ ـ الغارة على العالم الإسلامي : تأليف أ . ل . شاتليه . نقله إلى العربية : مساعد اليافي ، ومحب الدين الخطيب (طبعة ثانية ـ جدة).

٨ ـ الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ د/ محمد البهي (ط : ٤)

٩ ـ الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ـ د/ محمد محمد حسين (ط : ٢)

١٠ ـ أصول قانون العقوبات في الدول العربية . د/ محمود مصطفى

١١ ـ «قاسم أمين» تأليف د/ ماهر حسن فهمي

١٢ ـ تاريخ العرب الحديث والمعاصر .د/ أحمد عزت عبدالكريم وزملاؤه .

١٣ـ نظرية القانون د/عبدالفتاح عبدالباقي .

١٤ ـ بين الأمس واليوم . للأستاذ حسن البنا (بيروت)

١٥ ـ التربية الدينية التي يحتاجها العالم الإسلامي . د/ إبراهيم اللبان (رسالة صغيرة نشرت ملحقا لمجلة الأزهر عام ١٣٩٣ هـ)

١٦ ـ التبشير والاستعمار (ط : ٥ بيروت)

١٧ ـ وجهة الإسلام : تأليف المستشرق « جب » وآخرين . ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة .

١٨ ـ نقض كتاب في الشعر الجاهلي . تأليف الشيخ محمد الخضر حسين .

١٩ ـ المنهاج القرآني في التشريع ـ (رسالة دكتوراه لصاحب هذا البحث ـ لم تطبع)

٢٠ ـ مبادئ نظام الحكم في الإسلام ـ د/ عبدالحميد متولي

(٨٤) كل هذه المراجع مطبوعة في مصر إلا ما نبه عليه منها . وقد رتبت حسب ورودها في الهوامش

٢١ ـ الجهاد في سبيل الله للأستاذ المودودي (دمشق)
٢٢ ـ القانون الاسلامي وطرق تنفيذه للأستاذ المودودي (دمشق)
٢٣ ـ مقدمة ابن خلدون
٢٤ ـ أباطيل وأسمار ـ محمود محمد شاكر
٢٥ ـ دوريات متفرقة مثل (مجلة الأزهر ، مجلة الثقافة المصرية ...)

الغزو الفكري

والتيارات المعادية للإسلام

القسم الثالث

إعداد

المستشار الدكتور علي جريشة

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذه الكلمات »

هذه الكلمات ....

كتبتها في البداية لأدرسها لطلبة جامعة الرياض ...

وكتبت في مقدمتها إهداء ...

« الى الأمة التي خرج منها النور أول مرة ....

هذا بشير ... عسى النور أن يخرج منها آخر مرة إليها وقد غلب عليها الظلام .

هذا نذير .... « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » .

وأكتبها اليوم .. أخاطب بها ... علماء المسلمين وفقهاءهم .. وأخاطب من خلالهم ... الأمة الإسلامية كلها .. لأنهم عقلها الواعي ، وقلبها النابض ونوابها الحقيقيون في غيبة الشورى الحقة ، والتمثيل الأمين ..

ـ عرضت فيها لأخطر ماتعرضت له الأمة الإسلامية .. استهدف عقيدتها وأخلاقها ، ومثلها وقيمها ، وثقافتها فاستبدل باحتلال الأرض .. احتلال العقل والقلب .. إلا مارحم ربي ...

ـ وكانت الهجمة الأثيمة من غرب وشرق

غرب حاقد ... وشرق كافر ...

والتقى « الغرب » و « والشرق » علي « استراتيجية واحدة » وأن اختلف « التكتيك » ، واختلفت « الأيدلوجية » !!

التقي الغرب الحاقد ، والشرق الكافر ... علي حرب الإسلام ومحاولة استئصاله ...

ـ لكن ، أني يتحقق الهدف ...

لقد نسى الغرب والشرق طبيعة الدين.

نسى الغرب والشرق أن هذا الدين صبغة الله ... ولئن فرط المخلوق فلن يفـرط الخالق .. ونسيا بعد ذلك طبائع الأشياء
نسيا أن لكل فعل رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه .
ونسيا أن السلاح الذي يكثر استعماله ويفتضح أمره ... يفل ويفشل بعد ذلك .

وبهذه الكلمات ...

أخاطب من بعد الأمة الإسلامية
شعوب هؤلاء الأعداء .. علها تملي إرادتها علي حكامها وتضع حد للعبة القذرة التي يلعبها هؤلاء الحكام عن طريق أجهزة التخابر .
إن الشعب الذي نحى « نيكسون » حرصا علي قيم يتحلي بها المجتمع الداخلي حَرِىٌّ به أن يقيم على الحق حكامه ... فيعدل بهم إلى طريق القيم في معاملة بقية الشعوب

فإن أبوا أن يعدل بهم ... فليعدل عنهم ..

أما شعوب الشرق الشيوعي ... فكم نرثي لهم ! إنهم ضحـايا .. بحاجة إلي من يحررهم من الطواغيت الجديدة الناشبة أظفارها في صدورهم الضاغطة بكلكلها علي قلوبهم ..
ويح الشعوب من ذلك الوحش الكاسر ... الذي لايعرف قيما !
ويح الشعوب من ذلك الاستعمار القاسي الذي لايعرف ربا ولا إنسانية .
ويح الشعوب من الشيوعية المجرمة ... تنشب أظفارها ، فلا تخلعها إلا أن تخلع هى ومن ورائها ... وأني للشعوب أن تلقي بذلك الدب الثقيل ... إلا أن يمدها الله برحمته وعطفه ونصره !!

ومن بعد هؤلاء وأولئك ... أخاطب القمم الرابضة علي رؤوس شعوبنا ..

ـ أنه خير لها أن تربض فوق القلوب من أن تربض فوق الرماح .. إنه خير لها أن تقف موقف الحياد إزاء شعوبها إن لم تستطع أن تنحاز إليها .

إنه خير لها ألا تنحاز لأعداء الله وأعداء شعوبها ... فإنهم يغيرونهم سريعا كما يغير الإنسان حذائه ... إذا أحس أن به بلى ، أو أحس بمجرد الحاجة إلي التغيير والتجديد !!

ـ إلي القمم الرابضة فوق الرؤوس ..

نود لها أن تربض فوق القلوب ... فوق القلوب المؤمنة وسبيلها إلي ذلك . أن تترك الإسلام ... مجرد الترك ..

إن لم تستطع الوقوف معه أو خلفه .. ولو من وراء ستار !

ـ وهي يومئذ مصونة بالقلوب

ومصونة من قبل ذلك ومن بعد ذلك بعناية الرحمن والله أكبر من كل قوة ..

والله أقدر علي كل مكر سيئ أو كيد خبيث !

والله غالب علي أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون .

القاهرة في ٤ رمضان ١٣٩٦ هـ .

تمهيـــد

١ ـ اقترنت الهجمة الصليبية على العالم الإسلامي ـ بتخطيط لغزو فكري يستهدف إيمان الأمة وإسلامها ...

ذلك أن الحروب الصليبية لم تكن كما صورها البعض مجرد حملات عسكرية تستهدف تحقيق مكاسب اقتصادية من وراء ذلك الاستعمار .. نعم .. قد يكون ذلك بعض أهدافها .. لكنها ليست بالتأكيد الهدف الأول .

فلقد كان « البابوات » ورجال الكنيسة في أوربا هم المحرضين عليها(١) ، وحملت الحملات الصليبية علي رؤسها ، واتجهت الي الأماكن المقدسة في فلسطين ، وطفح الحقد الصليبي فذبحت إحدى الحملات في بيت المقدس أكثر من سبعين ألف مسلم حتى سبحت الخيل إلى صدورها في الدماء (٢) وزاد ذلك الحقد مابلغه المد الإسلامي من سيطرة علي جنوب اوربا وعلي جزر البحر الأبيض حتى صار ذلك البحر بحيرة إسلامية خالصة ، بل بلغ حد السيطرة على مداخل القارات ، وعلى أجزاء كبيرة منها .

٢ ـ وكان الاستشراق ـ أول الغزو الفكري ـ مصاحبا لذلك الغزو العسكري ، وعمد المستشرقون إلى تشويه الإسلام من عدة نواح :

---

(١) أول من دعا إلى هذه الحروب الصليبية ـ كما يقول صاحب كتاب حاضر العالم الإسلامي ـ هو البابا سلفستر الثاني سنة ١٠٠٢ م ، لكنه لم يوفق ، ثم البابا يوغوريوس سنة ١٠٧٥ م ، لكنها تأخرت حوالي عشرين سنة حتى سنة ١٢٩٧ م ـ ثم تبعهم كثير من الكتاب والمفكرين (كتاب حاضر العالم الإسلامي ـ دار الفكر ـ الطبعة الثالثة ١٣٩١ هـ ١٩٧١ م) ، وقد كتب كارلس الثامن إلى رئيس فرسان رودس يكاشفه بما نواه من نشر الديانة المقدسة الكاثوليكية وتحرير المسيحيين ، مما هم فيه من الخنوع للأمة الجاحدة (!) واسترداد الأراضي المقدسة المغصوبة فأجابه رئيس الفرسان متمنيا مؤملا هذه المرة استئصال كافة الأمة الملعونة أمة محمد (ص ٤٦ من كتاب مائة مشروع لتقسيم تركيا تأليف المسيو دجوفار الالماني المرجع السابق ص ٢٢٨

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٨ .

- رددوا أن القرآن من وضع محمد عليه الصلاة والسلام ، وأن سذاجة الصحابة دفعتهم إلي نقله على أنه من عند الله .
- وخلطوا في المصادر الإسلامية بين المصادر الإلهية والاجتهاد ، ونظروا إلي الجميع علي أنه من صنع البشر .
- ودعوا بناء علي ذلك إلي تطوير الإسلام ، وإلى الاقتباس من المسيحية في هذا التطوير .
- ومجدوا التصوف غير الراشد لما يؤدي إليه في أكثر الأحيان من صرف أصحابه عن الجهاد .(٣)

٣ - وأعقب ذلك التبشير ، كانت بدايته مع نهاية الحروب الصليبية .(٤) وقد بقي للتبشير حتي اليوم « تكتيكه » أو وسائله ، وبقيت له « أيدلوجيته » أو فكرته لكن استراتيجيته قد تغيرت لما ظهر أن تنصير المسلمين أمر صعب ، فكان لابد من البديل ، وكان البديل هو « التغريب » أو التغيير الاجتماعي !!

ولئن جاء التبشير بديلا عن الحروب الصليبية ، فقد كان ذلك بصفة عامة ، لكن الحرب الصليبية لم تنته تماما ، بل اتخذت صورة الاستعمار .

كذلك فلئن جاء « التغريب » أو التغيير الاجتماعي بديلا عن التبشير .. فإن التبشير لم ينته ، بل لايزال يمارس حتي اليوم في أندونيسيا المسلمة ، وفي جنوب السودان !!

بل ولا يزال « استخدام القوة المسلحة » مساندة للتغريب أو التغيير الأجتماعي .. لاتزال واردة ، سواء كانت قوة مسلحة داخلية أو قوة مسلحة خارجية فإن كليهما .. يخدم أغراض القوي الخارجية ..

وبعبارة أخري لئن تأخر الغزو العسكري إلي الوراء خطواتفلقد أخذ الغزو الفكري إلي الأمام خطوات .. ولئن كان الغزو الأول يحتل منا الأرض ، إن الغزو الثاني يحتل

---

(٣) الصوفية في الإسلام للمستشرق نيكلسون ص ٧ ، ٨ ، والدكتور محمد البهى في الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

(٤) ذكر ذلك صاحب ملخص التبشير « دوين بلس » وأشار أليه «أ. ل - شاتليه » في مؤلفه الغارة على العالم الإسلامي .

منا العقل والقلب والروح .. وكلها أعز على الله وأكرم من تراب الأرض مهما غلا .

والأخطر من ذلك أن ذلك الغزو ليس واردا من جهة واحدة ، إنـه وارد من عدة جهات . من الشرق ومن الغرب ، بعد أن بدأ من جهة واحدة ، ومن ثم .. فإنه يفتح أمامنا عدة جبهات .. ويجعل المعركة أكثر تعقيدا وأصعب كسبا .

لكن ذلك كله لايخيف المؤمنين متي استمسكوا بإيمانهم والتزمـوا مفهومـه الحـق ومقتضاه الصحيح !

وقد كنا نود أن نعرض لكل مراحل الغزو الفكري ولكل تياراته المعادية للإسلام لكن ذلك الجهد قد يقصر عنه بحث مختصر نتقدم به إلي مؤتمر ..

وإذا كانت كثير من مراحل الغزو الفكري وكثير من صوره قد صارت معلومـة مكشوفة كالتبشير والاستشراق ، فإننا نكتفي فيهـا بالإشـارة السابقـة ، لنـركز علي ماينبغي كشفه للناس .

ومن ثم فإن البحث حين يتعرض للغزو الفـكري من الغـرب سوف يقتصر علي الاستراتيجية الحديثة ، وتكتيكها الحديث ليفضحه للناس .

كما أنه حين يتعرض للغزو الفكري من الشرق سوف يكتفي بأصـل الفـكرة ، « وتكتيكها » الحديث وذلك كذلك حتي نفضحه للناس .

فهذان هما الفصلان الرئيسيان لهذا البحث الذي نتقدم به إلي مؤتمر الفقه الإسلامي المنعقد بعاصمة السعودية .. محضن الرسالة المحمدية ومهبط الوحى الإلهي .

ونعقب عليهما بفصل أخير حول ردود الفعل لذلك الغزو الفكري .

الفصل الأول

الغزو الفكري من الغرب

تقـــدمة

تاريخ الغرب مع الشرق الإسلامي طويل

بدأت أحقاده ، مع المد الإسلامي الذي طرق أبواب فيينا ، وتجاوز جنوب فرنسا وجنوب إيطاليا ، وجزر البحر الأبيض .. وأطبق من شرق أوربا ومن غربها

وكان أول رد فعل حملة الحروب الصليبية ...

وصحبها الاستشراق
وتلاها التبشير

وبقى الاستعمار العسكري يعمل إلى جانب الاستعمار الفكري وإن اتسعت دائرة الأخير ...

وطور الاستعمار الفكري نفسه بعد أن وسع دائرته حتي لايصطدم صداما مباشرا مع عاطفة المسلمين ، ليسهل عليه التخفي ، ويسهل عليه الوصول إلى أهدافه .

وطور الاستعمار العسكري نفسه بعد أن صار وجوده يثير حفيظة الناس حتى غير المتدينين لبس الأردية المحلية ، ورفع الشعارات الوطنية ... وعرفه الناس فيما يسمى بالانقلابات العسكرية .

وهكذا صار الاستعمار الفكري يحتل عقول الأكثرين إلا من رحم ربي ، وصارت القوة العسكرية تمهد لذلك الاستعمار الفكري ثم تؤيده بعد ذلك ، وتعضده .

ولقد كان من بين ماأدركه الغرب الحاقد أن « الشجرة لابد أن يقطعها أحد أعضائها » وأن يكون « تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم »(٥)

---

(٥) من قرارات مؤتمر التبشير المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ في منزل الزعيم المسلم أحمد عرابي (بعد فشل الثورة العرابية ونفى أحمد عرابي) ـ الغارة على العالم الإسلامي المرجع السابق ص ٢٤ ، ص ٣٢ .

وكان من بين ماصرح به بعض كتابه « وتشترك النخبات العسكرية العربية عميقا في الاعتقاد بضرورة التغيير الاجتماعي السريع »

ويقارن بين ماتفعله هذه القوى العسكرية الوطنية ، ومافعلته القوي الأجنبية فيقول « لم تحل النخبة العسكرية الوطنية محل النخبة الأجنبية فحسب ، بل إنها تبنت بعض أساليبها السياسية أيضا .. »

ثم يكون أكثروضوحا في المقارنة بين القوى العسكرية والوطنية والقوى الاجنبية التي ورثتها في النفوذ والأهداف ، فيقول « فالنخبات الوطنية تختلف بشكل ما عن النخبات التي أخلفتها ، فهي أشد تطرفا منها ، فالنخبات الأجنبية أدخلت التغييرات الاقتصادية ، والسياسية والتعليمية التي أثرت على طرائق حياة الجمهور العادي بشكل غير مباشر . أما النخبات الوطنية فهي أقل ترددا ، إذ أنها تسعى إلي فرض التغير الاجتماعي بشكل مباشر وبمنتهى السرعة »

وعلي ذلك

فإن التغيير الاجتماعي بتغيير قيم الأمة ومثلها صار البديل عن تنصير المسلمين ، إذ يؤدي إلى إبعاد المسلمين عن دينهم وهو بديل عن ردتهم الدينية .

والتغيير السياسى .. بقوة عسكرية ـ في الأصل ـ أو بقوة سياسية : صار هو البديل عن الاستعمار أو القوة العسكرية الأجنبية لتحقيق الهدف السابق .

وهكذا صار الحديث عن الوسيلة .. والهدف لازما

الوسيلة : التغيير السياسي

الهدف : التغيير الاجتماعي

ونتناولها في مطلبين علي التوالي بمشيئة الله .

المطلب الأول

التغيير السياسي

مذ اتيح للغرب الصليبي أن يتسلط على الشرق الإسلامي ، صار يحدث التغيير السياسي اللازم لبقاء سيطرته أولا ، ثم لتحقيق الهدف من هذه السيطرة ثانيا ، فكان :

أحتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ ، ولتونس سنة ١٨٨١ ، ومراكش سنة ١٩١٢ ، وللشام سنة ١٩٢٠ ، وكان احتلال بريطانيا سنة ١٨٥٧ للهند إيذانا بزوال إحدى الدول الإسلامية الكبرى التي قامت في مستهل القرن التاسع عشر ، وأحتلالها لمصر سنة ١٨٨٢ ، وللعراق سنة ١٩١٤ ، ولفلسطين سنة ١٩٢٠ .

ولم يكن ذلك التوزيع وليد الصدفة ، فلقد كشف الاتفاق الودي المنعقد بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ عن جانب من سياسة تقطيع أوصال العالم الإسلامي .

وصحب ذلك التقسيم إثارة القوميات المختلفة كالقومية الطورانية في تركيا ، والقومية العربية في البلاد العربية ، حتى اقتتل المسلمون تحت قيادة النصارى باسم القومية والتحرير ... !!!

كذلك صحب ذلك دعوة خبيثة إلى العلمانية ، بمعنى فصل الدين عن الدولة ـ تبنتها جماعات كثيرة مشبوهة الصلاة والأهداف من أمثال حزب الاتحاد والترقي في تركيا ، والذى كانت من قياداته قيادات يهودية من يهود « الدونمة » .

وتبع ذلك

مارسم له أعداء الإســـــلام من قبل ، حين عقدوا أكثر من مؤتمر للنظر في المسألة الشرقية ، وقد كانت في البداية تعنى رد الزحف الإسلامي الذي كانت تقوده تركيا على أوربا ، ثم لما توقف المد ، انتقل البحث إلى كيفية تقطيع أوصال الخلافة .. ثم القضاء علي الخلافة بعد ذلك .

ومهما يكن من أمر الأخطاء التي وقع فيها سلاطين تركيا ، وفي مقدمتها أنها جعلت عضلاتها أقوى من عقلها ...

ومهما يكن من أمر المظالم التي ارتكبها سلاطين تركيا ، وفي مقدمتها التفرقة الظالمة بين بني الدين الواحد ،وتميز الأتراك على غيرهم من بني الأوطان الأخرى ...

مهما يكن من هذه وتلك ـ مما نسجله ونحذر منه ـ فلقد كانت الخلافة تظل المسلمين وتجمع شملهم ، وترهب عدو الله وعدوهم ..

من أجل ذلك لم يكتف أعداء الإسلام بتقطيع أوصال دولة الخلافة ، بل جاوزا ذلك إلى القضاء على الخلافة نفسها ، ومنع قيامها بعد ذلك في أى قطر أو وطن إسلامي آخر !!!

وسواء كان ما ارتكبه مصطفى كمال ـ الشهير بأتاتورك ـ كان بحسن نية ، كرد فعل لأحداث ذلك الحين التي خطط لها أعداء الإسلام بما دفع أتاتورك إلى إلغاء الخلافة ، أو كان بسوء نية استجابة للتخطيط اليهودى الصليبي الذي تبدي فيما ذكره كاتب روسى سنة ١٩٠٢ ، بعدما طالع بروتوكالات حكماء صهيون من أنه لابد للأفعي اليهودية من أن تمر بالقسطنطينية لتصل إلى فلسطين (٦) ، وما أعقب ذلك من محاولة زعيم يهودي رشوة السلطان عبد الحميد لمنح فلسطين وطنا قوميا لليهود وبصق الخليفة المسلم في وجهه (٧) ، وتم توعد اليهودي للخليفة ، وخلع الخليفة بعد ذلك بقرار حمله ثلاثة اثنان منهم من اليهود (٨) ، ثم ما أعقب ذلك من إعلان وعد بلفور سنة ١٩١٧. ، من جانب وزير الخارجية البريطانية ، بمنح فلسطين وطنا قوميا لليهود ، وما تم من هجرة لليهود في ظل الانتداب البريطاني ، وانسحاب بريطانيا سنة ١٩٤٨ من فلسطين ، ليتمكن منها اليهود بعد ذلك ، واتفاق المعسكرين الشيوعي والرأسمالي علي الاعتراف بإسرائيل وتدعيمها ، الأمر الذي لايزال حتي اليوم باديا : فروسيا تمد إسرائيل بالقوة البشرية والقوة العقلية ، وأمريكا تمدها بالقوة العسكرية والقوة التكنولوجية .

---

(٦) هو الكاتب اليهودي سرجي نيلوس ـ راجع الخطر اليهودي لمحمد خليفة التونسي الطبعة الرابعة ، وفي مجال التقييم العلمي لبروتوكولات حكماء صهيون ، فان البروتوكولات منقطعة في سلسلة اتصالها باليهود ، مما قد يشكك في نسبتها إليهم لكنها من ناحية أخري قد تأكد ماجاء فيها بالاحداث التي جاءت بعد ذلك مما قد يجعلنا أمام ماقد يسمى (بالحقائق المسلمة) ، وهو مايمكن بلغتنا الشرعية أن نقوله .. أنه أذا كان ثمة ضعف في السند فان المتن يفيد صحة النسبة بما تأيد بعد ذلك من أحداث

(راجع مذكراتنا لطلبة السنة النهائية بجامعة الرياض ـ « اتجاهات النهضة والتغيير في العالم الإسلامي)

(٧) المشروعية الإسلامية العليا ـ رسالة دكتوراه للمؤلف .

(٨) اتجاهات النهضة والتغيير في العالم الإسلامي « للمؤلف » .

كل ذلك أو بعضه قد يثير أو يشير إلى أن خطوة أتاتورك بإلغاء الخلافة لم تكن عن حسن نيته ابتغاء المصلحة الوطنية لتركيا ، خاصة إذا أضيف إليها ماقيل عن شروط كيرزون لمنح تركيا الاستقلال ومن بينها إلغاء الخلافة الإسلامية (٩)

نقول سواء كانت جريمة أتاتورك بحسن نية أو بسوء نية ، فلقد حققت لأعداء الإسلام مايبغونه ، من نقض عرى الاسلام التي أولها الحكم ، وآخرها الصلاة .

وكان المقصود أن تقف الحملة الضارية علي الإسلام والمسلمين عند حد تقطيع دولة الخلافة والقضاء عليها ، لكن الصليبيين وعوا من الإسلام درسا هاما عن الإسلام والمسلمين ، وهو ماصرح به أحدهم من أن صحوة الإسلام تتم بسرعة ، وماصرح به بعضهم من أن المسلمين أشد خطورة عليهم من اليهود والبلاشفة والشعوب الصفراء(١٠) .

---

(٩) المرجع السابق .

(١٠) مذكراتنا لطلبة جامعة الرياض ، وقد أشرنا فيها إلى بعض النقول :
- فيها ماكتبته إحدى المجلات الأمريكية تحت عنوان :
محمد يتهيأ للعودة
المسلمون رقدوا ٥٠٠ سنة ، ويتحركون الآن ، ويتوثبون للسلطان ..
- ومنها ماقاله لورانس براون :
كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي والخطر الأصفر وبالخطر البلشفي إلا أن هذا التخوف لم نجده كما تخيلناه :
لأننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا !!
وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد !!
ثم رأينا البلاشفة خلفاء لنا أثناء الحرب الثانية (!)
أما الصفر (اليابان والصين) فإن هناك دولا ديمقراطية كبرى تتكفل بمقاومتها !!
ولكن الخطر الحقيقى :
كان في المسلمين ، وفي قدرتهم على التوسع والإخضاع ، وفي الحيوية المدهشة العنيفة التى يمتلكونها .

وفي كلمة لمسئول فرنسي سنة ١٩٥٢
ليست الشيوعية خطرا على أوربا - فيما يبدو لي -
=

وبغض النظر عن مدي صحة ماقرره أولئك من خطر الإسلام والمسلمين عليهم فإن هذا هو الذي شكل تفكيرهم ، وكان الباعث وراء تصرفاتهم بعد ذلك .

وفي منتصف القرن العشرين ، في الخمسينات على وجه التحديد ، قررت الولايات المتحدة الأمريكية أن ترث النفوذين البريطاني والفرنسي في المنطقة لتحقق نفس الأهداف التي كان يحققها هذان النفوذان

لكن إن اتفقت الولايات المتحدة مع بريطانيا وفرنسا في الاستراتيجية والأهداف فلقد اختلفت معها في التكتيك والأسلوب ، ومارست الولايات المتحدة - في مهارة - مايسمي بلعبة الأمم ، تحقيقا لأهدافها ، وكان أهم أساليبها في ذلك الانقلابات العسكرية التي تصنع عن طريقها « البطل » أو « الزعيم » الذي تتعلق به آمال الأمة ، فيمتص بذلك مايمور في باطنها ، وماكان يمكن أن يؤدي إلي ثورة في غير صالحها ، وينحرف بهذه القوة الموارة داخل الشعوب عن أهدافها التي تتحقق فيها مصالح الغرب (١١) .

إن الخطر الحقيقى الذي يهددنا تهديدامباشرا عنيفا هو الخطر الإسلامي والمسلمون عالم مستقل كل الأستقلال عن عالمنا الغربي ، فهم يملكون تراثهم الروحي الخاص ، ويتمتعون بحضارة تاريخية ذات أصالة ، وهم جديرون أن يقيموا بها قواعد عالم جديد دون حاجتهم إلى الاستغراب ، وفرصتهم في تحقيق أحلامهم هى اكتساب التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب

راجع :

- لم هذا الرعب كله من الاسلام ؟ - الأستاذ جودت سعيد
- الخطر الصهيوني علي العالم الإسلامي - الأستاذ ماجد الكيلاني
- الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر - الدكتور محمد حسين
- ويقول بيير كيللر في كتابه عن القضية العربية : إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شئ مصالح روحية ، وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة ، وحددت هذه المعاهدات على مر القرون ، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق (القضايا العربية في نظر الغرب - ص ١١٩ ، وراجع الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٢٤)

(١١) يشير مايلز كوبلاند - مندوب المخابرات المركزية الأمريكية في الشرق الأوسط في كتابه - لعبة الأمم - إلى هذه الحقائق حين يقرر :

وتعتقد الولايات المتحدة ـ بحق ـ أن أولئك العسكريين أقدر من جيوش الاحتلال الأجنبي على تحقيق الأهداف المطلوبة ، وأكثر سرعة في الوصول إليها[١٢]

بيد أن الانقلاب العسكري ليس الأسلوب الوحيد للتغيير السياسي[١٣]

أ ـ « لقد كان من المفهوم في التقارير والوثائق السرية للحكومة الأمريكية في أوائل عام ١٩٤٧ ، أن دبلوماسيتنا وأجهزة مخابرتنا بالحالة التى كانت عليها في ذلك الوقت يجب أن تعمل لإحداث تغييرات في قيادات بعض دول الشرق الأوسط

ويشير المؤلف في الفصل الثاني من كتابه إلى حضور السفير البريطاني إلى وزارة الخارجية الامريكية لابلاغها بقرار الحكومة البريطانية إلى وزارة الخارجية الامريكية لابلاغها بقرار الحكومة البريطانية وقف مساعدتها لحكومتى تركيا واليونان ، ويفسر ذلك بأن معناه انسحاب بريطانيا من الشرق الأوسط ، وضرورة « حلول » أمريكا محلها في المنطقة « لملء الفراغ » !!!

ب ـ على العموم فأن ماكنا نحاوله هو ملء الفراغ الناتج عن انسحاب بريطانيا من اليونان وتركيا ـ هذا الفراغ الذي يشمل كم قلنا من قبل جميع منطقة الشرق الأوسط » ص ٢٨ .

ثم يشير المؤلف إلى قرار وزير الخارجية الأمريكية دين أنشيسون بالتدخل ولو بالأساليب غير النظيفة .

جـ ـ « ونتيجة لذلك فإنه في نهاية عام ١٩٥١ ، قرر تشكيل لجنة جزاء سرية لدراسة العالم العربي فيما يتعلق علي الخصوص بالنزاع العربي الاسرائيلي لاستعراض المشكلات ، واقتراح الحلول ، سواء كانت تتفق مع اساليب العمل الحكومي النظيف/أم لا ص ٤٨ .

ويشير بعد ذلك إلى تدخلهم في انقلاب حسني الزعيم (ص ٤٢) فى سوريا والدروس التي استفادوها منه ، ثم استعدادهم للعملية الكبرى في مصر .

د ـ « كان روزفلت غير واثق من الانقلابات العسكرية بعد أن رأى ماأدت إليه في سوريا من فوضى ، ولكنه وافق على أن يقابل الضباط الذين قدمتهم له المخابرات المركزية الاميركية على أنهم زعماء التنظيم السري العسكري الذي يدبر انقلابا عسكريا ص ٥٣ .

ثم يشير إلى أن من أهداف الانقلاب

هـ ـ « استبعاد الثورة الشعبية التي يسعى لها بجد الأخولن المسلمون (ص ٥٤ س ١٥ ، ٥٩ س٢) وللتمويه يضيف « والشيوعيون »

(١٢) مورو بيرجر ـ العالم العربي اليوم ص ٣٠٦ ، ٣١٢ .

(١٣) من أمثلة الانقلابات العسكرية التى يشير إليها الكتاب الامريكيون :

سوريا منذ عام ١٩٤٩	،	مصر منذ عام ١٩٥٢
السودان منذ عام ١٩٥٧	،	العراق منذ عام ١٩٥٨

إن ذلك التغيير - كما حدث في بعض بلاد المنطقة - تم بغير حاجة إلي انقلاب عسكري ، وذلك في النظم والبلاد التي لم تقو فيها بعد شوكة الجيش أو حدث فيها « عصبيات » تحول دون تمام التغيير عن طريق الجيش .

كذلك تم أحيانا بالاغتيال السياسي ليتحقق مع التغيير « الردع » الذي يتطلبه الأمر أحيانا - من وجهة نظرهم - إذا حاد الحاكم عن الطريق الذي رسموه ، أو حاول أن يختط سياسة أكثر استقلالا تمس مصالحهم أو تهددها .

ووقائع هذا اللون من التغيير ، لاتحتاج إلي تدليل ، إذا لمسها الناس في ماض قريب ، فضلا عن أن « الكونجرس » الأمريكي يحقق في وقائع الأغتيال السياسي الذي قامت به المخابرات المركزية الأمريكية (١٤) .

= باكستان منذ عام ١٩٥٩ ، إيران منذ عام ١٩٢٠

ويشير مورو بيرجر إلى أن الاخيرة حكمها دكتاتور أسس عهدا لايزال متحالفا مع العسكريين .

ويشير كذلك إلى خضوع تركيا للحكم العسكري (الذي أسقط الخلافة الإسلامية) في أعقاب الحرب العالمية الأولى .. ثم يشير إلى عودة الحكم العسكري منذ سنة ١٩٦١ (بعد أن ظهرت بوادر اتجاهات إسلامية قوية يعمل لها حساب)

وعن مجلة يونايتد ستيتس نيوز - نقلت مجلة العصر الحديث ٦ - ١٢ يولية سنة ١٩٧٦ مقالا عن التدريب العسكري للقوات الاجنبية في الولايات المتحدة جاء فيه

« إنه في هذا العام سيكون هناك ١٨ ألفا منهم ينتمون إلى ٦٩ - دولة ، وسوف يتدربون في كل قاعدة هامة تقريبا . في - الولايات المتحدة ، ويقولون إن للتعليم الايديلوجي وأسلوب الحياة الأمريكي أثره الإيجابي على الذين يتلقون التدريب ، وقد نقلت المجلة الاسبوعية عن أحد المسئولين التصريح التالي :

« لقد وجدنا أن الضابط الشاب الذي ندربه اليوم سيقود بلاده إلى الغد »

(١٤) ونشير إلى أن ثمة وسائل أخرى لهذا التغيير أكثر ضراوة وأشد خسائر هى الحروب .. ليست التى تشنها بعض الدول الاستعمارية كما كان ذلك قبلا ولكن تلك التى تشنها بعض الدول الإسلامية على بعض أو بعض فئاتها على بعض ومثل ذلك القريب حرب بنجلاديش مع باكستان ، والتي أسفرت عن تمزيق أكبر دولة إسلامية في العصر الحديث إلى جزئين ضعيفين .. كلاهما اليوم يعتمد على المعونة الخارجية . والمثل الدامي الجاري تلك الحرب الأهلية داخل لبنان ، والتي تدخلت فيها سوريا لتتم « الطبخة » المعدة لتسوية دائمة في الشرق الأوسط طبعا لصالح إسرائيل !!

وحسبنا من الحديث عن التغيير السياسي هذه الإشارة التي توضح « الأسلوب » أو التكتيك الحديث الذي حل محل الحروب الصليبية ، والاستعمار ، أو باستعارة عبارة أحدهم حيث حلت « النخبات العسكرية » محل « النخبات الأجنبية » لتحقق نفس الأهداف ـ نقول حسبنا من الحديث عن التغيير السياسي هذه الإشارة ، وإن كان فيهم هذا الأسلوب الجديد بحاجة إلي مزيد من الاطلاع والبحث نحيل إليه في مراجعة (١٥) لننتقل إلي الحديث عن الهدف من ذلك التغيير .

---

(١٥) راجع في ذلك :

١ ـ اتجاهات النهضة والتغيير في العالم الإسلامي ـ مذكرات لطلبة ـ جامعة الرياض سنة ١٣٩٦ هـ .

٢ ـ أندروتللي ـ في كتابه هيئة المخابرات المركزية الأمريكية .

٣ ـ في كتابه لعبة الأمم أو الشعوب .

٤ ـ الدكتور محمد صادق (وهو أسم مستعار لكاتب مصري) في كتابه الدبلوماسية والمكيافيلية في العلاقات العربية الأمريكية خلال عشرين عاما ١٩٤٧ ـ ١٩٦٧ دراسة وتحليل حول كتاب لعبة الشعوب.

٥ ـ مورو بيرجر ـ في كتابه العالم العربي اليوم .

المطلب الثاني

التغيير الاجتماعي

مايبغي الغرب منا ... ؟

في البداية ، كان الهدف واضحا : إخراج المسلمين من دينهم وإدخالهم إلي دين آخر - كما وضح من كلام المبشرين .

ثم لما صارت عملية « التنصير » بلغة الأرقام صعبة إن لم - تكن مستحيلة بين الشعوب التي تدين بالإسلام :

اقتصرت العملية علي الجزء الأول منها وهو إخراج المسلمين من دينهم وكانت الوسائل إلي ذلك هي نفس الوسائل « وسائل التبشير » الأولى التي كانت تقوم بالشقين : الإخراج من الإسلام ، والإدخال في الدين الآخر

ونجحت الخطة الثانية ، ولاتزال تعمل في كثير من البقاع الإسلامية .

ثم كانت الخطة الثالثة التي لاتذهب إلى عملية الإخراج من الدين تماما ، ولكنها تكتفي بالإبعاد عن الدين ، من غير استعمال لفظ الإبعاد حتى لا يستثير حفيظة المسلمين أو تنبيههم إلى حقيقة الهدف

وكانت وسائل التبشير بالأولى هي التي تستعمل لتحقيق الهدف الجديد ، مع تطوير فيها يجعلها أكثر نعومة ، وأكثر فاعلية .

إذن ، فالهدف هو إبعاد المسلمين عن الإسلام ، باعتبار الخطر الكامن في ذلك الإسلام - كما يتصور الغرب أو يتوهم - وقد كانت الإشارة إلي هذا الهدف تحت اصطلاحات أكثر تهذيبا مثل التغريب أو التغيير الاجتماعي (١٦) .

---

(١٦) راجع في ذلك كتاب : الحضارة الغربية للدكتور محمد حسين
وكتاب : العالم العربي اليوم - للكاتب الأمريكي مورو بيرجر

« إن النخبة العسكرية في الشرق الأدني في مصر والسودان ، والعراق وتركيا وإيران وباكستان كانت عوامل هامة في جلب التغيير الاجتماعي » .

«وتشترك النخبات العسكرية العربية عميقاً فى الأعتقاد بضرورة التغيير الاجتماعى السريع »

« أما الآن ، فقد قبلت التأثيرات الغربية في الشرق الأدني إلي درجة تجعل من الصعب التحقيق من أن أمرا ما قد ذهب أو لم يذهب إلي أوربا أصلا ، فقد أصبح العرب « متغربين » بدون أن يتكلفوا عبء الذهاب إلي أوربا

« فبينما يترك الحكام الغربيون منطقة الشرق الأدني ، تتحول هذه المنطقة فتصبح أكثر غربية ، ويواجه الزعماء العرب طريقين :

فهم يطردون الغرب سياسيا ، ويسحبون الكتل الشعبية إلي الغرب ثقافيا »(١٧)

التغيير الاجتماعي إذن .. يعني تغيير قيم الأمة ومثلها .. تغيير ثقافتها وأخلاقهاوعقيدتها ... وبعبارة واضحة ... إبعاد المسلمين عن دينهم .

والتغيير الاجتماعي ، قد يسمي التغريب .... وقد يسمونه المدنية أو التطور أو التقدم

« وأيا ما كانت الحال فلن يكون هناك سبيل إلي التراجع إن العمل يسير بجد ونشاط في إدخال المدنية الغربية إلى مصر » .

« وهو يأخذ طريقه بتقدم ونجاح حسب خطة مرسومة ، وصنعت خطوطها بعد دراسة الموقف .. تقوم على التطور والتدرج »(١٨)

(١٧) راجع مورو بيرجر في العالم العربي اليوم صفحات ٣٠٦ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٨ .

(١٨) الفقرة الثالثة من تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٦ ص ٨ من النسخة الانجليزية .

وواضح أن التغريب ، أو التغيير الاجتماعي الذي كان يجري علي أيدي المحتلين والمستعمرين ، صار يجري اليوم - في أكثر الأحوال - علي أيدي « النخبات الوطنية » التي هي في أكثر الأحيان « عسكرية »(١٩)

هذا هو الهدف ... التغيير الاجتماعي الذي يعني في الحقيقة .... إبعاد الأمة عن دينها في شتى نواحي الدين التي تشمل نواحي الدنيا .

ولكن لهذا الهدف وسيلة أو وسائل وأساليب هي التي تمثل « التكتيك » الجديد للغزو الفكري للغرب .

ويحسن أن نعرضها في مطلب مستقل .

---

(١٩) يشير الكاتب الأمريكي مورو بيرجر إلى تقرير لزعيم مصرى جاء فيه :

« إن الضباط كانوا علمانيين (ستعرف معنى العلمانية في الصفحات القليلة القادمة) يتوقون إلى بث التعاصر في مصر متماشين مع الخط الغربي التكنولوجي ...

ولم يكن الضباط على ثبات أيديولجي ، بل كانوا جماعة علمانية في البناء السياسي والاجتماعي للحياة المصرية « ص ٣١٣ ، ٣١٤ من المرجع المذكور »

ويضيف الكاتب الأمريكي أن معيار ذلك الزعيم في الضابط الكفء ، هو استنتاجا على الأقل تعرفه إلى الغرب « وينقل الزعيم مدحا لرئيس هيئة أركان الجيش المصري في الحرب العالمية الثانية في شأن أحد هؤلاء الضباط : « كان متقبلا للأفكار الحديثة لكثرة زياراته لفرنسا وانجلترا وألمانيا ص ٣١٠ من الكتاب المذكور العالم العربي اليوم للكاتب الأمريكي مورو بيرجر . »

المطلب الثالث
أساليب التغيير الاجتماعي
« أو التغريب »

يتخذ « التكتيك » لإحداث التغيير الاجتماعي الذي يبعد الأمة الإسلامية عن إسلامها ... يتخذ « استراتيجية » طويلة المدى حتى لاتحس الأمة الإسلامية بالهدف البعيد ، بل قد لاتحس بالأسلوب الذي يجري به التغيير وكأن هذا التغيير يتم تلقائيا .

وأهم مافى هذه الاستراتيجية من تخطيط : أن يتخذوا لهدفهم رسولا منا «من انفسهم» ، «وأن يقطع الشجرة أحد أعضائها» الأمر الذى يجرى فى التغيير السياسى سواء عن طريق الأنقلاب العسكرى ، أو الاغتيال السياسى ، أو التغيير الداخلى السلمى ، ويجرى كذلك فى التغيير الاجتماعى بالأساليب التى تشير إليها .

يلي ذلك أنهم يخاطبون بهؤلاء الأعضاء .. يخاطبون بهم فكر الأمة وعقيدتها ، ومن ثم يجري التغيير أول ما يجري داخل العقول والقلوب ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى مجال الأخلاق والتقاليد والعادات ، ويبلغ الأهتمام بإحداث التغيير إلى أدني مظاهره ، كأكل الطعام باليد اليسري ،وإلقاء التحية بغير تحية الإسلام !!

ولولا كتابات كتبها مفكروهم لتوجيههم إلى أحسن الوسائل لبلوغ أسوأ الأهداف وأخبثها ماأستطعنا أن نعرف شيئا عن « استراتيجية » الغرب أو تكتيكه .. قبل هذه الأمة المسلمة بل قبل ذلك ... لولا فضل الله ورحمته ... لانتهت هذه الأمة بنتيجة ذلك التخطيط العميق والتنفيذ الدقيق لإبعاد الأمة عن دينها !!!

وإذا كانت أساليب التغيير الاجتماعي تتجه إلي فكر الأمة وعقلها ، ثم إلي عقيدتها وقلبها فإنها تعتمد علي وسائل الإقناع المختلفة ، وتخطط لها تخطيطا علميا يقوم عليه علماء النفس وعلماء الاجتماع .. فوق أجهزة التخابر والإحصاء المختلفة .

ويسير التخطيط على جعل وسائل الإقناع المختلفة في أيدي غير المستمسكين بالدين ، فإذا أفلت متدين إلي هذه الوسائل أحاطته بوسائل الإغراء والاحتواء المختلفة حتي تنحرف به عن السبيل القويم .

وتحت شعارات : العلمانية ، والقومية ، وتحرير المرأة .. تجري وسائل الإقناع المختلفة تحقيق إبعاد الأمة عن دينها ..

ونحاول بمشيئة الله بحث هذه الثلاثة لنتبين كيف يجري بها إبعاد الأمة عن دينها .

أولا : العلمانية ..

معني العلمانية

قد تشعر الكلمة في اشتقاقها أنها تعني رفع شعار العلم ، ومن ثم فلا تعارض بينها وبين الإسلام ، بل إنها أحدي وسائل الإسلام وبعض أهدافه !

وهو مانحسب أنهم قصدوا إليه حين ترجموا معني الكلمة في لغتها .. ليقع المسلمون ... في هذا الوهم !!

إن العلمانية ترجمة للكلمة الانجليزية *Secularity* وهذه اشتقاق من *Secular* وهي مرادفة للكلمة الانجليزية *Unreligous* أي لاديني أو غير ديني ، ومن ثم كانت العلمانية تعني اللادينية !!!

ومن هنا نفهم إعلان البعض عن قيام دولة علمانية ، أو عن رغبة البعض الآخر في ذلك !

ونفهم سر اختيار الكلمة ... إنها تعبر عن المقصود ، دون أن تصدم المشاعر والأحاسيس !

ولنا أن نتصور الفارق بين الإعلان عن دولة علمانية أو الإعلان عن دولة لادينية !

من هنا نحس خبث ترجمة الكلمة إلي لفظ العلمانية ، ونحس خبث الذين يستعملون هذا اللفظ دون اللفظ الكاشف عن المعني المقصود .. ونحس ـ مع هذا كله ـ بواجبنا لتعرية هذا اللفظ الخبيث وإظهاره علي حقيقته !

العلمانية .. بين الغرب والشرق

لم يكن غريبا في الغرب أن تجد العلمانية مكانها ، فقد فرضت ذلك ظروف الغرب ، نتيجة تسلط الكنيسة وتحالفها مع الظالمين علي شعوب الغرب المختلفة ، ووقوفها في وجه كل تفتح فكري أو كشف علمي .

... وتجاوزها ذلك الحجر علي العقول إلي حجر أخطر على القلوب .. حين فرضت صكوك الغفران وقرارات الحرمان ، وراحت تتاجر بها وتتخذها وسيلة للكسب الحرام !!! وغرقت أوربا في دماء ضحايا الكنيسة ... حيث سقط المئات بل الآلاف ... تحت مقاصل محاكم التفتيش ومشانقها ... غير من غيبوا في غياهب السجون !!!

... وإذا كان سنة الله في الكون أن لكل فعل رد فعل مساويا له في القوة ومضاداً له في الاتجاه ، فلقد وقع الصراع صراع العلم مع الكنيسة وانتهى بإعلان العلمانية التي تعني فصل الدين عن الدولة ، وتقلص سلطان الكنيسة داخل جدرانها ... !!

وفضلا عن أن ظروف أوربا التاريخية كانت تبرر انتشار العلمانية وفصل الدين عن الدولة ، فلقد كانت ظروف الديانة المسيحية ـ بعدما أدخل عليها من تحريف كان اليهود وراء أكثره ـ كانت ظروف الديانة المسيحية تسمح كذلك بوجود علمانية إلى جانب الدين .

وليس غريبا بعد ذلك أن يكون اليهود وراء فصل الدين عن الدولة ـ كما صرح بذلك كاتب أمريكي ـ(٢٠) بغية القضاء علي بقايا الدين الذي حرفوه .. بتعطيله وحبسه عن المجتمع داخل جدران الكنيسة .. !

وليس غريبا بعد ذلك أن نسمع عن أن الدين الذي حبس داخل جدران الكنيسة قد جري فيه التطوير ، حتي صارت الصلاة تؤدي علي أنغام الموسيقي ، ثم تعقبها حفلات الرقص بين الجنسين تحت الأضواء الخافته الحالمة ، وبين الألحان الدافئة والساخنة ... تحت سمع وبصر رجال الدين ، بل تحت « رعايتهم » و « توجيههم » السديد !!!

وكانت أوربا قد بلغت في التقدم العلمي « التكنولوجي » درجة جعلتها ـ ولو إلى حين ـ تستطيع أن تقيم نهضة مادية بهرت الناس في أكثر الأحيان

وحين أريد .. نقل العلمانية إلي الشرق الإسلامي غفل المسخرون ـ عن علم أو عن جهل ـ غفلوا عن هذه الظروف جميعا ، غفلوا عن أنه ليس في ظروف الشرق الإسلامي التاريخي مايبرر فصل الدين عن الدولة ، فلم يكن ثمة اضطهاد من رجال الدين الإسلامي ـ إذا صح التعبير للمقابلة مع رجال الكنيسة ـ لم يقع اضطهاد من علماء المسلمين ... للعلم أو للعلماء ...

---

(٢٠) وليام غاى كار في كتابه : أحجار على رقعة الشطرنج .

ولم يكن في تاريخنا الإسلامي محاكم تفتيش ، ولا صكوك غفران وقرارات حرمان . والذين انحرفوا من العلماء عن جادة السبيل إلى ممالأة الحكام لفظتهم الأمة وجعلتهم وراء ظهورها ... والذين كانوا لسان صدق حملتهم في حنايا صدورها ، وقدمتهم في أول صفوفها .. !!

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بالفصل بين الدين والدولة ، لأن الدولة - في فقه الإسلام - قسم للدين لاقسيم ، فلا دين بغير دولة ، ولا دولة بغير دين !

كذلك لم تكن الديانة الإسلامية لتسمح بقيام العلمانية إلى جوار الإسلام .. بمقولة إن الإسلام يبقى داخل دائرة العقيدة والشعيرة ، وتعمل العلمانية في دائرة الشريعة لأن الإسلام عقيدة وشعيرة وشريعة ... وهو في هذا لايقبل التجزئة ولا التفرقة ... ، ولايرضى أن يكون مع الله أرباب آخرون ، أو حتى قياصرة يدين لهم الناس في مجال الشريعة كما يدينون لله في مجال العقيدة والشعيرة !!!

كذلك مع التسليم جدلا بصحة نظرة الغرب التي اعتنقها الحاقدون أو الجاهلون في الشرق الإسلامي - فلم يكن الشرق الإسلامي قد وقف على قدميه وبلغ التطور العلمي والتكنولوجي الذي بلغه الغرب ، ليطرح الدين جانبا ويرفع شعار العلمانية .

ومن ثم حرم الشرق الدين كما حرم الدينا ، وارتضي قشورا تورثه الترف والدعة ، وتبعده كثيرا عن الجد والجهاد والعمل !!!

وسائل نشر العلمانية :

حرص الغرب منذ وطئت أقدامه التراب الإسلامي علي نشر العلمانية بأكثر من سبيل ، وحين ورثت النخبات الأجنبية « النخبات الوطنية » مكان السلطة وبوأتها كراسيها حرصت على زيادة العلمانية في كل الوسائل ، ووضعت خبراتها « العلمية » والتكنولوجية لتحقيق هذه الغاية .

ومن ثم فلم يكن غريباً أن نسمع عن بلاد إسلامية متخلفة من الدرجة الثالثة أو الرابعة ... تدخل فيها «التلفزيون»، قبل أن تمحو من أبنائها الأمية التي تربو على الثمانين أو التسعين في المائة .. بل إننا نسمع عن إدخال التليفزيون الملون في بلاد متخلفة جدا، واحيانا فقيرة جدا.

أما مجالات نشر العلمانية ووسائلها فقد كانت :

أولا : التعليم

ثانيا : الإعلام .. صحافة ، إذاعة ، وتليفزيون ، وسينما ، ومؤلفات .

ثالثا : القانون .

ويحسن أن نعرض لكل بكلمة

أولا : التعليم

كان التعليم « اقدم » الوسائل لنشر العلمانية ، ولايزال أهمها وذلك أن التعليم في الشرق الإسلامي كان يقوم علي المنهج الديني ، ومن ثم يؤدي إلي أخراج العقلية المسلمة ...والشخصية المسلمة ولم يكن من الممكن إبعاد المسلمين عن دينهم مع بقاء التعليم على أساس من المنهج الديني .

وكان أول من تنبه لذلك اللورد كرومر ومستشاروه الإنجليز ، فكان قول كرومر : « أن التعليم الوطني عندما قدم الانجليز إلى مصر كان في قبضة الجامعة الأزهرية الشديدة التمسك بالدين ، والتي كانت أساليبها الجافة القديمة (!) تقف حاجزا في طريق أي إصلاح تعليمي (!!!) ، وكان الطلبة الذين يتخرجون في هذه الجامعة يحملون معهم قدرا عظيما من غرور التعصب الديني (!!) ولايصيبون إلا قدرا ضئيلا من مرونة التفكير والتقدير (!!!)

فلو أمكن تطوير الأزهر عن طريق حركة تنبعث من داخله لكانت هذه خطوة جليلة الخطر ، ولكن إذا بدا أن مثل هذا الأمل غير متيسر تحقيقه ، فحينئذ يصبح الأمل محصورا في إصلاح التعليم اللاديني الذي ينافس الأزهر حتى يتاح له الانتشار والنجاح ... وعند ذلك فسوف يجد الأزهر نفسه أمام أحد أمرين : فإما أن يتطور ، وإما أن يموت ويختفي (٢١)

ومن ثم سارت علمانية التعليم علي قدمين .. بناء علي هذه السياسة الخبيثة :

قدم تُضَيقُ فى مجال التعليم الديني

بتضييق الفرص أمام خريجيه، وبقصرهم على وظائف ميتة ، وابعاد المناصب الحساسة والوظائف الهامة عن متناولهم(٢٢) بل بالتفرقة بين خريجي الجامعة وخريجي الأزهر في المرتب والميزات المادية ، وصحب ذلك السخرية من خريجي المعاهد الدينية والتهكم عليهم .. تارة على زيهم ، وتارة أخرى على تصرفاتهم وبعدهم عن اللباقة واللياقة ، وطريقة تحدثهم وإخراجهم لألفاظ لغة القرآن !!

وامتد التضييق على التعليم الديني داخل معاهد التعليم العلماني ، فإنه لم يكن من الممكن إلغاء مناهج الدين داخلها ، فاقتصر الأمر على الإقلال من أهميتها إلى جوار العلوم الأخري ، وإلى الإقلال من أهمية وشخصية مدرسيها .. مما يورث النشئ عدم الاكتراث بالدين ، وعدم التوقير لاساتذته وعلمائه ... إلى جوار المنهج العام للسخرية والاستهزاء بالنكتة اللاذعة ، والكاريكاتير الساخر ...الخ ..

(٢١) وعلى نفس المنوال : كان من أهم مابحثه مؤتمر التبشير المنعقد في القاهرة سنة ١٩٠٦ مسألة الأزهر (أو التعليم الديني) حيث نص فيه أن باب التعليم فيه مفتوح للجميع ، وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا (الغارة على العالم الإسلامي تأليف شاتلييه)

(٢٢) راجع تقرير كرومر سنة ١٩٠٦ (الفقرة ٣ ص ٨) وراجع كذلك Modern Egypt ٢ :٢٢٩ ، حيث يدعو كرومر صراحة إلى تمكين الطائفة المثقفة ثقافة أوربية من المناصب المسئولة عن التوجيه السياسي والاجتماعي ـ (الدكتور محمد محمد حسين) الاتجاهات الوطنية جـ ١ ص ٢٧٥

أما القدم الأخرى فكانت لتوسيع دائرة التعليم اللاديني ونشره علي نحو مارسه كرومر وأمثاله ، وما صرح به غير كرومر من أمثال المستشرق جب « وفي أثناء الجزء الأخير من القرن التاسع عشر ، نفذت هذه الخطة لأبعد من ذلك بإنماء التعليم العلماني تحت الإشراف الانجليزي في مصر والهند » (٢٣) .

وإلى جوار الوسائل التي أشرنا إليها عند الكلام عن تضييق مجال التعليم الديني :

كانت البعثات إلى أوربا تقوم بأكبر دور في نشر العلمانية ، حتى لقد أحدثت تأثيرها علي بعض خريجي المعاهد الدينية أمثال رفاعة الطهطاوي الذي مكث في باريس خمس سنوات (من ١٨٢٦ إلي ١٨٣١) ، ثم عاد ليقول إن الرقص الغربي لون من العياقة والشلبنة أى (الفتوة) ، لينفى عنه وصف الفسق أو الفجور حيث تتلاصق أجساد الرجال والنساء ... ثم ليتبنى فكرة الوطنية بدلا من العقيدة ، ولتكون المشاعر الوطنية بديلا عن المشاعر الدينية ، وليحل الجاهلية الأولى (الفرعونية) محل الإسلام(٢٤) .

وحرص التعليم العلماني على إدخال البنات المسلمات إلى مدارسه ، وساعد على ذلك ... أن المسلمين لم ينتبهوا لفتح معاهد التعليم الديني للبنات المسلمات ، بل لقد كان كثير من مدارس تعليم البنات في بعض البلاد الإسلامية - بل وفي دولة الخلافة - الإسلامية - تابعة لمؤسسة دينية غير إسلامية يباشر فيها « المبشرون » « تنصير » المسلمات(٢٥) .

(٢٣) وجهة نظر الإسلام - تأليف المستشرق جب وآخرين ترجمة عبد الهادي أبو رينة صفر ١٣٥٣ مايو سنة ١٩٣٤ .

(٢٤) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد حسين - نشر دار الفتح - الطبعة الثانية ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ .

(٢٥) قدم القسيس تر بريدج في مؤتمر لنكو للتبشير المنعقد بالهند سنة ١٩١١ تقريرا عن نشاطه التبشيري في دولة الخلافة الإسلامية

وبعد أن أشار إلى الكلية الانجيلية في بيروت (الجامعة الامريكية بعد ذلك) ، وإلى الكلية السورية الانجيلية ، وإلى كلية الاستانة وكلية المبشرين في كدك باشا في الاستانة، وبعد أن أشار إلى صدور أذن خفي (!!) بجواز التردد على الكلية الأولى والثانية ، أشار إلى أن سمحت (!!) عقب إعلان القانون الاساسي لخمس فتيات مسلمات أن يتعلمن في كلية البنات الأمريكية ليتهيأن لإدارة الامور في مدارس الحكومة ، كما أن عددا قليلا من الفتيات المسلمات يترددن على مدارس إرساليات التبشير .

وكانت الخطوة الأخطر .. إحداث الاختلاط بين الطلبة والطالبات داخل الجامعات العلمانية في أكثر البلاد الإسلامية ، بل أمتد إلى الاختلاط في مرحلة الدراسة الابتدائية ، وأحيانا في المرحلتين الإعدادية والثانوية في فورة المراهقة وثورتها ، رغم أن علم النفس أثبت أن الغريزة لايمكن قتلها ولا إخفاؤها ولا التسامي بها عن طريق الاختلاط .. ومثل القط الذي ربى مع الفأر منذ ميلادهما يأكلان من طعام واحد ويشربان من إناء واحد ، فلما جاء موعد ظهور الغريزة ـ ولكل غريزة ميعاد ـ انقض القط على الفأر يأكله ... ولم يشفع له طول الاختلاط ولا طول العشرة !!!

هذا المثل كاف للرد على أولئك الذين وضعوا الزيت إلى جوار النار .. داخل الجامعات ، وداخل المدارس باسم المدنية والتطور ثم شكوا بعد ذلك أن أشتعلت ، أو أخفوا النيران عن الناس لتدمر ما أراد أعداء الإسلام أن تدمر !!!(٢٦) ..

ثانيا : العلمانية في الإعلام

العلمانية في التعليم أقدم وأخطر

والعلمانية في الإعلام أعم وأشمل ، ومن هنا تكمن خطورتها .

إن التعليم قد يخاطب الآلاف بمناهجه ، لكن الإعلام يخاطب الملايين ببرامجه ، وأكثر هذه الملايين ساذجة تؤثر فيها الكلمة مقروءة أو مسموعة ، أو منظورة .

(٢٦) جاء في أحد كتب مؤسسة فرانكلين الأمريكية إشارة إلى أحسن وسيلة للتربية ، حيث قال : « فبدلا من فصل البنين عن البنات يجب أن نعمل على إشراكهم معا في الأعمال الممتعة ومواقف اللعب ، وإذا حدث « استلطاف » بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة ، وليس غراما أو عشقا » (!!)

وفي مكان آخر « إن خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي يستطيع معظم الآباء تقبلها في الوقت المناسب على أى حال باعتبارها جانبا من جوانب النمو الجسمي للمراهق ، وفي مكان آخر : في كل علاقة بين فتى وفتاة يشعر كل منهما في بعض الأحيان بدافع يحفزه على التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة أو ضغطة على اليد أو قبلة ، والرغبة في الكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعي (!!!)

وأخيرا « فالشوق إلى القبلة أو بعض الغزل الرقيق أو الإنصات إلى قصة فيها تلميحات جنسية كل هذه ليست أمورا شائنة (!!) راجع حصوننا مهددة من داخلها للدكتور محمد محمد حسين ـ مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت .

فإن كانت طيبة كانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

فإن كانت خبيثة كانت كشجرة خبيثة .. اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار من هنا ... كان اهتمام الإسلام بالكلمة وأمانتها فإما أن ترتفع بالمؤمن إلي معية سيد الشهداء وأما أن تهوي بقائلها في النار سبعين خريفا !!

وللأسف فإننا نستطيع باطمئنان أن نقرر :

إن وسائل الإعلام المختلفة : من صحافة ، وإذاعة ، وتليفزيون وسينما مسخرة اليوم لآشاعة الفاحشة ، والإغراء بالجريمة ، والسعى بالفساد في الأرض ، بما يترتب على ذلك من خلخلة للعقيدة ، وتحطيم للأخلاق والقيم والمثـل ... وهما (العقيدة والأخـلاق) أساس لبناء الإسلام فإذا انهدم الأساس فكيف يقوم البناء ؟؟ !!

وتتفاوت درجات الفساد في وسائل الإعلام ... تبعا لهذه الوسائل فهى في السينما أشد ، يليها التليفزيون ، والإذاعة ، والصحافة .

كذلك تتفاوت درجات الفساد بين أقطار الإسلام المختلفة : فهي في لبنـان تبلـغ غايتها ، تليها مصر والكويت ، حتى تصل إلى المملكة العربية السعودية

قد يقول قائل : ولربما كان الفساد في بلاد لاتجاهر به أشد من بلاد أخرى تجاهر به ، ففي الأولى الزني واللواط وأكل الربا وشرب الخمر .. وغير ذلك من المنكرات

ونقول : ولقد يكون هذا صحيحا لايماري فيه عالم ، ولقد يكون علاجه واجبا ، ليس عن طريق الحدود وحدها ، وإنما عن طريق التربية الصحيحة والعلاج الاجتماعي بوسائله المختلفة ، وضرب القدوة .. والأخذ علي يد المفسدين مهما كان مركزهم ، حتي لاتصير الحدود مقصورة على الضعيف دون الشريف .

ومع ذلك ، فلا يبرر ذلك أن تجهر بلاد بالفاحشة ، فإن في ذلك إشاعة لها أيما إشاعة ، أو تتعالن بلاد بالمعصية ، فإن في ذلك إغراء بها أيما أغراء .. وهذا يساعد علي سرعة

الانتشار ، ويهون الجريمة علي من يتردد في اقترافها ، ولذا كانت الحدود ردعا وحسما لهذا الشر أن يسري أو يستشري !!!

وليعلم الناس ماتفعله الصحافة في بلاد المسلمين ، نختار ثلاثة أمثلة من تواريخ مختلفة :

أ ـ مقالا نشر بجريدة السياسة الاسبوعية بالقاهرة سنة ١٩٢٦ ذكر فيه كاتب المقال أن بعض الفتيات التركيات يشبهن فتيات أوربا ، وقد تلقى بعضهن العلم في الكلية الأمريكية ، بالقسطنطينية ، وذكرت واحدة منهن « أن المرأة التركية اليوم حرة ، فلن تسير في الطرقات في ظلام ، وإننا نعيش اليوم مثل نسائكم الإنجليزيات نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية ، ونرقص ، وندخن ، ونسافر ، وننتقل بغير أزواجنا ..

ويعلق كاتب الجريدة .. « ولايسع كل محب لتركيا إلا أن يغبطها على هذه الخطوات »

ب ـ في سنة ١٩٦٦ إستضافت أسرة تحرير الأهرام فيلسوف الوجودية سارتر وعشيقته التي تعيش معه في الحرام (سيمون دي بوفوار) ويجهر بهذا الفجور والفساد !!! ويدعي الرجال ويدعي النساء ... ليروا هذه القدوة القبيحة السّيئة ، وليسمعوا منها السم الزعاف !!

جـ ـ ويبلغ الفجور في السبعينات أقصى مداه حين تنشر جريدة الأهرام عن ضبط بيوت للدعارة فيها نساء من بيوتات لم يكن يسمع عنها من قبل سوء وتنشر عن ضبط تلميذات صغيرات في هذه البيوت

ثم تهون هذه الجريمة الفظيعة تحت عناوين مثيرة :

تلميذة في شقة مفروشة ، فافتحوا أبواب الاختلاط في كل مراحل التعليم !

وأطلقوا الحرية للشباب تحت رقابة الأسرة والمدرسة ولا تهمنا البنت التي تنحرف من أجل فستان(٢٧) .

وتأتي بعد الصحافة الإذاعة ، والتليفزيون

ويبلغ الاهتمام بها حد إحصاء أحد الكتاب الأمريكيين لعدد أجهزة الراديو ونسبة ازدياد انتشارها ...

وتبلغ خطورتها أنها تدخل كل بيت تغزوه ، ولا يستطيع أحد التحكم فيها !!

وتأتي خطورتها بعد ذلك في برامجها التي أقلها خطورة أنها تافهة تعلم الناس التفاهة . ثم في أنها تلهي الناس عن كثير من الجد ، وتطلق برامجها حتي الواحدة صباحا ، وأحيانا تستمر إلي قبيل الفجر عرضا للغو ولهو وسقط رخيص ...

فكيف تقام بعد ذلك صلاة فجر ؟ (٢٨) .

وتأتي في النهاية السينما

وفي كل يوم تزداد السينما انحدارا نحو أفلام الجنس الرخيص ، ونحو مشاهد الإثارة العنيفة ... حتى في أفلامها التي تحمل لافتات وطنية .. بل وأحيانا لافتات دينية

وكان من أصدق ردود الفعل ماكتبه قارئ مصري عادي تحت عنوان « متى تخرج السينما المصرية من حجرة النوم »(٢٩) .

---

(٢٧) جريدة الأهرام ١٩٧٦/٣/١٣ .

(٢٨) نشرت مجلة المجتمع في عددها الصادر في ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٩٦ ٣٠ مارس ١٩٧٦ العدد ٢٩٣ السنة السابعة أن وزارة التربية في دولة الكويت أحرجت ضيفا عربيا كبيرا .. حين عمدت إلى تقديم برامج لطالبات في سن المراهقة يقدمن رقصات في ثياب خليعة كاشفات عن سيقانهن ... وقد استمر إذاعة الحفل في الدولتين في حضور الضيف المسلم الكبير ... ليكون ذلك إحراجا له وإقرار لذلك المنكر ... وإستمر إذاعة الحفل الرخيص إلى مابعد منتصف الليل .

(٢٩) جريدة الأهرام ١٩٧٦/٣/١٨ .

ثالثا : العلمانية في القانون

« حد يعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحا » هذا مثل لأهمية الجانب القانوني في الإسلام .

وكما تكون طاعة الله في الشعائر ، لابد أن تكون كذلك في الشرائع وكما يكون إشراك لله في الشعائر ، يكون كذلك إشراك بالله في الشرائع .

هذه كتلك لأن كلا من عند الله .

والرَّهَب لازم .. كالرغب في إقامة شريعة الله

والرهبة تولدها السلطة

والرهبة تولدها القدوة

والأثنان يتحققان إذا كان الحكم للإسلام ، وكان حكامه من المسلمين .

من أجل ذلك كله كان حرص أعداء الإسلام على ابعاده عن مجال السلطة ليحرموا الإسلام ... الرهبة .. والرغبة .

ومن ثم ليبقى مجرد هيكل أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ... !

ولقد وضح ذلك مما فعلوه في العالم الإسلامي ..

ولنأخذ مثلا تركيا

حين فكروا في إبعادها عن الإسلام ، بذلوا جهودهم « لعلمنة » القانون ، وصار كل عشر سنوات يتم علمنة جانب من جوانب القانون منذ سنة ١٨٤٠ ، ثم صارت كل حوالي عشرين سنة ، حتى تمت أكبر علمنة بإعلان إلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤

وفي مصر

اقترنت« علمنة » القانون بالاحتلال الأجنبي ، فكانت أول علمنة سنة ١٨٨٣ بعد الأحتلال بسنة واحدة واقترن إلغاء الامتيازات الأجنبية بشرط الأجانب الاستمداد من التشريع الغربي بعيدا عن الشريعة الإسلامية ، ثم اقترن إلغاء النص على أن دين الدولة هو الإسلام في دستور مصر المؤقت سنة ١٩٥٨ ، ثم في ميثاق

العمل الوطني سنة ١٩٦٢ اقترن بأحداث داخلية يعرف عنها الكثير الكثير .

وأكثر الدول الإسلامية ـ بكل أسف ـ تمت فيها علمنة القانون ..

والدول التي لاتزال فيها بقايا تطبيق الشريعة تحيط بها المؤامرات من كل جانب لعلمنة القانون ، ويجري التمهيد لهذه العلمنة بما يجري من « علمنة » التعليم ، وعلمنة الإعلام ، فيوجد جيل علماني يقدس القانون العلماني ، ويولد ـ نتيجة الإعلام ـ رأي عام علماني يتقبل مثل هذه العلمنة .

وهكذا عملت العلمانية من خلال التعليم ، ومن خلال الإعلام ، ومن خلال القانون .

ولننتظر كيف عملت « القومية » في مواجهة الدين !!!

ثانيا : القومية العربية

لسنا نكتب تاريخا

لكننا نستلهم العبر من خلال الأحداث التي لايختلف حولها أحد ، لنعرف ماذا عملت القومية العربية وغيرها من القوميات في مواجهة الإسلام ومن الذي استعملها ؟

القومية في حد ذاتها فكرة رجعية متخلفة ، فقد عرفتها أوربا منذ قرون ولفظتها ، لكن أعداء الإسلام وجدوا فيها شعارا يثير العصبية ، ليحطم الإسلام ... يحطم الأمة حين تفترق إلي عصبيات قومية ، ويحطم الدولة حين تعلن هذه العصبيات عن وجودها القانوني .

وهكذا أثيرت القومية العربية داخل الأمة العربية

وأثيرت القومية الطورانية داخل تركيا

وأثيرت غيرها من القوميات ... مثل الفارسية ، والبربرية والكردية ولاتزال حتى اليوم تثار !

بدأت فكرة القومية العربية في منتصف القرن التاسع عشر ، وشجع عليها أعداء الإسلام حزب الاتحاد والترقي داخل تركيا الذي كان أكثره من اليهود ، وشجع علي القومية العربية ماكماهون ولورانس ـ الجاسوس الإنجليزي .

وبلغ نجاح إثارة القوميات حدَّ الدخول في قتال بالسلاح بين العرب ، والأتراك ، وسارت جيوش الشريف حسين تحت قيادة إنجليزية لتخرج لاستقبالها الألوف من أبناء الشام !

وأثيرت القومية العربية مرة أخرى في أعقاب الحرب العالمية الأولى حين شجع الانجليز إقامة الجامعة العربية ، لتجمع العرب تحت راية القومية ، خوفا من أن يجتمعوا تحت راية الإسلام ولتحل الجامعة العربية محل الجامعة الإسلامية التي كان يدعوا إليها الكثيرون (٣٠) .

---

(٣٠) راجع الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٩٩ ومابعدها .

وفي الخمسينات لما تم التخطيط للانقلاب الـذي تم في مصر ... كانـت القـومية العربية شعارا بديلا عن الشعار الإسلامي الذي تجمعت له جموع كثيرة لرفع الراية الإسلامية ، فكانت القومية العربية صرفا للجماهير عن الفكرة الإسلامية .

ثالثا : تحرير المرأة ..

تقدمـــة

كما كانت العلمانية شعارا خادعا يخفي وراءه الحرب على الدين ، وكما كانت القومية شعارا خادعا كذلك يستعمل في مواجهة الدين فلقد رفع هذا الشعار « تحرير المرأة » بقصد اجتذاب المرأة المسلمة واستخدامها حربا على دينها .

وأول من أوصى به مؤتمر من مؤتمرات التبشير ، وكان الهدف يومئـذ تنصـير المرأة المسلمة !!!

ثم تبعهم المستشرقون

وتبعهم من تلقوا العلم والمعرفة علي أيديهم !!! وهم في شرقنا الإسلامي كثير !

ماذا يقصدون بالتحرير

التحرير ... لايكون إلا من عبودية ... ؟

فهل كانت المرأة المسلمة كذلك ؟

إن المسلم لايعطي العبودية لمخلوق بل يعطيها للخالق ، وللخالق وحده ، ومن ثم فإنه أكثر الناس تحررا من عبودية المخاليق سواء كانت آدمية ، أو كانت مالا ، أو جاها ، أو سلطانا أو غير ذلك من متاع الحياة الدنيا !!

والمرأة المسلمة لها ماللرجل « ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف وللرجال عليهن درجة » هذه الدرجة ليست درجة العبودية أبدا ولن تكون ، لكنه أمر اقتضاه التنظيم ، أن يكون للسفينة ربان واحد لاربانان ، وإلا لغرقت السفينة بمن فيها !!!

ولقد سبقت المسلمة غيرها من النساء ، فعرفت واجبها ، وعرفت حقها وكانـت لهـا الشخصية القانونية المستقلة : تتعامل باسمها دون حاجة إلى اعتماد تصرفها من أحد ،

بينما ظلت المرأة الفرنسية لاتتعامل باسمها وحده ، بل لابد من إجازة الزوج لتصرفها وذلك إلى عهد قريب .

فماذا يعني التحرر أو التحرير بعدما أعطاها الإسلام مالم يعطها نظام آخر ؟

قالوا : إنه يعني تحريرها من بيتها ، وتحريرها من زيها

قلنا : وبماذا يخدمهم تحريرها من بيتها ، وتحريرها من زيها ؟ وبعبارة أخرى كيف يمكن من خلال هذا وذاك إبعاد الأمة عن الإسلام ؟

المرأة بلا شك نصف المجتمع وهي في رأيي ـ نصف خطير ، لأنه يؤدي رسالة خطيرة ، وإن غفل عنها الكثيرون .

إن الذين يتخرجون من المدارس والجامعات يمكن تعدادهم ، ويمكن أن يوجد غيرهم لم يتخرجوا من هذه أو تلك أما الجامعات التي لابد أن يتخرج منها كل مسلم ، بل كل إنسان فهي الأم . فإن صلحت صلح خريجوها وإن فسدت فسد خريجوها .

وتحرير المرأة من بيتها يعني إغلاق هذه الجامعة !

وإذا كان هذه هي الجامعة الأولى التي خرجت من قبل تلك الأجيال العظيمة التي حملت إلينا الإسلام ، بل حملته للدنيا كلها ، فإن إغلاق هذه الجامعة يعني انعدام الخريجين من ذلك الطراز ويعني غَلَبَةَ الخريجين من طراز آخر !!!

أما ماذا يعني تحريرها من زيها :

فإنه يعني كشف ماأمر الله أن يستر ، وهتك ما أمر الله أن يصان ..

يعني عرضا رخيصا لسلعة غالية صانها ربها وصانها الإسلام .

يعني إثارة اللحم والدم ... وهو أمر لايستطيع أن ينكره إلا غبي أو متغاب .

فإذا أضفنا إلى تحرير المرأة من بيتها وتحررها من زيها .. كانت النتيجة نتيجة الأثنين غير نتيجة الواحد .

إن التحرر من البيت وحده قد تكون له النتيجة السلبية الخطيرة السابقة ، وهى حرمان الأمة من جامعة تخرج أجيالا .

وإن تحرر المرأة من زيها وحده قد تكون له النتيجة الإيجابية الخطيرة السابقة وهي الإغراء بالفاحشة والدعوة إليها .

لكن التحررين قد يعنيان ـ فوق النتيجتين السابقتين مجتمعتين ـ نتائج أخرى أخطر وأشد ، إن أولها بلاشك انحلال المجتمع وسقوطه بسقوط قيمه وأخلاقه ومثله ...

إن فرنسا ـ غير الإسلامية ـ سقطت تحت أقدام ألمانيا ، على مدي أسبوع واحد وقد كانت من قبل صاحبة امبراطورية كبيرة تستعمر الشعوب ، وصرح رئيس وزرائها : إن فرنسا هزمها الانحلال قبل أن يهزمها الاحتلال ..

فما بالنا بأمة إسلامية ... أساس نظامها عقيدة وأخلاق !

وما بالنا بأمة إسلامية ... لم تصل بعد من ناحية القوة المادية إلى ماوصلت إليه فرنسا أو أمريكا

إن إشاعة الانحلال ـ في الأمة الإسلامية ـ عن طريق تحرير المرأة من بيتها وزيها يعني وأد الأمة الإسلامية وهي بعد لم تقف على قدميها ... تماما كما يصاب الطفل بمرض خطير لايستطيع أن يقاومه الرجل الكبير .

أنها جريمة كبرى ، وخيانة عظمى .. يقارفها كل من يدعو إلى هذا السبيل بالكلمة أو الصورة أو القدوة السيئة ..

وعن اليونيتدبرس ـ واشنطن ١٩٧٥/٤/٢٩ خبر مقتضاه مطالبة « جوزيف ريد المدير العام لهيئة رعاية الأطفال بعقوبات شديدة ضد الأشخاص الذين يتاجرون ببيع الأطفال في السوق السوداء حيث يباع سنويا خمسة آلاف طفل ... وكلهم ـ بكل أسف ـ جاءوا من سفاح ، ويجري الاتفاق مع الفتيات اللائي حملن بهن من غير زواج مقابل مبلغ من المال إلى جانب التكاليف الصحية والسكنية ... »(٣١)

أي جيل يكون ذلك الذي لايعرفه له أبا ولا يعرف له أما كذلك ... ؟

أي ارتداد إلى عصر الرق ذلك الذي يباع فيه الأطفال ويشترون .. ؟

تري ... هل يخرج لنا تحرر المرأة في شرقنا الإسلامي ماأخرجه في ذلك الغرب الصليبي ..؟

وهل نقم منا الغرب أن كانت لنا روابط أسرية متينة يقوم عليها بإذن الله مجتمع متين .. ؟

---

(٣١) مجلة المجتمع ـ العدد ٢٤٩ ـ ٢ جمادي الأولى ١٣٩٥ ـ ٣١ مايو ١٩٧٥

أم نَقِم منا أن لدينا دينا هو سر ابتعاثنا بين الحين والحين .. فخشى هذه الابتعاثة ، ورغب لنا في رقدة لانهوض بعدها ولا قيام ؟!

أما المرأة الريفية ... فلم يشأ المخططون لتغريب المسلمين أن يتركوها في حالها وحيائها .. أصروا على أن يغزوها في عقر دارها ، ليذهبوا بما بقى من حيائها ، لتشارك أختها في المدنية ماوصلت إليه من مدنية تحت ستار الأمم المتحدة . أنطلقت أمريكا تغزو الريف المسلم باسم « التربية الأساسية »

أما ماهي التربية الإسلامية ؟ ..

فهي كما عرفها أحد سَدَنَتها « الدكتور حامد عمار في بحث ألقاه في مؤتمر أمريكي منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعي لرفع مستوى المعيشة يؤكد قيمة العملية التربوية وتغيير الأفكار والنزعات .

وفي مكان آخر .. تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات(٣٢) .

وفي سرس الليان ـ مركز الأمم المتحدة

وفي قرى سوريا مراكز(٣٣) ... وقد تكون وصلت إلى غيرها ..

أما قضايا المرأة التى يتعمدون إثارتها بين الحين والحين ، ليظهروا بمظهر المدافعين عن المرأة المحبين لمصلحتها ، فزوبعة في فنجان .

فنسبة الطلاق في البلاد الإسلامية ضئيلة

(٣٢) حصوننا مهددة من داخلها ـ للدكتور محمد محمد حسين ـ الناشر مكتبة المنار الإسلامية ـ الكويت ص ٤٨ وما بعدها .

(٣٣) المرجع السابق .

ونسبة التعدد أشد ضآلة ، بما لايصح أن يرتفع معه الصوت كأنها مشكلة أو قضية ولئن كانت هناك قضية أو مشكلة ، فهم سببها حين تسببوا بوسائل إعلامهم في تصديع البيوت ، وفي أثارة المشكلات ، وحين تسببوا بدعاوي المساواة العريضة في أن لايكون للبيت قوامة ، وأن يكون فيه رئيسان الرجل والمرأة ، ورئيسان في مركب واحد يغرقانه (كما هو المثل)

ثم حين ساندوا وساعدوا انحلال الأخلاق والتفلت من قيود الدين ، فلم يعد الرجل يخشى الله في المرأة ، ولم تعد المرأة تخشى الله في الرجل .

فدب الخلاف والشقاق

والحل ليس تحررا من الدين أو مزيدا من التحرر ، وإنما عودة إلى الدين والتزام بضوابطه وأخلاقه تصير المشكلة محلولة

« وفي أنفسكم أفلا تبصـــــــرون »

« إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

هذه شعارات الغرب ووسائله لإحداث التغيير الاجتماعي فينا ...

علمانية : في التعليم ، في الإعلام ، في القانون

قوميات : تمزق الأمة الواحدة وتمزق الدولة الواحدة

تحرير المرأة : ليسقط المجتمع في حمأة الرذيلة ويقضي بنفسه على نفسه

وإذا نجحت فماذا يبقى في مجتمع لم يقف بعد على قدميه ..؟

ولو نجحت هذه الدعوات فماذا يبقى لنا من الإسلام .. ؟

لقد استجاب لها الطامعون في السلطة

واستجاب لها الراغبون في السقوط ، لأنهم لايقدرون على الارتفاع !!

واستجاب لها السذج الجاهلون الذين حسبوها علاجا لهذا الشرق الإسلامي من تخلفه وعدم نهوضه .

وبقى أن ينهض العالمون الصادقون ليفضحوا المخطط الأثيم للقضاء على الإسلام والمسلمين .

بقى أن ينهض العالمون الصادقون ليقوموا بما قام به من قبل نبيهم ورسولهم محمد عليه الصلاة والسلام ، فهم خلفاؤه على ميراثه وهم الأمناء على رسالته ، وهم أمل الأمة الباقي بعد أن تردَّى غيرهم وسقط في الشراك !!

ولنكمل الصورة أو نقترب بها من الكمال : نقدم لعلمائنا ولأمتنا من ورائهم بعضا مما فعل ، ويفعل الصليبيون ؟

المطلب الثالث

ما يفعل بنا الصليبيـون

تقدمة:

لسنا نثير أحقادا..

فنحن على استعداد أن نعاملهم بما أمرنا به القرآن إن كفوا عن قتالنـا وقتلنـا ، وتشريدنا وإخراجنا من ديارنا «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولـم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين .. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم . وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ...

فإن لم يكفوا عن قتالنا وقتلنا، وعن إخراجنا وتشريدنا... فهـم الـذين يثـيرون الأحقاد، وهم الذين يظلمون «وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» .

ولن نأتي من القديم

لنذكر قومنا بما فعلوه يوم دخلوا بيت المقدس ... فذبحوا فيه سبعين ألفا من المسلمين، حتى غاصت الخيل إلى صدورها في دماء المسلمين ...(٣٤)

ولا بما فعلوه في الجزائر، حين قتلوا مليون شهيد !!

ولا بما يثيرون من أحقاد حين يحفّظون جنودهـم :«أنـا ذاهـب إلى طرابلس فرحـا مسرورا، لأبذل دمي لسحق الأمة الملعونة، لأحارب الدولة الإسلامية التي تجيز البنات الأبكار للسلطان سأقاتل بكل قوتي لأمحو القرآن (٣٥)

(٣٤) حاضر العالم الإسلامي ـ الكاتب الأمريكي ستودارد ص ٢٠٨.

(٣٥) نشرت هذا النشيد مجلة الرابطة الشرقية السنة الثالثة العدد الثاني وذلك حين كان الغزو الفاشستي للشقيقة ليبيا.

ولا بما يخططون له حين يقول أحد قادة فكرهم «إن جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسيحية» وحين يكمل آخر:

« متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربي يتدرج في سبيل الحضارة التي لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه»

وحين يضع لهم أحد فلاسفتهم الحل النهائي فيقترح أن يباد ثلثا المسلمين وينفى الثلث الثالث ، وتهدم الكعبة وينقل قبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى متحف اللوفر(٣٦) .

سنترك هذا وغيره جانبا .. لنذكر قومنا بما يجري الآن حيث يدّعون أنهم تخلوا عن عصبيتهم أو صليبيتهم..!

ولنضرب لذلك بعض الأمثلة:

١ - في الفلبين

يتعرض المسلمون في الفلبين لحرب إبادة لم يشهد لها التاريخ الحديث مثيلا... فهم يجلون من قِبَل الصليبيين عن أراضيهم التي خصها الله بالخصب والنماء، فإن رفضوا تعرضوا للإبادة من قوات الجيش الفلبيني التي لا تكتفي بمجرد الحرب الشريفة، بل تستعمل كل وسائل الإبادة الممنوعة مثل الغازات السامة والنابالم، ثم هي ـ بعد ذلك ـ تمثل بالجثث وتنتقم من الجرحى والأطفال والنساء .

وفي بيان للأخ عبدالباقي أبوبكر الأمين العام للعلاقات الخارجية لجبهة التحرير مؤرخ ٢٩مارس سنة ١٩٧٦ ينقل عن عمدة بانكوك محمد صالح عثمان قائد المجاهدين

(٣٦) الفيلسوف الفرنسي كيمون .

الذي لا يزال يقاوم الحصار مذ ١٦ شهرا:«والآن يعزز الجيش الحصار بـ ٨كتائب جديدة غير قوات الطيران التي تقصف المنطقة ليلا ونهارا، والبواخر التي توجه ضرباتها المركزة من المدافع الفتاكة بدون انقطاع... «وفي مرارة، يختم كلامه ..

يبدو لي أن المسلمين في العالم لم يعرفوا حقيقة الوضع الذي نعيشه أو أنهم يتجاهلوننا». ثم يقول أمين عام الجبهة:«وكنتيجة لهذه المعارك التي لا تزال دائرة للآن تشرد ما لا يقل عن ٥٠،٠٠٠ مسلم ... ثم يقول «وماركوس يعلم أنه لا يستطيع أن ينال من المسلمين، ولكنه يريد أن يسرق المسلمين ويسرق أنظار العالم »(٣٧) .

٢ ـ في أثيوبيا :

كان أسد الحبشة يضطهد المسلمين اضطهادا شديدا، فرغم أنهم في حقيقة الأمر يحتلون أغلبية البلاد، فإن أحدا منهم لا يشترك في الوزارة ولا في الحكم، بل ولا يسمح له بارتقاء منصب قيادي من أي لون، ولقد صارت سجون أثيوبيا مقابر للمسلمين الذين يجأرون مما هم فيه، ولأسد الحبشة هواية في تعذيب المسلمين إنه يأمر بربط أيديهم إلى أرجلهم....ويبقوا على هذا الحال سنين حتى تتقوس ظهورهم وتأخذ شكل المنحنى، فإذا أفرج عنهم لم يستطيعوا المشي إلا على أربع !

وكنا ننتظر بعدما أسقط الأمبراطور بانقلاب عسكري أن النظام سوف يتغير .. لكن الحقيقة أن القبضة العسكرية الحاكمة اشتدت على المسلمين حتى إن تقريرا عرض على المجلس العسكري وتم إقراره يصرح:

«لقد حان الوقت أن نعرف جيدا من هم أعداؤنا، لقد اختار العرب وعملاؤهم أن يكونوا أعداءنا، وعلينا أن نعاملهم على هذا الأساس »(٣٨) .

---

(٣٧) مجلة المجتمع العدد ٢٩٦ ـ السنة السابعة ٢٠ ربيع آخر ١٣٩٦ ـ ١٠ أبريل سنة ١٩٧٦ .

(٣٨) مجلة المجتمع العدد ٢٩٧ السنة السابعة ـ ٢٧ ربيع آخر ١٣٩٦ ـ ١٦ أبريل سنة ١٩٧٦

إن المجازر التي يتعرض لها الثوار في ارتيريا أمر يحرك كل ذي ضمير أومروءة، «لكن أين المروءة» لقد خفت حتى اختفت!!

٣ ـ المسلمون في تايلاند

نشرت مجلة الاعتصام القاهرية أنه :

أ ـ في ١٦ نوفمبر ١٩٧٦ قامت السلطات التايلاندية بهدم المسجد الكبير في ولاية (بنارا) ، في إطار مخطط يستهدف إزالة الآثار الإسلامية، ومنع المسلمين من إقامة شعائرهم الدينية وتشجيع ممارسة البوذيين لطقوسهم أمام المساجد وبناء الأصنام في كل المدن بالولايات الإسلامية الأربع في قطاني .

ب ـ قام خمسة أشخاص من المنشأة البحرية التايلاندية بذبح خمسة من القرويين المسلمين الأحياء، ومثلوا بجثثهم، ثم قذفوا بها إلى البحر في محافظة تلوبة في ولاية قطاني.

انطلقت مظاهرة احتجاج تعرضت للقوات التايلاندية سقط فيها عشرون شهيدا وجرح فيها المئات.

ج ـ قامت في الفترة الأخيرة بحرق إحدى قرى المسلمين في محافظة (جاها بولاية جالا)، وتسعى العصابات البوذية إلى تشجيع هجرة البوذيين من شمال البلاد إلى الجنوب الإسلامي وإقامة مستعمرات فيها .

وبعد

فهل نجح الغرب في حربه الفكرية لنا ؟

أولا: بالنسبة للأسلوب

حين نجح انقلاب «كمال أتاتورك» العسكري، واستطاع أن يحقق ما كان الغرب يبغيه سلّم الحلفاء في اتفاقية لوزان باستقلال تركيا.

ذلك أنه بإلغاء الخلافة الإسلامية في تركيا سنة ١٩٢٣، تحقق أمل بعيد للصليبية ومن وراءها حاربت من أجله دهرا طويلا ...

وحاول كمال أتاتورك بعد ذلك سلْخ تركيا من إسلامها، بما فرضه من علمانية التعليم وعلمانية القانون، وتحرير للمرأة المسلمة التركية واختلاط بينها وبين الرجال في كل المجالات، ثم بما فرضه من إلغاء اللغة العربية واستبدالها باللاتينية ... ومن محاولته تغيير الزي بالقوة .

وعدّ ذلك كله نجاحا شجع الغرب بعد ذلك على مزيد من الانقلابات العسكرية في المنطقة الإسلامية بهدف إبقاء السيطرة أو القوة تابعة له، لتنفيذ البرنامج أو المخطط الموضوع لإبعاد المسلمين عن دينهم وتحقق التغيير الاجتماعي أو ما يطلق عليه التغريب

لكن المراقبين لمجريات الحوادث أحسوا قصور التجربة الكمالية في تركيزها على جانب القوة فنصحوا إلى جوارها بمحاولة تثبيت النتائج التي تصل إليها الانقلابات العسكرية وتعميقها في الشعوب(٣٩) وحسبنا ذلك انتقادا لانقلاب أتاتورك!!!

---

(٣٩) يشير إلى هذا المعني مورو برجر ص ٣٢٥ حين يقول :

« وقد يتطلب تعميق هذا المعنى وتحويله إلى رغبات واذواق ومشارب تلقائية حرة عملية تثبيت طويلة بوسائل أقل تعسفا وتحكما وذلك بعد إشارة إلى التغيير الاجتماعي بالطريق العسكري ـ كتاب العالم العربي اليوم ـ المرجع السابق .

ونهدي إلى الغرب قول عصمت اينونو وهو في مرض موته « انني لا أكاد أصدق ما أرى لقد بذلنا كل مانستطيع لانتزاع الإسلام من نفوس الاتراك وغرس مبادئ الحضارة الغربية مكانه فإذا بنا نفاجأ بما لم نكن نتوقعه لقد غرسنا العلمانية فأثمرت الإسلام (المجتمع العدد ٢٥٦ ٢٩ جمادي الثانية ١٣٩٥ يوليو ١٩٧٥

فإذا أضفنا إليه .. أن ما بلغه كمال أتاتورك .. لم يغير شيئا من الشعب التركي بل أنه على العكس من ذلك زاده استمساكا وتصميما .. وأنه لولا ظروف تركيا الدولية وإحاطة الأعداء بها من كل جانب لكان للشعب مع أتاتورك وغيره من الأتاتوركيين شأن آخر.

وهناك أمر لا يزال غائبا عن أولئك الذين يجرون التغيير ...إنهم يحاولون تبديل بناء ببناء .

يحاولون هدم البناء القديم... وإقامة بناء جديد... وقد يكون الهدم سهلا من أعلى... وهو ما يفعلون . لكن البناء من أعلى لأسفل لا يصح في منطق العقلاء . وهو للأسف ما وقعوا فيه، فظنوا أن الأنقلابات العسكرية قادرة على هدم «القديم» وعلى إقامة الجديد...

وقد يكون نجحت في هدم القديم .. وهو ما سنناقشه بعد ذلك .. لكنها بالتأكيد لم تنجح حتى الآن في إقامة الجديد .

ثم إن هناك أمرا آخر غاب عن أولئك ... إن الانقلابات العسكرية تلجأ في وسيلتها للتغيير إلى العنف والقوة .. والقانون الطبيعي أن كل فعل له رد فعل مساوٍ له في القوة ومضاد له في الاتجاه ...

والقانون الطبيعي كذلك أنّ زيادة الضغط تولد الانفجار .. ولعلهم يتغلبون على ذلك بالتغيير من حين لآخر امتصاصا للبخار الحبيس أن يؤدي إلى الانفجار، لكن التوْقيت قد يخطئهم ... فيحدث الانفجار قبل التوقيت الذي ضربوه، وعلى نحو لا يستطيعون السيطرة عليه ولا على نتائجه ..

وأخيرا، لقد انكشف هذا الأسلوب وتعرى، وأساء العسكريون إلى أنفسهم وإلى الذين يعملون لحسابهم ... أساءوا أكثر مما أحسنوا ... وإذا كان الغرب بحصافته! قد أدرك

فشل الأسلوب القديم، أسلوب احتلال الشعوب بالقوة العسكرية، فعليه ـ بحصافته ـ أن يدرك قبل فوات الأوان فشل الأسلوب الجديد أسلوب تغيير الشعوب بالقوة العسكرية عن طريق الانقلابات العسكرية.

هذا عن الأسلوب الجديد...
فماذا عن الهدف الجديد؟.

ثانيا: بالنسبة للهدف

كان الغرب «ذكيا» حين أدرك في وقت مناسب أو متأخر أن التنصير كهدف لحملته الفكرية المعضدة بالقوة العسكرية خارجية أو داخلية أن ذلك الهدف فشل وإنه برغم الجهود الضخمة البشرية والمالية والإعلامية والتعليمية فإن النسبة التي تم تنصيرها من المسلمين نسبة تافهة يمكن أن تلحق بالعدم لتكون النتيجة سلبية تماما ...!!

لذا كان البديل عن التنصير وإخراج المسلمين عن دينهم هو التغيير والاكتفاء بإبعاد المسلمين عن دينهم ...

وهو ما تبذل له الجهود اليوم من تعليم علماني، وإعلام علماني، وقانون علماني، وتحرير للمرأة من زيها ومن بيتها ثم ما يبذل من حطّ لقيمة الدين وقيمه وعلمائه ودعاته ... فهل يا ترى نجح الهدف الجديد ؟

نجاح أمر يتعلق بالأمم والشعوب لا يحكم عليه في سنين، ولا في جيل، فقد لا تظهر نتيجته إلا بعد أجيال.. وقد تكون النتيجة الواضحة أن التغريب نجح في إبعاد المسلمين عن دينهم بما فيه من قيم إيمانية، وقيم أخلاقية، وقيم قانونية.. وأن المسلمين استبدلوا به قيم الغرب، حتى في عاداتهم وفي لبسهم وفي طريقة أكلهم وشرابهم وفي تعاملهم و«اتيكيتهم»!!

لكن هذه النتيجة مشكوك في صحتها

إنه على قدر عمق التغيير«الاجتماعي» الذي حدث استبدالا بقيم الاسلام قيم الغرب وتقاليده، فلقد حدث على نفس العمق وأكبر استمساك وإصرار على النظام الإسلامي عقيدة وأخلاقا وعبادة وقانونا.. وماج العالم الإسلامي بحركات كثيرة عميقة وأحيانا عنيفة تدعو إلى الإسلام كمنهج متكامل للفرد والأسرة والمجتمع والدولة!!

وبدا أن الجمر يتقد تحت الرماد.. فهل نتركه حتى يكون نارا تحرق وفي نفس الوقت نورا يضيء . أم هل نحاول أن نأخذ نوره وأن نتقي ناره؟؟

على الذين يمارسون التغيير أن يحذروا، فقد تصيبهم النار قبل أن يغشى عيونهم النور... وعليهم أن يغيروا من هدفهم فلقد انكشف للناس...!!

وخير للغرب أن يبتعد عن فتنة المؤمنين عن دينهم، فإن السهم قد يرتد أول ما يرتد إلى صدر راميه، وقد يصيب الرأس النار قبل أن يرى النور، خير إذن للغرب أن يحتفظ «بصداقة» الشرق الإسلامي، ويحافظ على مصالحه الاقتصادية والتجارية فيه من أن يصر على التغيير، فيفقد هذه المصالح، ويجني العداء إلى الأبد...

إن المسلمين لا يعادون الذين لا يقاتلونهم في الدين ولا يخرجونهم من ديارهم، بل إنهم على العكس يسالمونهم، ويبرونهم، ويقسطون إليهم فذلك أمر دينهم «لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين» لكنهم في نفس الوقت ينقلبون مع الوقت، طال أو قصر، إلى أسود غضاب إزاء من يقاتلهم في دينهم ويفتنهم فيه وإزاء من يخرجهم من ديارهم ويسلبهم أوطانهم... ذلك أمر ربهم «إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين، وأخرجوكم من دياركم، وظاهروا على إخراكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الفاسقون»

خير للغرب أن يدرك أنه يمكن لحضارته أن تعيش.. إذا تركت حضارة الإسلام كذلك لتعيش، وأنه يمكن للحضارتين أن يتعايشا «لكم دينكم ولي دين» وأنه خير أن تتعايش الحضارتان من أن تصر حضارتهم على العيش وحدها، فتفنى بإذن الله وحدها... لأننا نؤمن أن الله حافظ دينه «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، «والله متم نوره»، «ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون»... فأي الطريقين يختارون؟.

ولا يخش الغرب أن يغزوه الإسلام مرة أخرى .. فحسبنا اليوم وسائل الإعـلام، وحسبنا اليوم وعي الناس .. وحسبنا اليوم أن نترك لهم الخيار، فإنه «لاإكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي»... وحسبنا درس الامتداد العضوي الذي مارسته تركيا من غير بسط فكري ولا عقائدي، فارتد المدّ جزرا أصاب الأمة في كبدها وفي قلبها... حسبنا الدرس التاريخي... لن نكرره مرة أخرى... وحسبنا أن ننظم بيتنـا، ونضمـد جروحنـا ونستعبد أنفسنا فأمامنا لذلك سنون إن لم يكن قرون!!!

ولا أترك هذا التعقيب حتى أقول لأبنائنا وإخوتنا ممن لا يزالون منخدعين، وإن كانوا قلة، فإنهم أعزاء علينا أن يفارقونا، ويفارقوا قومهم، نقول لهم:

«إن في الغرب بضاعتين: بضاعة يزجيها إليكم، وبضاعة يضن بها عليكم... فأما التي يزجي، فإنها تسلبكم أخلاقكم، وقيمكم، وتاريخكم، وشخصيتكم... وأما التي يضن بها فهي سرّ تفوقه المادي عليكم. هي علمه و«تكنولوجيته»...

فما بالكم أقبلتم على التي يزجي، وتركتم التي بها يضن ... فما حصلتم غير القشور، غير الزبد. وتركتم ما ينفع الناس؟!!

إن في خزائننا الجواهر وإن علاها التراب من طول الزمن وكثرة الكيد، وإن ماعندهم سراب خادع، أو معدن براق لكنه غير أصيل فلا ينبغي أن تترك الجواهر في خزائننا، لنمد أيدينا للمعادن غير الأصيلة...

ما ينبغي أن تكون اليد المتوضئة هي السفلى واليد الأخرى هي العليا. فكيف إذا كانت اليد المتوضئة تملك الجواهر كيف ترضى أن تمد اليد وأن تكون هي السفلى!

وذلك لا يمنع من أن نستفيد بعلم الغرب وتجربته من غير أن نهجر قيمنا، ومبادئنا، وأخلاقنا، وعقيدتنا من غيرأن نترك ديننا، فلا نبيع ديننا ولو كان بالدنيا كلها!!

الفصل الثاني

الغزو الماركسي للعالم الإسلامي

تمهـــيد

لم تتغلغل «الشيوعية» في الشرق الإسلامي كما تغلغل «الغرب» ربما لأن الأخير أسبق زمنا وأرسخ قدما ... وربما لأن الأخير أدرك في الوقت المناسب طبيعة هذا الشرق فكف عن الحرب السافرة له في عقيدته وتلون باسم الحضارة أو المدنية أو التغريب أو التغيير الاجتماعي لينشر العلمانية وتحرير المرأة، وإضعاف الدين .. دون أن يشعر أكثر المسلمين!!

لكن الماركسية أخطر على الشرق الإسلامي من الغرب ، بما تحمل في أسلوبها من «خداع» ينطلي على عامة الناس خاصة من يخاطبون أول ما يخاطبون ممن يسمونهم طبقة «الصعاليك» أو البروليتاريا، وبما تحمل من «تخدير» لهذه الطبقة بافهامها أنّ إليها سيئول الحكم، وأن لها المكاسب من دون سائر الطبقات(٤٠). ثم بما تحمل في «غايتها» من تحطيم لعقيدة هذه الأمة، وقضاء على دينها، باعتبارها في البداية وفي النهاية قائمة على الكفر بالله والإلحاد في أسمائه، ورفض كل الأديان، وإن اتخذت «تكتيكا» مرحليا بعدم الهجوم على الأديان، أو بالزّعمْ بأنها تسمح لها بالوجود أو البقاء، أو بالألتواء بهذه الأديان للقول بأنها هي الأخرى «اشتراكية» و «يسارية»...إلخ

وهي في سبيل هذه الغاية حين يلوح لها النصر أو التمكين تدوس كل شيى وتهلك الحرث والنسل وتغرق البلاد في «حمامات الدم» لتقضي على كل خصومها، وليظل «الردع» ماثلا لكل من تحدثه نفسه بالخروج عليها!!!

وقد عاشت الماركسية، منذ صارت لها دولة.. تبذل الكثير لنشر مبادئها، ورسمت لنفسها «استراتيجية» الزحف عن طريق «الشعوب» أو الطبقات الكادحة ليتم التغيير من «القاعدة»، لكنها منذ سنين قليلة راحت تجرب «لعبة» الولايات المتحدة الأمريكية لتجري التغيير من القمة بدلا من «القاعدة» عن طريق الانقلابات العسكرية...

(٤٠) أفيون الشعوب للأستاذ العقاد ـ الطبعة الخامسة ١٩٧٥ ـ دار الاعتصام . القاهرة

ونجحت انقلاباتها في بعض البلاد في الاستيلاء على السلطة... لكن هل تنجح في تغيير القاعدة؟!!

والماركسية تستعد لترث حضارة الغرب .. وهو أمر وارد!!

أولا : لأنها اليوم تعيش «شبابها» وحضارة الغرب تعيش كهولتها.

ثانيا : لأن لها من «السحر» و «الخداع» لعامة الناس وخاصة «الطبقة العاملة» ما ليس لغيرها من مبادئ الغرب .

ثالثا : لما يعيشه الغرب الآن من تفسخ، وانسلاخ من دينه بما لا يحميه من ذلك الكفر الصراح.

رابعا : لما أشرنا إليه بإذن الله من أساس الحضارتين واحد فلا غرو أن ترث الأخت أختها..

ومن ثم...فكلماتنا ـ رغم موضوعيتها وأساسها العلمي ـ تحمل النذير لأمتنا..

أن البساط يسحب من تحت أقدامها!! وأن الدمار والفناء ينتظرانها، إن هي غفلت بعد اليوم ولو لحظة، أو إن هي «فرطت» بعد اليوم ولو ذرة.

ونحسب أن نقطة البداية الطبيعية لمثل هذه المبادئ الخادعة أن نتعرف وعاءها، فكل وعاء بما فيه ينضح البيئة التي نشأت فيها، ثم الرجل الذي نادى بها ثم نعرض بعد ذلك للمبدأ في أصله وفي محاولة تطويره لتلافي العيوب وأخيرا لما فعلته الماركسية بالمسلمين ابتداء من أرض القرم والقوقاز وانتهاء إلى أرض اليمن والصومال..والله المستعان ... وعليه التكلان ... ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

المطلب الأول

الوعــاء

تقدمة:

دراسة المبدأ بغير وعائه دراسة قاصرة ذلك أن الفصل بينه وبين ذلك الوعاء فصل تحكمي.. وإلا فإن نافخ الكير يمكن أن يخرج « مسكا » وحامل «المسك يمكن أن يخرج «شررا»... وصدق الله العظيم «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا »(٤١) . والحديث عن وعاء الماركسية يشمل:

البيئة التي ظهرت فيها، ثم الرجل الذي نادى بها، وحسبنا ذلك، وإن كان في كثير من «النماذج» الأخرى الداعية إليها الكثير من أصحابها الأولين...

(٤١) سورة الأعراف ٥٨ .

أولا: البيئة

ظهرت الماركسية أول ما ظهرت في أوربا وكان كل شيء هناك يمهّد لها: الدين، والاقتصاد، والفلسفة، ولنعط كلا... كلمة!

١ ـ الدين في القرن التاسع عشر:[٤٢]

قاست أوربا الكثير من دينها . هذه حقيقة لابد من الاعتراف بها، ففي الوقت الذي بدأت تتفتح فيه على العلم وتأخذ بأسبابه، وفي الوقت الذي اتصلت فيه بالشرق الإسلامي ـ بأكثر من طريق ـ وعرفت عقيدته السهلة، وشريعته السمحة... تفتحت آذانها، وعيونها على دين معقد يصادم العقل ويرهقه !

فمن قائل بأقانيم ثلاثة: (الأب والابن والروح القدس)!!! ومن قائل «المسيح ابن الله» ! ومن قائل «إن الله هو المسيح بن مريم»!

وكل ذلك تحريف لدين المسيح ـ عليه السلام ـ وخروج عليه ! فكيف لأبناء عصر النهضة أن يسيغوا ذلك « الخلط » و «الخبط» وكيف بمن سمعوا شيئا عن عقيدة الإسلام «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا» «ليس كمثله شيء» «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد»

كيف بمن سمع بهذه البساطة أن يسيغ ذلك التعقيد؟ ثم كيف مع ذلك التعقيد بما انحدر إليه رجال الدين!! «كرسي الاعتراف» «صكوك الغفران»، «قرارات الحرمان» وأخيرا تلك الوصمة التي لا تنسى: اضطهاد العلم والعلماء، وتكفيرهم، وسوقهم إلى محاكم التفتيش، لترتفع أعظم الرؤوس على أعواد المشانق ...

(٤٢) راجع عرضا طيبا في مؤلف الأستاذ عبد الحليم خفاجي ص ٦٩ وما بعدها .

لم يكن بعد ذلك غريبا أن ترتفع الصيحة: «اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس»، ثم بأن تكون «الردة» عن ذلك الدين إلى «دين ماركس».

هذا عن الدين...

٢ ـ الاقتصاد في القرن التاسع عشر(٤٣)

كانت الرأسمالية في عنفوانها ...

أصحاب «المزارع الكبيرة» يمارسون «الاقطاع»، وأصحاب المصانع ـ بعد الثورة الصناعية ـ يمارسون إقطاعا من نوع آخر، قلة تملك وتكدس الثروات، وتعيش حياة «الترف الداعر»، وملايين محرومة تعيش حياة البؤس والشقاء، وتشهد من قريب من يرفلون في عرق جبينهم.

والتطرف يفضي إلى تطرف ... ذاك قانون الطبيعة فليس غريبا أن تستمع الطبقة الكادحة لذلك النداء الخادع: «ياصعاليك العالم اتحدوا... فأمامكم عالم تغنمونه وليس عندكم من شئ تفقدونه غير القيود والأغلال »(٤٤)

وليس غريبا أن يصدقوا نظرية «فائض القيمة» و«إلغاء الملكية الفردية» وشيوعية رأس المال، من كل حسب طاقته... ولكل حسب حاجته.!!

٣ ـ الفلسفة في القرن التاسع عشر

كانت الفلسفة السائدة في ذلك القرن هي ما يمكن أن يسمى بفلسفة «المثالية» والتي كانت ميراثا كبيرا منذ «أفلاطون» إلى فيورباخ .

(٤٣) راجع تفصيلا في مؤلف الدكتور محمد البهى تهافت الفكر المادي بين النظر والتطبيق ص ١٧ ومابعدها الناشر مكتبة وهبة الطبعة الثالثة أكتوبر سنة ١٩٧٥ .

(٤٤) هذه صيحة ماركس استغل فيها « نكسة الرأسمالية وارتكاسها لينتقل بالعالم إلى نكسة وارتكاسة أشد خطورة .

وقد أغرقت في التحليق في الخيال، وأغرقت كذلك في الخوض فيما ليس لها به علم، مثل كثير من «الإلهيات» فكانت الفلسفة المادية القائمة على «الحسّ» ردّ فعل لتلك الفلسفة المثالية المغرقة في الخيال.(٤٥) .

وهكذا كان الدين في أوربا يمهد للماركسية.. وكانت الرأسمالية في أوربا، تمهد للماركسية .. وكانت الفلسفة المثالية في أوربا، تمهد للفلسفة المادية . وكان على البشرية كلها، أن تكفر عن «خطيئة أوربا بخطيئة أخرى هي الماركسية» . وقبل أن نعرض لها، نلقي بعض الضوء على صاحبها ومؤسس أول دولة لها.. ليكتمل الحديث عن الوعاء...

(٤٥) راجع عرضا جميلا للأستاذ عبد الحليم خفاجى عن أن الفلسفة المادية كانت تعبيرا عن أزمة الفلسفة المثالية من ص ٥٥/٦٦ من كتابه حوار مع الشيوعيين في أقبية السجون .. الطبعة الأولى ١٣٩٤ ـ ١٩٧٤ ـ دار القلم ـ الكويت .

ثانيا : مؤسس الفكرة

اليهود والفكرة :

مؤسس الفكرة : ماركس

مؤسس الدولة : لينين

وكلاهما من أصل يهودى

وحتى لانفرق في الحديث عن صناعة اليهود للفكرة ، وصناعتهم للدولة ، وماقيل عن « تخطيط » اليهود للثورة البلشفية(٤٦)وتمويلهم لها(٤٧) واشتراكهم بأعضاء منهم في مجلس الحرب والثورة(٤٨) ثم في مجلس السوفييت الأعلى الحاكم(٤٩) ورفعهم شعارهم شعارا للثورة البلشفية نفسها(٥٠) كل ذلك وإن كان أكثره صحيحا إن لم يكن كله فإنه

---

(٤٦) هذا ماقد يتضح من بروتوكولات حكماء صهيون ، وما يؤكده تنبؤ ناشر هذه البروتوكولات العالم الروسي « سرجي نيلوس » منذ سنة ١٩٠١ بقيام ثورة البلشفية في روسيا وهو ماحدث فعلا بعد ستة عشر سنة من تنبؤه .. ، وفي مجلة يهودية أمريكية صادرةفي ١٩٢٠/٩/١٠ أن الثورة الشيوعية أو روسيا كانت تصميم اليهود وإنها قامت نتيجة لتدبير اليهودالذين يهدفون إلى خلق نظام جديد للعالم وأن ماتحقق في روسيا كان بفضل العقلية اليهودية التي خلقت الشيوعية في العالم ونتيجة لتدبير اليهود ، ولسوف تعم الشيوعية العالم بسواعدهم (مجلة افريكان هبيرو)

(٤٧) تشير كثير من المؤلفات إلى تمويل الثورة الشيوعية قام به خمسة من اليهود هم : جاكوب سف ، جوجنهايم زماكس بربتوغ ، وأتوكان .. (راجع محمد خليفة التونسي الخطر اليهودي ومجد كيلاني ـ الخطر اليهودي علي العالم الإسلامي ، حقيقة الشيوعية سلسلة أخترنا لك ـ دار المعارف بمصر .. الخ ..

(٤٨) كان من اليهود في مجلس إدارة الحرب والثورة :

١ ـ تروتسكي ٢ ـ جوف ٣ ـ لينين ٤ ـ اتنشلخت

٥ ـ سويردليف ٦ ـ لورتسكي ٧ ـ جوسيف ٨ ـ مولتوف

(لم يكن الأخير يهوديا ولكنه متزوج يهودية) ـ راجع ماسبق .

(٤٩) كان المجلس الحاكم على عهد ستالين مكونا من ١٧ عضوا منهم ١٤ يهوديا على النحو التالي :

كاجاتوفش (نائب رئيس المجلس) بيريا ، شفيرنيك ، كيرتشينستين ، جوركين فيرسلوف ، مولتوف ، ايليا ايرهمبرج ، ويفنسكي ، هيسنرج ، ميخيليس فرمين ، جودي ، لوزفسكي .. علاوة على أن رئيس المجلس ستالين كان متزوجا من يهودية ـ ويذكر امان راجوزا في كتابه عن ستالين أن جدته لأمه كانت يهودية .

(٥٠) يتخذ اليهود الأفعى الرمزية رمزا لأمتهم كما يتخذون النجمة السداسية شعارا لهم .. وقد اتخذت الثورة البلشفية شعارا لها الأفعي الرمزية وبداخلها النجمة السداسية ... !!!!

في الوقت نفسه قد يتضمن لونا من الدعاية اليهودية ، بقصد إلقاء الرعب في قلوب أعداء اليهود ، وحمل الآخرين علي تقبل مطالب اليهود ، نقول لانفرق في ذلك ولنعرض لماركس صانع الفكرة ونترك الدولة « اكتفاء بالإشارة السابقة » .

ماركس :

وندع أنه من أصل يهودى وإن كان لذلك الأصل تأثيره بما عرف عن الطبيعة اليهودية من حقد والتواء ، وبما عرف عنها من تقديس للمادة «ولتجدنهم أحرص الناس على حياة» .. أية حياة ولاشك أن للوراثة أثرها . نعرض عن ذلك حتى لا نحاج بأننا نحمل الرجل أوزار أجداده وآبائه والله يقول «ولا تزر وازرة وزر أخرى»

لكننا نشير إلى أشياء ثابتة فى حياة كارل ماركس :

١ ـ ماوصفه به أبوه من طبيعة تميل إلى الهدم والتدمير والأنانية

٢ ـ ماقبله على نفسه أن يعيش بعد وفاة أبيه عالة على أمه وإخوته يأكل من نصيبهن فى الإرث بعد أن أكل نصيبه .. وذلك بدلا من أن يعولهن وهن الإناث الضعيفات

٣ ـ ماقبله على نفسه أن يعيش عالة على صديقه «فردريك أنجلز»

٤ ـ ما ارتكبه من غش واحتيال على بعض دور النشر ، إذ باعها حق نشر بعض كتبه فى الوقت الذى كان يبيعها فيه إلى دور أخرى !!

٥ ـ موت ابنتيه منتحرتين :

واحدة (الينورا) بعد أن عاشت فى الحرام مع عشيق لها .. ثم اكتشفت سبق زواجه ، والثانية خوفا أن تدركها الشيخوخة !!

وكما أننا لم نأخذ كارل بذنب آبائه فإننا لا نأخذه بذنب بناته ولكننا نتساءل ألا يمكن أن يكون للوراثة أثرها هنا ؟ ثم كيف لم يستطع ذلك العبقرى لا أن يربى بناته بل أن يعرفهن طريق الحياة الصحيح(٥١) .

ولنحاول بعد ذلك أن نتعرف على الماركسية كمبدأ ، بعد أن عرفناها كوعاء فيما عرضنا له من البيئة التى نشأت فيها ثم من الشخص الذى نشأت فيه .!!!

(٥١) راجع عرضا جميلا لأحد العباقرة في الفكر الحديث « عباس محمود العقاد » في كتابه الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام ـ نشر دار الكتاب العربي من ص ٧٤/٢٩ وقد اغفلنا الإشارة الى أمرين :

المطلب الثانى
المبـــــدأ

من مادية «فيورباخ» وجدلية «هيجل» .. أقام «كارل ماركس» فلسفته على المادية الجدلية(٥٢) وربطها بأربعة قوانين ، وبهذه المادية فسر التاريخ تفسيرا ماديا ، وبهذه النظرة المادية أرجع كل شئ فى الأقتصاد إلى أدوات الإنتاج وقال بفائض القيمة وبذا تبدو الماركسية أشبه بالدين نظرة إلى الحياة وتفسير للكون ، ونظام للمجتمع ولا يتسع المقام للعرض لجوانب الماركسية كمذهب ، وكنظام إجتماعى ، واقتصادى وسياسى لكننا نكتفى منها بالأساس فإذا انقض الأساس فبقية البناء محكوم عليه بالسقوط والانهدام ، وتبدو الرابطة واضحة بين أساس الماركسية الفكرى ، وأساس الغرب الفكرى ، بل إن الماركسية مدينة للغرب فى فكرها ، فإن ماركس لم يأت بجديد ، وإنما من التلفيق بين ماقاله هيجل وما قاله فيورباخ أقام فلسفته التى كانت ـ كما أشرنا ـ رد فعل للفلسفة المثالية التى أغرقت في الخيال(٥٣) أو ـ كما قال بحق أحد الكتاب ـ كانت تعبيرا عن أزمة الفلسفة المثالية فى القرن التاسع عشر ..

الامر الأول : ماأشار إليه العقاد من اعتلال جسمه وماقد يكون له من أثر في اعتلال عقله فإن ذلك ليس اضطرادا دائما ، فقد تكون علة الجسم حافزا إلى توقد العقل واستقامته إذا عرف الطريق الصحيح ..

الأمر الثاني : ما أشار إليه العقاد من « قذارة » كارل ماركس البدنية ، وعدم نظافته وما أستدل عليه على ذلك نقلا عن « ليوبلد شوارزشيلد صاحب كتاب البروس الأحمر ، وغيره من التقارير المحفوظة في دار المحفوظات بمدينة ليبزج ـ فقد لايرى البعض أن تلك القذارة الظاهرية ناجمة عن قذارة باطنية وقد لايكون الربط محكما بين قذارة جسمه ، وقذارة أفكاره ...

(٥٢) يعترف ماركس وانجلز ولينين أن الينبوع الفلسفي الاساسي للفلسفة الماركسية كان المثالية الألمانية ، وأنه لولا الفلسفة الألمانية ولاسيا فلسفة هيجل (ونضيف إليها فيورباخ) لما تأتى للأشتراكية العلمية أن ترى النور ..
(ماركسية القرن العشرين ـ ترجمة لكتاب جارودي ـ التحول الكبير في الاشتراكية ـ الطبعة الثالثة ـ سنة ١٩٧٢ تعريب نزيه حكيم .

(٥٣) انظر هامش الصفحة السابقة (ص٦٤) ٢ .

وفلسفة ماركس مضى عليها أكثر من قرن ومن ثم فهى - كفكر بشرى - محكوم عليه بالرجعية ، وإن أدعت أو ادَّعَى أنصارها لها عكس ذلك .

وأول تراجع لها : عدول فردريك انجلز عن تقديم العامل المادى على غيره من العوامل فى تفسير التاريخ ، وإعلانه عن خطئه هو وصاحبه فى ذلك .

ثم ماقال به لينين حين واجهت النظرية العمل ، وبدأ امتحانها الحقيقى ، ومنها ما أدخله عليها ستالين وخروشوف ،والمؤتمر الذى انعقد سنة ١٩٦٣ فى موسكو من ٢٩ عالم سوفيتى ليضع أسس الماركسية اللينينية ، والذى أعتبر توحيد الفكر والمادة من مفاهيم المادية المنحطة ، وانهارت معه بعض الأسس لتلك الفلسفة أمام حقائق العلم الحديث .

ومنها ماقال به أخيرا الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى فى سنة ١٩٦٦ فى كتابه التحول الكبير فى الاشتراكية ، والذى عرب تحت أسم ماركسية القرن العشرين(٥٤)وبه بعدت الماركسية كثيرا عن أساسها ، وغضب لذلك أنصارها ، فأخرجوه من الحزب سنة ١٩٦٩ بعد أن كان يحتل مركز عضو المكتب السياسى وفيلسوف الحزب

ثم عاد الحزب الشيوعى الفرنسى بعد إخراج جارودى ليرفض دكتاتورية البروليتاريا بما تسببه من نفور الذين تربوا على الديموقراطية وكرهوا الدكتاتورية فى كل صورها ، وتبعه فى ذلك الحزب الشيوعى الإيطالى فماذا بقى من «فكر» الماركسية بعد ذلك ؟؟؟

كيف يسير التخطيط لهدم الإسلام بين المسلمين داخل الأتحاد السوفيتى ؟

هنا ننقل عن كتاب صدر فى موسكو سنة ١٩٦٧ وأعيد طبعه عام ١٩٧٤ عن معهد الألحاد العلمى بأكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفيتى .

(٥٤) عربه نزيه حكيم ، وانظر طبعته الثالثة (سنة ١٩٧٢)

ما يشير إلى أن وسائل الإلحاد هى وسائل التبشير القديمة تعيد نفسها مرة أخرى ، وإن حاولت أن تتجنب أخطاء التبشير ، واقتربت من وسائل التغيير الإجتماعي .

يقول كتاب نشر الإلحاد الصادر فى روسيا .

والآن من ذا الذى يعتبر أهلا للقيام بنشر الإلحاد بين معتنقى الإسلام ..؟

هذا سؤال هام وخطير إذا كان الداعية الملحد الذى سيحاور المسلم لا تربطه بالإسلام أى رابطة مشتركة من الناحية القومية ، ففى إمكان المؤمن أن يفترض أنه إنما ينقد الإسلام خاصة ولا يتعرض لدينه هو بشئ ، لذلك كان من السهل على الداعية الذى ينتمى هو والمدعو إلى قومية واحدة أن يجرى معه حوارا ، وخاصة إذا بدأ الحوار بينهما باللغة القومية المشتركة ، وإن كان هذا لايعنى أن علاقة المسلم بمن ينتمى إلى قومية أخرى قائمة بالضرورة على عدم الثقة .

وأيا كانت قومية الداعية فلابّد له من معرفة جيدة بالدين والعادات والتقاليد التى يتمسك بها المؤمن ، فخلال العمل بين المسلمين ، تعد مراعاة السن والجنس عند المؤمنين على جانب كبير من الأهمية ، ومن ثم كان الحديث إلى كبار السن أيسر بالنسبة لداعية متقدم فى السن ، والغالبية العظمى من المسلمات يرفضن الحوار مع الرجل الأجنبى أما مع المرأة التى تقوم بالدعاية فإنهن أفضل سلوكا إلى حد كبير ..

أضف إلى ذلك أن نموذج المرأة النشيطة يؤثر تأثيرا قويا على كثير من النساء فالمؤمنات يتجهن إلى محاكاة الصديقة الأكثر ثقافة أو ذات الشخصية الأكثر استقلالا .

ويعين الداعية إلى الإلحاد فى عمله الرأى العام الألحادى الذى هو مدعو لأن يقوم بتشكيله . ومن المعروف على سبيل المثال أن كبار السن يكتسبون نفوذا غير عادى بين المسلمين وهذه الخاصية يستغلها كذلك ـ الداعية حين يلجأ إلى مساعدة الشيوعيين المتقدمين فى السن والذين يكونون موضع الإجلال فى المنطقة إذ يصغى الناس فى العادة إلى كلماتهم باهتمام خاص وباستعداد لتنفيذ أى رجاء يصدر منهم .

وتمارس لجان الكبار التى تؤسس فى مناطق السكنى والمؤسسات تأثيرا قوميا في تكوين رأى عام إلحادى .

وفى سوفخوز «كيناس» يقوم أعضاء لجنة الكبار بعمل كبير ، إذ يزورون بانتظام البيوت التى يقيم فيها المؤمنون ، وقد توصل هؤلاء الأعضاء الذين اضطلعوا بمسئولية دفن الموتى إلى أن جعلوا تأثير الشيوخ الرسميين وغير الرسميين يتضاءل فى هذه العملية إلى حد كبير .

وفى نشر الإلحاد بين المسلمين فى دار الإلحاد العلمى بموسكو يعمل الشيوعيون المتقدمون فى السن مثل م . ش . شاجى أحمروف ، وس . خ اسماعيلوف ، و ج . م . اختيافوف وكثير غيرهم ، وهم يزورون مساكن المؤمنين ويحادثونهم ويسدون اليهم النصيحة .

ويساعد الدعاة مساعدة كبيرة فى صراعهم ضد التأثير الدينى ، فارتداد إنسان ذى شهرة فى قضايا الدين يصلح مثالا بالنسبة لبعض المؤمنين .

وقد حقق الملحد قادر نيسوف من كولوخوز كيسيل يولد وزاخ جمهورية تركمانيا نجاحا كبيرا فى نشاطه الإلحادى عندما دعا جماعه من أكثر المؤمنين تعصبا ثم ارتدوا عن الدين ليخطبوا أمام غيرهم من المؤمنين ، وصار الذين ارتدوا عن الإسلام فى هذا الكولوخوزعونا للداعية يمارسون نشر الإلحاد بين أفراد المؤمنين .

ويكتسب العاملون فى ميدان الطب نفوذا كبيرا بين المسلمين ، وفى نقط العلاج الطبى يستقبل الأطباء مرضاهم للعلاج الصحى والاجتماعى وهكذا يقدم الأطباء المساعدة الطبية ، ثم يدور الحديث حول موضوعات العلوم الطبيعية . وقد حققت نقط العلاج الطبى هذه فوائد جمة لقضية تربية السكان تربية إلحادية فى مدن أوزيكستان وقراها . لذا فإن الطبيب ومساعده من أجود المرشحين لممارسة الإلحاد بين أفراد المسلمين .

ويختص المعلمون فى المدارس بدور كبير فى الدعاية إلى الالحاد

فالبداية الأولى للتعرف إلى الطفل تجعل فى إمكان المعلم تحديد التأثير الدينى للعائلة ، ومهمته الأولى حينئذ هى إقناع الآباء بالامتناع عن تربية الأولاد تربية دينية ،

ويمكنه فى الوقت نفسه أن يؤثر تأثيرا إلحاديا كبيرا على الآباء أنفسهم بإقامة اتصال مباشر بينه وبين الأسرة «أسرة التلميذ»

كثير من المعلمين لا يقصرون دورهم على تنشئة تلاميذهم بحيث يشبون غير متدينين ، بل إنهم يربون فيهم رسوخ العقيدة فى الإلحاد والقدرة على مساعدة المؤمنين على التحرر من الدين

وتؤدى اللجان النسائية دورا كبيرا فى ممارسة نشر الإلحاد بين الأفراد من النساء المؤمنات ، وقد أثرت تأثيرا طيبا فى كثير من مناطق سمرقند حين نظمت اللجان النسائية فى نهار رمضان حفلات الشاى للنساء الصائمات فى الشقق والنوادى ، ولم يكن المؤمنات يرفضن الإفطار فى مثل هذه الأحوال وبذلك كن يخطون الخطوة الأولى فى سبيل الانعتاق من الدين .

ومن الأمور التى لها أهمية كبيرة فى نشر الإلحاد بين النساء تكوين رأى عام ضد الحجاب(٥٥) وضد تزويج صغار السن من البنات ، ففى كولخوز «الاتو» فى جمهورية كيرفيزيا يتحدث الملحدون إلى الرجال أمام الزوار الآخرين قبل بداية أى أجتماع أو عرض سينمائي يقولون لهم على سبيل المثال «ياحسن ... قل للناس : لماذا أتيت إلى الحفل بدون زوجتك؟؟ وأنت ياموروزا أيضا : بين الناس لم فعلت ذلك ؟؟؟

وهنا كان بعض الرجال يصمتون ، ولكن كثيرا منهم كانوا يخرجون ثم يعودون ومعهم زوجاتهم .. وهكذا استطاع الملحدون أن يجعلوا كل الرجال يحضرون إلى أماكن الاجتماعات العامة ومعهم زوجاتهم

وربما كان عميق الإيمان من المسلمين أكثر عزوفا عن حضور الأمسيات والمحاضرات والمحادثات الإلحادية من أتباع أى نظام دينى آخر ، ذلك أن القرآن يستنكر تناول الدين بالنقد لذلك كانت المناقشات المباشرة المضادة للدين والكلمات العامة عنه لا تجدى نفعا ، ذلك أن أى طعن على الإسلام يعتبر إهانة صارخة لإنسان رضع من لبن أمه التصورات الدينية التى يشاركه إياها أجداده وأجداد أجداده وفى مثل هذه

---

(٥٥) حتى الشيوعية تحارب الحجاب وهي نفس دعوة الغرب إلى تحرير المرأة ..تري هل تفقه نساؤنا كيف اتحد الغرب الكافر مع الشرق الحاقد على تعريتهن .. وهل يفقهن ضرر ذلك على الإسلام ... ؟؟؟

الأحوال نجد مثل هذا الإنسان إما أن ينغلق على نفسه وإما أن يعبئ كل إرادته وعقله من أجل المقاومة ، ولكنه لن يميل بحال إلى قبول حديث عن الإلحاد فليس سهلا على الإنسان أن يتخلى عن العقيدة التى نشأ عليها

لهذا كله لا يمس الدعاة المجربون الدين مسًّا مباشرا فى محادثاتهم أثناء ممارستهم نشر الإلحاد بين أفراد المؤمنين ، ولكنهم بعد أن يمهدوا بإثارة فضول المؤمن - يتحولون إلى نقد الدين وهاهو ذا مثال نسوقه للمعلمة ب . وليفاكولخوز «اكتوبر» فى ضواحى سمرقند .. ففى المنزل عندما تجرى هذه المعلمة محادثات مع المتدينات حين يفدن عليها كل مساء لشرب الشاى والاسترواح ، وذلك دون أن تشعر أيا من المشتركات فى الحديث أنها دعوة لكى تنبذ دينها . ويدور الحوار فى يسر وبلا تكلف عن أحداث العالم وأنباء الكولوخوز لكن ربة المنزل هى التى تحدد لون الحديث ثم توجه الكلام تدريجيا ودون أن تلحظ الأخريات إلى الموضوع والمقصود ، فتطرح الأسئلة ثم تتولى هى بنفسها الإجابة ، وحينما يستولى موضوع الحديث على ألباب المؤمنات ، حينئذ فقط تبدأ فى الكلام بحرارة وإقناع عن ضرر الرواسب الدينية .

وهذه قصة يرويها ملحد من موسكو يسمى ل . ج جومبروف ، تمكن من إخراج العاملة رحيمة يارانجلوفا من دينها ، يقول الملحد «أخذت بصفتى ملحدا أزور شقة العاملة المتدينة رحيمة ... وكنت أحادثها طويلا وأقرأ الكتب جهرا وكانت رحيمة تصمت فى أكثر الحالات ولكنها كانت تصغى إلىّ باهتمام وكان واضحا أن هذه القصص تجذب اهتمامها .. من العسير أن تتصور الأمر ... لقد سمعت منى لأول مرة عن الأبطال من النساء السوفيت ، وعرفت لأول مرة أسماء المشتغلات بالعلم من السوفيت ... وتكلمنا معها عن غزو السوفيت للفضاء .. وقد أزعجها كثيرا هذا الموضوع ... وأذهلها على وجه الخصوص أن رجال الفضاء لن يخافوا الله بل ربما خافهم الله مادام لم يحل بينهم وبين أن يصعدوا إلى مثل هذا الارتفاع ... وكان على ل . ج . جوميروف أن يحادثها طويلا .. إلى أن خلعت رحيمة ربقة الدين من عنقها نهائيا ...

ومن الأيسر على الداعية إلى الإلحاد أن يحقق النجاح عندما يكون الرأى العام بين المجموع مكيفا على نحو لا يعبأ الناس فيه بالإفطار فى نهار رمضان مثلا

ولابد فى العمل على نشر الإلحاد بين المؤمنين المسلمين من أن تستغل فى براعة اللهفة إلى المعرفة ، ذلك إن الإسلام يقوم على أساس القرآن الذى يتوهم الشيوعيون إنه يضيق اهتمامات معتنقيه ويحددها لكى يثبت الجهل .

المطلب الثالث

ماذا تفعل الماركسية بالمسلمين (٥٦)

المأساة أجّل من أن تكتب في مطلب .. !!

فلنكتف فيها بالإشارة .

ولنطلبْ فيها من القاريء ـ ملحّين ـ أن يقرأ المزيد .. !!

أولا : المسلمون في الاتحاد السوفييتي (٥٧)

الأرض الإسلامية ميراث محمد صلى الله عليه وسلم أضعاف أرض روسيا ...

فأقاليم الإسلام في الاتحاد السوفييتي تشمل :

١ ـ الأورال .

٢ ـ استرخان .

٣ ـ سيبيريا .

(٥٦) أما ماذا فعلت في غير المسلمين فخداع المجر سنة ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨ أقرب مثال وخير مثال وأما ما فعلته في نفسها فاقرأ فيه : آثرت الحرية فلفيكتور كرانتشيسكو روسي هارب من جحيم زونيا .

(٥٧) هذا عنوان فصل في كتاب الإسلام في وجه الزحف الأحمر وجدناه أفضل ما كتب عن حال المسلمين في الاتحاد السوفييتي للشيخ الداعية محمد الغزالي .

٤ ـ القرم « وهي أغنى المناطق بالحاصلات الزراعية » .

٥ ـ القوقاز « وهي أغنى المناطق بالبترول وبعض المعادن » .

٦ ـ التركستان « التي منها إمام السنة البخاري ، والمفسران : الزمخشري ، والنسفي ، ومن أئمة البلاغة وإعجاز القرآن عبدالقاهر الجرجاني ، وسعد الدين التفتازاني ، ويوسف السكاكي ومنها الفارابي وابن سيناء . ومن علماء الرياضة والفلك خالد والبلخي ومن علماء الهندسة بنو موسى .. ، ومنها البيروني والماتريدي والخوارزمي والسرخسي والجوهري وغيرهم ...

ومن الثروات المعدنية :

٢٥٠ منجما للذهب، ١٦ للفضة، ٤٦ للحديد،
٣٢ للرصاص، ٣٤ للبترول، ٧٠ للفحم،
١٣ للكبريت، ٦٣ للصوديوم، عدا الأورانيوم والفرام والزئبق والنحاس والقصدير والبلاتين ...

وهذه الأقاليم تمثل الشمال الشرقي من العالم الإسلامي .

وهي تمثل من حيث المساحة تسعة أعشار مساحة الاتحاد السوفييتي « كانت ٤٠٠ ألف كيلو مترا ، فصارت بعد ضم البلاد الإسلامية ١٤ مليون كيلو مترا » .

بعد الثورة البلشفية وعلى التحديد في ٧ ديسمبر ١٩١٧ أصدر مجلس قوميسيري الشعب البلشفي نداء موجها إلى شعوب روسيا من المسلمين كان من بين من وقّعه لينين وستالين ، وقد جاء فيه : ... « إن امبراطورية السلب والعنف الرأسمالية توشك أن تنهار ، والأرض التي تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل نارا » .

وفي وجه هذه الأحداث الجسام ، نتجه بأنظارنا إليكم أنتم يا مسلمي روسيا والشرق ، أنتم يا من تشقون وتكدحون ، وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم له أهل ...

أيها المسلمون في روسيا .

أيها التتر على شواطئ الفولجا وفي القرم .

أيها الكرغير والسارتيون في سيبيريا والتركستان .

أيها التتر والأتراك في القوقاز .

أيها الجبليون في اتحاد القوقاز .

أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم ، وقبوركم ، واعتدي على عقائدكم وعاداتكم وداس القياصرة ، والطغاة الروس على مقدساتكم .

ستكون حرية عقائدكم ، وعاداتكم ، وحرية نظمكم القومية ومنظماتكم الثقافية مكفولة لكم منذ اليوم ، لا يطغي عليها طاغ ، ولا يعتدي عليها طاغ ، ولا يعتدي عليها معتد .

هبوا إذن فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم ، فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل ... إلى أن قال البيان :

أيها الرفاق (!) أيها الأخوة (!) .

لنتقدم سويا في عزم وصلابة نحو سلم عادل ديموقراطي (!) .

إن رايتنا تحمل معها الحرية للشعوب المظلومة في أرجاء العالم .

أيها المسلمون في روسيا .

أيها المسلمون في الشرق .

إننا ونحن نسير في الطريق الذي يؤدي بالعالم إلى بعث جديد نتطلع إليكم لنلتمس عندكم العطف والعون .

استجابت البلاد الإسلامية وأعلنت استقلالها (عن الحكم الروسي القديم) فهل تركها الحكم الذي « يحمل الحرية للشعوب المظلومة في أرجاء العالم » ؟؟؟

في أبريل سنة ١٩١٨ أصدر لينين أمرا بالزحف على البلاد الإسلامية وسارت الجيوش الروسية بالدبابات والطائرات والمدافع .. تدمر وتحصد ما في طريقها . وفي نهاية العام تم لها الاستيلاء على جمهورية « ايديل أورال » وشمال القوقاز ، وحكومة خوقند ، وتأخر استيلاؤها على شبه جزيرة القرم لعنف المقاومة فيها .

وفي سنة ١٩١٩ ، تم الاستيلاء على جمهورية الاش اوردو .

وفي إبريل سنة ١٩٢٠ ، انتهت من احتلال القرم ، واستأنفت الهجوم على جمهورية أذربيجان واستطاعت إخضاعها .

وفي نهاية سنة ١٩٢٠ ، استولت على جمهورية خيوه ، بعد أن ظلت تدافع دفاع المستميت .

وفي سنة ١٩٢١ ، استأنفت الهجوم على جمهورية « بخاري » ، ودار فيها قتال عنيف

، ودافع أحفاد البخاري رضي الله عنه عن ميراث محمد صلى الله عليه وسلم ولكنهم بحكم أنهم وحدهم ـ لم يستطيعوا الوقوف في وجه الزحف الأحمر الثقيل فهزمت جيوشهم المنظمة ، لكنهم ظلوا يحاربون حرب عصابات مدة عشر سنوات دون أن يتلقوا أية معونة من العالم الإسلامي .

ونشرت جريدة أزفستيا في عددها الصادر في ١٥ يولية سنة ١٩٢٢ تقريرا للرفيق كالينين عن مجاعة القرم (نتيجة نقل الروس ما في الجزيرة من أقوات ليضطروهم للتسليم) .

بلغ الذين أصابتهم محنة الجوع في شهر يناير ٣٠٢٫٠٠٠ مات منهم ١٤٫٤١٣ .

وارتفع عددهم في مارس إلى ٣٧٩٫٠٠٠ مات منهم ١٩٫٩٠٢ .

وبلغ عددهم في ابريل ٣٧٧٫٠٠٠ مات منهم ١٢٫٧٥٤ .

وبلغ عدده في يونية ٣٩٢٫٠٧٢ (ولم يذكر كم مات في هذا الشهر) .

وقد كان سكان القرم في سنة ١٩١٧ خمسة ملايين ... فبلغوا في سنة ١٩٤٠ ٤٠٠٫٠٠٠ فقط وهذا ما يقلّ عن عشر السكان .

وكانت المساجد ١٥٥٨ مسجدا ولم يبق منها إلا عشرات !!

لجأت الثورة الشيوعية بعد أن استتب لها الأمر ، إلى نفي شعوب بأكملها ، ليحل محلّها الروس ... وفي بيان لوكيل الجامع الأزهر ورئيس جماعة الكفاح الإسلامي أرسل إلى الأمم المتحدة أن بعض المهاجرين من الحكم البلشفي الغاشم قدموا بعض الحقائق التي نذكر منها :

أ ـ في التركستان وحدها ، قتل الشيوعيون سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم ... وقفوا ثلاثمائة ألف مسلم ، ومات ثلاثة ملايين مسلم جوعا نتيجة استيلاء الروس على محاصيلهم وإعطائها للصليبيين ليحلوا محلهم . وفيما بين سنة ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ ألقت القبض على ٥٠٠ ألف مسلم أعدمت منهم فريقا ، ونفت الباقي .

وقتلوا من رجال الدين : الشيخ برهان الدين البخاري قاضي القضاة ، والشيخ خان مروان مفتي بخاري ، والشيخ عبدالمطلب داملا ، والشيخ محسوم متولي ، والشيخ عبدالأحد دارخان ، والشيخ الحاج ملا يعقوب ، والشيخ ملا عبدالكريم ... وغيرهم كثيرون ...

ومن الساسة : خدمة نياز رئيس جمهورية ، ومولانا ثابت رئيس الوزراء وشريف حاج قائد مقاطعة آلتا ، وعثمان اوراز قائد مقاطعة كاشغو ويونس بك وزير الدولة والحاج أبو محسن وزير التجارة ، وطاهر بك رئيس مجلس النواب ، وعبدالله دملا وزير الأشغال .

- وفي سنة ١٩٤٩ هرب ٢٫٠٠٠ شخص منهم ١٫٢٠٠ لقوا حتفهم في الطريق .

- وفي سنة ١٩٥٠ ، هرب ٢٠٫٠٠٠ مسلما .. وقتلت روسيا سبعة آلاف!!!

ب ـ في القــرم :

قتلـــوا ...

سنة ١٩٢١	١٠٠٫٠٠٠ مسلم جوعا .
سنة ١٩٢٨	قتلوا ولي ابراهيم رئيس الجمهورية مع وزرائه
سنة ١٩٣٠	قتلوا محمد قوباشي رئيس الجمهورية وجميع وزرائه
سنة ١٩٣٧	قتلوا الياس طرحان رئيس الجمهورية وجميع وزرائه بعد استدعائهم إلى موسكو أثناء محاكمة المارشال تحاتشنفسكي .

نصوص في الاتحاد السوفييتي :

في دستور سنة ١٩١٨ نصٌّ على أن « حرية الدعاية الدينية واللادينية مكفولة للجميع » .

عُدِّل في سنة ١٩١٩ إلى « حرية إقامة الشعائر الدينية وحرية الدعاية اللادينية مكفولتان لجميع المواطنين » .

وفي دستور سنة ١٩٣٦ المادة ١٢٤ « لكي يستمتع المواطنون بحرية الضمير ، تفصل الكنيسة في الاتحاد السوفييتي عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ، ويكفل لجميع المواطنين حرية الدعوة ضد الدين ...

وفي المادة ١٢٢ من القانون الجنائي السوفييتي تحريم تلقين الأطفال الأحداث العقائد الدينية في مدارس الحكومة أو المدارس الخاصة أو المعاهد التعليمية المختلفة .

وواضح من هذه النصوص :

١ ـ التفرقة الظالمة بين حرية التدين وحرية الالحاد فالأولى مقصورة على مباشرة الشعائر (إن صدقوا فيها !) والثانية ممتدة إلى حرية الدعوة والدعاية ضد الدين .

٢ ـ تنتهي حرية التدين إلى مجرد شعار بغير مضمون ولا تطبيق .

وإذا كان النّص الجنائي آنفا يحرّم تلقين الأحداث العقائد الدينية في أيّ مدرسة أو معهد ، فمن أين يأتي التدين المقول بأنّ الدستور يسمح بإقامة شعائره ؟!

ثانيا : المسلمون في بلغاريا

ونكتفي فيه ببيان موجه من هؤلاء المسلمين إلى اخوتهم في العالم الإسلامي ، وأشار إليه خطاب إتحاد الطلبة المسلمين في شرق أوربا إلى كل من وزير الخارجية السعودي ، والرئيس العام لإدارة البحوث العلمية والافتاء بالمملكة العربية السعودية . (٥٨)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين الذي قال في كتابه الكريم « إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون .

نحن المسلمين البلغار نتقدم بالشكر لكل من عمل على نشر قضيتنا للرأي العام سواء كان ذلك بالاذاعة أم بالصحف ، وقد كان لذلك أثر عميق في نفوسنا ، ونود أن نوضح حقائق أخرى عن تلك القضية .

بعد أن شعر المسئولون البلغار بنشر القضية خارج القطر أذاع راديو صوفيا بياناً باللغة العربية رادا فيه بأن المسلمين في بلغاريا يتمتعون بكل حرية ومساواة مع الآخرين .

لاشك أن هذا الرد غير صحيح وبعيد كل البعد عن الحقيقة كما سنوضح ذلك ، ونلفت نظر العالم بأجمعه أن الدستور البلغاري يذكر في المادة (٣٣) :

---

(٥٨) الأول رقم ٤٢ في ١٥ جمادي الأولي سنة ١٣٩٦ ، والثاني في ٥ جمادي الأولى سنة ١٣٩٦ .

البند (ب) لكل مواطن بلغاري الحق في أن يعتنق أي دين يرتضيه .

البند (و) لكل مواطن بلغاري يحمل اسما غير بلغاري الحق في رفع قضايا جنائية في حالة تعرضه للأذى أو الاهانة لمجرد حمله لهذا الاسم .

وبالرغم من ذلك فان الحكومة البلغارية مصممة ومستمرة في تنفيذ مخطط التنصير الماركسي ضد المسلمين معيدة عهد هتلر .

في شهر يوليو وأغسطس في مدينة بلاقويفقراد طلب من جميع المعلمين المسلمين أن يغيروا أسماءهم الإسلامية ، أو أن يطردوا من أعمالهم ، وألا يسمح لهم بممارسة أي عمل في أي جهاز من أجهزة الدولة الرسمية ، ورفض ١٦٥ معلماً مسلما أن يغيروا أسماءهم ولذلك طردوا من وظائفهم ومنعوا من حق العمل في بلغاريا موطنهم ومسقط رأسهم .

عند بدء العام الدراسي ١٩٧١ ـ ١٩٧٢ طلب من جميع تلاميذ المدارس المسلمين أن يغيروا أسماءهم الإسلامية كشرط لاستمرارهم كتلاميذ وإلا طردوا من المدارس ورفضوا جميعهم وطردوا من المدارس .

صدرت أوامر في المؤسسات الحكومية لجميع المسئولين الاداريين أن يقوموا باجراءات حازمة لتغير أسماء المسلمين العاملين في المؤسسات ، وكونت جماعات بوليسية مسلحة من قبل وزارة الداخلية لمراقبة تنفيذ هذه الأوامر ومتابعتها حتى النهاية .

تم القبض على مجموعات كبيرة من المسلمين ووضعوا في معسكرات أعدت خصيصا لهذا الغرض وساموهم أمر أنواع العذاب ومن عاد منهم فبرجل مكسورة أو يد أو أضلع مكسورات .

تم حصار بعض القرى منها كراستافا وقرية سرسينيا في منطقة بازرجيك وقاموا بانتهاك حرمات المنازل بعد أن حطموا الأبواب والنوافذ واقتحموها عنوة ، وقذفوا بأصحابها في الخارج ، وقد لقى عدد كبير من النساء والأطفال حتفهم وكذلك الشيوخ من جراء الرصاص الذي أصلاهم به رجال الأمن الذين من واجبهم حفظ المواطنين ، وقد تعرض الكثير من النساء والأطفال لنهش الكلاب البوليسية . وقد عارض كل المسلمين تلك الأوامر حتى الفتيات منهم مما أدى إلى إرسالهن إلى السجون ، ولإخفاء تلك الجرائم تم القبض على بعض المسلمين واتهموهم زورا وبهتانا بارتكاب جرائم قتل المسلمين وحكم عليهم بالإعدام ونفذ فيهم حكم الإعدام .

في يوم ١٠ مايو ١٩٧٢ تحرك حوالي ٥٫٠٠٠ مسلم من منطقة بازرجيك ومنطقة بلاقويفقراد وسمولن قراد في مظاهرة احتجاج متجهين إلى صوفيا (العاصمة) وكان ذلك في جوف الليل لكي لا يعلم بهم البوليس . وقد ضم الموكب كل فئات المسلمين من الذين أعمارهم من ١٥ إلى ٧٥ عاما وكان تحرك الموكب تحت ظروف قاسية وسط الأمطار الغزيرة والوحل وعلى بعد أميال قليلة من صوفيا وبالتحديد في محطة اسكار علمت بهم السلطات وأرسلت لهم قوة ضخمة من الجيش والبوليس وحاصروهم بالدبابات والعربات المصفحة ونقلوهم إلى مدينة بيلو حيث وضعوا في السجون حتى الآن .

وفي ١٢ مايو ١٩٧٢ حوصرت قرية إيلانسكو في منطقة فلايوقفقرار برجال البوليس تصحبهم الكلاب البوليسية ، فتصدى لهم المسلمون بشجاعة وبسالة وقتلوا أحد رجال البوليس . وكإجراء انتقامي تم القبض على ٣٠ مسلما ، وقدموا إلى محاكمات عسكرية أصدرت أحكامها التالية :

١ ـ صبري محمد بوصيف ٣٩ عاما وأب لـ ٣ أطفال الإعدام .

٢ ـ عبده إبراهيم شولاكوف (٢٩ عاما أب لطفلين) الإعدام .

٣ ـ عمر إيلانسكي (٢٩ عاما أب لطفلين) الإعدام .

٤ ـ جمال على بونصيف (٢٩ عاما أب لطفل) ١٥ سنة سجن .

٥ ـ يس إبراهيم فيصلوف (٤٣ عاما وأب لـ ٤ أطفال) ٢٥ سنة سجن .

٦ ـ رجب إبراهيم شولاكوف (٣٠ عاما وأب لطفلين) ٨ سنة سجن .

٧ ـ وصدرت ضد آخرين أحكام بالسجن لمدة متفاوتة .

في يوم ١٣ مايو ١٩٧٢ حوصرت باكرودا حيث يشكل المسلمون نسبة ٨٠ ٪ من عدد السكان واقتحم الجيش منازل المسلمين عنوة واقتادوا المسلمين مكبلين بالسلاسل واقتيدوا إلى مراكز الشرطة حيث طلب منهم أن يوقعوا على طلبات بتغيير أسمائهم تحت جو من الإرهاب والضرب والتهديد بالسجن والطرد من العمل . وفي هذه الظروف القاسية تمكن الشهيد أمين محمد وفتسرنكوف من الهرب . ولكن قوات الجيش طاردته وأطلقت عليه الرصاص فاستشهد وهو أب لطفلين في ٣٢ عاما من عمره .

أوقفت جميع المعاشات عن العجزة الذين تقاعدوا عن العمل ، وأغلقوا أبواب العمل أمام كل الذين رفضوا تغيير أسمائهم وحرموهم حق العلاج وهم الذين أفنوا شبابهم في خدمة بلغاريا .

حدث في مدينة مدان أن وضعت إمرأة مسلمة في أحد المستشفيات الحكومية وطلب منها رسميا أن تختار لطفلها اسما غير إسلامي ، فرفضت أن تستجيب لطلبهم فأخبروها أن هذا أمر حكومي ولابد أن تنفذه فعند ذلك رمت طفلها بين أيديهم وتركته لهم .

في كثير من مناطق المسلمين ، حطموا المساجد وكانوا في الماضي قد منعوا الشباب من دخول المساجد ، والآن قد منعوا الشيوخ وكانوا ينتظرون موت أئمة المساجد فيقفلوها بحجة أن إمام المسجد قد توفى .

في قرية اسمها بليزقور في منطقة كرجلي حوصر منزل أحد المسلمين ، وكان قد تمكن من الهرب ، ولكن قوات الجيش أطلقت عليه الرصاص فاستشهد في حينه .

كثيرا ما يهرب المسلمون من مناطقهم خاصة المثقفون منهم لكي لا يقعوا في يد السلطات . والأشخاص الآتية أسماؤهم رفضوا تغيير أسماءهم وهددوا بالقتل فلم يرضخوا للتهديد وزجّ بهم في سجن مدينة سليفانا قسم بلانسكو وهم :

١ ـ صالح ذلانوف ٢ ـ حسن زابيتيف .

٣ ـ شرف حجي شريفون ٤ ـ حسن أحمدوف .
(وهو من حفظة القرآن)

وهؤلاء من منطقة صحوليان (جنوب بلغاريا) .

١ ـ محمد علييف ٢ ـ حسن أمير أنوق .

٣ ـ محسن بانكليف ٤ ـ إبراهيم إبراهيموف .

وهؤلاء من منطقة بلاغريفي قرار .

١ ـ رجب أحمدوف ٢ ـ على محمدوف .

٣ ـ صالح توهوف .

وهؤلاء من منطقة بازارجيك .

على رايف من مدينة زازغراد .

إننا نناشد إخواننا المسلمين والعرب أن يمدوا لنا يد العون وأن لا يكتفوا فقط بالاحتجاج ، إذ أن هذا الأمر يحدث على سمع العالم ومرآته إننا نطالب وقف هذه الحملة ضدّنا دون ذنب ارتكبناه ونطلب من الدول العربية التي لها علاقات اقتصادية مع بلغاريا أن تتدخل في الأمر ، وكذلك مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية . ونرجو أن يرفع هذا الأمر للأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان إذ أننا لا نستطيع الاتصال بهم .

ونسأل الله أن يشد من أزرنا .

وموعدنا الصبح أليس الصبح بقريب .

المسلمون البلغار

ثالثا : المسلمون في ألبانيـــا

وننقل هنا عن اتحاد الطلبة المسلمين في شرق أوربا :

إذا كانت هنالك معان كثيرة ومختلفة يوصف بها حالة شعب من الشعوب، لكى تترجم معانى التضحية والصبر ومعاناة الاضطهاد . وتحمل كل ذلك بنوع كبير من التحدى لكل شىء ، وإن شعب ألبانيا المسلم لجدير بأن تطلق عليه تلك المعانى والصفات .

وهنا نبدأ بنظرة سريعة مختصرة لتاريخ ألبانيا القريب، وذلك إلى ماقبل خمسين عاما .

كانت ألبانيا في حوالى العشرينات من هذا القرن تحكم بواسطة أحمد زوقو حيث كان ملكا عليها، وكان الشعب في ذلك الوقت يمارس طقوسه الدينية بحرية سواء المسلمون أو المسيحيون ، وفي هذا التاريخ بدأت عواصف الشر تهب من بعد حيث وقعت ألبانيا تحت الحكم الإيطالى في عهد (فكتور امناولى)، وانتدب (دوتشة موسيلينى) ليحكم ألبانيا. أما الملك أحمد زوقو فقد نقل إلى إيطاليا .

ثم بدأت الحرب العالمية الثانية، وكانت ألبانيا مثل جارتها يوغوسلافيا ترزح تحت السيطرة الألمانية، ولأسباب الحرب مع الألمان فقد اندمجت كل من يوغوسلافيا وألبانيا تحت قيادة واحدة برئاسة(تيتو) وكان من ضمن القادة البارزين في حرب العصابات كل من (أنورخوجه) و (محمد شيخو) الألبانيين اللذين هما الآن يتسيطران على الحكم في ألبانيا .. استمر الاتحاد الائتلافى بين يوغوسلافيا وألبانيا من عام ١٩٤٤ إلى ١٩٤٨، حيث ظهرت سياسة تيتو المعتدلة مع الشيوعيين والتى لم ترق للقادة الألبانيين، فانفصلوا عن يوغوسلافيا وتبنوا الحكم الشيوعى الماركسى المتطرف .

تلك نظرة سريعة، الهدف منها الوصول إلى معرفة الوسائل التى أوصلت الحكم إلى ما هو عليه الآن .

ألبانيا يبلغ تعداد سكانها المليونين نسبة المسلمين ٨٠ - ٩٠٪ وباقى السكان مسيحيون، ويتركز السكان المسلمون في وسط ألبانيا ورغم أن المسلمين نسبتهم كبيرة إلا أنهم يلاقون أشد المصاعب والاضطهاد من عنت الحكم الشيوعى الحاقد .

حيث قام الحكام الحاقدون بهدم المساجد، ومنع المسلمين من أداء شعائر دينهم، كما أن مواليدهم الجدد لا يتم تسجيلهم وإعطاؤهم الجنسية إلا بأسماء غير إسلامية، وكذلك الموتى لا يتركونهم لأهليهم ليمارسوا عليهم الشعائر الإسلامية، من غسل وتكفين وصلاة، كذا لا يدعونهم يدفنوهم في مقابرهم الخاصة بل يجبرونهم على دفنهم في المقابر العامة مع الشيوعيين. أما عند عقد الزواج فيستحي ذكر الديانة ويتم العقد تحت اسم مواطن ألبانى فقط، وأما بالنسبة للمناهج الدراسية فهى حقلهم الخصب في زرع الإلحاد في نفوس الأطفال الصغار منذ نعومة أظفارهم إلى أن يستوى عودهم وذلك بمختلف الوسائل التعليمية، والإعلامية .. وقد حدثنا أحد أولئك الذين اشتغلوا بمهنة التدريس حيث

يقول بأن الوزارة أمرت المدرسين بأن يهتموا بغرس فكرة عدم وجود الله في عقول الأطفال ، وقد حدث مرة أن سأل طالب عن الله هل هو موجود ، فأجاب نعم إن الله موجود ، وبسبب هذه الأجابة قضى الأستاذ ستة أشهر في السجن ، ثم طرد من مهنة التدريس بتهمة أنه يعلم الأطفال أشياء تضر بمستقبلهم ، ويذكر الأستاذ بأن الإجابة المتعارف عليها عن الله ورسوله ، هي أن الله والعياذ بالله هو (أنو خوجه) ربهم ومالك نعمتهم ، وأن (محمد شيخو) رسوله والمتصرف بأمره .

هذا جزء بسيط، وقطرة من بحر عميق مما يلاقيه المسلمون في ألبانيا المسلمة .

رابعا : المسلمون في الصين

ونأخذ منها مثلا واحدا .. مانشرته صحيفة «تمد بات باد» في هونج كونج في عددها الصادر في ١١ أكتوبر سنة ١٩٦٦ وهو منشور موجه إلى الحرس الأحمر جاء فيه ...

«يارجال الحرس الأحمر

لايمكن أن ندع لعدو من أعدائنا أن يهرب، وعلينا من الآن فصاعدا أن نهاجم أكثر الأعداء تخفيا: المسلمين الذين يقومون بنشاط ضد الحزب وضد الصينيين تحت قناع الدين المزعوم ...

من الآن فصاعدا، لن يسمح لكم بأن تضعوا قناعكم الديني على وجوهكم، سنطردكم وندمركم ومن الآن فصاعدا لن يسمح لكم بأن تأكلوا لحم الأبقار لأن الأبقار تخدم الشعب، ويجب أن تأكلوا لحم الخنازير ...

ولايمكنكم من الآن فصاعدا أن تضيعوا وقتكم في الصلاة(!!!) .
يجب ألا تتكلموا اللغة العربية التى هى ضد اللغة الصينية(!)
ولن يسمح لكم بأن تقرأوا ما يسمى بالكتاب المقدس (القرآن) ! .

اسمعوا أيها المسلمون :
... دمروا جوامعكم(!) حلو المنظمات الإسلامية، احرقوا القرآن (!)..
... الغوا الحظر الذى وضعتموه على الزواج المشترك (!) .
... كفوا عن الصلاة (!) .
... ألغوا الختان (!) .

... ادرسوا أفكار ماو (!) .

... إذا لم تندمجوا فسنطردكم وندمركم، يجب أن نسحق جحور الجرذان الدينية وندمرها معكم(!!) .

فلتحيا الثورة الثقافية الكـــبرى .

فليحيا طويلا .. طويلا .. الرئيس ماو .. (٥٩) (!!!!!) .

---

(٥٩) مجلة الوعى الإسلامي عدد اكتوبر سنة ١٩٦٦ ـ أشار إليه كذلك الشيخ محمد الغزالى في كتابه القيم الإسلام في وجه الزحف الأحمر.

خامسا : في الصومال

أعلن زعيم الانقلاب العسكرى (!!) محمد زياد برى الاشتراكية العلمية (الماركسية) ثم أصدر بعض النصوص القانونية التى تسوى بين الرجل والمرأة في الميراث، وصرح تعليقا على ذلك لإحدى المجلات المجلات المصرية بأنه لأن الإسلام دين ثورى (!) فقد قام بحل بعض المشاكل حلولا فورية ثورية .

وكتب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر يقول إنه ثبت من قتل بعض علماء الإسلام الذين كتبوا لرئيس الانقلاب يوضحون حكم الله في الموضوع ، وأنهم قتلوا أشنع قتلة لأنهم بينوا حكم الله .

أما الذى لم يفصح عنه الإمام الأكبر فهو أنهم قتلوا حرقا، ليعيد للأذهان قصة أصحاب الأخدود «النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد» ..

وفي تقرير عن الصومال نشرته مجلة إسلامية (٦٠)

«أن الرئيس الصومالى زار مركزا من مراكز التوجيه في مدينة حركة التى تبعد عن العاصمة نحو ٩ كيلومترات وكان في المركز عدد كبير من الطلبة بنين وبنات وكان الوقت وقت الغذاء فوجد الرئيس أن البنين يتغذون في جانب والبنات يتغذون في جانب آخر بدون اختلاط .. فقال للطلبة: إن مظهركم هذا مظهر رأسمالى رجعى وقد بذلنا جهودا لإزالة مثل هذه المظاهر البالية، وإنكم بعملكم هذا تهدمون في ساعة ماكنا نبنيه في سنوات، ثم أمر أن يجلس كل فتى إلى جانب فتاة ولما تم التوزيع على ذلك النحو الغريب، قال الرئيس للطلبة: الآن أصبح مظهركم مظهرا اشتراكيا .

(٦٠) مجلة المجتمع العدد ٣٠٤ السنة السابعة ١٠ جمادي الثانية ١٣٩٦ هـ ٨ يونيو ١٩٧٦ م .

موقف الدين من الماركسية

ونحن نقصد بذلك ديننا .. دين الإسلام

فلئن كان في ظروف الدين المسيحى - على وضعه الحالى - ما أتاح للماركسية أن تنتهكه بل أن تلتهمه، فليس في ظروف ديننا شئ من ذلك ..

ليس في ديننا ذلك التعقيد في العقيدة .

ليس فيها أقانيم ولا تثليث ولا إشراك

وليس في ديننا شئ من التحريف أو التشويه كما حدث لدين المسيح عليه السلام، مما حدا بمفكرى الماركسية أن ينظروا إلى الدين على أنه مشروع إنسانى أى جهد بشرى ..

وإذا كان كذلك، فإن الذين صنعوا الدين رجال وهم رجال، ولهم أن يصنعوا مثل ما صنعوا .. ومن ثم لهم أن يشرعوا «الماركسية» كما شرع البابوات « المسيحية» ..

وليس في ديننا صكوك غفران ولا قرارات حرمان .

ولا وقف علماء الاسلام من العلم مثل ما فعل رجال الدين المسيحى مع العلم والعلماء في القرون الوسطى، ومن ثم فإن موقفنا من الماركسية يختلف عن موقفهم ..

ومحاولة «التوفيق» أو «التلفيق» التى يصنعها «أذكياء» الماركسية للتدليس أو التدسس إلى الإسلام بإعلانهم قبول الإسلام عقيدة، والاشتراكية العلمية منهجا - محاولة مفضوحة ومردودة .

أولا : لأنه واضح فيها التكتيك المرحلى

وهو ما كشفت عنه كثير من كتابات مفكريهم بل ما أوصى به بعض مؤتمراتهم .

ثانيا : سواء اعتبروا تلك «المصالحة» أو التوفيق «تكتيكا» مرحليا أو قبلوه «استراتيجية» دائمة، أو حتى أدخلوه في نظريتهم واعتبروه جزءا من «إيديولوجية» دائمة .

على كل هذه الفروض
فإن ذلك العرض مرفوض .

لأن القول بأن الإسلام عقيدة والاشتراكية العلمية منهج قول يتنافى مع طبيعة الإسلام فهو عقيدة ومنهج حياة وهو في هذا لا يقبل التجزئة ولا التفرقة، ولا المساومة، ولا التلفيق ولا الترقيع ...!

ويسمى كل ذلك : كفرا، وفتنة، وجاهلية، ومحادة لله ورسوله .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ..؟ (٦١) .
واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك .. (٦٢) .
أفحكم الجاهلية يبغون، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون (٦٣) .
اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا .. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله (٦٤)

وهو في هذا منطقى مع عقيدته، ومع شريعته
فعقيدته أن الشرع كالخلق خالص حقا لله .

ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين والألوهية التى نرفعها لنا شهادة وشعارا ونقرر بها لله سبحانه وتعالى وننفيها عمن سواه .. هذه الألوهية من معانيها التسليم لأمر الله وشرعه ـ وشريعته كذلك :

(٦١) البقرة ٨٥ .
(٦٢) المائدة ٤٩
(٦٣) المائدة ٥٠
(٦٤) البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩

شملت كل نواحى الحياة «ونزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » (٦٥) فهى تشمل الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة الاقتصادية، ولا يمكن فيها فصل حياة عن حياة ..

ومن ثم فللماركسية أن تبحث لها عن دين آخر تجرى معه التوفيق أو التلفيق

ولقد سبقتهم إلى ذلك يوما قريش

فقال الله لهم :

«قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ماأعبد ولا أنا عابد ماعبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولـى دين » (٦٦) ...

(٦٥) النحل ٨٩
(٦٦) سورة الكافرون

الفصل الثالث

ردود فعل

تقدمـــــة

كانت لهجمة الغرب والشرق علينا ردود فعل كثيرة، فبعضنا انخدع، وبهره الضوء الأزرق أو الأحمر أو الأصفر وظن فيه النجاة، وسار خلفه، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا :

وجده سرابا خادعا، أو هو في الطريق الى أن يجده كذلك !

وبعضنا الآخر نفر إلى دينه راح يستنفر عقيدته، أو راح يستنفر شعائره، أو راح يستنفر ثقافته، ووقف عند ما استنفره!

وبعض آخر عرف طريقه لما عرف ربه، فحدد الغاية والوسيلـة، وحـدد السـبيل والمنتهى وهو سائر في طريقه بالغا هدفه بإذن الله .

ونشير إلى هذه الردود في إجمال يجمل بالمقام !!

المبحث الأول

«سراب خادع»

دعوى ..!

سار البعض وراء السراب ...

فكان صوت سيده من حيث يدرى أو من حيث لا يدرى فنادى البعض بالعلمانية كحل لمشكلات الشرق الإسلامى، ونادى البعض الآخر بالنقل عن الغرب المسيحى في كل شيء بغير تمييز.

وعلى الجانب الآخر .. نادى البعض بالنقل عن الشيوعية أو الماركسية أو الاشتراكية العلمية، ولما وقفت عقيدة الإسلام صخرة صلبة في طريقهم، احتالوا على الأمر، وأوحت أوساطهم بالتلفيق والترقيع ونادوا بعقيدة إسلامية ومنهج اشتراكى .. !

دعوى مرفوضة ..

ودعوة هؤلاء وأولئك أو دعواهم مرفوضة غير مشكورة !

أولا : لأن طبائع الأشياء ترفض النقل الأعمى !

فإن النبات يأخذ بالأختيار، فيتخير النخيل من عناصر التربة مالا يتخيره شجر البرتقال، والإنسان - الذى تميز بالارادة - أولى بذلك الاختيار، ومن ثم كان النقل الأعمي مصادما لقدرة الإختيار لدي الإنسان !

وثانيا : لأن الأصالة ترفض النقل الأعمى !

ان الأمم الأصيلة تعتز بتراثها، وترفض أن تلقى به لتنقل عن غيرها ما يمحو شخصيتها ويقضى على استقلالها .

ومن قبل رفضت الأمة الإسلامية - تحت الهزيمة - أن تأخذ بشريعة جنكيز خان، وإن خلطها بشيء من شريعة الإسلام، فصانت تراثها العزيز، وحفظت استقلالها وشخصيتها فذاب الغازى فيها ولم تذب هى فيه .

وفي الزمن الحديث مثلان : من الأمة الألمانية والأمة اليابانية .

فقد رفضتا كذلك أن تذوبا في الغزاة . فعادتا في سنين تقفان على أقدامهما أقوى من الغزاة !! فألمانيا اليوم تقرض أمريكا، واليابان تصدر صناعتها للعالم كله وتنافس أغنى دول العالم وأكثرها تقدما !!!

وثالثا : ما عندنا خير وأبقى بشهادة الكثيرين . ممن يريدون النقل عنهم .

وبتحقيق العالمين لنهضة أوربا، ينكشف الأمر، وينجلى . إنهم أخذوا عنا الحضارة، فبدأوا حيث انتهينا، وبنوا على ما أقمنا، فارتفعوا ببنائهم .

ونحن وقفنا حيث انتهينا . فتقدم الناس وتأخرنا ثم عدنا إلى الوراء . خطوات وخطوات، وتركنا اللب الذى أخذوه، وجرينا وراء القشور التى ابتدعوها . فزاد الضلال، وزاد الانحلال !!

رابعا : سراب الشيوعية قد انكشف

بعد تراجعاتها الكثيرة في مجال النظرية: في صدد التفسير المادى للتاريخ وفي مفهوم المادة ذاته .

وبعد تراجعاتها الكثيرة في مجال التطبيق :

بعدولها الجزئى عن إلغاء الملكية، وبعدولها المرحلى عن إلغاء الأسرة وبعدولها المرحلى «التكتيكى» عن الهجوم على الدين بأخذها عن الرأسمالية - بالحوافز وبمهادنتها للرجعية فيما سمى بالوفاق، ثم بيأسها الشديد فيما بينها .

ثم بما أحدثته في البلاد التى دخلتها من تخلف تميزت به عن قريناتها: فألمانيا الشرقية غير ألمانيا الغربية، والأثنتان شعب واحد، لكن الأول حكمته الشيوعية، والثانى حكمته الرأسمالية ..!

ثم بما أحدثته في البلاد التى فرضت نفسها عليها، مثل بولندا سنة ١٩٥٦، وتشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٦٨، ومن قبل ذلك في بلاد المسلمين التى ضمت قسرا وقهرا لسادة الكرملين !

سراب الشيوعية قد انكشف ، بعد ما انكشف قبله سراب الرأسمالية .

ولم يعد للشعوب اللاهثة وراء المثل الأعلى

غيـــــر الإسلام !!

المبحث الثانى

إسلام مجزأ لا يجـــدى ..

إزاء الرفض للدخيل كان البحث عن الأصيل

لكن البحث كان قاصرا تماما، كمن يريد الشفاء من داء، فيكتفى بدواء واحد من خمسة أدوية تتعاون جميعا على الشفاء بإذن الله !

ومن ثم كثرت الطرق وتشعبت !

فالبعض ظن الشفاء في تصحيح العقيدة، وهى بداية طيبة لأنها ابتداء بما هو أصل وأساس ..

لكن الأساس - وإن كان صحيحا ومطلوبا .. فإنه لا يكفى وحده وينبغى أن يقوم عليه البناء .

والبعض ظن الشفاء في تصحيح الشعائر

فاهتم بها وحدها يبينها للناس ويعلمهم إياها وقضى العمر يفعل ذلك لا يجاوزه .

والشعائر عمد الدين، لكنها وحدها لا تكفى بل إن المبالغة فيها بعد الاقتصار عليها .. خطأ وخطر!

إنها يومئذ تفسد العقل، وقد تتلف معه الجسد!

من هنا كان رفض الرسول صلى الله عليه وسلم الاقتصار عليها أو المبالغة فيها على ما تعرف من أثار كثيرة .

والبعض ظن الشفاء في تصحيح الثقافة والمفاهيم .

فعكف يرد عن الإسلام ما شابه من خزعبلات وأساطير وإسرائيليات .

وتطرف البعض في هذا المجال فغلب العقل على الوحى .

وأول الواضح من النصوص واجتهد فيه ، بغير حق، ومن غير حاجة، ومضوا في التعقل أكثر مما ينبغى، فمالأوا الاحتلال، وهادنوه وخلطوا بين التحرر من التعصب، والإقساط إلى أهل الأديان الاخرى إلى محاولة تقريب الإسلام من الأديان الأخرى تحت أسماء كثيرة مازال بعضها يتردد إلى اليوم بما يهدد بتمييع الإسلام وافقاده شخصيته !!

ونسى كل هؤلاء أن الإسلام بناء متكامل بشد بعضه بعضا ومن ثم وجب أن يقوم كله .

نسوا أن تجزئة البناء - فوق أنها لا تفيد ولا تحقق الغاية من بناء متكامل - فإنها يمكن أن تؤدى إلى صدع البناء وفي النهاية سقوطه أو هدمه .!!

ونسوا بعد ذلك أن الإسلام يرفض التفرقة والتجزئة ويسميها في قرآنه: فتنة، جاهلية، كفرا، وحربا لله ورسوله .

نسوا ذلك كله، أو تناسوه، فحق عليهم القول «فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب، وما الله بغافل عما تعملون » .

وبقى أن يثوب الناس إلى النور إلى الطريق .

المبحث الثالث

النـــور .. والطريـــق ..

النور هو الوحى .

هو الوحى كله، بغير تجزئة، وبغير تفرقة،

«قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين»

«ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور» .

والطريق - هو الذى الذى سار عليه محمد عليه الصلاة والسلام فأعطى القدوة ورسم المعالم !!

«لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا »

والذين يسيرون على الطريق يستضيئون بالنور بالغون بأمر الله وغالبون بقدرة الله . قد يسقط منهم على الطريق شهيد، وشهيد فيزيد الضوء، ويذكى اللهيب، ولا يذهب دمه أبدا عند الله، ولا عند الناس ..

«لزوال السموات والأرض أهون على الله من قتل امرئ مسلم بغير حق»

«وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وماكنا منزلين، إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون » .

والذين يقفون أحجارا في الطريق سوف يجرفهم بإذن الله تيار سائر إلى هدفه، فإن أدركوا فليسبحوا معه، ليكونوا فوق السطح وإلا فليختاروا لأنفسهم أن يسقطوا فى القاع ...

والذين يحاولون إطفاء النور، كمن ينفخ بفمه ليطفىء ضوء الشمس فأنّى له ذلك ..

«يريدون ليطفوا نور الله بأفواههم، والله متم نوره ولو كره الكافرون »

وبعد ..

فالتيار ماض في طريقه والنور ساطع في سمائه . وخير للرافضين . ألا يقفوا ضد التيار وألا ينفخوا أو ينفثوا ليطفئوا النور .

خير لهم قيما، وقاعدة أن يكونوا فوق السطح لا في أسفل القاع فلا مكان لهم بين ذلك !!!

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ، وأعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه.

وأنه إليه تحشرون .

«واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب .

الأنفال(٢٤)

«واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فاواكم، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» الأنفال(٢٦)

والحمـــــد لله أولا وآخرا

ملخص بحث

الغزو الفكرى للعالم الإسلامى

أو

محنة الإسلام بين غرب حاقد وشرق كافر»

اقترنت الهجمة الصليبية على العالم الإسلامى بتخطيط لغزو فكرى يستهدف إيمان الأمة وإسلامها .

ذلك أن الحروب الصليبية لم تكن كما صورها البعض مجرد حملات عسكرية تستهدف مكاسب اقتصادية .. قد يكون ذلك بعض أهدافها، لكنه بالتأكيد ليس الهدف الأول ...

وكان الاستشراق أول الغزو الفكرى مصاحبا لذلك الغزو العسكرى وعمد المستشرقون إلى تشويه الإسلام من عدة نواح ..

وأعقب ذلك التبشير .. كانت بدايته مع نهاية الحروب الصليبية وقد بقى للتبشير حتى اليوم «تكتيكه» أو وسائله وبقيت له إيديولوجيته أو فكرته .

لكن استراتيجيته قد تغيرت لما ظهر أن تنصير المسلمين أمر صعب، فكان لابد من البديل، وكان البديل هو التغريب أو التغيير الاجتماعى .. ولئن تأخر الغزو العسكرى إلى الوراء خطوات، فلقد احتل الغزو الفكرى منا القلب والعقل !!

وقد كنا نود أن نعرض لكل مراحل الغزو الفكرى ولكل تياراته المعادية للإسلام، لكن هذا الجهد قد يقصر عنه بحث مختصر نتقدم به إلى مؤتمر، وإذ كانت كثير من مراحل الغزو الفكرى، وكثير من صوره قد صارت معلومة مكشوفة كالتبشير والاستشراق، فإننا نكتفى في صدده - بالإشارة لنركز على ما ينبغى كشفه للناس :

ومن ثم فإن هذا البحث حين يتعرض للغزو الفكرى من الغرب سوف يقتصر على استراتيجيته الحديثه وتكتيكها الحديث ليفضحه للناس، وحين يتعرض للغزو الفكرى من الشرق سوف يكتفى بأصل الفكرة وتكتيكها الحديث كذلك حتى يفضحه للناس ...

كان المفروض بعد أن أثخن العالم الإسلامى بالجراح من جراء الحروب الصليبية ثم ما تبعها من تقطيع واستعمار لأوصاله، وما صاحب ذلك أو لحقه من الاجهاز على الخلافة الإسلامية ... وما انتهى إليه أمر العالم الإسلامى من تقسيمه إلى دويلات كل منها ترفع راية قومية أو شعارا يتعارض مع الأخرى، وما صاحب ذلك أو لحقه كذلك من بث الفرقة بين أبناء الدين الواحد وبذر الخلافات العميقة بينهم عن طريق الفكر أو عن طريق الحكام.

كان المفروض .. أن يترك الغرب الصليبى ذلك الجسد الإسلامى المثخن بالجراح .. وهو لا يكاد يدل على حياته غير أنفاس .. ضعيفة تتردد !!

لكن الغرب الصليبى وعى دروس الحروب الصليبية، وأدرك ماقرره بعض مفكريهم من أمثال المستشرق جب من أن صحوة الإسلام سريعة، من أجل ذلك كان لابد من الحفاظ على المكاسب التى حققها في العالم الإسلامى ...

ولم يعد سبيله إلى ذلك الاحتلال العسكرى .. الذى صار مع تطور الإنسانية مرفوضا والذى يكلف أصحابه الكثير من الدماء والأموال الأمر الذى لم تعد تحتمله شعوب تلك البلاد، فضلا عن أنه صار عاجزا عن ستر غايات الصليبية ومن ورائها الصهيونية ..

من أجل ذلك كان التطور الذى حدث في الشرق الإسلامى بديلا عن الاحتلال العسكرى الأجنبى، كانت بدعة الانقلابات العسكرية التى تطيح بالنظم القديمة لتحل محلها أقوى قبضة وأكبر قدرة على تحقيق أغراض الاحتلال الأجنبى العسكرى، وكان حرص القوى الأجنبية على «صناعة الزعيم» الذى يحقق لهم تلك الأغراض !

وهكذا صار التغيير السياسى عن طريق الانقلاب العسكرى في أكثر الأحوال محققا الغاية التى كان من قبل يحققها الاحتلال الأجنبى !!

ولم يكن التغيير السياسى هدفا في ذاته .. إنه وسيلة إلى غاية كانت في البداية .. التبشير، فلما فشل التبشير كان البديل عنه هو التغيير الاجتماعى .. بتغيير قيم الأمة الإسلامية بما يؤثر في عقيدتها وأخلاقها وتماسكها .

وكان لهذا التغيير أساليب :

أولها العلمانية

والعلمانية ليست اشتقاقا من العلم كما يبدو لأول وهله، لكنها ترجمة للفظ Secularity المشتق من Secular وهو مرادف للفظ Unreligous ومن ثم فإن معناها اللفظى هو اللادينية، وهو الهدف في الوقت نفسه من ذلك الأسلوب الذى امتد إلى :

١ - مجال التعليم .

٢ - مجال الإعلام .

٣ - مجال القانون .

ثانيها : نشر القوميات

القومية العربية في البلاد العربية، والقومية الطورانية في تركيا ، والفارسية في إيران، والكردية في العراق، والبربرية في المغرب ... وهكذا .

ثالثا: عن طريق المرأة

وهو ما أسموه تمويها: تحرير المرأة
وتم تنفيذه بإخراج المرأة المسلمة من بيتها وهجرها له إلى الوظيفة وإلى الشارع ... فأغلقت بذلك الجامعة التى كانت تخرج ملايين المسلمين .. لتقدمهم إلى ميادين الجهاد .

كما تم تنفيذ التحرير من ناحية أخرى بتحريرها من زيها مما ترتب عليه الإغراء بالفاحشة والدعوة إلى الانحلال .

وامتد الأمر بعد ذلك إلى المرأة الريفية، كما أثيرت قضايا تافهة شغلت بها المرأة وشغل بها المجتمع من ورائها .

لكن هذه الغزو من الغرب مهدد في أسلوبه ومهدد في غايته
فلقد افتضح الأسلوب . وتعرى الهدف .
وبقى أمام الغرب أن يختار الانسحاب المنظم مع الاحتفاظ بمصالحه الاقتصادية مع الشرق الإسلامى .

أو أن ينتظر نسف كل مصالحه في هذا الشرق الإسلامى مع قطع كل خطوط العودة .

أما عن الشرق الشيوعى فلقد حاول أن يغزو الشرق الإسلامى بماركسيته .. وهذا الغزو في رأينا خطير لأنه يعتمد على مبدأ، وإن كان المبدأ - إن واجه العقيدة الإسلامية تافها وحقيرًا لكن شجعت على انتشاره ظروف أوربا في القرون الوسطى وحرب الكنيسة للعلم والعلماء، كما شجع عليه طغيان الرأسمالية والإقطاع هناك كذلك، كما شجع عليه ومهد له ما يسمى بالفلسفة المثالية والتى كانت ميراثا كبيرا منذ أفلاطون إلى فيورباخ .

واضطررنا مع هذا أن نكشف عن مؤسس الفكرة، ومؤسس الدولة لأن كل إناء بما فيه ينضح .

كما عرضنا للمبدأ نفسه لنعريه للناس ونكشف عن تناقضه مع نفسه مع العلم .

ثم عرضنا لموقف الماركسية من الدين .. في بدايتها ثم في تكتيكها الحديث حين واجهت الدعوة الإسلامية فارتطمت بصخرتها الصلبة، واحتاجت إلى التعديل من تكتيكها مرحليا .. حتى تتمكن !

كما كشفنا عن تخطيطهم لهدم الإسلام، وما اتبعوه من وسائل في الواقع هى وسائل المبشرين من قبل !

ثم اضطررنا إلى بيان ما يفعلونه اليوم بالمسلمين .. مما يهتز له الضمير - الإنسانى العالمى .. إن كان مازال فيه بقية، ودعمنا ذلك بالوثائق عن منشورات ورسائل وصلت من خلف الستار الحديدى !

وفي فصل ثالث .. تحدثنا عن ردود الفعل لهجمة الغرب الصليبى ، والشرق الشيوعى ... !

لننتهى إلى أنه رغم ذلك كله فإن العاقبة للمتقين ...
ولا عدوان إلا على الظالمين !

والله نسأل أن ينفعنا وأن ينفع بنا

ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم

الغزو الفكري

والتيارات المعادية للإسلام

القسم الرابع

إعداد

الأستاذ عبد الكريم يونس الخطيب

أستاذ الدراسات العليا بكلية الشريعة بالرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

«تقديـــــم »

نظرة في الشريعة الإسلامية :

الشريعة الإسلامية خاتمة الشرائع السماوية، ورسولها - محمد - صلوات الله وسلامه عليه، خاتم المرسلين .

ولهذا فإنها ذات مفهوم خاص، وطابع مميز عن التشريعات الأخرى سماوية كانت أو وضعية ، وذلك من وجوه :

أولا : أنها - وإن شاركتها الشرائع السماوية في أنها من عند الله - عامة للناس جميعا، على اختلاف أجناسهم ، وألوانهم وأوطانهم، على حين أن الشرائع السماوية - غير شريعة الإسلام - كانت خاصة بأقوام بأعيانهم، لايتجه بها الرسول المرسل من عند الله إلى غير قومه ، ولهذا كانت دعوة كل رسول مصدرة بهذا النداء : « ياقوم » أما رسالة محمد - صلوات الله وسلامه عليه - فكانت خطابا للناس جميعا : يا أيها الناس » .. « يابنى آدم» .

وثانيا : أنها تخاطب العقل وتحاجه بكلمات الله ، التى ضم عليها القرآن الكريم، فحيث كان الإنسان، وكان العقل، كانت كلمات الله تلك رسولا من رسل الله إليه تدعوه - كما كان يدعو الرسول قومه - إلى الايمان بالله، ومايتبع هذا الإيمان من الإيمان بملائكته، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر، والحساب والجزاء، والجنة والنار، والعمل بما يتعبد الله تعالى به المؤمنين من عبادات ، ومعاملات وأخلاق .

وثالثا : أن كتاب هذه الشريعة - وهو القرآن الكريم - حجة على كل إنسان على هذه الأرض، بلغته دعوة الإسلام، وأن العمل بهذه الشريعة وأحكامها وآدابها هو السبيل - لا سبيل غيره - إلى الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة جميعا ، وأن الخروج على أحكام هذه الشريعة وآدابها مَضَلَّة ومَهْلكة وشقاء في الدنيا والآخرة معا .. وفي هذا يقول الله تعالى : «فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى، ومن أعرض عن ذكرى، فإنه له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى، قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تنسى، وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » (١) .

ويقول سبحانه: «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل، فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » (٢) .. ويقول تبارك اسمه : «ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون، إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا، وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولى المتقين .. هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون » (٣) .

هذا حكم الله :

فالشريعة الإسلامية، هى حكم الله، رب العالمين ، أحكم الحاكمين، قد جعلها الله تعالى موردا للعالمين، ورحمة للإنسانية من كل أمة، ومن كل قبيل إلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض ..

وإنه للخير، والنور، والهدى، لمن سلك سبيل هذه الشريعة، واستضاء بنورها، واستشفى بدوائها الربانى : «وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين » (٤) ..«ياأيها

(١) سورة طه: الآيات : ١٢٣ - ١٢٧ .

(٢) سورة الأنعام : الآية :١٥٣ .

(٣) سورة الجاثية : الآيات : ١٨ - ٢٠ .

(٤) سورة الإسراء : الآية :٨٢.

الناس، قد جاءتكم موعظة من ربكم، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين » (٥) «قل هو للذين آمنو هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد » (٦) .

وإنه للخسران، والضلال، والضياع ، لمن أخذ سبيلا غير سبيل شرع الله فاشترى الضلالة بالهدى، واتبع هواه، وانقاد لشياطين الإنس والجن، وكان من الذين قال الله فيهم: «أرأيت من اتخذ الهه هواه، أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا» (٧) .

وكيف يسوغ لعاقل أن يرى النور بين يديه، ثم يوليه ظهره، ويغمض عينيه عنه، ويعطى يديه لمن يقوده، وهو أعمى مثله يتخبط في الظلام ؟

وكيف يقبل ذو عقل أن يعرض عن حكم الله فيما حكم به من أمور الناس في دنياهم ودينهم ويرتضى ما حكم به أهل الأهواء، والزيغ، والضلال، ثم يرجو من وراء ذلك نجاة من هلاك، أو انتفاعا بعمل، وإنجاحا لمسعى؟ والله تعالى يقول: «أفغير الله أبتغى حكما، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا (٨) ويقول سبحانه: «ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الكافرون (٩) .. ويقول: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون (١٠) .. ويقول: «ومن لم يحكم بما أنزل الله، فأولئك هم الفاسقون (١١) ..

فالكفر، والظلم، والفسق، صفات ملازمة لمن لم يحكم بما أنزل الله ، ويحتكم إلى أهوائه، ووساوس شيطانه، وما يتلقاه من ذوى الأهواء والضلالات .. فأى شؤم أشأم وأقتل من هذا الشؤم، الذى يلد الكفر، والظلم ، والفسق والذى يلبس صاحبه تلك الثياب المقطعة من النار: الكفر، والظلم، والفسق ؟

---

(٥) سورة يونس : الآية: ٥٧
(٦) سورة فصلت : الآية : ٤٤
(٧) سورة الفرقان: الآيتان : ٤٣ ، ٤٤ .
(٨) سورة الأنعام : الاية :١١٤ .
(٩) سورة المائدة : الآية : ٤٤
(١٠) سورة المائدة : الآية : ٤٥ .
(١١) سورة المائدة : الآية :٥٠

وهل يجتمع الإسلام، مع واحدة من هذه المهلكات: الكفر أو الظلم، أو الفسق ؟

وهل يكون المسلم مسلما إذا حكم بغير ما أنزل الله ؟ إنه إما كافر، أو ظالم أو فاسق، أو هو هؤلاء جميعا ..

إنه ليس على الإسلام من لم يحكم بما أنزل الله، وينزل على حكم الله فيما أحل أو حرم، وفيما أمر به أو نهى عنه .

فهل نحن المسلمين - نحكم اليوم بكتاب الله ونحكم الله ، فيما نأخذ أو ندع من أمورنا ؟ ولا أود أن أقرر هذا الآن، قبل أن أكشف عن حال المسلمين في شتى آفاق الأرض، وحسبى أن أقول: إن لسان الحال أفصح من لسان المقال وإنه لو كان المسلمون يحكمون بما أنزل الله، ويحتكمون إلى كتاب الله وسنة شريعته لما خف ميزانهم في الحياة، ولما كانوا عالة على الغرب، وتحت وصايته في كثير من أمورهم، ولما نزع الله عنهم ثوب العزة الذى يلبسه سبحانه المؤمنين، إذ يقول سبحانه: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »(١٢) فالمؤمنون حزب الله، وحزب الله لهم القوة ولهم الغلب ولهم السلطان دائما، والله سبحانه وتعالى يقول عن عباده المؤمنين: «أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون (١٣) .. ويقول تبارك اسمه: «ومن يتولّ الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن حزب الله هم الغالبون » (١٤) .

هذا ما كان ينبغى أن يكون عليه أمر المسلمين في هذا العصر، وفي كل عصر إذا كانوا على الإسلام، ظاهرا، وباطنا ..

فمن أين دخل على المسلمين هذا الذى دخل عليهم من ضعف، وتخلف في مسيرة الحياة، وأخذ الجانب المعتم المجدب منها ؟

ذلك ما سنعرض له فيما يلى، إن شاء الله .

---

(١٢) سورة المنافقون : الآية : ٨

(١٣) سورة الأحزاب : الآية : ٢٢

(١٤) سورة المائدة : الآية : ٥٦ .

الفصل الأول

(الإسلام ... والمسلمون) :

الدين الإسلامى، هو الركيزة التى تعتمد عليها الحياة الإسلامية، وتنبع منها وجوه العمل التى يتقلب فيها أفراد الأمة الإسلامية وجماعاتها .

فما دخل على المسلمين من خارج الإسلام وشريعته مما لا يتفق مع مبادىء الإسلام، ولا يلتقى مع شريعته - لا ينبغى أن يضاف إلى الشريعة الإسلامية أو يحسب عليها .

فإذا بحثنا عن الحياة الإسلامية، كان علينا أن نبحث عنها على ضوء مبادئ الاسلام، وما جاءت به شريعته من مقررات وأحكام .. أما المعارف الواردة على المجتمع الإسلامى من خارج دائرة الإسلام، فما وافق منها شريعة الإسلام قبل وصهر في بوتقته وما خرج عن تلك الشريعة الإسلامية طرحناه بعيدا عنها ، وعزلنا أنفسنا عنه ، لأنه لا خير في معارف لا يتسع لها ديننا الذى وسع الإنسانية كلها عقلا، وقلبا، وروحا، وحضارة ومدنية ..

فإذا قلنا إن الاسلام وحده هو ركيزة الحياة الإسلامية، كان مفهوم هذا القول أن هذا الوجود كله هو كتاب المسلم الذى يطالع آياته على أضواء كتاب الله، الذى يقيم بصر المسلم وبصيرته على نور من نور الله ، وهدى من هداه ، فلا يضل طريقه إلى الخير، ولا تنقطع الأسباب بينه وبين مافي صدر هذا الوجود من أسرار ...

فالإسلام، يدعو إلى العلم والنظر، في كل ما يفيد علما ومعرفة، من علوم الدين والدنيا جميعا .. والعلم في نظر الإسلام بحر لا ساحل له ، وأنه كلما أخذ الإنسان قدرا من العلم وجب عليه طلب المزيد منه حالا بعد حال، ويوما بعد يوم دون أن يقف من العلم

عند غايته، أو أن يدخل عليه شعور بأنه استولى على الغلم كله، على حين أنه مهما كان قدره في العلم لا يزال على ساحل هذا المحيط، وأنه لم تبتل أقدامه منه بعد ..

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم - وقد علمه ربه الكتاب والحكمة - يدعوه ربه جل وعلا إلى أن يطلب المزيد مما تلقى من علم وحكمة، فيقول له سبحانه: «وقل رب زدنى علما» (١٥) .

وحسب العلم عظمة مقام ورفعة شأن أن يكون صفة لله سبحانه وتعالى، إذ يقول سبحانه عن ذاته الكريمة : «عالم الغيب والشهادة، وهو الحكيم الخبير» ، (١٦) .. ويقول جل شأنه : «عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات، ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» (١٧) ويقول تبارك اسمه : «والله بكل شئ عليم (١٨) ..

فأذا كان هذا هو مقام العلم، وأنه صفة كريمة من صفات رب العزة فحرى بالمسلم أن يغترف من بحر هذا العلم الذى لا ينفد، «قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا» (١٩) فبالعلم يقرب المرء من ربه، وتتوثق صلته به، ويعرف ما ينبغى بجلال الله وعظمته من خشية وتوقير فلا يتقحم الآثام، ولا يهجم على حرمات الله في غير مبالاة، حيث يصده الحياء من ربه ، والخشية من عقابه، يقول الله: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» (٢٠) .

وقد أدرك أسلافنا العلماء - رضى الله عنهم - هذه الحقيقة من دينهم، ومكان العلم منه، فاتخذوا من كتاب الله وسنة رسوله جامعة لكل علم ومعرفة .. فكان من أثر ذلك ، تلك المكتبة الإسلامية الزاخرة بالعلوم والمعارف، في التفسير والفقه وأصول الفقه، وعلم

---

(١٥) سورة طه : الآية :١١٤
(١٦) سورة الأنعام : الآية : ٧٣
(١٧) سورة سبأ : الآية : ٣
(١٨) سورة البقرة : الآية ٢٩
(١٩) سورة الكهف : الآية : ١٠٩
(٢٠) سورة فاطر : الآية : ٢٨

الكلام، وعلوم اللغة العربية، من أدب. ونحو، وصرف وبلاغة، ومنطق، وكلها تدور في محيط القرآن، وتبحث عن أحكامه، ومواقع إعجازه ومن وراء هذا، قامت علوم أخرى كالكيمياء؛ والفلك، والطب والهندسة .. وكلها أيضا لحساب العقيدة التى تزداد بالعلم والمعرفة رسوخا في العقل واطمئنانا في القلب .

وعلى هذا يمكن أن نقول إن الاسلام الذى هو ركيزة الحياة للأمة الإسلامية قد نبعت منه ركائز كانت مبعث النشاط العقلى الإسلامى، ومدار البحث عن العلم والمعرفة ..

وأهم هذه الركائز هي :

أولا : وحدة العقيدة القائمة على الإيمان بإله واحد لا شريك له ، تفرد سبحانه بهذا الوجود خلقا وتدبيرا ، يفعل ما يشاء ، ويقضى بما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه ..

فالمسلمون جميعا تظلهم راية واحدة، تجمعهم عليها كلمة واحدة هى كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله » ففى ظل هذه الكلمة يعيش المسلم وهو ممتلئ الشعور بالاستناد إلى قوة الله، والاعتزاز بعزته، فلا يخفض رأسه لغير الله، ولا يدين بالولاء المطلق لغير الله .. لا يخاف إذا خاف غير المسلم، ولا يجزع إذا جزع غير المسلم، لأنه في ضمان من قدرة رب العالمين وحكمته وهو سبحانه القائم على كل شىء الحافظ لكل شئ .

وثانيا : وحدة القبلة التى يتجه إليها المسلمون بوجوههم وقلوبهم خمس مرات كل يوم في صلواتهم المفروضة عليهم، عدا النوافل والسنن، وبهذه الوحدة في الاتجاه تتوحد المشاعر، وتجتمع القلوب، ويلتقى المؤمن بإخوانه المؤمنين هذه اللقاءات المتكررة كل يوم مرات على سمت بيت الله، الحرام في مكة المكرمة ..

وثالثا : وحدة الصفة في العبادات التى يتعبد بها المسلم لله، من صلاة، وزكاة وصوم وحج .. فكل من بلغ حد التكليف من المسلمين ، كان مطالبا بأداء هذه العبادات، التى يستوى فيها الناس جميعا ، لا فرق بين حاكم ومحكوم، وعالم وجاهل .. فلا طبقية، ولا امتياز في هذا المقام .. فالجميع بين يدى الله ، هم عباد لله ..

ورابعا : وحدة الميزان الذى توزن به أعمال الناس في مقام الحساب والجزاء ، فليس لإنسان فضل على إنسان عند الله إلا بالتقوى، كما يقول سبحانه : «ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٢١) .. ومن هنا لم يكن لأحد من جماعة المسلمين أيا كان قدره عندهم ومنزلته فيهم، أن يشفع لمذنب، أو يدعى غفران الذنوب لخاطىء، أو أن يكون له حق الحرمان والتجريم أو تجريد المؤمن من إيمانه .. إذ ليس في الاسلام طبقة دينية تدعى أنها موكلة من الله على الناس، تصل من تصل منهم بالله وتقطع من تقطع منهم عن الله وتغفر لمن تغفر، وتدين من تدين فذلك كله إلى الله وحده، فلا تسلط من مخلوق على مخلوق .. وبهذا انفتح الطريق أمام المسلم إلى الله من غير أن يقوم عليه سدنة أو حجاب، فعلى أى حال يكون عليها المسلم، وفي أى مكان ينزل به، هو قادر على أن يعرف طريقه إلى الله، وأن يدعوه ويناجيه، سرا وجهرا، قائما وقاعدا .. وهذا من شأنه أن يحرر إرادة المسلم ويرفعه إلى مقام الحضور بين يدى الله في أى وقت، وإنه بقدر إخلاص النية وسلامة الطوية يكون قرب المسلم أوبعده من ربه ، وبهذا استطاع كثير من العبيد والأرقاء في صدر الإسلام أن يكونوا أقرب الناس إلى الله وأكرمهم منزلة عند رسول الله، مثل بلال، وعمار، وصهيب على حين كان سادتهم ممن دخلوا في الإسلام بعدهم، بعيدين عن هذا المقام عند الله وعند رسوله، وعند المسلمين ..

---

(٢١) سورة الحجرات : الآية : ١٣ .

وخامسا : وحدة التشريع الإلهى الذى ينزل المسلمون جميعا على حكمه، الفقراء والأغنياء، والمحكومون والحكام، والرعية والولاة، فتقام حدود الله على كل من وقع تحت منكر يوجب الحد، أيا كانت مكانته في دنيا الناس ..

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم الحد على تلك المرأة المخزومية القرشية، ويأمر بقطع يدها بعد أن ثبتت عليها جريمة السرقة ويلقى من جاءه من صحابته . (٢٢) مستشفعا لها حتى لا يخزى أهلها - يلقاه الرسول الكريم غاضبا لائما، قائلا : «أتشفع في حد من حدود الله » ثم يدعو الناس إليه ويخطبهم قائلا : «أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا الحد عليه، والذى نفسى بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

هذه أبرز الركائز التى قامت عليها الشريعة الإسلامية، وحدة في العقيدة ووحدة في القبلة التى يولى المسلمون وجههم إليها، ووحدة في الصفة التى يتعبد المسلمون جميعا بها، ووحدة في الميزان الذى يسوى حساب المسلمين في الثواب والعقاب .. ووحدة في التشريع الإلهى وإمضاء أحكام شريعته على الناس جميعا من حكام ومحكومين، ومن سادة وعبيد ومن خاصة وعامة .. ومن هذه الركائز يشرف المسلم على هذا الوجود ويتعامل معه، ويأخذ لنفسه الموضع الملائم له فيه، فإذا علومه، ومعارفه نابعة من هذه الينابيع الربانية الصافية مصطبغة بهذه الصبغة المشرقة قائمة على ميزانها .. وإذا حصيلة ذلك كله هو ما يعرف بالأمة الإسلامية، التى تستمد مادة وجودها من هذه الروافد التى يتوارد عليها المسلمون ، ويرتوى منها كل مسلم .

تلك هى حقيقة الإسلام، وهذا هو وجه شريعته السمحة الغراء، تحمل الخير كله، والسلامة والأمن جميعا .. يقول الرسول الكريم : «تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها » أى أنها نور دائم لا يغشاه ظلام ، ونهار متصل لا ينسخه ليل ..

---

(٢٢) هو أسامه بن زيد، حب رسول الله وابن حبه زيد

فهل المسلمون هم دائما على هذه المحجة البيضاء ؟ إنهم لو كانوا كذلك لما رأينا العالم الإسلامى في عصرنا هذا ، وفي أكثر من عصر سبقه، لفهم الظلام ، وغشيهم ليل دامس، تدسست إليهم في ظلماته عقارب، وحيات تنهشهم، وتنفث فيهم سمومها، وإذا هم ضحايا التمزق، والتشتت، والجهل والمرض .. قد تداعت عليهم العلل من كل أفق، واجتمعت عليهم الآفات من كل لون، حتى إذا تطاول الزمن بهم في صحبة هذه العلل وتلك الآفات سكنوا إليها، ولم يجدوا لها ألما، إذ كانت بعضا منهم .. أشبه بذى العلة التى يحملها صاحبها سنين طويلة ، لا تلبث أن تفرض سلطانها عليه، فيلبسها كما يلبس الثوب، إذا نزع عنه، أحس أنه عريان . ولله در شاعرنا العربى - المتنبى - إذ يقول عن نفسه، وقد اجتمعت الرزايا عليه، فألفها وأصبح لا يشعر بالجديد الوافد عليه منها - يقول :

وكنت إذا أصابتنى سهام ... تكسرت النصال على النصال
وصرت وما أبالى بالرزايا ... لأنى ما أنتفعت بأن أبالى

ويقول هذا الشاعر، وهو يشكو من ألا يجد ألما لما ينزل به من أسقام :

وبليتى فقد السقام لأنه ... قد كان لما كان لى أعضاء

فلقد ذهب الداء بما فيه من حياة كانت تلبسها أعضاؤه ، فإذا نزل به داء لم يشعر به، لأنه لا يجد إلا داء يقع عليه، فهل يشكو الداء من الداء ؟

ونعم، إن الادواء قد تزاحمت علينا، وغلبت على كل صالحة فينا فأصبحنا نرعى في مراتع الخبائث ، ويلذ لنا طعمها، ونزهد في المطاعم الطيبة ونعافها نعيش غرباء في هذا العالم لأننا في غربة عن ديننا، وأحكام شريعتنا .

إن شريعتنا صراط مستقيم واحد، لاعوج فيه ولا شعاب .. فمن خرج عن هذا الصراط لم يكن على الإسلام، ولا على شريعة الإسلام ، وكان مع الشيطان وأولياء الشيطان : «ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا » (٢٣) «أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » (٢٤) .

---

(٢٣) سورة النساء : الآية : ٣٧

(٢٤) سورة المجادلة : الآية : ١٩

أخرج أحمد والترمذى ، والنسائى، وابن جرير ، وغيرهم، عن النواس بن سمعان، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتى الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول : «أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا ولا تفرقوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد إنسان أن يفتح شيئا من تلك الأبواب ، قال: ويحك لا تفتحه فإنك إن تفتحه تلجه » .. ثم يقول الرسول الكريم: فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعى على رأس الصراط كتاب الله، والداعى من فوق واعظ الله تعالى في قلب كل مسلم » ففى هذا الحديث الشريف ، يكشف الرسول الكريم عما يعترض الصراط المستقيم، الذى نصبه الله تعالى لعباده، بما جاء به دينه وما حملته شريعته فعلى جنبتى هذا الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة .. والأبواب المفتحة هى محارم الله، عليها ستور مرخاة تلوج من ورائها شهوات النفس الأمارة بالسوء، وما تدعو إليه من هتك هذه الستر وولوج تلك الأبواب ، وانتهاك حرمات الله .

فأين نحن اليوم من صراط الله المستقيم ؟ إننا على مفترق الطرق من هذا الصراط المستقيم، بين واقف منا على أبواب هذين السورين الواقعين على جنبتى الصراط، وبين هاتك لتلك الستر المرخاة على الأبواب، وبين مقتحم هذه الأبواب مغلق ما بينه وبين صراط الله .. وأكثرنا هم الذين اقتحموا هذه الأبواب ، وهتكوا الستور المقامة عليها، لا يبالون أن يراهم الناس يأتون الفواحش جهرة ..

فهناك إذن أبواب كثيرة دخلنا منها إلى غير صراط الله، فاحتوانا مافيها من شر وبلاء .. وهذه الأبواب ، بعضها قد فتحناه نحن بأيدينا، وبعضها قد فتح لنا بيد أعداء الله المتربصين بنا، فدفعوا بنا دفعا إليها وجعلونا وقودا لها ..

وها نحن أولاء، نكشف عن بعض وجوه هذه الأبواب، سواء منها ما فتحناه نحن بأيدينا، ومافتحه لنا أعداء الله، وأعداء دين الله، فألقوا بنا فيها ..

الفصل الثاني

(النظم والحركات المعادية للإسلام)

تمهيد :

التيارات الفكرية المنحرفة، والآراء الضالة الشرود، إنما يعظم خطرها ويعم شرها، حين تخرج من حيز الأقوال إلى حيز الأفعال، وتصبح نظاما عاملا في الحياة، يعيش الناس تحت سلطانه، ويعملون حسب الخطط المرسومة لهم من هذا النظام ..

فالكلمة التى تحمل رأيا، أو تقرر مذهبا، إذا التقت بالناس، وتسربت إلى عقولهم، ونفذت إلى مشاعرهم، لابد أن تترك آثارها في سلوكهم، وتضع بصماتها على كثير من اعمالهم، فإذا التقى مجتمع من المجتمعات على ندائها واستجاب لدعوتها، لم تلبث حتى تتحول إلى نظام يحكم المجتمع، وإلى قوة قائمة على حفظ هذا النظام .

وسواء في هذا الكلمة الطيبة أو الخبيثة، والراى السليم أو السقيم، كل منهما يخرج مافي محامله من ثمر، فالكلمة الطيبة تعطى ثمرا طيبا نافعا في الحياة، والكلمة الخبيثة تخرج ثمرا خبيثا، يفسد العقول والقلوب .. وهذا مايشير إليه قوله تعالى: «ألم تر كيف ضرب الله مثلا ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار، يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء » (٢٥) .

---

(٢٥) سورة ابراهيم : الآيات : ٢٥ - ٢٧

من هنا ينبغى أن نحذر الكلمات الضالة التى تتشكل منها الآراء المنحرفة وأن ننظر إليها على أنها فتنة متحركة تسعى بين الناس، وترميهم بالشرر الذى لا يلبث أن يتحول إلى حريق يهلك الحرث والنسل .

ونعرض هنا بعض النماذج للحركات والنظم المنحرفة عن سواء السبيل، والتى ولدتها الآراء الضالة والأفكار السقيمة والتى كانت أبواب شر فتحت علينا فتهافتنا عليها تهافت الفراش على النار .

الغزوات الوافدة علينا :

المال ذو سلطان قائم في الحياة، وسلطانه هذا لا يكاد أحد يخرج عنه وحركة « التصوف » التى ظهرت في المجتمع الإسلامى منذ ابتداء القرن الثالث الهجرى، وإلى يومنا هذا قد كان من آثارها أن انصرف كثير من المسلمين عن العمل والكسب ، وتحولوا إلى دمى متحركة، أو أشباح باهته وكان من هذا أن أقفرت بلاد المسلمين وأجدبت، وأصبحت سوقا تجارية لمصنوعات الغرب ، يستنزف بها البقية الباقية من المال في أيدى الكادحين من أبنائنا ..

واليوم قد ظهر المال في أوطاننا على غير انتظار، بما أخرجت الأرض من كنوز كانت مخبوءة فيها من جهة، وبما كان من أثر الغزو الأوربى لنا، وماشهدنا من جده وسعيه، واستغلاله لكل طاقاته الفعلية والجسدية في تنمية موارده، واستثمار كل لحظة من حياته في العمل، فقد دعا هذا كثيرا من أبناء المسلمين إلى محاكاة الأوربيين في هذا، فكان ذلك بابا من الأبواب التى دخل منها المال علينا ..

وهذا المال الذى في أيدينا هو مال كثير وكثير، تتطلع إليه عيون الغرب وتمد شباكها لاصطياده، إذ كان عندنا مكدسا، لم تقم منه صناعة من تلك الصناعات العالمية الكبرى، ولم ندخل منه إلى أسواق العالم في هيئة سلع أخرجتها أيدينا ..

وقد أصبحت بلادنا الإسلامية الآن ، وبسبب هذا المال مسرحا لغزو مذاهب اقتصادية قام عليها نظام سياسى، واجتماعى في كثير من أمم العالم وشعوبه ..

ويتمثل هذا الغزو في مذهبين يتحكمان في العالم اليوم ويتنازعان التسلط عليه، وهما مذهب الرأسمالية، والمذهب الشيوعى .. وفي فلك هذين النظامين يدور نظام الاقتصاد الذى قسم العالم إلى معسكرين معسكر الرأسمالية، ومعسكر الشيوعية وكل من المعسكرين يعمل على أن يحتوينا في داخله، ويديرنا في فلكه ..

والسؤال هنا هو: هل هناك من خير لنا في أى من هذين النظامين إذا كان لنا الخيار في الاختيار؟ وإذا لم يكن لنا خيار، فهل نستسلم حتى نقع فريسة لنظام لا نرتضيه لديننا أو دنيانا ؟ .

ولا نريد أن نعطى جوابا على هذا، حتى ننظر في كل من النظامين، نظرة سريعة، نتعرف منها على ملامحه البارزة ..

١ - الرأسمالية :

وهى نظام اقتصادى، قام على دعوة خادعة في ظاهرها، وهى الحرية المطلقة للفرد، فيما يعمل، وفيما يكسب من عمل دون أن يكون للدولة سلطان عليه، أو أن يكون للمجتمع حق فيما يكسب .. وهذا يعنى أن الفرد في ظل النظام الرأسمالى عالم مستقل بذاته، يبنى وجوده، ويجمع ثروته من تعامله مع المجتمع، ثم لا يكاد يعطى المجتمع شيئا مما جناه من ثمرات هذا المجتمع، ولو كان بالسلب والنصب والغش والاحتيال .

وحرية الإنسان في العمل، وفي الكسب، وفي التملك لما يكسب - هذه الحرية هى في ذاتها، حق مشروع للإنسان، قررته الشرائع السماوية، ولكن ليس على هذا الإطلاق الذى قام عليه النظام الرأسمالى، بل إن الشرائع قد جعلت لهذه الحرية حدودا تقف عندها، وأوجبت عليها حقوقا والتزامات ينبغى على أصحابها أن يؤدوها .

ففى المعاملات المالية، تحرم الشريعة الإسلامية ماكان منها فيه عدوان على الناس، وأكل أموالهم بالباطل، كالربا، والغش ،والقمار، والأحتكار، والمضاربة والسرقة والنهب، ونحو هذا مما يخرج المال من أيدى أصحابه إلى غيرهم من غير عمل مشروع ..

ثم إذا كسب المرء ماله من حلال، فليس له أن يحتجزه كله لنفسه لأنه إنما كسبه بالتعامل مع المجتمع، ولذا فان هذا المال تتعلق به حقوق لله ولعباد الله، كالزكاة ، والإنفاق في سبيل الله، والإنفاق على من يلزم المرء الإنفاق عليهم من أقاربه، وذوى رحمه، ومن يجد في ماله متسعا للإنفاق عليهم أو معونتهم، من الفقراء والمساكين، وأبناء السبيل ..

فإذا التزم المرء كسب المال من طريق الحلال، مجانبا طرق الغش والاحتيال والتدليس، والغصب، ثم أخرج من هذا المال الذى اكتسبه ما تعلق به من حقوق كان مثل هذا المال نعمة لصاحبه، وللمجتمع الذى يعيش فيه ..

أما المجتمع الرأسمالى، فهو عدة مجتمعات، كل مجتمع منها على عداوة ظاهرة أو خفية للمجتمع الآخر .. حيث تختلف المصالح بين مجتمع وآخر، فما يحقق مصلحة لمجتمع يضر غيره .. فهناك مجتمع الأغنياء وأصحاب رؤس الأموال الضخمة التى تتحكم في الأسواق الاقتصادية، من صناعية، وتجارية، وزراعية، كما تتحكم في وسائل الانتاج، وتجتمع إلى يدها السلطة السياسية، حيث تدير دفة الحكم نحو مصالحها الخاصة، وهناك طبقة الفقراء، من العمال في الصناعة والزراعة وفي المرافق العامة، وهى طبقة تنزف دمها وعرقها في سبيل لقمة العيش .. وبين الطبقتين طبقة متوسطة، بين الفقراء والأغنياء أصحاب رؤس الأموال، حيث يجرفها تيار الحياة صعودا فترتفع إلى طبقة الأغنياء، أو نزولا إلى طبقة الفقراء ..

فالمجتمع الرأسمالى مجتمع المتناقضات بين طبقاته، ومجتمع الصراعات بين تلك الطبقات من جهة، وبين أفراد كل طبقة فيما بينهم من جهة أخرى حيث يتقاتل الناس من

أجل المال الذى إذا وقع في يد أمسكت به دون أن يشاركها أحد فيما وضعت يدها عليه، من الفقراء والمساكين، أو من ذوى القربى ولو ماتوا جوعا ..

هكذا عالم الرأسمالية، عالم يحكمه المال، وتختفى فيه كل عاطفة إنسانية من مواساة أو رحمة، أو إيثار، أو تضحية، وغير ذلك مما تدعو إليه الرسالات السماوية، وتعد بالجزاء الحسن عليه ..

فحيث استغلظ عود الرأسمالية في مجتمع، أذن موذن الدين بالرحيل منه، وتحول الناس فيه الى وحوش كاسرة تتقاتل بالأظافر والأنياب، وتتناطح بالرؤس والقرون ..

٢ - الشيوعية :

وهى الصورة المقلوبة للرأسمالية، فإذا كانت الرأسمالية تقوم على الفردية، واستقلال كل فرد بذاته وانعزاله عن المجتمع - فإن الشيوعية قد قضت على ذاتية الأفراد قضاء تاما ، وأذابتهم في المجتمع ، وجعلت من هذه العجينة البشرية كائنا واحدا هو ما أطلقت عليه اسم المجتمع الذى ابتلع في كيانه جميع الافراد ..

فالفرد في الشيوعية آلة مسخرة، تعمل للدولة وهى السلطة التى انعزلت عن المجتمع الشيوعى، وأشرفت عليه من عل، تسوقه كما يساق القطيع من الحيوان وتوجهه يمينا أو شمالا، دون أن يدرى إلى أى اتجاه يساق، أو إلى أية غاية يعمل .. فإذا فتر أو أبطأ كان السوط على ظهره ينزف دما من دمه، فإذا رفع رأسه معترضا أو محتجا كان الموت أقرب إليه من يده .. فأى حياة من ا لشقاء والتعاسة تلبس هذا الانسان الشقى التعس، الذى فقد وجوده وهو حى، وفقد حنان الأسرة والسكن إلى الزوج والولد ؟

وهل في قطعان الحيوان مكان للأسرة، أو سكن إلى زوج أو ولد ؟ إن هذا من ذاك سواء بسواء ..

وإن أكبر جناية جنتها الشيوعية على الذين وقعوا تحت براثنها، هو إخلاء قلوبهم من الدين، وحجب أبصارهم عن التطلع إلى معبود غير الدولة .. أما الإله وأما ما يؤمن به المؤمنون من حياة آخرة، وحساب ، وجزاء وجنة ونار، فهذا كله في عالم الشيوعية من خرافات الأولين وأساطيرهم، ومن تلفيقات أهل المكر والخديعة ممن يسمون أنفسهم رجال دين، ليضللوا به السذج والبسطاء والعامة من الناس حتى ينقادوا لهم، ويستسلموا لمشيئة الله فيهم، هذا ما تسبح به الشيوعية في صلاتها صباح مساء .

إن الإله في عالم الشيوعية هو «خرافة » وإن الدين هو «أفيون الشعوب» والمخدر الذى يذهب بعقولها، وينسيها همومها التى تعانيها في الحياة، وبذلك يخلو وجه الحياة للحكام المتسلطين على العامة، فلا تتحرك في صدورهم ثورة على الظلم، ولا يتطلع في نفوسهم أمل إلى حياة أفضل، وحسبهم أن يصبروا على هذا الشقاء في الدنيا، لينعموا بالنعيم المقيم في الآخرة ..

هكذا تعلنها الشيوعية حربا سافرة على الله، وعلى كل مادعا إليه رسل الله من شرع الله، وبهذا استطاعت الشيوعية أن تحول من وضعت يدها عليهم من الناس إلى دمى متحركة، يقيمون وجهها إلى عبادة الإله الجديد، وهو الدولة ..

إن الإنسان حين يسوى حسابه مع الله على هذه الصورة، التى تقطع الصلة بينه وبين خالقه، ورازقه، ومن إليه تتجه آماله، وترتفع دعواته - إن مثل هذا الإنسان يعيش في سجن مظلم، مطبق عليه إطباق القبر على الميت ، فلا يرى بصيصا من نور، ولا يعرف ليلا من نهار، فإن لم يقتله اليأس ، قتل نفسه بيده ..

ذلك هو عالم الشيوعية الكئيب، الذى لا يرجى لمن وضع قدمه فيه نجاة من هذا البلاء الذى ينتظره، ويستولى على وجوده كله ..

وإذا كان للرأسمالية من دواء إذا هى تخففت من مغالاتها في إطلاق الفرد من كل

قيد، حيث يأكل القوى الضعيف، دون حساب أو جزاء، وذلك بأن تجعل للجماعة حسابا في حياة الفرد، فلا يستأثر بكل ما جمع - فإنه ليس للشيوعية من دواء أبدا، حيث ذاب وجود الفرد في هذا المحيط، كما تذوب قطرات المطر في مياه البحر .. إنه لا وجود للفرد في هذا النظام، وإنه لا أمل في إصلاح أبدا تحت ظل هذا النظام، ولا سبيل إلى اعادة الحياة للذين عاشوا فيه، حيث انتزعت منهم كل المعالم التى يعيش بها الإنسان مع الناس .. فهل من فقد سمعه وبصره، ولسانه، ومدركاته، ومشاعره، وأحاسيسه - هل يمكن أن يعاد إليه كل هذا الذى ذهب منه ؟ إن ذلك محتاج إلى معجزة، وقد مضى زمن المعجزات ، بعد أن ختمت رسالات السماء برسالة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه .

ومهلا، فإن هذا النظام نكسة من نكسات الإنسانية، وانحراف حاد من انحرافاتها العارضة، أشبه ببعض تلك الأوبئة التى قد تجتاح شعوبا بأسرها، ولكن لا تلبث المحنة أن تزول ، وتعود الحياة إلى سيرتها الأولى، فإن للحياة سننا أقامها الخالق سبحانه وتعالى عليها، لا تنال منها تلك العوارض التى تعرض لها، كما تعرض قطع الحجارة للسيل المتدفق من عل، لا يلبث أن يدفعها أمامه ويأخذ مجراه .

هذان هما النظامان الاقتصاديان اللذان يسودان عالم اليوم، وفى فلكهما تدور حياة المجتمعات السياسية، والاجتماعية .. فهل يتفق أى منهما مع نظامنا الإسلامى، الذى يحكم الجماعة الإسلامية، ويقيم بناءها ؟

هذا، وقد تولد عن هذين النظامين - الرأسمالى والشيوعى - منزع في التفكير الانسانى .. استولى على وجود الإنسان كله، من أولئك الذين يتمذهبون بالمذهب المادى، الذى أصبح دنيا وعقيدة عند من يعرفون بالماديين .

فماهو هذا الدين المادى ؟

تتحكم المادية في هذا العصر، تحكما يكاد يكون مطلقا في تفكير الناس وفي سلوكهم

وفي كل حركة من حركاتهم، وعمل من أعمالهم، وذلك بصورة لم تكن تعرفها الإنسانية من قبل، على هذه القوة القاهرة المتسلطة، وبهذا الشمول الذى احتل رقعة كبيرة من هذا العالم ..

فلقد غلبت المادة على منازع التفكير الإنسانى، بعد أن أصبحت المحسوسات هى أساس التعامل في مجال الفكر، كما هى أساس الأخذ والعطاء في مناحى النشاط الإنسانى كله ..

إن إنسان العصر الحديث في عالم الماديين ، لا يدخل إلى عقله شيئا لا تلمسه حواسه، وتختبره، وتتحقق من وجوده محسوسا، ملموسا، منظورا .. فلا غرابة في أن يكون موقف هذا العقل المادى، من مقررات الأديان موقفا قلقا مضطربا، يتأرجح بين الشك والانكار، حتى ينتهى أمره إلى إنكار الأديان جملة، لأنها تدعو فيما تدعو إليه، إلى الايمان بالغيب ، مما وراء الحس، من الإيمان بالله، وملائكته، واليوم الآخر، ومافيه من حساب وميزان، وصراط وجنة، ونار، ومافي الجنة من ألوان النعيم، وصنوف الرضوان، ومافي النار من صور العذاب ، وأنواع النكال، وكل هذا لا يقع في مجال المدركات الحسية التى هى عمدة العقل المادى في الحكم على الأشياء، وقبولها أور فضها ..

ولهذا تنكر المادية على الديانات جميعها هذه المشاعر الإنسانية التى يعمل الدين على غرسها وتنميتها في نفوس المتدينين، من الرحمة، والمودة، والإيثار، والعطف والإحسان، والتكافل ، وكل ما يشيع في كيان الإنسان من عواطف إنسانية نحو أهله وقرابته، ومجتمعه، والإنسانية كلها، بل عالم الحيوان أيضا ..

فليس في شريعة المادية، ولا في قاموسها اللغوى ، ولا في رصيد مشاعرها شىء اسمه الرحمة، أو العطف، أو الإحسان .. ونحو هذا مما يجمع بين الناس والناس، ويؤلف بين قلوبهم .. إذ كل هذا نقد زائف في عالم الماديين، لا يتعامل به أحد في دنياها ..

إن المادية تعد هذه العواطف الإنسانية وأمثالها أمراضا اجتماعية خبيثة دخلت على عقول الناس، وسكنت في مشاعرهم عن طريق الخداع والتضليل، وعلى ألسنة المخادعين والمضللين، الأمر الذى تحمل الديانات - في نظر الماديين - أكبر قدر منه ، ويضم المتدينون أكثر جماعة داعية إليه، بما تلقى إلى الناس باسم الدين من صور التفزيع والتخويف بهذا اليوم الموهوم - في زعمهم - يوم القيامة ، وما يحل بالناس فيه من عذاب ونكال ..

ثم ترى المادية - من جهة أخرى - أنه لن تسلم للناس حياتهم، ولن تتحرر أفكارهم ونوازعهم ، ولن يصح وجودهم ، ويستقيم خطوهم في الحياة إلا إذا اقتلعت من نفوسهم هذه العواطف من جذورها، وإلا إذا حطموا هذه الأغلال التى تقصر خطوهم، وتشل إرادتهم، وتمتص القوى العاملة فيهم، كما تمتص الحشائش الغريبة المتسلقة عصارة الحياة من النبات الطيب الكريم .. ألا ما أضل عقولهم، وما أعمى أبصارهم ..

يقول الفيلسوف الألمانى «نيتشه» «إن الرحمة» والتعاون، والحب ، وكافة الفضائل التى تنادى بها المسيحية هى مجموعة من الدجل والخرافات، تستهدف رعاية الغوغاء، والدهماء والقطعان، وهؤلاء جميعا هم فقراء، ومرضى، وضعفاء يعوقون التطور الإنسانى، في حين أنه يجب أن نخلص لنوعنا البشرى بأن نبقى على الأقوياء في الذهن، والجسم، والروح، ونعمل على إفناء الآخرين، حتى نحصل في النهاية على الرجل «السوبرمان»[٢٦].

ومن عجب أن يذكر نيتشه شيئا اسمه الروح، وهو الرجل المادى، الذى لا يعترف إلا بالمادة المحسوسة ..

هذا، وقد تولد عن هذا التفكير المنحرف، ذلك المذهب الذى نادى به «هتلر» الذى حكم ألمانيا في الربع الثانى من هذا القرن، والذى داس في غير رحمة أو مبالاة على كل

---

(٢٦) السوبرمان: الرجل المنتخب من سلالات الانسانية الممتازة، وهو بهذا يكون على رأس الإنسانية كلها، عقلا، وحكمة ..ثم منه يتوالد العقلاء والحكماء .. هكذا يقول هذا المادى .

العواطف الإنسانية، وأدار دولاب الحرب العالمية الثانية يطحن به الشعوب الضعيفة من حوله، عملا بالمذهب المادى الذى يقول : «إن من حق الأقوياء أن يأكلوا جميع الضعفاء» والذى ينادى بأن من واجب المجتمع أن يتخلص من الضعفاء الذين يعوقون مسيرة الحياة .

الإسلام في مواجهة التحدى المادى :

أخطر مافي المادية أنها تقدم بين يديها شيئا محسوسا مما يعيش فيه الناس وتتطلع إليه أهواؤهم ونزعاتهم، وهم بهذا إنما يتملقون شهوات الناس، ويأتون إليهم من الجانب الضعيف بينهم، حيث تميل النفوس دائما إلى العاجل من كل محبوب ومرغوب عندها، ولو كان قليل الغناء والجدوى مؤثرة إياه على الآجل الكثير نفعا العظيم أثرا .. وهذا ما كشف عنه القرآن الكريم من طبيعة النفس البشرية، إذ يقول سبحانه: «كلا بل تحبون العاجلة، وتذرون الآخرة (٢٧) ويقول جل شأنه : «إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا (٢٨) .

ومن هنا كان على الذين يتصدرون للماديين والملحدين في تهجمهم على الدين، وإغواء المفتونين بهذا السراب الخادع الذى يقدمونه بين يدى هذا الهجوم من دعوة إلى التحرر من كل قيد دينى أو خلقى، أو اجتماعي ، حتى ينطلق الإنسان على هواه، وأن يأخذ من دنياه كل ما هو متاح له، دون نظر إلى شيء وراء هذه الحياة الدنيا مما يدعو إليه الدين من حياة آخرة لم يرها أحد ، ولم يضع أحد في يده شيئا منها - نقول إن على الذين يتصدون لرد هذه الدعوى المضللة، وإبطال مفعولها الذى ينفذ إلى عقول كثير من الشباب - أن يضعوا في موازين الدين، مافيه من غير معجل للناس، هو أعظم ، وأكرم، وأنفع للناس في دنياهم مما يقدمه الماديون والملحدون، فضلا عن الثمرات الطيبة التى يجنيها المؤمنون في الآجل الموعود به من الله في الحياة الآخرة، مما لا يعد مافي هذه الدنيا كلها شيئا يعادل أقل القليل منه ..

(٢٧) سورة القيامة: الآيتان : ٢٠ - ٢١

(٢٨) سورة الإنسان : الآية : ٢٧ .

فالإسلام ، إذ يدعو الناس إلى الإيمان بالحياة الآخرة لا يحرمهم شيئا من طيبات هذه الحياة الدنيا، بل إنه يطلق كل قوى الخير فيهم ليعملوا جادين في كل ميدان من ميادين الحياة، وليقطفوا من ثمرات عملهم وجهدهم كل طيب، دون حرج من الدين الذى يقول الله تعالى فيه : «وما جعل عليكم في الدين من حرج» (٢٩)

فإذا كان الدين الإسلامى يدعو إلى الايمان بالحياة الآخرة، فإنه لا يدعو إلى الكفر بالحياة الدنيا، ولا يقيم في نفس المؤمن عداوة بينهما، بل إن الإسلام يزكى العمل للدنيا والآخرة معا، مادام هذا العمل قائما على طريق الحق، والخير والإحسان ..

فأى شيء من طيبات هذه الحياة الدنيا حرمه الإسلام على الناس؟ وأى عمل طيب لم يدع الناس إليه، ويعدهم بالجزاء الحسن عليه في الدنيا والآخرة ؟ ألم يقل الله سبحانه وتعالى: «ياأيها الذين آمنو كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم إياه تعبدون (٣٠) ؛ وألم يقل جل شأنه : «ياأيهاالذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (٣١) وألم يقل تبارك اسمه: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا في الحياة الدنيا، خالصة يوم القيامة » (٣٢) .. ثم ألم يقل عز من قائل : «من عمل صالحا من ذكرو أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون (٣٣) .

فأى قوة من قوى الإنسان الخيرة لم يطلقها الإسلام؟ وآية رغبة من رغبات الإنسان الشريفة الكريمة وقف الإسلام حائلا دونها؟

إن الإسلام إذ رسم للإنسان حدودا لا يتعدها، وإذ وضع على طريق مسيرته في الحياة معالم لا يخرج عنها، فما ذلك إلا لضمان سلامة الإنسان في تلك المسيرة ووقايته من شهوات نفسه المتسلطة عليه، والتى قد تقوده إلى الهلاك، أو تلبسه الشقاء الدائم في حياته قبل آخرته ..

(٢٩) سورة الحج : الآية : ٧٨ . (٣١) سورة المائدة: الآية :٨٧ .
(٣٠) سورة البقرة الآية :١٧٢ . (٣٢) سورة الأعراف : الآية : ٣١ .(٣٣) سورة النحل : الآية : ٩٧.

فإذا أطلقت المادية للانسان كل عنان، وأخلته من كل قيد يقيد المرء به في نفسه وفي مجتمعه من عادات وتقاليد، ومعتقدات، فإنها لم تفعل أكثر من أنها عرت الإنسان من إنسانيته، ودفعت به إلى عالم البهائم، لا يرتفع نظره إلى أكثر من مواقع قدميه، ولا يعيش إلا للحظته التى هو فيها، وليأت بعد ذلك الطوفان، وليكن ما يكون وهذا مالا يقبله عقل عاقل، ولا يرضى به إنسان فيه بقية من الإنسانية .

وإنه ليكفى أن نأتى هنا بشاهد ممن عاشوا بين العالم المادى، ورأى مدى الشقاء الذى يعيش فيه أهل هذا العالم من أغنياء وفقراء على السواء ..

فهذا العالم الأمريكى «فبيرنس جيفارت» يتحدث عن مجتمعه الذى تتحكم فيه المادية، ويقول: «إن العلم قد غلا في الاستفادة من تصديق العامة له، أكثر مما غلا رؤساء الدين في استجابة الناس لهم .. فقد استطاع العلم أن يشكك العامة وأشباه العامة في العقيدة، ويؤكد لهم عدم صحة الحقائق الدينية، ووعدهم بتعويض عنها بأصول ثابتة أبدية لدين جديد، وهو دين المادية، فلم يف بهذا الوعد لهم ولما أب للإنسانية بعض صوابها، وقد فقدت مغرياتها السابقة - وجدت نفسها حيال فراغ رهيب. «إن العلماء - أى الماديين ينصحون لكل إنسان أن يكون له دينه الخاص، ولم يفطنوا إلى أن هذه النصيحة تحتوى على تناقض بين، حيث إن المذهب الحسى - أى المادى - لم يترك للانسان مجالا غير مجال المادية المحض ..

ثم يقول: «فأى قانون أخلاقى يكبح جماع أهوائنا، وإدخالها إلى مجاريها الطبيعية المعتدلة؟ لقد ذهب عنا الكمال المعنوى، ولم يبق فينا إلا خوف مبهم من شىء غير مدرك، لأن العقيدة بالله لا يمكن زوالها من النفس ..

«إن تحت هذا السلم الذى اقتضاه الخوف العام، لأحقادا تختمر اختمارا بأشد مما كانت عليه في أى زمن من الأزمان، فإن جرائم الفوضويين، وانتحار الأسر بأجمعها ، والوساوس الخرافية الآخذه في الانتشار بين الناس، والجنون الذى لا ينتظر إلا سنوح الفرص لأصحاب الأثرة البائسين - كل هذا الفساد الخلقى الشديد الوطأة، البعيد القرار، الذى

عمنا جميعا ، ناشىء من عدم وجوب قاعدة دينية تصلح لإحداث الوحدة والإخاء بين احتياجنا الدائم للعمل وبين عاطفتنا للتراحم والمودة والحب » (٣٤) .

وعالم أخر : من علماء القوم، وشاهد إدانة من شهودهم ، وهو العالم «كاميل فلا مريون » يقول عن هذا العالم المادى الذى يعيش فيه قومه :

«لا يجوز لنا أن نخجل من الأعتراف بما وقعنا فيه من الانحطاط ، لأننا رضينا به، وأصبحت عقولنا المتشبعة بالأثرة لاهمّ لها إلا أغراضها الذاتية .. أليس حظنا اليوم قد استحال لجمع الثروة بلا مبالاة بوجوه جمعها، والحصول على المجد بطريق الاغتيال لا الكسب، والغلظة، وعدم الاهتمام بالقوانين والواجبات؟

«إن من التناقض البين أن نرى أن الرقى الذى حصل في العلوم بما لا مثيل له في التاريخ، وأن هذه الفتوحات المتوالية التى تمت للانسان في الطبيعة - نرى هذا إذا رفع عقولنا إلى الدرجات العالية، قد أهبط إنسانيتنا إلى أخس الدركات .. «وإن من المحزن أن نحس بأنه بينما نشعر بنماء قوتنا المادية يوما بعد يوم، تنطفىء شعلتنا الروحية، وتتصوح زهرة حياتنا القلبية، بتأثير المطامع المادية والشهوات الجسدية » (٣٥) . .

ذلك هو عالم الماديين، عالم تتحرك فيه أشباح بلا أرواح: «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا » (٣٦) .

فأين هذا من عالم الأمة الإسلامية التى تدين بشريعة، تعلو بالإنسان فوق عالمه الجسدى، وما يغلى فيه من شهوات البطن والفرج، وترفعه بهذا الجسد إلى عالم الروح فيخف سعاره، وتنكسر حدة شهواته، ويتقاسم جهده روح وجسد هما الجناحان اللذان

---

(٣٤) الإسلام في عصر العلم ص ٢٨١ وما بعدها ، للمرحوم محمد فريد وجدى .

(٣٥) الإسلام في عصر العلم ص ٢٨٣ للمرحوم محمد فريد وجدى .

(٣٦) سورة الكهف : الآية : ١٨ .

يحلق بهما فوق عالم الحيوان الذى يدب على الأرض، وإنه بقدر ما يعلى المرء من شأن الروح، بقدر ما يعلو ويسمو فيكون إنسانا أقرب إلى الملأ الأعلى، منه إلى عالم الدواب والأنعام .. وبهذا ينعزل المسلم عن عالم الكفر، الذى يعيش أهله أشباحا بلا أرواح، وصورا آدمية في طبائع البهائم .. «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم (٣٧) .

فالمادية وجه من تلك الوجوه المنكرة التى تغزو المسلمين، وتضلل كثيرا منهم بما يلوح على سرابها الخادع من بريق زائف، يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، وإن المخدوعين منا بهذا السراب، ليقطعون أنفاسهم لهثا وراءه حتى إذا جاءوه ، وجدوا الشقاء الذى يعيش فيه أهله ، فشربوا من كأسهم المر المسموم وذلك جزاء من اتبع هواه ، فكان « كالذى استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا، قل إن هدى الله هو الهدى (٣٨) .

الإسلام إذن ليس عدوا للمال، إلا حيث يكون مهواة للفتنة ، ومزلفا إلى الضلال .. ولكن انظر ، كيف تصور للمسلمين الحياة في كتب بعض المؤلفين وكيف ترسم لنا مناهج العيش فيها ؟ إنها صورة مخيفة مفزعة لهذه الدنيا، ومنهج سلبى كالح لهذه الحياة .. حتى لقد زحف على العامة من ذلك كثير من المقولات التى ينسبونها إلى الإسلام، والتى يدعون فيها المجتمع الإسلامى أن ينفض يده من كل شىء فيهـا إن أراد السلامـة والنجاة .. وكان من هذا أن ظهرت دعوات الزهد المريض، والتصوف الدخيل، الذى ساق جمهور المسلمين سوقا إلى اعتزال الحياة، والانزواء في ركن قصى مظلم منها.. وكان وراء هذا كيد عظيم، كيد للإسلام والمسلمين به، حتى أخلى المسلمون أيديهم من الـدنيا، فاستولى عليها أعداء الإسلام وجعلوهم متاعا من متاعها يبيعونهم بيع العبيد، وهم لا يملكون من أمرهم شيئا، وأصبحو بلا دين ولا دنيا ..

---

(٣٧) سورة محمد : الآية : ١٢.

(٣٨) سورة الأنعام : الآية : ٧١ .

التصوف وما دخل منه على المسلمين :

ولأن التصوف كان أشأم مولود لقيط ولد في مجتمع المسلمين، وانتسب إلى الإسلام ادعاء وزورا، فإنه ينبغى أن نكشف - في إيجاز - عن وجهه ، وعن الآثار السيئة التى نجمت عنه، إذ كان - في رأينا - أخطر حملة غزو شنت على الإسلام، منذ عصوره الأولى ، بعد عصريه الأولين .. فما نسبة هذا التصوف إلى الإسلام؟

تحسب كلمة «التصوف» في لسان اللغة العربية من الكلمات التى دخلت على قاموس اللغة العربية، بعد الصدر الأول للإسلام، وبعد سقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ .. وذلك أنه حين جاءت الدولة العباسية مستندة إلى الفرس، الذين كانوا من دعاتها، ومن المعاول التى عملت على تقويض الدولة الأموية، التى غلبت عليها روح النزعة العربية، فكان العرب هم الولاة، والجند والقادة، ولم يكن للفرس ولا لغيرهم ممن دخلوا في الإسلام دور بارز في دولة الأمويين .. فلما جاءت الدولة العباسية - تحت راية الفرس - انقلبت الأحوال، فتراجع العرب إلى الوراء، وزحزحوا من مكان الصدارة، وحل محلهم الفرس، ثم الترك، وهكذا اصطبغت الحياة في الدولة العباسية بصبغات غيرت وجه الحياة، فتبلبلت الألسن، وشاعت العجمة وكثر اللحن ، كما تبلبلت الأفكار واضطربت العقول، والقلوب بما دخل على الناس، من اختلاط المعتقدات والآراء، التى كان قد عاش فيها هؤلاء الداخلون في الإسلام محملين بموروثاتهم من تلك المعتقدات والآراء المصطبغة بصبغة الوثنية، والتى لا تزال خيالاتها تتراقص في عقول كثير من هؤلاء الأعاجم الذين دخلوا في الإسلام .. فظهرت لهذا فرق كثيرة في الإسلام، كفرق الخوارج، والمعتزلة، والشيعة، وكل فرقة منها تدعى لها دعوى في الاسلام، تؤول عليها آيات الكتاب الكريم، وتستجلب لها الأحاديث الموضوعة، تعزز بها رأيها وتنتصر بها لمذهبها ..«المتصوفة» التى هى وليدة تلك الأحداث التى ولدت في العصر العباسى ..

وإذن فكلمة « التصوف» يمكن أن يحدد ميلادها في اللغة العربية بأواخر القرن الثانى الهجرى، أو أوائل القرن الثالث ..

ومنذ أن ولدت هذه الكلمة، وهي تتردد كثيرا على الألسنة، وتتحرك تحركات واسعة في مجال الفكر الإسلامى، وبين جماهير غفيرة من المسلمين، عصرا بعد عصر، إلى عصرنا هذا وهى بين مناصرين لها، مستمسكين بها، وبين مناوئين لها محذرين من أخطارها .

ومجال القول كثير متسع في التصوف والمتصوفة .. غير أن الذى نستطيع أن نقرره هو أنه إذا كان لهذه الحال التى وصل اليها المجتمع الإسلامى، من ضعف وتخلف - إذا كان لهذه الحال أكثر من سبب، فإن للتصوف المكان الأول بين تلك الأسباب التى أوهنت عزائم المسلمين، وألقت عليهم ظلالا كثيفة من الضعف والتخلف ..

فإذا قلنا إن التصوف قد أدى إلى هذا الدور الذى ساق الأمة الإسلامية إلى ما تعانيه اليوم من ضعف وفقر، وجهل، وتخلف، كان لقولنا هذا أكثر من شاهد .. فهذه مئات الألوف من المتصوفة، بل ملايينها في أقطار الإسلام، ولا عمل لهم في الحياة إلا ما تغرسه أيدى العاملين ، وعرق الكادحين .. وحسبهم أن يعيشوا حول الأضرحة يتلقون الناس، ويدعون لهم بالبركة، ويقضون لهم الحاجات، بالأذكار والأوراد ..

وقد حرم الإسلام الرهبنة، لأنها تعزل الإنسان عن المجتمع ، وتقطع الصلة بينه وبين الناس، فضلا عن أنها تقتل في النفس أسباب القوة، ودوافع الحياة ..

والإسلام يمجد القوة، وينزلها منزلة الاحترام والتقدير، القوة الروحية والقوة المادية معا، فهما اللذان يرتفع بهما الفرد، كما ترتفع بهما الأمة ويعلو شأنها .. استمع إلى قول الحكيم العليم، رب العالمين ، وهو يوجه المسلمين إلى مواطن السيادة والعزة ويدلهم على أسباب الغلب والظفر في ظلال القوة المرهبة للعدو .. يقول سبحانه: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم، وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون»(٣٩) .. وإنه لا محصل لهذه القوة، ولا سبيل إليها إلا بالعمل الدائب والسعى المتصل في كل

(٣٩) سورة الأنفال : الآية : ٦٠ .

جانب من جوانب الحياة جميعها وفي كل ميدان من ميادين الانتاج فيها. وفي كل باب يفتح طريقا إلى سر من أسرار الكون، وما أودع الله تعالى فيه من قوى يسخرها العاملون الجادون ..

إننا لوكنا مسلمين حقا لكنا عند قوله تعالى: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم» .. ولكان لنا من العلم كل ما يملكه الغرب اليوم من أسباب القوة الرهيبة من دبابات، وطائرات، وقذائف موجهة، وقنابل ذرية وهيدروجينية، نملكها للإرهاب والتخويف، فلا يجرؤ عدو على أن يطمع فينا ، وينزلنا على حكمه، كما هو الحال اليوم ..

فالتصوف - ونقولها صريحة - قد أدى دورا هداما، ضرب بمعاوله في صرح الأمة الإسلامية، فتصدعت أركانه، وتهدم بنيانه، وأصبحنا نعيش على أنقاض هذا الصرح الشامخ، الذى بناه سلفنا العظيم، وأعلى بنيانه ..

والخطر في الغزو الصوفى أنه يساكننا، ويعيش فينا، فهو من هذا الجانب يلقى قبولا من العامة وأشباه العامة، إذ كان مطلق السراح، يتحرك كيف يشاء ، ويتصدر شيوخه مجالس التكريم في كثير من أوطان المسلمين .. بل إن بعض البلاد الإسلامية ترعاه ، وتمد القائمين عليه بالمال، ليقيموا الأضرحة ..

فإذا نحن لم نقم في وجه هذا الغزو المهاجم لنا من داخل أوطاننا، فإنه هيهات أن نصد أى غزو يدخل علينا من أى مكان، سواء أكان غزوا ماديا، أو فكريا أو مذهبيا .. ولعل أوسع هذه الأبواب وأخطرها، هو باب المال، الذى هو مهوى النفوس ومطمح الآمال ..

ولخطر المال، وقوة سلطانه على النفوس، فقد حذرنا الله تعالى من الوقوع تحت أسر سلطانه، فقال تعالى: «ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم

تعلمون، واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم(٤٠) فالتحذير من خيانة الله والرسول، ، وخيانة ما أستودعنا الله من أمانات دينه، إنما يتجه إلى فتنة الأموال والأولاد، حيث إن هذه الفتنة قد تطغى على الإنسان، فتفسد عليه دينه، ويقع فى خيانة الله ورسوله، والتحلل من عقدة الايمان، ومايقضى به هذا الايمان، من عبادات، وطاعات ، وقربات .. ويقول سبحانه : «ياأيهاالذين آمنوا ، إن من أزواجكم وأولادكم عدوًا لكم فاحذروهم وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا، فإن الله غفور رحيم، إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم (٤١) .

فتحذير الإسلام من فتنة المال، هو تحذير من فتنة طاغية، لا يكاد يسلم منها إلا من أعانه الله بالاستمساك بدينه، وبتقوى ربه، فقهر هذه الفتنة، وسلم من شرها .

وليس الإسلام عدوا للمال، وإنما هو عدو لما ينجم عن المال، حين يتحول إلى إله معبود من دون الله ..

فالإسلام يدعو إلى العمل والكسب، ويدعو إلى السعى في الأرض وعمارتها، ويدعو إلى كل منشط من مناشط الحياة للكسب الحلال، ويدعو إلى التمتع بما أحل الله من طيبات .

الإسلام دين الحياة القوية الزاخرة بألوان الخير، القائمة على سيادة الإنسان وانتفاعه بكل ما في هذه الدنيا من خير، وإلا فما استحق الإسلام أن يكون دين البشرية كلها، وما استحق أن يكون دين الأجيال المتعاقبة من مبدأ الرسالة الخاتمة إلى نهاية هذا العالم، ولما كان لهذه الآيات الكثيرة في كتاب الله مكان في هذا الكتاب، تدعو إلى العمل، وامتلاك ناصية الحياة .. فلم يخاطبنا الله تعالى بقوله: «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا، فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور» (٤٢) وبقوله سبحانه: «هو الذى

(٤٠) سورة الأنفال : الآيتان : ٢٧ - ٢٨ .
(٤١) سورة التغابن : الآيتان : ١٤ - ١٥
(٤٢) سورة الملك : الآية : ١٥ .

خلق لكم مافي الأرض جميعا»(٤٣) ويقول جل شأنه: «وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعا منه»(٤٤) ويقول عز وجل : «وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا، وتستخرجوا منه حليا تلبسونها»(٤٥) .. وقوله تبارك أسمه: «قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون(٤٦) .. فما أخرج الله تعالى لعباده من زينة ، ومن طيبات الرزق، هى للذين آمنوا في هذه الحياة الدنيا وإن شاركهم فيها بعض الذين لا يؤمنون بالله، فذلك متاع ، زائل فى هذه الدنيا.. أما هذه الطيبات التى ذهب المؤمنون بالنصيب الأوفر منها في الدنيا ، فإنها ستكون خالصة لهم وحدهم في الحياة الآخرة، لا ينال غير المؤمنين شيئا منها..

تلك هى دعوة الإسلام إلى الحياة، وهذه هى سبيل المؤمنين إليها .. السعى والعمل، والجهاد واقتطاف الثمرات الطيبة من هذا الجهاد، يجدون طعم هذه الثمرات طيبا شهيا، بما يرون فيه من فضل الله تعالى عليهم، وإحسانه إليهم .. أما غير المؤمنين فإنما يطعمون من هذه الثمرات كما تطعم الأنعام، لا يجدون فيها إلا ملء البطون، دون أن تنال المشاعر منها شيئا، كما يقول سبحانه: «والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار مثوى لهم (٤٧) .

وإذا كان الإسلام قد دعا إلى الاحتراس من فتنة المال، فإن ذلك لما جبلت عليه النفوس من حب التملك، والاستكثار فيا تملك، وقد يدفع بها هذا إلى البغى والعدوان، وأكل أموال الناس بالباطل .. يقول سبحانه: «زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند

(٤٣) سورة البقرة : الآية ٢٩ .

(٤٤) سورة الجاثية : الآية : ١٣

(٤٥) سورة النحل : الآية : ١٤ .

(٤٦) سورة الأعراف : الآية ٣٢ .

(٤٧) سورة محمد : الآية : ١٢

ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد» (٤٨) فالشهوات التى يحبها الناس من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة والأنعام والحرث هى متاع الحياة الدنيا، وزادها، وهى خير لمن أقام نفسه منها مقاما وسطا، فلم يجر ولم يظلم وخير من هذا الخير ما أعده الله تعالى للمؤمنين في الآخرة، من جنات لهم فيها نعيم مقيم لا ينفد أبدا .. فالعاقل من اثر خير الخير ين ، وصرف جل همه إلى الآخرة الباقية .. وفي هذا يقول الرسول الكريم: «من أثر دنياه أضر بدينه ومن أثر دينه أضر بدنياه، فآثروا ما يبقى على مايفنى» .

---

(٤٨) سورة آل عمران : الآيتان : ١٤ - ١٥ .

الفصل الثالث

(الغزو الدينى الفكرى)

وإذا كان الغزو المادى، الممثل في الشيوعية، والرأسمالية، والمادية، قد تسرب إلى دار الإسلام، ونفذ إلى عقول بعض الأفراد والجماعات، فصارت الشيوعية أو الرأسمالية: والمادية، مسلطة على أفكار كثير من هؤلاء المتهوسين الذين يتبعون كل ناعق، من غير وعى أو إدراك مدعين أنهم يلبسون ثوب الجديد من المدنية والحضارة الأوربية - إذا كان هذا الغزو المادى، قد جذب هؤلاء الأغرار ببريقه الخادع - فإن هناك كثيرا من المذاهب الضالة، والمبادىء الخبيثة قد اتخذ منها أعداء الإسلام شباكا يصطادون بها عقول المثقفين وأشباه المثقفين، ليفسدوا عليهم عقيدتهم ..

فهذه المذاهب، وتلك المبادىء، إنما غايتها زعزعة العقيدة، وبلبلة الألسنة، بعد إفساد العقول ..

ولا يتسع المقام لعرض كل هذه المذاهب الغازية، وحسبنا أن نعرض منها : العلمانية - الوجودية - التبشير - الاستشراق - الماسونية .

أولا : العلمانية

وهذه أيضا دعوة من الدعوات الخادعة المضللة، التى تدخل على الناس في زى خادع براق .. فالعلمانية، مشتقة من العلم، وداعية باسمه، ومستظلة بظله كما تدعى ذلك القول، وترفع شعاره .

والدعوة إلى العلم في ذاتها دعوة كريمة، مستجابة من كل ذى عقل، إذ كان العلم هو الحجاز الفاصل بين الإنسان والحيوان، وإذ كان العلم هو سبيل الإنسان إلى الكمال العقلى، والسمو الروحى، حيث يميز به الخير من الشر، والهدى من الضلال ، والحق من الباطل، والنافع من الضار .. وبغير العلم - أيا كان قدره - لا يرتفع الإنسان أبدا إلى أى مستوى من مستويات الإنسانية .. وماكان أنبياء الله ورسله - صلوات الله عليهم - إلا علماء ومعلمين، وماكانت رسالاتهم إلا ينابيع علم ومعرفة، تهدى الناس إلى الحق، وتقيم وجوههم على موارد الخير ..

ومن القرآن الكريم، ومن السنة المطهرة نهل المسلمون من ينابيع العلم والمعرفة، فكانوا أساتذة الإنسانية، وقائدى ركبها إلى موارد الخير، ومطالع الهدى والنور .. يقول سبحانه وتعالى في وصف كتابه الكريم: «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد» (١) ويقول جل شأنه: «قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم» (٢) .. ويقول تبارك اسمه: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب» (٣) ..

فالعلم هو رسالة الإسلام، وبالعلم يعرف الإنسان ربه وخالقه، وما يجب عليه من ولاء لله واستقامة على أوامره، واجتناب لنواهيه .. حيث لا يكون عمل إلا عن علم ومن

---

(١) سورة ابراهيم : الآية :١ (٢) سورة المائدة : الآية : ١٦ . (٣) سورة ص : الآية : ٢٩ .

لا علم له، لاعمل له ، مما يعتد به من الأعمال، فإن كان له عمل، فهو، عمل عشوائى لا يقام له وزن ..

ولهذا كانت دعوة الإسلام قائمة على طلب العلم، وعلى الاجتهاد الدائب في طلبه، حتى يكون الإنسان أهلا للانتساب إلى الإنسانية أولا، وللإسلام ثانيا .. يقول الله تعالى : «يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات (٤) ويقول جل شأنه : «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٥) ويقول سبحانه لنبيه الكريم «وقل رب زدنى علما (٦) ويقول تبارك اسمه : «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط» (٧) ويقول الرسول الكريم في فضل العلم والتعلم : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » .

وكلمة العلم، ومايشتق منها من أكثر الكلمات دورانا في القرآن الكريم، فقد ورد ذكر العلم ومشتقاته أكثر من ثمانمائة وعشرين مرة في الكتاب الكريم .

ويكفى شرفا للعلم وتنويها بقدره أن الله سبحانه وتعالى وصف ذاته الكريمة بالعلم، فهو سبحانه عالم، وعليم، وعلام .. عالم الغيب والشهادة (٨) .. «إن الله سميع عليم (٩) «قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب » (١٠) . .

كلمة حق أريد بها باطل :

والعلمانية التى يقوم عليها مذهب العلمانية، ويدعون إليها هى كلمة حق، لأنها تدعو إلى العلم، ولكن أى علم هذا الذى تدعو إليه العلمانية؟

---

(٤) صورة المجادلة : الأية : ١١ .
(٥) سورة الزمر : الآية : ٩
(٦) سورة طه : الأية : ١١٤ .
(٧) سورة آل عمران : الأية : ١٨ .
(٨) سورة الأنعام : الأية : ٧٣
(٩) سورة الانفال : الآية : ١٧ .
(١٠) سورة سبأ : الآية : ٤٨ .

إنه العلم الذى ينعزل عن الدين انعزالا حاسما، بل ويقف منه موقفا معاديا فحيث كانت للعلم كلمة عند هؤلاء العلمانيين، فليس للدين أن يكون له حساب معها، أو رأى فيها، أيا كان هذا الرأى موافقا أو مخالفا .. إنها لا تقبل من الدين حكما لها أو عليها في مقررات العلم ومعطياته، لأنها لا تعترف بالدين، ولا تحفل بمقولاته ..

وقد نشأت الحركة العلمانية عن هذا الصراع العنيف الذى استعر أواره في أوربا بين رجال العلم والكنيسة، إذ كانت الكنيسة بسلطانها القوى في القرون الوسطى متحكمة في العقل الأوربى حيث لا يقبل فكر أو رأى لا يكون مصدره الكنيسة ورجال الدين فيها .. وكان من السلطان الدينى للكنيسة أنها تملك حق الغفران للعصاة والخاطئين، ومرتكبى الكبائر من المسيحيين، كما أن لها حق الحرمان، والطرد من ملكوت الله، ومن ساحة رحمته في أتباعها .. ومن هنا كان لها أن تتحكم في عقول الناس بعد أن أعطاها الدين - دين المسيحية الذى اصطنعته - أن يتحكم في ضمائرهم، وقلوبهم ..

وقد انتهى هذا الصراع بين العلم والكنيسة الى ثورات دامية ذهب ضحيتها كثير من العلماء والفلاسفة ثم انتهى بانفصال كل منهما عن الآخر .. فالعلم ومقولاته له رجاله، ولهم في مجال العلم أن يقولوا ما يشاؤن دون أن يكون للكنيسة حق مؤاخذتهم بما يقولون ولو كان الكفر والإلحاد .. وللكنيسة ومقولاتها رجالها الذين يقولون ما يشاؤن في أمور الدين دون أن يكون للعلم وعلمائه موقف معهم .

وإذا كان لرجال العلم أن يثوروا في وجه الكنيسة، وأن يعلنوا الحرب عليها، بعد أن صادرت كل كلمة يقولها العلم، ولو كانت حقا وعدلا، لأنها لم تخرج من فم رجالها الروحانيين، وإذا كان للعلم أن يأخذ وجهة غير وجهة الدين الذى عزلته المسيحية عن الدنيا، وجعلت كلمتها هى الكلمة الأولى والأخيرة للحياة الروحية البعيدة عن مجال الحياة الدنيا وما يدور فيها - إذا كان ذلك مسوغا لرجال العلم أن يثوروا على الكنيسة، وللعلم أن يأخذ طريقا مجانبا للدين المسيحى ومجافيا له - فإنه لا مجال أبدا لأن يقوم مثل هذا الصراع، أو هذه العزلة الباردة بين العلم والدين في رحاب الإسلام ..إذ كان الإسلام

كما أشرنا من قبل - يؤاخى بين العلم والدين، ويجعل الدين علما، والعلم رائدا هاديا إلى الدين .. فالعلم دعوة من دعوة الإسلام، والاسلام جامعة العلم والمعرفة، الأمر الذى لا يمكن أن تقوم معه جفوة بين العلم والدين أبدا. حيث الدين هو العلم، ولا دين إن لم يكن علم به وبمقرراته .. يقول الله تعالى لنبيه الكريم: «فاعلم أنه لا إله إلا اللـه واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات (١١) فلا استغفار ولا طلب للمغفرة إلا بعد العلم بمن تطلب منه المغفرة وهو الله سبحانه .

فكيف - والحال كذلك - يمكن أن يكون للعلمانية على هذا الفهم - وجه تظهر به في المجتمع الإسلامى ؟ وكيف يقع في تصور مسلم أن يقبل دعوة إلى الفصل بين العلم والدين؟ إن من يقبل مثل هذه الدعوة من المسلمين، ويلبس ثوب العلمانية ليدخل في زمرة العلماء، لا يكون عالما، ولامسلما، لأنه جهل حقائق الإسلام، وهو يدعى أنه من أبناء الإسلام وليس بالعالم أبدا من يحكم على شيء دون أن ينظر فيه نظر الدارس الباحث عن الحقيقة، والدين هو جوهر الحق كله .

ومن الأسف أن بعض أدعياء العلم عندنا، من الذين ينتسبون إلى الإسلام قد تمذهبوا بمذهب العلمانية، فخرجوا على الدين خروجا سافرا في أقوالهم، وأفعالهم وسلوكهم، ليقول الناس عنهم إنهم أحرار التفكير، ورواد الاصلاح، وماهم في الواقع إلا ببغاوات يرددون كلمات وافدة من الغرب، وكل وافد من الغرب هو عندهم طابع المدنية وسمة الحضارة ، ولن يكون الإنسان - عندهم - مدنيا متحضرا إلا إذا انسلخ من جلده ، ومن دينه ، ومن لسانه، ليلبس جلد غيره ودينه ولسانه، فيصبح كالغراب الذى أراد أن يتعلم مشية الطاووس فنسى مشيته، ولم يحسن مشية الطاووس .

---

(١١) سورة محمد : الآية : ١٩ .

ثانيا: (الوجودية)

هذا المذهب ، هو أشأم مولود ولدته المادية الحديثة، التى عزلت الإنسان عن عالمه الروحى، وجعلت منه جسدا حيوانيا، وحيوانا ذا أظفار وأنياب، لا يجد في كيانه شيئا من العواطف والمشاعر الإنسانية من حب، ومودة ، وإخاء ..

وتقوم الوجودية المادية على دعوة خادعة تغرر بكثير من الناس، وهى أن يجد الإنسان نفسه .. ومعنى وجود الإنسان نفسه - في هذا المذهب الضال - أن يتحلل الإنسان من كل ما يربطه بالمجتمع من نظم ، وقواعد ، وقوانين، وعادات وتقاليد، وأن يطلق نفسه على هواها تهيم في كل واد، ترعى كل ما يصادفها على طريقها من غير وعى، أو تفكير أو تقدير لما يأخذ أو يدع من أمور، وسيان عند الوجودى أن يأخذ كل شىء ، أولا يأخذ شيئا أبدا، وسيان عنده الشيء ونقيضه، فلا خير ولا شر، ولا نور ولاظلام، ولا هدى ولاضلال ..

فإن الوقوف عند اختيار شىء من الأشياء هو في مذهب الوجودى قيد يقيده إزاء هذا الشيء، وفي هذا جور على وجوده الذى يفقده إذ هو خضع لشىء ما، أو تقيد بشىء ما، فلا بيت ولا زوجة ، ولا ولد، ولا وطن .. ثم أولا وأخيرا ، ولا دين .

وقد سبق الوجودية مذهب كان مقدمة لها، وهو مذهب «البرجماتية» التى تقوم على النفع المادى، العاجل لكل فكرة أو عمل .. فأية فكرة، وأى عمل - عند البرجماتيين - إنما يقاس صلاحه وفساده، وخيره وشره، بما يحققه من نفع مادى عاجل، وبهذا سلخ هذا المذهب، أصحابه، من المعانى الروحية، وحرمهم هذا الفيض الذى ترتوى منه النفوس والذى يجيئها من عالم الغيب وتوقعات ما يأتى منه .. حيث يظل المؤمن بالغيب على صلة بهذا الوجود مترقبا ما يطلع عليه من وراء ستره ..

ثم جاءت الوجودية لتكمَل هذه الصورة المعتمة للإنسانية وتلطخها بسواد حالك، يطمس معالم الإنسانية في الإنسان طمسا، لا يعرف فيه رأس من قدم .

وإذا كانت البرجماتية قد أقامت ميزان الأفكار والأعمال على أساس النفع المادى العاجل، سواء أكان ذلك للإنسان، أو للجماعة - فإن «الوجودية » قد أقامت هذا الميزان للأفكار على النفع المادى العاجل الذى يعود على الفرد في ذات نفسه، دون نظر إلى الآخرين، ولو كان فيه هلاك الناس أجمعين ..

وتقوم الوجودية على إنكار كل ما لا يؤثر في حياة الفرد تأثيرا حاضرا ومباشرا لأن الإنسان - في تصورها - لا يحيا حياتين، وإنما هى حياة واحدة، لأنها هى التى يعرفها الإنسان الوجودى معرفة حقيقية، أما ماوراء هذه الحياة، فهى - في تصوره - أوهام وظنون، لا يصح أن يشغل المرء نفسه بها، أو أن يجعل لها حسابا في وجوده ..

فالله، والبعث، والحساب، والجنة ، والنار، كلها عند الوجودى، أضغاث أحلام صورها له الضعف الإنسانى، وجسدها له الواقع الأليم للحياة، وما يلقى الانسان فيها من آلام وأوصاب .. وكل هذا قد ولدته «المعتقدات» .. والديانات كما يراها الوجوديون هى التى فتحت للناس حياة أخرى ليهربوا إليها من واقع حياتهم الأليم، وليجدوا في ذلك عزاء يخفف عنهم أثقال الواقع وآلامه، ويسوغ لهم مرارة الكأس المترعة بالآلام، التى تسقيها الحياة لهم .

إن الانسان الجبان - في نظر الوجودية - هو الذى يفر من الواقع، ويدفن نفسه في تلك الخرافات، ويتعزى بهذا السراب ..

وإنها لصفقة خاسرة - في تصور الوجودية - أن يُلْقِيَ المرء بهذا الذى بين يديه من الحياة مهما كان تافها، طمعا فيما يلوح في أضغاث أحلامه من أمانى ووعود ..

وإذن فليكن الإنسان شجاعا، وليخلع أردية الزيف والضلال، من ديانات ومعتقدات، وعادات وتقاليد - ليخلع كل هذه الأغطية التى نسجها له الأمل الكاذب المتولد عن الألم والحرمان والخوف والشقاء .. ليخلع كل هذا، وليخرج إلى الحياة عاريا من كل شيء .. جسدا، وروحا وعقلا، وقلبا .. فإنه إن فعل ذلك كان الإنسان الجدير بأن يعيش ، وبهذا يكون قد عاش حياته وحقق وجوده .. هذا هو دين الوجودية الذى يدين به كل من ضمه مذهبها ..

يقول «بول سارتر» زعيم الوجودية المعاصرة، وحامل رايتها المشئومة : «إن ما ينبغى أن تكون عليه حياة الوجودى، هى توديع مايسميه الجبناء وجدانا وضميرا، والاستجابة لداعى الحيوانية، وتلبية كل ما تدعوه إليه شهواته، ونبذ كل التقاليد، والتعاليم الاجتماعية وماتواطأ عليه الناس من الجهة الأخلاقية، وتحطيم القيود التى ابتدعتها الأديان، والفلاسفة وتبنتها المدنية .. ثم تطليق الماضى ، وسلخ المرء نفسه منه، متجها إلى الأمام .. إلى المستقبل قفزا .. إلى المصير المحتوم .. إلى الهاوية .. إلى الموت، والعدم الأبدى »(١٢) .

ويقول أحد زعماء الوجودية المعاصرين «كارليل» داعيا الإنسان الوجودى إلى تخليص نفسه من كل رباط يشده إلى غير ذاته - يقول مخاطبا هذا المخلوق :

«لماذا تبكى دائما وتنوح مثل الجبان، وتترنح خائفا مضطربا أيها الإنسان المحتقر ؟

«أليس لك من قلب؟ ألا تقدر أن تتحمل كل ما يأتى به الدهر، متجاهلا كل صروفه، فتطأ النار بقدميك، وإن كانت ستلتهمك؟

«دع ما يكون يكون ..فسأواجهه وأتحداه »

«عندما فكرت على هذا النحو، جرى شيء من الحرارة كانه ينبوع من نار في عروقى، وعندئذ نقضت عن نفسى ذلك الخوف المحتقر ، ونجوت إلى الأبد ..

---

(١٢) إرادة الاعتقاد «لوليم جيمس » ترجمة الاستاذ الدكتور محمود حب الله ص (١٢١) .

«وعندئذ وقفت نفسى كلها بما فيها من عظمة طبيعية مخلوقة لله .. وسجلت ذلك الاحتجاج الذى هو أهم عمل في الحياة .. لقد قطعت صلتى بهذا «السرمدى» -أى الله - الذى قال لى: «إنك لطريد شريد منبوذ، والكون كله لى» .. ولكن نفسى الآن كلها أجابت قائلة : «إننى لست لك ، ولكننى حرة طليقة .. وإننى أبغضك .. أبغضك أبدا ..

«ومن تلك اللحظة بدأت أكون رجلا » .

ذلك هو أسلوب من أساليب الوجودية في دعوتها إلى تلك الحرية المشئومة المهلكة، التى تدعو إليها، وترسم للناس طريق الوصول إلى عالمها الجهنمى الذى يرعى بناره كل معانى الإنسانية في الأنسان، ويحيله إلى هشيم تذروه الرياح ..

إن الوجودية أخطر دعوة ظهرت في العصر الحديث، من حيث إفسادها لطبيعة الإنسان، وتدمير عقله، وقلبه، وروحه، وتحويله إلى حيوان، بلا عقل، ولا قلب ولا روح، .. إنها تتملق عواطف الشباب الجامحة ، وترسل على سفينته رياحا تدفع بها إلى حيث تنادى غريزته، ثم لا تلبث هذه الرياح أن تتحول إلى إعصار عات، يدفع بهذه السفينة، وبمن فيها إلى القاع السحيق ..

لقد استجاب كثير من شباب أوروبا وأمريكا إلى تلك الدعوة الخبيثة التى حركتها أصابع الصهيونية، فكان «بول سارتر» أبا لهذا المولود المشئوم، وهو يهودى ، أو نصف يهودى، كما يقول الأستاذ العقاد .. ثم كان اليهود دعاتها، والمبشرين بها حتى قام منها تلك الجموع الغفيرة من شباب أوروبا وأمريكا، الهائمة على وجهها في الطرقات تحت أسماء الهيبز (الخنافس) والضفادع وغيرها .. وجميعهم في مطلع الشباب، وقد تحولوا جميعا ذكورا وإناثا إلى قطعان من الحيوانات تأكل من حشائش الأرض، وتنام مفترشة الأرض متغطية بالسماء، لاعن حاجة ولا عن فقر، ولكن عن فلسفة مريضة دخلت في رؤس هؤلاء الشبان فمسختهم هذا المسخ، الذى نعوذ بالله منه ونعيذ شباب أمتنا أن يقع فيه، وإن كان قد بدأت نذرة تصيب بعدواها بعض الأغرار من شبابنا الذين يبهر عيونهم كل جديد فيجرون وراءه ولو كان وراءه الموت الزؤام .

ثالثا : (التبشير الصليبى)

الاستعمار والتبشير :

بعد أن خرجت أوربا من ظلام القرون الوسطى، واستيقظت من ليلها الطويل - كان أول ما فتحت عينيها عليه، هو الشرق، الذى كان قد دب فيه دبيب الضعف، وأخذت أمواج مده التى ظلت قرونا زاحفة مسيطرة على العالم الغربى - أخذت هذه الأمواج تتراجع إلى الوراء، الأمر الذى أغرى دول أوربا أن تزحف نحو الشرق بجيوشها، وتستولى على معظم دوله، وتستعمر أكثر أوطانه .

وحين وضع الاستعمار يده على الشرق، كانت أوطان المسلمين أول ماشد عليه يده، وأحكم عليه قبضته، من تلك المواطن التى استعمرها، وذلك ليحقق أكثر من غرض ..

فأولا : استغلال تلك الأوطان، أرضا وبشرا، حيث يمتص خيرات الأرض، ويسخر الأيدى العاملة فيها لمصلحته .

وثانيا : وراء هذا الغرض أمر آخر ، خاص بالبلاد الإسلامية، وهو محاربة العقيدة وإجلاؤها من قلوب المسلمين، ومحاولة ما عجزت عنه الحروب الصليبية من قبل .. وذلك لما يعلم المستعمرون من خطر هذا الدين على مخططاتهم الاستعمارية ، التى يرسمونها على أساس قتل معانى الإنسانية فى الأوطان المستعمرة، حتى تموت مشاعر الناس هناك، ويضيع وجودهم، فلا يحاول أحد أن يخرج من هذا الحصار المضروب عليه، ولا أن يثور فى وجه المستعمرين له، المستغلين لأرضه وجهده الأمر الذى لا يصبر عليه المسلم، الذى يستظل براية التوحيد، ويهتف من أعماقه مرات كل يوم: أن لا إله إلا الله ويستمع إلى صوت المؤذن وهو يؤذن من فوق المئذنة فيهز أجواء السماء بهذا النداء السماوى: الله أكبر ، الله أكبر ..

كل هذا من شأنه أن يبعث في نفس المسلم العزة، والكرامة، وإباء الضيم فلا يخفض رأسه إلا لله، ولا يحنى قامته لغير الله ..

هذا هو الخطر الذى يهدد الاستعمار دائما، ويزعج أمن المستعمرين ، ولهذا عمل المستعمرون على محاربة الإسلام حربا خفية، بعد أن حاربوا المسلمين حربا سافرة بالحديد والنار، وكان من أسلحتهم في هذه الحرب الخفية :

١ - تجنيد جيوش كثيفة من المبشرين: الذين دفعوا بهم إلى أوطان المسلمين وأقاموا عليهم حماية من جيوشهم المستعمرة، المسلطة على البلاد، ومكنوا لهم من التغلغل في القرى بين العامة، وأمدوهم بالمال الوفير، ليقيموا باسم الرحمة الكاذبة - الملاجىء، والمستوصفات والمستشفيات، ليتخذوا منها شباكا حتى ينفثوا سمومهم في صدور العامة، وفي مسارب عقولهم وليمثلوا لهم دور رسل الرحمة المبعوثين إليهم من عند الله، لإنقاذهم من الفقر والمرض باسم المسيح ..

٢ - محاربة اللغة العربية، وإجلاؤها من الألسنة، حتى تنقطع الصلة بين المسلمين وبين كتاب الله، الذى هو دستور دينهم، ولسان شريعتهم، وكان من تدبيرهم لتحقيق هذه الغاية أن قربوا إليهم كل من يحسنون لغة المستعمر، وأن يمكنوا لهم من تولى المناصب العالية، وأنه بقدر انسلاخ المسلم من لغته يكون حظه من الجاه والسلطان عندهم ، الأمر الذى دعا كثيرا من أبناء المسلمين الى الإقبال على تعلم لغة المستعمر، وحذقها في الوقت الذى انصرف فيه عن لغته . معتقدا أن ذلك لا ينتقص شيئا من دينه، ولا يمس شيئا من عقيدته التى انعقد عليها قلبه، والتى لا سبيل للمستعمر إليها .. وبهذا أصبحت دول كثيرة من الدول الإسلامية التى كان لسانها عربيا خالصا، لا تكاد تنطق بتلك اللغة ، ولا تعرف من كلماتها إلا ما تؤدى به الصلاة في ركاكة أعجمية كما كان ذلك مشاهدا في البلاد الإسلامية الواقعة في شمال أفريقيا ، والتي تحاول جاهدة الآن وبكل ماوسعها بعد أن جلا الاستعمار عنها ـ أن تسترد لسانها العربي بعد تلك الغربة الطويلة التي انقطعت فيها الأسباب بينها وبين لسانها العربي ، لسان دينها وترجمان شريعتها .

٣ - ولا شك أنه قد كان للمبشرين من جهة، ولغياب اللسان العربى، من جهة أخرى أثر في إضعاف الروح الدينى، وتراخى أيدى كثير من المسلمين عن التمسك بشعائر الدين والتأدب بآداب الإسلام ، والتخلق بأخلاقه .

على أن الأمر الذى يلفت النظر هنا، هو أنه على الرغم من تفريط بعض المسلمين في أداء شعائر الدين، وفي الغفلة عن رعاية آدابه وأخلاقه - على الرغم من هذا، فإن العقيدة ظلت ثابتة راسخة حتى في قلوب أكثر المسلمين استغراقا في الاندماج في الحياة الأوروبية، واصطناع أساليب تلك الحياة، ومجاراة أهلها في شتى ضروبها .. فإن المسلم من هؤلاء الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا مجرد الانتساب إليه، إذا أحس بشيء يمس عقيدته فإنه يتحول في الحال إنسانا آخر، لا يقل عن أكثر المسلمين حرصا على دينه، وغيرة على عقيدته في دفع هذا الخطر الذى يتهدد عقيدته، ويمس دينه ..

وهذه الظاهرة ، هى التى حيرت المبشرين، وأذهلت المستعمرين، من أمر هذا الدين الذى لا يتخلى عنه أحد من أهله، حتى ولو أغرقوه في المنكر ، وأجلبوا عليه بخيل الفساد ورجاله .

ما السر في هذا ؟

والسر في هذا، قد جهله المبشرون والمستعمرون، وهو أنهم كانوا يعملون في اتجاه مضاد لطبيعة الأشياء، ومن كان هذا شأنه فلن ينال من عمله ثمرة وإن بذل من الجهد والمال مابذل ..

ذلك أن الإسلام يلتقى التقاء مؤاخيا وممازجا للفطرة الإنسانية المودعة في كل إنسان، وأن هذه الفطرة إذا التقت بالإسلام التقت به التقاء عضويا، لا سبيل إلى انفصالها عنه مادام في الإنسان نفس يتردد في صدره .

ذلك هو السر الذى تحطمت على صخرته كل قوة غاشمة ، وكل دعاية مضللة ..

وهذا السر الذى دخل به الإسلام إلى أوطان كثيرة، فغزا القلوب، ونفذ إلى العقول، دون أن يكون من بين يديه أو من خلفه جيوش زاحفة أو حملات تبشير غازية، وإنما كان الإسلام بذاته هو الذى يفتح أوطانا بأسرها هلى يد بعض التجار الذين لم يكن من قصدهم الدعوة إلى الدين، وإنما كانت تأتى هذه الدعوة عرضا في حديث عابر، فإذا هى تسرى بين الناس، سريان الحياة في الأحياء ، والعافية في الأجسام العليلة، وإذا الناس على دين الله ، وفطرة الله .

هكذا دخل الإسلام معظم بلاد إفريقيا، شرقا وغربا ووسطا، وجنوبا، وشمالا كما دخل معظم بلاد الشرق الأقصى في الصين واليابان، وجاوة ، وسومطرة، ومعظم الهند .. وكذلك الشأن في مسلمى أوربا، وأمريكا .. لم يدخل أحد الإسلام في تلك المواطن بحملات حربية أو تبشرية، وإنما دخلها طبيعيا، بدعوة من الفطرة حيث يجىء إليه الناس قبل أن يجيىء إليهم .

حرب لا تنتهى :

ومع هذا ومع ما أسفرت عنه حملات التبشير في مواطن الإسلام من خيبة وفشل ذريعين - فإن الحرب المعلنة على الإسلام لم تتوقف من المبشرين الصليبين أبدا ، وإنه كلما تكسرت نصالهم على صخرة هذا الدين، اصطنعوا نصالا أخرى يرمونه بها فتتكسر ، ثم أخرى فتتكسر وهكذا ..

وإذا كان التبشير الصليبى، والحروب الصليبية، قد كان من همهما أول الأمر كسب مواقع جديدة من أرض الإسلام. ومن جماعات المسلمين، يوسعون بها رقعة الصليبية، ويزيدون في أعدادها - فإنهم اليوم، وقد أعجزهم ذلك، ووقع موقع اليأس منهم، تحولوا من الهجوم إلى الدفاع عن دينهم الواقع في مجال الخطر من غزو الإسلام له ..

ذلك أن العلم الحديث قد كشف لمسيحى أوربا وأمريكا عما في دينهم من أمور، لا

يقبلها العقل الذى استضاء بنور العلم، كالتثليث، الذى يجعل الإله الواحد ثلاثة: أب وابن وروح قدس، والذى يولد فيه الإله ميلادا بشريا في صورة المسيح بن مريم، وأن يعيش بين الناس طفلا رضيعا، ثم صبيا وغلاما، وشابا نحوا من ثلاثين سنة، ثم - وهو الإله في الديانة المسيحية .. ينام، ويأكل ، ويمشى ويتحرك في تلك البقعة المحدودة من الأرض، وفى هذا المجتمع المحدود من الناس، وهم جماعة اليهود، دون أن يلتفت إلى أحد غيرهم، حتى الرومان الذين كان اليهود يخضعون لحكمهم عند بعثة المسيح، بل كان يقول - كما هو نص الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحين - كان يقول: «ما جئت إلا لخراف بيت إسرائيل الضالة» ..

أفهذا آله يؤمن به عقل، ويطمئن قلب إلى التعبد له؟ ويجعله قائما على الوجود كله خلقا وأمرا؟ ثم قصة صلب المسيح الإله - والذى تقول الأناجيل الأربعة المعتمدة عند المسيحيين: إنه إنما قدم نفسه للصلب ليكفر عن البشر الذين لبستهم خطيئة أبيهم آدم، وليجعل دمه قربانا لتكفير تلك الخطيئة، وتطهير من يؤمن به آلها، حتى يدخل في ملكوته ..

ثم ثالثة الأثافى، وهى قيامة المسيح الإله من بين الأموات، بعد ثلاثة أيام من دفنه .. إله يولد من رحم أمرأة، ويرضع من ثديها، ويجرى عليه ما يجرى على الأطفال ،!!الذين يتربون في حجر أمهاتهم، دون أن تنكر أمه منه شيئا يخرج به عن مجرى حياة الأطفال .. ثم إن هذا الإله يقدم نفسه للصلب ليكفر ذنبا اقترفه آدم، ولا يسأل سائل من يكفر هذا الذنب والإله قد صلب نفسه، ولايسأل سائل مابال هذا الإله يمثل تلك المسرحية الدرامية أو المأساوية، فيصلب ثم يدفن ثم يبعث من جديد حيا بعد ثلاثة أيام؟ أكل هذا ليكفر خطيئة أخطأها آدم في ذاته؟

هذا كلام له خبئ ... معناه ليست لنا عقول

ذلك ما كان يردده العقل الغربى، بعد أن دخل في عصر التنوير العلمى ومن هنا ظهر

الإلحاد في أوربا وأمريكا، وانتشر حتى يكاد يكون دينا جديدا لكل الناس هناك ..

ومن هنا كان الخطر الذى يتوقعه المبشرون الصليبيون، ورجال الكنيسة من أن يطل الإسلام بوجهه المشرق الوضيء على أوربا وأمريكا، فيجد قلوبا مهيأة له وعقولا متجاوبة معه ..

ومن هنا أيضا كانت حركة الاستشراق، التى قادها رجال الكنيسة، فكان أكثر هؤلاء المستشرقين من رجال الدين المسيحى، وكان من هم هؤلاء المستشرقين أولا وقبل كل شئ - هو إعداد دراسات عن الإسلام، تتناول القرآن الكريم والسنة الشريفة، وحياة الرسول الكريم، ومبادئ الشريعة وأحكامها .. ومن خلال تلك الدراسات ينفث القوم سمومهم بالطعن فى صحة القرآن الكريم، والتشكيك في رسالة الرسول، والنيل من سيرته العظيمة، والتجريح لأحكام الشريعة .. وذلك ليصدوا الناس هناك عن الالتفات إلى الاسلام، بعد أن خرجوا من دينهم، وتحللوا منه .. ولكن الله بالغ أمره: «يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » (١٣) .

وسنرى في المبحث التالى، حركة الاستشراق، وماكان للمستشرقين من كيد للإسلام، وسوق الأباطيل والمفتريات إلى حماه ..

---

(١٣) سورة الصف : الآية : ٨ .

رابعا : (الاستشراق والمستشرقون)

الاستشراق ، هو حركة ولدت في هذا العصر الحديث، وهى - في ظاهرها - حركة علمية، يراد بها دراسة التراث الشرقى في معتقداته وآدابه، ولكنها تبغى من وراء هذا التعرف على منابع هذا التراث، محاولة صرف أهله عنه، ليولوا وجوههم شطر الغرب، ويتعلقوا بركاب حضارته ..

فالاستشراق، مصدر الفعل استشرق أى اتجه إلى الشرق، وتزيا بزى أهله، وتعلم لسان لغته .

والمستشرق هو من درس لغة أو أكثر من لغات الشرق كالعربية، والعبرية والسريانية والفارسية، وغيرها ثم درس بهذه اللغة علوم تلك اللغة وفنونها وآدابها ومعتقدات أهلها ..

ويعنينا من المستشرقين أولئك الذين درسوا اللغة العربية، وتوفروا على هذه الدراسة وتخصصوا في علومها من بلاغة، ونحو وصرف وأدب، ثم إذا تمكنوا من هذه اللغة، نظروا في علوم الدين الإسلامى، من عقيدة وشريعة، وهذا هو المطلب المقصود عند أكثرهم ..

وقد أشرنا من قبل إلى دور المستشرقين في الطعن على الإسلام، والتشكيك في مصادره، وتلفيق الأباطيل يلقون بها في ساحة الشريعة الغراء، وذلك كما قلنا ليصرفوا قومهم الذين هجروا المسيحية عن أن يتحولوا إلى الاسلام ..

وإذا كان أغلب المستشرقين قد جاء إلى الاسلام بهذه النية المنعقدة على جمع المطاعن الملفقة عن الإسلام، وهو يتزيا بزى العلم، باحثا عن الحقيقة، وناشدا السبل الموصلة إليها - فإن من هؤلاء المستشرقين حين وجد نفسه أمام حقائق الإسلام الناصعة، لم يستطع أن يمتهن عقله، ويبيعه رخيصا في سوق الضلال، فيقول عن النور الساطع هذا

ظلام دامس، ولهذا نرى من هؤلاء المستشرقين من قال في الإسلام كلمة الحق ، وآثر أن يكون عالما، لا مدجلا، ولا مدلسا ..

أما الذين غلبتهم العصبية - وهم معظم المستشرقين - على أن يقولوا كلمة الحق وأن ينطقوا بما في أيديهم من شواهده، فقد كابروا، ولجوا في الضلال، ورموا الإسلام بكل ما تحمل صدورهم من غل ، وما تنفث أقلامهم من سم، حتى فضح ذلك عند من لا يعرفون الإسلام من قومهم، حين رأوا سبابا وشتائم لا تتفق مع منهج العلم، الذى من شأنه أن يعرض الحقائق ، ويترك للناس الحكم عليها، دون أن يمزجها بمرارة حقده، ونفثات عداوته ..

ويكفى أن نقف هنا وقفة قصيرة مع واحد من أبرز هؤلاء المستشرقين، وأكثرهم تأثيرا في عقول بعض الذين تتلمذوا عليه من أبنائنا، واتخذوا من مقولاته الباطلة مرجعا يرجعون إليه في دراساتهم ورسائلهم العلمية، وهذا المستشرق هو «جولد تسيهر» .

فهو يقول مثلا عن رسالة الإسلام، ورسول الإسلام :

«فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجا منتخبا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقاها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، التى تأثر بها تأثرا عميقا، والتى رآها جديرة بأن توقظ عاطفة دينية حقيقية عند بنى وطنه (١٤) .

وهذا القول الآثم، هو زعم زعمه المشركون منذ أربعة عشر قرنا، غي موقفهم العنادى من رسول الله ومن رسالته، وقد تولى القرآن الكريم رد هذا الزعم في حينه، فما إن قال المشركون هذا القول والدعوة الإسلامية في أول مطلعها في مكة، حتى فضحهم القرآن به، وألقى به في وجوههم فلم يرفع أحد رأسه ، بعد أن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله .. يقول الله تعالى على لسان المشركين : «وقالوا إن هذا إلا إفك افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون» فرد الله تعالى عليهم بقوله: «فقد جاءوا ظلما وزورا» .. وقالوا أساطير

(١٤) العقيدة والشريعة في الإسلام، لجولد تسيهر، ترجمة المرحوم الدكتور محمد يوسف موسى وزميله .

الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا» فرد سبحانه وتعالى هذا الباطل بقوله جل شأنه: «قل أنزله الذى يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيما» (١٥) ويقول سبحانه: «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله، إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» (١٦) وقد أفحم القوم، وولوا أدبارهم منهزمين، ولا زال هذا التحدى المنتصر قائما إلى يوم الدين ..

فهذا المستشرق إنما يردد زعما سبقه إليه مشركو قريش من قبل، في موقف العناد والكبر، وهم يعلمون أنهم بين يدى كتاب الله كتاب كريم من رب العالمين ولهذا فإنهم دخلوا بعد هذا في دين الله، وجاهدوا في سبيل الله، فلو كان لهذا القول مستند عندهم من الحقيقة أفكانوا يؤمنون بالله، ويكون منهم سيوف الله على رقاب أعداء الله، كخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل، وغيرهما ممن كانوا رؤساء بارزة من رؤس الشرك، وممن واجهوا النبى بهذا القول الباطل؟ .

وهذا القولة التى قالها هذا المستشرق، أو سرقها من مقولات المشركين - كانت موضوع رسالة من رسائل الدكتوراه لأحد خريجى الجامعة في مصر، وعدها فتحا جديدا في باب العلم الذى طلع به على الناس في رسالته التى أطلق عليها «الفن القصصى» والتى كانت تدور كلها حول تلك المقولة المفتراة التى قالها هذا المستشرق ، وهى أن القرآن من عمل محمد، وأن قصصه مستمد معظمه من الأساطير التى كانت تعرفها العرب .. يقول صاحب الرسالة هذا القول في أسلوب ملفف بالغموض ليجيز رسالته، وليدفع اعتراضات المعترضين، وإن كان لم يخف ما تستبطنه الرسالة من التقاء صريح مع قول جولد تسيهر والمشركين من قبله، وقد ثار المسلمون يومها في وجه الرسالة وصاحبها والمشرف عليها حتى اختفت، ولم يقدر لها أن تظهر - في حينها - ثم ظهرت بعد ذلك في غفلة من المسلمين (١٧) . .

---

(١٥) سورة الفرقان : الآيات : ٤ - ٦

(١٦) سورة البقرة : الآيتان : ٢٣ - ٢٤

(١٧) عقدنا فصلا للرد على هذه الرسالة في كتابنا(القصص القرآني: في منطوقه ومفهومه)

ومن مقولات جولد تسيهر في التشكيك بالقرآن الكريم، وأنه من عمل محمد صلوات الله وسلامه عليه قوله :

«إن ماكان يبشر به محمد خاصا بالدار الآخـرة، ليس إلا مجموعـة مواد استقاهـا بصراحة (هكذا) من الخارج يقينا (هكذا ..) وأقام عليها هذا التبشير ..

ثم يقول: «أفاد - أى النبى - من تاريخ العهد القديم - أى التوراة - وكان ذلك في أكثر الاحيان عن طريق قصص الأنبياء (١٨) وهذا القول نفسه قد أخذ به صاحب الرسالة المشار إليه سابقا . ومن مقولاته أيضا: «أن الرسول نفسه قد اضطر لتطوره الداخلى «(كذا») وبحكم الظروف التى أحاطت به، إلى أن تجاوز بعض الوحى القرآنى إلى وحى جديد في الحقيقة، وإلى أن يعترف أنه ينسخ بأمر الله، ما سبق أن أوحاه إليه ..

ثم يستطرد هذا المستشرق قائلا :

«فإذا كان الأمر كذلك في عصر النبى، فمن الأولى أن يكون كذلك، بل أكثر من ذلك عندما تجاوز الإسلام حدود البلاد العربية، وتأهب لكي يكون قوة دولية» (١٩) .

ولاندرى كيف يستسيغ عقل هذا الرجل الذى يحمل رسالة العلم، ويبشر بها كما يدعى - كيف يستسيغ عقله أن يصف - محمدًا صلوات الله وسلامه عليه - بأنـه رسول ، ثم يبذل هذا الرسول رسالة ربه، لظروف اضطرته إلى ذلك، مدعياأن ذلك بأمر ربه .. فأى رسول يحمل رسالة الله، ثم يكذب على الله، ثم يظل في منصب النبوة بعد هذا؟ ولكنه الحقد الذى يذهب بالعقول ويقلب حقائق الأشياء .. ألم يقرأ هذا المستشرق ، ولا أحسبه إلا قرأ قول الله تعالى ردا على مدعيات المشركين بأن محمدا يفترى على الله الكذب: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين »«(٢٠) .. لقد قرأ هذا يقينا، ولكن الحقد أحرق في قلبه كل

(١٨) العقيدة والشريعة في الاسلام لجولد تسيهر ص (١٥) .
(١٩) العقيدة والشريعة في الإسلام ص (٤١) .
(٢٠) سورة الحاقة : الآيات : ٤٤ - ٤٧ .

ما قرأ .. والذى ينبغى أن يكون عليه موقفنا من المستشرقين هو موقف الحذر، وخاصة من أولئك الذين يصطنعون الحكمة والتعقل، فيدخلون على العقول دخول اللص في غيبة أصحاب الدار .. فلتكن عقولنا حاضرة، ونحن نسمع أو نقرأ لهؤلاء المستشرقين ما يكتبون عن الإسلام، ولو كان حقا، وصدقا فقد تندس كلمة هنا وكلمة هناك، وكأنها جاءت عن غير قصد فتقع موقعا قاتلا لمن لا ينتبه إليها ولا يأخذ حذره منها ..

فما أكثر الذين خدعوا منها بهؤلاء المستشرقين، وأخذوا مقولاتهم على أنها أحكام قاطعة ، صادرة ممن لا يرد له قول، ولا ينقض له حكم ..

على أن أكثر ما تأثر به المثقفون المستغربون عندنا من آراء المستشرقين هو ماكان في جانب اللغة العربية، إذ كان القرآن الكريم الذى وجهوا سهامهم إليه أعلى وأبعد من أن ينال .

وقد ظهرت في المجتمع الإسلامى دعوات تنادى تحت شعار التجديد في اللغة العربية بما لو أخذ به لضاعت تلك اللغة، ولا نقطع بيننا وبين كتاب الله الدليل إليه .. ومن تلك الدعوات :

أولا : إن اللغة العربية ليست لغة حضارة، ولهذا فإنها تعجز بقاموسها اللغوى عن حمل العلوم والفنون التى جاء بها العصر، وإن هذا التخلف العقلى والحضارى في المجتمع الإسلامى إنما هو بسبب هذا القصور الواضح في اللغة وعجزها عن نقل ما جادت به العقول والقرائح عند الأمم الغربية المتحضرة ..
وإذن فلندع هذه اللغة، ولنبحث لنا عن لغة أخرى إذا كان لنا أن نلحق بركب الحضارة، وأن نعيش مع أهل العصر .

وهذه دعوى باطلة من أساسها، فاللغة العربية أوسع اللغات وأقدرها على توليد الألفاظ الجديدة عن طريق المجاز، والاشتقاق، والتعريب، وأنها حين خرجت إلى ما وراء

موطنها العربى إلى دولتى الفرس والروم استوعبت بألفاظها من مفردات وتراكيب - كل ما وجدته من حضارات، ثم إنها مدت ذراعها إلى حضارتى اليونان والرومان القديمتين، فترجمت كل ما أنتجه عقول حكمائها وعلمائها مما كان له أثره البعيد في تنوير أوربا وإدخالها إلى هذا العصر الحديث الذى تفخر به، بعد أن نقلت من اللغة العربية هذا التراث الذى خرج بأوربا من القرون الوسطى .. وإنه إذا كان في اللغة العربية قصور عن نقل حضارة الغرب بلسانها فليس ذلك ناشئا عن اللغة ذاتها، وإنما عن أهلها الذين لم يصنعوا هذه الحضارة بأيديهم، ولم تلدها عقولهم، فلو أن هذا وقع منهم لوجدوا بين أيديهم من اللغة المسميات التى يطلقونها على تلك المواليد الشرعية التى ولدتها أفكارهم، فالألسنة إنما تحركها العقول، وينطقها ما تلده من أفكار ومخترعات .

وثانيا : من الدعوات التى قامت في وجه اللغة العربية تحت اسم التجديد من تلاميذ المستشرقين، استعمال اللغة العامية بدلا من اللغة العربية، إذ كانت اللغة العربية، لا تستعمل في الحياة العامة حتى بين المثقفين الذين يحسنون التخاطب بها .. واللغة لا تكون لغة حتى تعايش الناس في تقلبهم في شتى شئون الحياة حيث تتشكل منها أفكارهم، وتصوراتهم وأخيلتهم .. أما اللغة العربية فإنها في واد والحياة في واد آخر .. هكذا يقول الذين يدعون إلى إحلال العامية مكان اللغة العربية ..

وهذه الدعوى ظاهرة البطلان أيضا .. فإن اللغة العربية، وإن كانت لغة المثقفين وأن هؤلاء المثقفين لا يتعاملون بها إلا في أضيق الحدود، كما يقولون فإنها مفهومة عند من يتكلمون العربية جميعا من مثقفين وغير مثقفين، وإن العامة حين يستمعون إلى كلمات القرآن وهى آية اللغة العربية ومعجزتها، يفهمونها من قريب، ويفهمون دلالاتها، وما تحمل من أوامر وزواجر، وقصص ومواعظ ..فإذا استغلق على العامة فهم شيء من اللغة العربية، فذلك عن قصور ممن يكتب أو يتحدث بها ..

أما الدعوة إلى العامية، فإنه لوصح الأخذ بها، لكان للمجتمع العربى عشرات اللغات، حيث أن لكل دولة عربية لهجتها العامية التى يتفاهم بها أهلها، ولا يحسن

التفاهم بها أو التلقى عنها غيرهم من الدول الأخرى، وبهذا تنقطع أواصر التفاهم بين أبناء الأمة العربية .. أما اللغة العربية الفصحى، فإنها اللغة الوحيدة التى يحسنون التفاهم بها جميعا، والتى يلتقون عندها جميعا في مجال العلوم، والفنون والآداب ، وفي أخذهم من تراثهم الخالد في فروع المعرفة المختلفة ..

وثالثا : قامت في السنين الأخيرة دعوة إلى ترك الإعراب ، وتسكين أواخر الكلمات العربية تسكينا لازما في جميع الأحوال، فلا رفع، ولا نصب ولا خفض لأية كلمة، بل تلزم الكلمات جميعها السكون، شأنها في ذلك شأن اللغات الأوربية، وبهذا يأمن الإنسان الخطأ، ويسهل على الناشئة تعلم اللغة، التى يقف النحو حائلا بينهم وبينها ..

وهذا ادعاء باطل يراد منه هدم اللغة من أساسها، إذ كيف يقرأ كتاب الله؟ وكيف يقرأ الشعر ويستقيم وزنه مع التزام السكون ؟

إن الإعراب في اللغة العربية هو أعظم مميزاتها عن اللغات الأخرى، وبهذا كانت اللغة الوحيدة التى حملت المعجزة بالكلمة .. التى عجز الإنس والجن عن تحديها، وبهذا استحقت هذا الوصف الكريم، من الله سبحانه وتعالى في قوله جل شأنه : «نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربى مبين » (٢١) .

ورابعا : قامت كذلك دعوة في السنوات الأخيرة أيضا تدعو إلى العدول عن الكتابة بالحروف العربية إلى الحروف اللاتينية، وذلك بحجة أن عملية الطباعة بالحروف العربية، التى تتصل الحروف فيها ببعضها في الكلمات هى عملية شاقة جدا، حيث يكون لكل حرف عدة صور حتى يمكن جمع الحروف المطبعية وتشكيل الكلمة منها فهناك صورة للحرف فى أول الكلمة، وصورة له في وسطها ، وصورة له في آخرها فإذا ضربنا هذا في عدد الحروف الأبجدية كان هناك أربعة وثمانون شكلا من أشكال الحروف

(٢١) سورة الشعراء : الآيات : ١٩٣ - ١٩٥

المجردة من الشكل (٢٨ × ٣) .. فإذا شكلت هذه الحروف بالفتحة، والضمة، والكسرة، والسكون، وبالتنوين في الفتح، والضم، والكسر، بلغ عدد أشكال هذه الحروف خمسمائة وثمانية وثمانين شكلا (٢٨ × ٣ ×٧) وهذا مما يستنفد وقتا وجهدا لا يحتملها هذا العصر - عصر السرعة في عملية طباعة الكتب، حيث تحتاج العملية إلى أضعاف أضعاف الأيدى العاملة مما لوكان الجمع بالحروف الإفرنجية، حيث تجمع الكلمات حرفا حرفا من مجموع الأحرف الإفرنجية التى لا تتجاوز عشرين حرفا، كل حرف يأخذ وضعا مستقلا في وضع الكلمة إذ أن الكلمات تكتب متفرقة الحروف فى اللغات الافرنجية كلها ..

وهذه دعوة خبيثة تدعو في ظاهرها إلى خدمة اللغة العربية، وإلى تخفيف العبء على من يقومون بعمليات الطباعة، ولكنها تصيب اللغة العربية بضربات قاضية منها :

١ - قطع الصلة بيننا وبين تراثنا القديم، وذلك إذا طال الزمن، وأصبحت الكتابة الافرنجية هى التى تعلمتها الأجيال المتعاقبة، وصارت هى طريقها إلى القراءة والكتابة - فإذا رجع واحد من أبنائنا إلى كتاب مكتوب باللغة العربية لم يحسن قراءة كلمة منه .. وبهذا تطوى صفحة مكتبتنا العربية التى تضم موروثنا من العلوم والمعارف في الدين، واللغة والعلم والفن .

٢ - هناك في اللغة العربية حروف لا مثيل لها في اللغات الأفرنجية، مثل الضاد، والقاف، والطاء، والعين والهاء، والحاء ، وغيرها من الحروف التى تشكل منها اللسان العربى وأجاد نطقها، والتى لا يستطيع غير العربى أن ينطق بها نطقا سليما، ولو حاول ذلك ألوف المرات .

٣ - الحروف الإفرنجية لا تصح الكتابة بها إلا من الشمال إلى اليمين، على عكس كتابتنا العربية وهو مخالف لما يدعو إليه ديننا من تقديم اليمين على الشمال والبدء باليمين دائما ..

وبعد ، فهذا قليل من كثير مما أدخله المستشرقون على عقولنا،واستجاب له بعض منا، وأراد أن يخرجه إلى حيز التنفيذ، ولكن الله رصد لتلك السهام المصوبة إلى نحورنا، من استطاع من أبناء تلك الأمة، الغيورين على دينها ولغتها أن يبطل مفعول تلك السهام، وأن يردها إلى مصوبيها غيظا قاتلا وهما مقيما «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (٢٢) .

(٢٢) سورة يوسف : الآية : ٢١

خامسا: (الماسونية)

١ - الماسونية كلمة غامضة في لفظها وفي معناها، كما هى غامضة في الدعوة التى تقوم تحت رايتها، وهذا الغموض الذى تتحرك في ظلامه هذه اللفظة، هو مقصود لذاته، حيث يتعامل بها الناس وهى في هذا القناع الكثيف من الغموض، الذى لا يرفع السر عنه أبدا، بل تظل هكذا ملففة في هذا الضباب، تغرى كثيرا من الناس بالجرى وراءها والبحث عن هذا العالم المجهول الذى ترمز إليه رمز الكهان والسحرة والمشعوذين، بما يتحدثون به إلى الناس، حيث يكون للفظة أو العبارة محامل كثيرة من المعانى المتناقضة المتضاربة، تذهب بها التأويلات كل مذهب، لا يردها إلى عقل أو منطق .

٢ - واليهود هم واضعو هذه اللفظة «الماسونية » وهم الذين عملوا على تجسيدها في صورة هياكل يجتمع الناس فيها من مختلف الأديان، والمذاهب والمشارب حتى صارت «الماسونية » دعوة من تلك الدعوات الرائجة في جميع أنحاء العالم، فلا تكاد تخلو دولة من دول العالم كله دون أن يكون فيها أعداد كثيرة من المحافل الماسونية منتشرة في جميع مدنها ..

٣ - فإذا نظرنا إلى اللفظة في ذاتها - وإن لم تكن قد عرفت اللغة التى جاءت منها، ولا الأصل الذى اشتقت منه - وجدنا أن معظم حروفها مشكلة من كلمة «موسى» عليه السلام، المرسل إلى بنى إسرائيل بالتوراة التى هى شريعتهم إلى اليوم ..
فالميم في الماسونية، هى الميم في موسى، والألف ، هى الواو منقلبة، ألفا والسين هى السين، والواو هى الواو، والنون هى النون التى تلحق بياء النسب مثل النون في ربانى نسبة الى رب .
هذا في رأينا - هو أصل هذه الكلمة، قد صاغها اليهود تلك الصياغة الخبيثة لتكون جارية على الألسنة في كل لغة، ولتحتفظ بهذه الصورة التى يعرفها كل

يهودى في العالم، فحيث ظهر لها وجود في أية جهة عرف اليهود في تلك الجهة أنها دعوتهم، وأنهم أهلها، وحملة رايتها ..

٤ - ثم إذا صرفنا النظر جانبا عن أصل الكلمة، ونظرنا إلى مظهرها الخارجى، وماقام تحت مسماها من هياكل، وما يجرى في داخل هذه الهياكل من أقوال وأعمال، وجدنا :

أولا : أن تلك المبانى التى أطلق عليها «المحافل» والتى يجتمع فيها المستجيبون، أو المستجلبون لهذه الدعوة الماسونية - قد بنيت على شكل هيكل سليمان، عليه السلام .

وهيكل سليمان عند اليهود، ليس هيكل عبادة وحسب، وإنما هو رمز إلى ملك سليمان الذى يحلم اليهود منذ ذهب هذا الملك، بعودته إليهم، وأنهم ينتظرون المسيح المخلص الذى يخلصهم من هذا التشريد الذى رماهم الله تعالى به، فمزقهم في الأرض، وألبسهم الذلة والمسكنة، كما يقول القرآن الكريم: «ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله، ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون (٢٣) .

لهذا فإن اليهود - كما وعدتهم التوراة التى حرفوها - ينتظرون هذا المسيح المخلص ، وقد وقع في أضغاث أحلامهم أن خلاصهم لا يكون إلا بإعادة ملك سليمان على يد هذا المسيح المنتظر، الذى يجلس على كرسى سليمان بعد أن يبنى الهيكل، ويقيم لهم دولة سليمان من جديد، ويصبح ملكا على بنى إسرائيل ..

وقد جاء المسيح المخلص فعلا لبنى إسرائيل ، كما تنبأت التوراة - في شخص المسيح عيسى بن مريم، ولكنهم رفضوه حين جاء مخلصا لنفوسهم من داء الكلب الذى أصابهم بسعار مجنون لجمع المال واسترخاص كل فضيلة، ومروؤة في سبيله .. إنهم لا يريدون خلاص النفوس، ولا طهارة الأرواح، ولكنهم يريدون مزيدا من

(٢٣) سورة آل عمران : الآية : ١١٢

الوحل والطين الذى يغوصون فيه ليصطادوا ما يملأ شباكهم من الذهب والفضة ..

وثانيا : هذه المحافل التى نصبوها في كل مدن العالم، هى إعداد لاستقبال هذا المسيح المنتظر - في زعمهم - والذى سيحكم العالم، ويقيم اليهود، ولاة باسمه على كل أمم الأرض .. إن تلك المحافل هى صورة من هيكل سليمان، صورة مصغرة يجلس فيها حكام اليهود الذين يقيمهم المسيح المنتظر في كل دولة من دول العالم .. أما الهيكل الكبير، فهو الذى سيقيمه مخلصهم بيده مكان الهيكل القديم في الأرض المقدسة وفي المكان الذى فيه المسجد الأقصى ..

هذه هى أحلام اليهود، التى يعملون بكل حولهم وحيلهم لتحقيقها، ولهذا فهم يشيعون الفساد في العالم، ويعملون على إخلاء النفوس، والقلوب والعقول من كل معانى الإنسانية، حتى يتحول الناس جميعا إلى قطعان من الحيوانات، يسهل على أية جماعة من اليهود التحكم فيها كما يتحكم الراعي في مئات وآلاف الأعداد من الأغنام ..

وقد رأينا أنهم استطاعوا أن يقيموا العالم الآن على حافة الهاوية .. فالشيوعية من جانب والرأسمالية من جانب آخر وكلتاهما قد طرحت الدين جانبا وعبدت آلهة أخرى غير الإله الواحد القهار، فالأولى - وهى الشيوعية - تعبد الدولة، والأخرى - وهى الرأسمالية - تعبد الفرد والمال .

ثالثا : أما مهمة المحافل الماسونية، فهى جلب الناس إليها من مختلف الأجناس والأديان، تحت اسم الإخاء الإنسانى، البعيد عن التعصب لأى دين أو مذهب أو وطن أو جنس أو لون، فإن كان ثمة تعصب لشىء فهو الدين، وإن كان ثمة دين فهو دين العالمية - بفتح اللام - أى دين الغيرة على الإنسان في كل مكان من هذا العالم .. وربط الناس برباط الأخوة بعيدا عن الدين ، والوطن، والجنس ..

والدعوة في ظاهرها - دعوة إنسانية - تدعو إلى الإخاء، والتسامح وهذا ما تدعو إليه جميع الأديان السماوية وتستجيب إليه الفطر السليمة، وليس هناك من يدين بدين سماوى صحيح ينكر هذه الدعوة أو يأبى الاستجابة لها ..

ولكن هذه الدعوة التى تلبس هذا الظاهر السمح الكريم، تنطوى على سم زعاف قاتل، لكل من يسوقه هذا الإغراء إلى دخول هيكلها، والتعبد بدينها الذى تدعو إليه ..

فاليهود وهم العنصر العامل في هذه الهياكل أو المحافل، وهم ترجمان الدين الذى تدعو الماسونية الناس إليه - لا يؤمنون بهذا الدين، ولا يدخل إلى قلوبهم شىء منه وإنما هم ممثلون بارعون، يؤدون هذا الدور الماكر الخبيث الذى يغرى المستمعين إليه بالتحلل من معتقداتهم، وروابطهم الإنسانية بمجتمعاتهم وأوطانهم، في حين أن الممثلين أنفسهم ممسكون أشد التمسك بالتعصب المستميت لدينهم ولعنصرهم اليهودى وأنهم شعب الله المختار على العالمين ..

ورابعا : ثم إن ما يجرى في داخل هذه المحافل هو شىء رهيب ، لايصدقه عقل، ولا يقع عليه خيال .. فمن ذلك :

١ - أن الذى يدخل المحفل الماسونى، يأخذ مكانه أولا وراء عتبة الباب من الداخل لا يتجاوز هذا المكان إلا بعد زمن قد يمتد سنين، وهو تحت الاختبار الدقيق، والملاحظة الفاحصة لكل حركاته، وسكناته، وانفعالاته، دون أن يشعر بشىء من هذا والذى يعد عليه أنفاسه، ويرصد كل ما ينطبع على قسمات وجهه من انفعالات .

٢ - أن هذا الذى أخذ مكانه على خطوة واحدة داخل الهيكل، يرى عالما غريبا يمر عليه إلى داخل الهيكل، يغدو فيه الناس ويروحون، دون أن يهمس أحد بكلمة، أو يظهر على وجهه أى انفعال من سرور أو انقباض .. وهذا مما يشوقه إلى التعرف على هذا العالم المجهول الذى هو على بعد بضعة أمتار منه .. وذلك مما يمسك به على ألا يبرح مكانه حتى يكشف تلك الأسرار التى ينطوى عليها هذا العالم المجهول : الغارق في هذا الصمت الرهيب .

٣ - ثم بين الفينة والفينة يأتى إلى هذا المسكين الباسط ذراعيه بالوصيد عند مدخل هذا السرداب - يأتيه من يهمس في أذنه إنه موشك أن يخطو إلى الأمام خطوة أو بضع خطوات، فتمتلئ نفسه بالآمال المسعدة التى تدنيه من عالمه الموعود .

٤ - وبين عتبة الباب «وقدس الأقداس» الذى هو قلب المحفل النابض بالأسرار، والذى فيه ينتصب الكرسى المقدس، الذى يجلس عليه رئيس هذا العالم الصغير، بين هذين المكانين قد يقطع المرء سنين طويلة، دون أن يبلغ مشارف «قدس الأقداس» هذا أو تقع عليه عينه .. وإنما حسبه أن ينتقل من باب إلى باب، ومن حجرة إلى حجرة، مترقيا من سلم إلى سلم، ومن درجة إلى درجة بين أعضاء المحفل، حسب ما يبدو من اجتهاده وإخلاصه، وحفظه للأسرار التى يؤتمن عليها .

٥ - ليس كل من يطلب الانضمام إلى عضوية المحفل يجاب إلى طلبه وينسمح بالدخول من بابه، وإنما هناك مواصفات معينة يشترطها القائمون على المحفل لقبول الأعضاء فيه وهذه الشروط لا يعرفها أحد غير القائمين من اليهود على المحفل وهم الذين يختارون الأعضاء، ويفتحون لهم أبوابه .

٦ - والأعضاء الذين يختارهم القائمون على المحفل هم جماعات مختلفون في المشارب، وكذا في الأهواء والاتجاهات .. يتخيرهم اليهود من بين رجالات السياسة والاقتصاد، ومن بين الشبان والشيوخ، بعد أن يكونوا قد درسوا كل واحد دراسة عامة وشاملة، لكل ما يدور في نفسه من مطامح وآمال ولكل مافيه من صلاحية للدور الذى يعدونه له في الحياة العامة في مجتمعه ..

٧ - فمن بين هؤلاء الأعضاء يعد اليهود رجال الحكم في الدولة، ابتداء من رئيسها إلى وزرائها، وقادة الرأى فيها، وحملة الأقلام من كتابها وأصحاب الألسنة من دعاتها وخطبائها ..

٨ - وإنه لكي يضمن اليهود إخلاص تلاميذهم لهم، والاستجابة من غير مراجعة لما يوجهونهم إليه - يعمد اليهود إلى إغراق هؤلاء التلاميذ في بحر من الشائنات والفضائح، يسجلونها عليهم، مسموعة، أو مصورة، ويحتفظون بها على علم من أصحابها، وعلى أنها سر لا يذاع مادام التلميذ على ولائه وإخلاصه لهم، وإلا نشرت هذه الصحف المجللة بالخزى والعار، والتى فيها القضاء الابدى على من تنشر صحفه، هو وأهله ومن يلوذ به .

٩ - كل عضو من أعضاء المحفل الماسونى - غير اليهود - واقع تحت هذا التهديد بالفضائح التى زينوها له وأغروه بها، ودفعوه إليها - واقع تحت التهديد بالموت، إذا هو أفشى سرا من أسرار المحفل التى اطلع عليها، ولن يعدم اليهود الوسيلة لقتله إن لم يكن بأيديهم، فبأيد مستعارة مأجورة بعيدة عن اليهود بعدا لا يسمح بأية شبهة تحوم حولهم من هذه الجريمة ..

١٠ - وبهذا تظل أسرار هذه المحافل الماسونية، وما يدور فيها من إفساد العقول والضمائر - تظل بعيدة عن أن تصل إلى الذين هم خارج هذه المحافل أيا كانوا، وأيا كان مدى الوسائل التى معهم، أو القوة التى في أيديهم .. لأن من دخل المحفل لا يجد فما يتكلم بشىء من أسراره، ومن ظل في الخارج لا يرى شيئا ..

إن الماسونية هى أخطر أسلحة اليهود لتدمير العالم، فمن مدارسها يتخرج حكام الدول وأصحاب الكلمة فيها، بعد أن يصنعهم اليهود على أيديهم، ويحولوهم إلى دمى لا تتحرك إلا بالإشارة منهم .

فاليهود يهدمون الشعوب أولا بما يشيعون فيها من المبادىء الهدامة كالشيوعية والمادية، والوجودية، والرأسمالية، ثم يقيمون ثانياً على رأس هذه الشعوب حكاما هم آلات مسخرة في أيديهم، وبهذا يتحكمون في مصائر الشعوب، ويقتربون رويدا رويدا من تحقيق أحلامهم في حكم العالم كله، ذلك إن لم يتنبه العالم لهم ، ويضربهم الضربة القاضية، وهو فعلا ما ينتظر اليهود من بلاء، ونكال يذهب بهم، وبكل ما دبروا ، وذلك حينما يخيل إليهم أن الأمر قد تهيأ لهم، وأن الفرصة سانحة لهم للخروج من أجحارهم، ثم

إنهم إذ يطلون برؤسهم من تلك الأحجار ستكون القاضية عليهم، حيث يأتيهم البلاء من فوقهم ومن تحت أرجلهم، وعن أيمانهم وعن شمائلهم (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة، إن أخذه أليم شديد) .

صدق الله العظيـــــم ،،،

(خاتمـــــة)

وبعد، فها نحن كما ترون ـ أيها المسلمون ـ في وجه حرب لا هوادة فيها ، تشن على الإسلام والمسلمين ، وبين أيدى أصحابها كل قوى الإفساد والتدمير .. حرب بالمال، وحرب بالرأى المضلل ، وحرب بالسلاح .. وأفتك هذه الحروب وأشدها بلاء هى حرب تلك الأقلام التى تغزونا بما تسود به صفحات الكتب والمجلات، والصحف، وتدس فيها من السموم الممزوجة بالعسل، ماتتغذى منه عقول الشباب الذين لم يعرفوا حقيقة دينهم، تلك المعرفة التى تفضح هذه المفتريات وتكشف عن تلك السموم، فيقع كثير من أبنائنا صرعى، دون أن يجدوا منا الدواء الذى يستشفى لهم ما يحل بهم من أدواء ..

فهذا الذى نشهده في محيط المسلمين من انهزام في الحياة، ومن استخفاف بالدين، ومن التفلت من أحكامه وآدابه - ليس إلا نتيجة لازمة لهذا الغزو الفكرى، الذى غزانا به الغرب ، وأوقعنا في حبائله .

وإنه لا مخلص لنا من هذا البلاء إلا بأمور يجب الأخذ بها، في غير مهل وفي غير تخلف من أحد، عن أن يخف إلى هذا الجهاد في سبيل الله .. ومن تلك الأمور :

أولا : نشر الثقافة الدينية في جميع مراحل التعليم، وذلك بجعل علوم الدين من الكتاب والسنة - حفظا وفهما - أساسا لكل ما يدخل إلى العقل من علوم العصر على اختلاف ألوانها، من نظرية وعملية .. حيث يكون الدين هو النور الذى يكشف عن وجه الحق فيما يدخل إلى القلب، فما كان من العلوم حقا، وخيرا، قبله العقل المسلم، وإلا رده، وعزله من دائرة معارفه .. وبهذا لا يكون ما يدخل إلى عقولنا من علوم ومعارف متلبسا بالأهواء الفاسدة، والمذاهب المضللة ..

وثانيا : أن ترتبط علوم الدين التى يتـزود بهـا المتعلمـون في مختلف المراحـل التعليمية عندنا - أن ترتبط بالحياة، بمعنى أن يجدها المسلم بين يديه في كل ميدان من

ميادين الحياة، وفي كل أفق من آفاقها ، توجه إرادته، وتضبط سلوكه فلا يباشر عملا من أعمال حياته إلا كان للدين أثر فيه، وفي الثمرات التى يثمرها هذا العمل، وبهذا يكون للدين ميزاته عند المسلم، حيث يرى منه كل خير يحصله ويستفيد منه .. وبهذا تشتد الصلة وتقوى بين المسلم، وبين دينه، وما يحمل من أحكام وتوجيهات ..

وثالثا :أن يعمل القائمون على التعليم في معاهد العلم المختلفة، وعلى اختلاف ما يقدمونه من علوم - أن يعملوا على أن يكون من وراء هذه العلوم ثمراتها التطبيقية في الحياة اليومية، وألا تكون العلوم والمعارف التى يتلقاها الدارسون مجرد معلومات ذهنية يحفظونها، ثم يلقونها على أوراق الامتحان ، لتكون جواز مرور لنجاحهم .. فهذا لا يعنى إلا ضربا من ضروب الخيانة للعقل، يحمل ما يحمل من العلوم والمعارف لمسافة معينة من الزمن، ثم يلقى بها، ويطرحها بعيدا عنه، بعد أن يقضى حاجته منها بالنجاح في الامتحان .. وذلك أقرب ما يكون إلى هذا المثل الذى ضربه الله تعالى لبنى إسرائيل، الذين حملوا التوراة وحفظوها، ثم لم يكن لما حملوا وما حفظوا أثر في استقامة سلوكهم، وفي تهذيب طباعهم .. وفي هذا يقول الله تعالى: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدى القوم الظالمين» (الجمعة ـ ٥ ـ) .. وإن من التكذيب بآيات الله أن تحفظ في الصدور ثم لا يعمل بها ..

ورابعا : أن يرصد علماء المسلمين كل ما يلقى به الغرب في ساحة الإسلام من أفكار مضللة، وآراء منحرفة، وتخرصات على الإسلام، وتحريف لتعاليمه وأحكامه - ثم ليفندوا هذه المدعيات، ويدحضوا هذه المفتريات، بسلطان الحق، ومنطق العقل، وشهادة الواقع، مما يعيش فيه الغرب وما يكابده من آلام بسبب تمزق وحدته النفسية التى جرته إليها تلك المذاهب الضالة التى أخرجته من عالم الإنسانية إلى عالم دون عالم الحيوان .. وبهذا يرى المفتونون منا بالغرب شهادة الغرب على نفسه بما يعانيه من شقاء وضياع، وإن كان يرى - في عين الأغبياء - مثلا للحياة الطيبة الهانئة ..

هذا بعض ما يجب أن نقوم به في مواجهة هذا الغز الصليبى الصهيونى الشيوعى، الذى يتهددنا ويتربص الدوائر بنا حيث يشوه حقائق ديننا بالمفتريات والأباطيل، التى ينخدع لها الأغرار المفتونون بالغرب وحضارته، فإن نتنبه لهذا الخطر، ونعد العدة لدفعه عن أوطاننا، تكتب لنا النجاة من هذا المصير المشئوم الذى ينتظر الغرب، وماقامت عليه مدنيته المادية الملحدة، وإن نحن استسلمنا لهذا التيار الجارف، حق علينا هذا المصير نفسه، وقانا الله شره، وحقق لدينه ما وعد به في كتابه الكريم من إظهاره على الدين كله ولو كره الكافرون ..

عبد الكريم يونس الخطيب
أستاذ الدراسات العليا

كلية الشريعة - جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية

الغزو الفكري
والتيارات المعادية للإسلام

القسم الخامس

إعداد

الشيخ أحمد بشير

رئيس جمعية إقامة الإسلام بمدينة مرادي - الفلبين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله وهو الحميد المجيد ، ومنه العون وبه التوفيق . اللهم أهدنا سبلنا وألهمنا رشدنا ، وأرنا الحق حقاً وأرزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه وصل اللهم على عبدك سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

وبعد : فقد تلقيت خطابا كريما من أخى فى الله صاحب المعالى الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ وزير التعليم العالى والرئيس الأعلى للجامعات يدعونى فيه للمشاركة فى مؤتمر الفقه الإسلامى الذى سينعقد فى مدينة الرياض فى ١ / ١١ / ١٣٩٦ هـ إلى ١٠ / ١١ / ١٣٩٦ هـ ، وأرفق بخطابه موضوعات مختارة للتدارس فى هذا المؤتمر .

وقد قبلت هذه الدعوة الكريمة شاكرا .. ورأيت أنها فرصة سانحة يجب أن تنتهز وتغتنم لأشارك فى هذه المهمة الإسلامية الكبرى .

لقد آثرت موضوع (الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام) من هذه الموضوعات ، وكان الذى دعانى إلى كتابتها هو أنى رأيت الإلحاد والإنحلال فى هذه الأيام يشتعل ويسرى سريان النار في يابس الحطب ، ورأيت دعاته يستفحل أمرهم فى كل مكان وزمان ..

وبعد أن فشلت الحروب الصليبية فى مهمتها وعجزت عن استئصال بيضة المسلمين وإبادتهم بهذه الطريقة ـ سلكوا طريقا آخر غير هذه الطريقة وهو (الغزو الفكرى ـ والذى نسميه اليوم بالحرب الباردة) ، ورسموا لها نهجا واستعانوا عليها بكل الوسائل التى تحقق بها مآربهم وتنال بها رغائبهم ، ومن هذه الوسائل الدعوة إلى القومية .

نشأة الدعوة الى القومية

الغزو الفكرى القومى :

فى القرن الماضى نشأت الدعوة القومية فى أوربا ، فبعد الثورة الفرنسية فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى تكونت الدول الأوربية الحديثة على أساس القومية ، وقد اتجهت المطامع الاستعمارية للدول الأوربية إلى دولة الخلافة الإسلامية (العثمانية) وكانت قد بلغت أشد مراحل الضعف والانحلال ، حتى أطلق عليها لقب (الرجل المريض) .

وبدأوا باستغلال الأقليات المسيحية فى ولايات مقدونيا الثلاث

١ - مناستر

٢ - قوصة

٣ - سلانيك

فبثوا فيها الدعوة إلى القومية وبواسطتها استطاعوا أن يمزقوا وحدة الدولة العثمانية ، فانفصلت تلك الولايات عنها وقامت فيها دول مسيحية لليونان والبلغار والسلاف والرومان بعد مذابح مريعة للسكان المسلمين أدت إلى هجرة الكثير منهم إلى نواحى الدولة العثمانية فى الأناضول ، وظلت إلى الأن جماعات كبيرة من المسلمين فى هذه الدول تعانى الأضطهاد والظلم .

ولاننسى الإشارة إلى أن الفكرة القومية الحديثة نبتت فى عقول أعداء الإسلام من اليهود والصليبيين .

الماسونية والدونمة ينشرون القومية فى تركيا

الغزو الفكرى الماسونى :

قام المحفل الماسونى فى تركيا بالدعوة إلى القومية التركية وممن اشترك فى أبحاثه المستشرقون (غولاوسكى) و (قرة جون) و (ماونان هارتان) فقد عكف هؤلاء على اكتشاف كل مايتعلق بالجنس التركى من تاريخ ولغة وخصائص قومية وحضارة وأدب وحياة اجتماعية .

عاملين على إعادة الطابع الأصلى القديم للغة التركية ، وهدفهم تمزيق الوحدة العثمانية ، ومحاربة السلطان عبد الحميد الثانى الذى تبنى مبدأ الجامعة الإسلامية محاولا إنقاذ دولة الخلافة ، ولكن حزب (الاتحاد والترقي) - وصلته بالماسونية مشهورة - قام بالانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ م وأعلن الدستور على منوال الدولة الأوربية ، ثم خلع السلطان عبد الحميد ، وقضى على الجامعة الإسلامية وبذلك تحققت أهداف أعداء دولة الخلافة من الاستعماريين والصهيونيين ، ولم تكن شعارات (الدستور والحرية والمساواة) إلا تخريباوتقويضاًللدولة التى كان الاتحاديون يزعمون أنهم عاملون بالانقلاب من الدونمة والجواسيس لايكتفون بما ينشرونه فى الصحف التركية من التهجم على العرب ، بل كانوا يرسلون مقالاتهم المسمومة لتنشر فى (الأهرام) و (المفيد) وغيرهما من الجرائد المصرية والسورية .

المبشرون ينشرون القومية العربية

الغزو الفكرى التبشيرى :

ومن ناحية أخرى كانت الدعوة للقومية العربية تبرز فى لبنان على أيدى فئة من النصارى العرب ، فقد كانت (جمعية الآداب والعلوم) سنة ١٨٤٧ م فى جبل لبنان . وكان من أعضائها المؤسسين المبشرين (ايلى سميث) و (كورنيليوس فانديك) ، وإبراهيم اليازجى وبطرس البستانى .

ثم تحولت إلى (الجمعية العلمية السورية) سنة ١٨٦٨ م وكانت تصدر منشورات سورية وقصائد مملوءة حقدا وسخطا على الدولة العثمانية ، وتدعو العرب إلى التعصب ضد الترك والثورة عليهم وتحطيم (نيرهم) ومن منشوراتها قصيدة لإبراهيم اليازجي مطلعها :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

فقد طما الخطب حتى غاصت الركب

ويقول فيها معرضا بالترك واغتصابهم حق العرب (الخلافة) :

أقداركم في عيون الترك نازلة

وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

ويدعوا صراحة إلى الثورة :

فشمروا وانهضوا للأمر وابتدروا

من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

صبرا هيا أمة الترك التى ظلمت

دهرا فعما قريب ترفع الحجب

ويعترف القوميون أن الدولة الغربية وجدت فى القضية العربية فرصة سانحة لتفكيك عرش الدولة العثمانية وفصل الأقطار العربية عنها ، وكان المسيحيون السوريون كما يقول إداوارد عطية : يكرهون السيادة التركية ويستطلعون نحو التحرر منها بقصد تأليف دولة سورية بدلا منها ، وليس فى ذلك خضوع لسيادة أجنبية طالما أن الدولة الأوربية المسيحية من نفس الديانة التى يعتنقونها .

اتخذوا القومية عقيدة

وفى منتصف هذا القرن تطورت الدعوة إلى القومية العربية تطورا يجعلها فى مصاف العقائد الدينية وجاء فلاسفة قوميون ابتدعوا فلسفة قومية تضع القومية العربية موضع العقيدة الدينية وفى مقدمة هؤلاء ساطع الحصرى الذى قدم الرابطة القومية على الرابطة الدينية ، وألف عشرة كتب فى القومية ومنها كتابه (العروبة أولا) ومنهم مشيل عفلق ، وجورج حبش وأنيس صايغ ، وقسطنطين زريق ، وعبد العزيز الدورى ، ونور الدين حاطوم وغيرهم .

وجميع هؤلاء يدعون إلى القومية العربية علمانية (لا إسلامية) فهم يستبعدون الدين من مقومات الحركة القومية التى يعدون منها : اللغة والتاريخ ، والأصل أو النسب ، والأرض والاقتصاد ووحدة المشاعر والمصالح إلخ .

ويقول عمر فاخورى فى كتابه (كيف ينهض العرب ؟) : لاينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية أو المبدأ العربى ديانة لهم يغارون عليها كما يغار المسلم على قرآن النبى الكريم !

موقف الإسلام من الدعوة القومية

إن مبادئ الإسلام ومبادئ الغرب متباينة كليا فى باب القومية فالذى يعتبره الغربيون مصدر الضعف والخذلان عند الأمة الإسلامية كما يقول شاعر الإسلام محمد إقبال : (لاتقس أمم الغرب على أمتك ، فإن أمة الرسول الهاشمى صلى الله عليه وسلم فريدة فى تركيبها ، أولئك إنما يعتقدون باجتماعاتهم على الوطن والنسل ، ولكن إنما يستحكم اجتماعك أيها المسلم بقوة الدين .)

لهذا كان من غير المقبول ولامن الممكن كما يقول الأستاذ المودودى أن توجد فى الأمة الإسلامية قوميات على أساس الألوان والأجناس واللغات والأوطان كما لايمكن أن توجد

داخل دولة كثيرة مختلفة .. ومن كان مسلما وأراد أن يبقى على إسلامه فلا بد له أن يبطل فى نفسه الشعور بأى أساس غير أساس الإسلام ويقطع سائر العلاقات والروابط القائمة على أساس اللون والتراب ..

إن أخوف ماكان يخافه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين أن تظهر فيهم العصابات الجاهلية فتفرق كلمتهم ، فكان يقول لأصحابه دائما : (لاترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض) .

ولايمكن بقاء الرابطة الإسلامية مع نشوء الشعور بالقومية العنصرية ومن المغالطة الزعم بأن هذا الزمان إسلامى مع أن أهله يتغنون بالعنصرية والوطنية فى كل قطر من أقطارهم متأثرين بالأوربيين ، صار العربى يتغنى بعروبته والمصرى ينتسب إلى فراعنته ، والتركى يتيه إعجابا بتركيته ويحاول أن يصل نسبه بهولاكو ، وجنكيز ، والفارسي يقول لشدة انفعاله بنعرته القومية : إنه لم يكن من تأثير (الامبراطورية العربية) إلا أن صار على والحسن والحسين رضى الله عنهم أبطاله وإلا لكان رستم وإسفندار وأنوشروان أحق أن يكونوا أبطاله القوميين في حقيقة الأمر !!

وقد بدأ ينشأ فى الهند مسلمون يفخرون بالانتساب إلى القومية الهندية ، بل فيهم من يريدون أن ينقطعوا عن ماء زمزم ويتصلون بماء جنجا وفيهم من تبعثهم أهواؤهم على اتخاذ (بهيم) و (ارجن) و (رام ها) أبطال الهندوس القدماء - أبطالهم القوميين - !!

وليس هذا كله من هؤلاء السفهاء الراكبين رؤوسهم إلا لأنهم ماعرفوا مايملكون من الحضارة ومايملكه الغرب ..

وماتبينوا مابينهما من الفرق الجذرى ، لأن عيونهم كليلة عن المبادئ والحقائق ، فلا ينظرون إلا إلى السطح ، ويبهر عقولهم مايجدونه بارزا من الفقاقيع والألوان الظاهرة ، ولايعلمون أن الشئ الذى هو ماء الحياة للقومية العربية هو نفسه السم الزعاف للقومية الإسلامية .

وقد بين الشيخ عبد العزيز بن عبدالله بن باز حفظه الله تعالى أن بطلان الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات مما هو معلوم عن الدين الإسلامى بالضرورة ، لأنها منكر ظاهر وجاهلية نكراء وكيد سافر للإسلام وأهله ، وذلك من وجوه أربعة :

أولا : لأنها تفرق بين المسلمين وتفضل المسلم العجمى عن أخيه العربى بل تفرق بين العرب أنفسهم وتقسمهم أحزابا ، فهى بذلك تخالف مقاصد الإسلام الذى يدعو إلى الاجتماع والوئام ، قال : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا . (١)

ثانيا : لأنها من أمر الجاهلية فهى تدعو إلى غير الإسلام ، وكل ماخرج من دعوة الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية .. كما يقول الشيخ ابن تيمية رحمه الله مستشهدا بقوله صلى الله عليه وسلم (أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم) والنصوص فى ذلك كثيرة منها مارواه مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من غضب للعصبية وقوله : تواضعوا حتى لايبغى أحد على أحد ، ولايفخر أحد على أحد .
ولاريب أن دعاة القومية تدعو إلى البغي والفخر ، وإنما هى فكرة جاهلية تحمل أهلها على الفخر بها والتعصب لها .
والإسلام بخلاف ذلك فهو يدعو إلى التواضع والتقوى والتحاب فى الله وأن يكون المسلمون الصادقون من كل أجناس بنى آدم جسدا واحدا يشد بعضه بعضا ، ويألم بعضه لبعض ، فى الحديث الصحيح (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه) ومثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) . وفى حديث الأشعرى (الحارث) أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن ، السمع والطاعة والجهاد ، والهجرة ، والجماعة .. فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من

(١) سورة آل عمران : الآية :

عنقه ، إلى أن يراجع ، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم قيل يارسول الله وإن صلى وصام ؟ قال : وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذى سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله .. وهذا الحديث الصحيح من أوضح الأدلة وأبينها فى إبطال الدعوة القومية واعتبارها دعوة جاهلية يستحق دعاتها أن يكونوا من جثى جهنم .

ثالثا : لأنها تؤدى إلى موالاة كفار العرب وملاحدتهم من أبناء المسلمين واتخاذهم بطانة والاستنصار بهم على أعداء القوميين من المسلمين وغيرهم وفى ذلك مخالفة لنص القرآن والسنة الدالة على وجوب بغض الكافرين ومعاداتهم وتحريم موالاتهم واتخاذهم بطانة كقوله تعالى : ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم (٢) الآية ...

والقوميون يدعون إلى التكتل حول القومية العربية ، فيوالون لأجل ذلك كل عربى من يهود ونصارى ومجوس ووثنيين وملاحدة وغيرهم تحت لواء القومية العربية ويقولون إن نظامها لايفرق بين عربى وعربى وإن تفرقت أديانهم ..

والله عز وجل يقول : ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة .. إلى قوله تعالى : ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ..(٣)

ونظام القومية يقول كلهم أولياء مسلمهم وكافرهم .. والله سبحانه وتعالى يقول : قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برءاؤا منكم ومما تعبدون من دون الله (٤) .. وقال تعالى : لاتجد

---

(٢) سورة المائدة : الآية : ٥١ . (٣) سورة الممتحنة : الآية : ١ . (٤) سورة الممتحنة : الآية : ٤ .

قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . (٥)

ومشرع دعاة القومية يقول : اقصوا الدين عن القومية وأفصلوا الدين عن الدولة ، وتكتلوا حول أنفسكم وقوميتكم حتى تدركوا مصالحكم وتستردوا أمجادكم كأن الإسلام وقف فى طريقهم وحال بينهم وبين أمجادهم ، هذا والله هو الجهل والتلبيس وعكس القضية .

وكيف يجوز فى عقل عاقل أن يكون أبو جهل وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث واضرابهم من صناديد الكفار فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يومنا هذا إخوانا وأولياء لأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة ومن سلك سبيلهم إلى يومنا هذا .. وهذا والله أبطل الباطل وأعظم الجهل .

رابعا : لأن الدعوة للقومية تفضى بالمجتمع إلى رفض حكم القرآن لأن القوميين غير المسلمين لن يرضوا بتحكيم القرآن ، فيوجب هذا لزعماء القومية أن يتخذوا أحكاما وضعيه تخالف القرآن حتى يستوى مجتمع القومية فى تلك الأحكام .

الغزو الفكرى الاستشراقى

أهداف المستشرقين : (٦)

ظهر الاستشراق فى أوربا بعد الحروب الصليبية والاستشراق لون من ألوان التبشير (الغزو الفكرى) فهو يعود إلى أسباب دينية ، فبعد عهد الإصلاح الدينى شعر

---

(٥) سورة المجادلة : الآية : ٢٢ .

(٦) معنى الاستشراق : البحث فى علوم الشرق وعقائده وآدابه ، وإعداد الدراسات الأدبية والدينية والعلمية فيها .

الأوربيون من البروتستانت والكاثوليك بحاجة إلى إعادة النظر فى شروح كتبهم الدينية فاتجهوا إلى الدراسات العربية والإسلامية وأخذوا يستفيدون مما وصل إلى أيديهم من المؤلفات الإسلامية الكثيرة ثم تطور الأستشراق فأصبح يهتم بالعلوم الأقتصادية والسياسية إلى جانب غرضه الأول وهو التمهيد للمبشرين وخدمه أهدافهم .

أما المستشرقون اليهود فقد أقبلوا على الاستشراق لأسباب دينية وهى محاولة إضعاف الإسلام وتشويهه والتشكيك في قيمه بإثبات فضل اليهودية عليه وادعاء أن اليهودية هى مصدر الإسلام الأول ولأسباب سياسية هى خدمة الصهيونية حين كانت فكرة ، ثم بعد أن أصبحت دولة .

وتتلخص أهداف المستشرقين فيما يلى :

١ ـ تفتيت وحدة المسلمين وإضعافها .

٢ ـ التمهيد لاستعمار العالم الإسلامى .

٣ ـ استغلال الثروات والانتقام من المسلمين الذين قاموا فى القرون الوسطى فى وجه المسيحية .

ولهذا نجدهم يعملون بطرق مختلفة على تهيئة شخصيات شرقية تتسلم زمام الحكم فى البلاد الإسلامية وتمهد السبيل للنفوذ الاستعمارى .

وإننا لنجد فى دراسات المستشرقين الأدبية والإسلامية تركيزا حول أهدافهم لايجاد التخاذل الروحى والشعور بالنقص فى نفوس المسلمين ، وحملهم على الخضوع للتوجيهات الغربية .

فهم حين يوازنون بين الآداب العربية وبين الآداب الغربية أو بين العلوم الإسلامية وبين العلوم الأجنبية الغربية التى يعدونها نصرانية يخرجون دائما بتفضيل الآداب الغربية على الآداب والعلوم الإسلامية ويبرزون نواحى النشاط الثقافى الغربى

ويفضلونها على أمثالها فى تاريخ العرب والإسلام لتركيز الشعور بالنقص فى نفوس المسلمين وحملهم على قبول المدنية المادية الغربية .

فهذه نبذة من أعمال المستشرقين التى اتخذوها وسيلة للوصول إلى تحقيق أهدافهم :

قام المستشرقون بتأليف الكتب ، وإلقاء المحاضرات ، وعقد المؤتمرات وإصدار الصحف ، وجمعوا الأموال ، وأنشأوا الجمعيات ، وقاموا بالتبشير بالنصرانية بين المسلمين ، ولم يتركوا مجالا من المجالات إلا سلكوه لتحقيق أهدافهم .

ففي عام ١٧٨٧ م أنشأ الفرنسيون جمعية للمستشرقين وألحقوها بأخرى عام ١٨٢٠ م وأصدروا المجلة الأسيوية .

وتألفت فى لندن جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية عام ١٨٢٣ م وأصدرت مجلة بأسمها .

وأنشأ الأمريكيون عام ١٨٤٢ م جمعية ومجلة باسم (الجمعية الشرقية الأمريكية وفى نفس العام أصدر المستشرقون الألمان مجلة خاصة بهم ، وكذلك فعل المستشرقون فى كل من النمسا وإيطاليا وروما .

ويصدر المستشرقون الأمريكيون فى الوقت الحاضر مجلة شئون الشرق الأوسط وقد حلت محل مجلة (جمعية الدراسات الشرقية) التى كانوا يصدرونها فى أوائل هذا القرن .

وأخطر المجلات التى يصدرها المستشرقون الأمركيون هى مجلة (العالم الإسلامى) التى أنشأها صمويل زويمر ١٩١١ م وتصدرها الآن فى هار تفورد بأمريكا وطابعها تبشيرى سافر .

للفرنسيين مجلة شبيهة بمجلة العالم الإسلامى فى روحها واتجاهها العدائى التبشيرى وفى اسمها أيضا .

أما أخطر الأعمال التى قام بها المستشرقون فهو إصدار (دائرة المعارف الإسلامية) بعدة لغات ، ومصدر خطورتها أن المستشرقين عبئوا قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة وأصبحت مرجعا لكثير من الباحثين والعلماء من المسلمين على مافيها من خلط وتزييف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين .

ولقد تسلل المستشرقون إلى المجامع العلمية العربية فى مصر والشام والعراق فعين عدد منهم أعضاء فى هذه المجامع ، كما اتجه المستشرقون والمبشرون إلى مجال التربية والتعليم حيث مكن لهم المستعمرون فأفسدوا عقول ناشئة المسلمين وغرسوا فيها كثيرا من مبادئ التربية الغربية فشب كثير من المسلمين (مستغربين) فى حياتهم وتفكيرهم وعاداتهم ، وضعفت أو انهارت فى نفوسهم القيم الإسلامية .

من ادعاءات المستشرقين

وقد بذل المستشرقون معظم جهودهم لتوهين القيم الإسلامية وإنكار المقومات التاريخية والثقافية والخلقية لدى المسلمين والاستخفاف بها وهم يصوغون ذلك كله فى صورة الأبحاث العلمية التى يدعون فيها الحياد وتجنب العصبية مع أن أبحاثهم أبعد ماتكون عن الحق والنزاهة العلمية ، وأين النزاهة والحيدة العلمية فى مثل مزاعمهم ؟ ونذكر بعضا منها لنكشف بها عن حقيقة أمرهم :

١ ـ إن القرآن الكريم كتاب مسيحى نسخه محمد صلى الله عليه وسلم .
٢ ـ وأن الإسلام دين مادى لاروحية فيه لأنه يدعو إلى الدنيا وليس إلى صفاء النفوس والمحبة .
٣ ـ وأن الإسلام يميل إلى العدوان والاغتيال ، ويحرض أتباعه على القسوة على غير المسلمين .

٤ ـ وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم ، ولابد من استخدام العامية واللهجات المحلية ، واستخدام الحروف اللاتينية بدلا من الحروف العربية .

والمستشرقون بعد هذا يعملون على نبش الجاهليات القديمة ، فيدعـون إلى احياء الأصول العرفية البائدة فى الأقطار الإسـلامية كالفرعـونية فى مصر والأشـورية فى العراق ، والفينيقية فى لبنان ، والبربرية فى المغـرب ، والطـورانية فى تركيا .. إلـخ ، وغرضهم إثارة العصبيات الجاهلية بين شعوب الأمة الإسلامية وبالإجمال فإنهم يزعمون أن السبب فى انحطاط المسلمين وتأخرهم هو تمسكهم بالإسلام وآدابه .

والمستشرقون بذلوا كل مافى وسعهم لإضعاف القيم الإسلامية واستعانوا على هذا بكل طاقتهم وقوتهم مالية وعلمية وساعدهم أغنياء الدول العظمى والصهاينة لتحقيق أهدافهم عن طرق كثيرة منها شرح التعاليم الإسلامية شرحا يضعف عقيدة المسلـم ويقوى فى نفسه الشك فيه كدين أو على الأقل كمنهج يتفق مع الحياة يصورون عقيدة التوحيد فى الإسلام تصويرا يؤدى إلى حيرة المسلم ، وتحط به كأنسان إلى أسفل درك ، على حين أن عقيدة التوحيد مزية الإسلام وآية على أنه الرسالة الكاملة الواضحة ، والطريق السليم الوحيد إلى رفع شأن الإنسـان وتكريمـه ، لأن صاحـب هذه العقيدة لايخضع في حياته لغير الله سبحانه .

وعلى سبيل الاقتراح وابداء الرأى ـ نرى أن الأمة الإسلامية بحاجـة ماسـة إلى تكوين مؤسسات علمية قوية تواجه جهود المستشرقين مواجهة الند للند ، وتعمل على تنقية الحياة الإسلامية من الرواسب التى خلفها الاستشراق فى البلاد الإسلامية أو فى أذهان كثير من أبناء المسلمين .

وعلى المؤسسات العلمية والجامعات الإسلامية أن تواجه كتب المستشرقين وبحوثهم ومؤتمراتهم وتتولى الرد عليهم وشرح القيم الإسلامية وتقوية أواصر القربى بين الشعوب الإسلامية وأن تتعاون هذه الهيئات فى تأليف (دائرة معارف إسلامية) يكتبها علماء

مسلمون متمكنون فى فهم التراث الإسلامى وأن تصدر مجلة تتبع بحوث علماء الاستشراق التي يوردها الغرب الصليبي للشرق الإسلامى كما يقول الدكتور محمد محمد حسين .

المبشرون

ولقد قام المبشرون بنشر تعاليم الإنجيل ودعوة الناس إلى اعتناق النصرانية فى العالم أجمع ، ولم يتركوا طريقا من الطرق إلا سلكوها ، ويكون التبشير مباشرا صريحا ، أو مستترا مستخفيا تحت أقنعة متعددة كالمدارس والمستشفيات والأندية والجمعيات ومؤسسات البر والاحسان .

والمشاهد فى جيلنا الذى نعيش فيه أن التبشير تغلغل فى كل شئ فى صحف العالم كله سواء كانت سياسية أو أدبية أو علمية ، وفى الاذاعات حتى فى السلع التجارية .

ويبدو التبشير فى أشكال مختلفة كالصور والرموز فمثلا يرسم على الأقمشة نفسها أو على غلافها صور النساء وتنقش الصلبان على القماش والسجاد وهكذا .

والدعوة الفظيعة التى يتذرع بها المبشرون ومن ورائهم هو دعوى (نشر المدنية والحضارة) بين المسلمين ولكن لايريدون من المسلمين أن يأخذوا من حضارة الغرب أسباب القوة .. فتلك خطوة تفوت على الاستعمار السيطرة على البلاد الإسلامية ، ولذلك فهو يوحى بنشر المسيحية أولا .. ثم إدخال الحضارة والمدنية بعد ذلك .

بواعث التبشير

ولاريب أن الباعث الحقيقى والأول فى رأى القائمين على التبشير إنما هو (القضاء على الأديان غير النصرانية) توصلا إلى استعباد اتباعها .

فالمعركة ليست معركة دينية بل معركة في سُبيل السيطرة السياسية والاقتصادية (فكل دولة يحرص مبشروها على نشر مذهبها فالمبشرون الفرنسيون ينشرون المذهب الكاثوليكى ، والمبشرون الانجليز ينشرون المذاهب البروتستانتية)

ولايخفى أن أشد الأديان مراسا في إباء الاستعباد هو الإسلام ، ولذلك يتمنى المبشرون أن ينصروا المسلمين كلهم .

ولما خاب المبشرون فى اكتساب المسلمين إلى صفوف النصرانية قنعوا بقصر جهودهم على زعزعة عقيدة المسلمين على الأقل .

هذا يدل على الباعث الحقيقى على التبشير وهو : هدم الإسلام والتوصل إلى السيطرة على المسلمين .

ويدل ذلك أيضا أن العالم الغربى الذى تسوده الفلسفات المادية والعلمانية يرسل مبشريه وينفق عليهم بسخاء فى البلاد الأخرى .

ففرنسا التى تطارد اليسوعيين فى بلادها ترعاهم فى أفريقيا .. وأمريكا التى يصفها أمين الريحانى بأنها تعبد الحرير والذهب والبترول تغطى نصف الأرض بمبشرين يزعمون أنهم يدعون إلى حياة روحية وسلام دينى ، حتى روسية البلشفية التى تحارب الأديان وتصفها (بأفيون الشعوب) تظاهرت بعد الحرب العالمية الثانية بالعطف على رجال الدين ودعت إلى عقد (مجمع مسكونى) فى موسكو وحملت إليه المؤتمرين فى طائراتها وشرف (ستالين) المؤترين بمقابلته !!!

من فضائح المبشرين

وقد أشار مؤلفا (التبشير والاستعمار) إلى عدة حوادث تبين أن كثيرا من المبشرين من المغامرين الطامعين إلى السيطرة الشخصية ، ومنهم المكرة المستغلون للجمعيات التبشيرية للسفر على حسابها للاتجار أو الدعوة إلى مبادئ اجتماعية واقتصادية لاصلة لها بالتبشير .. ومنهم من لايتحلون بالأخلاق الحميدة .

وقد ذكر المبشر الأمريكى (جب) أنه قد ثبت على اليسوعيين أنهم فضحوا فتاتين من طائفة الروم الأرثوذكسى .. ويهاجم جب أيضا نظام الأديرة ويقول : إن بعض هذه الأديرة كان مستقرا للفاحشة .

المؤتمرات التبشيرية

وقد نشط المبشرون فى مطلع القرن العشرين الميلادى للعمل ، توجههم الأحقاد الصليبية المتوارثة منذ ألف عام معتبرين التبشير (الحرب الصليبية الثانية) ومستهدفين أولا الدولة العثمانية التى نعتوها باسم (الرجل المريض) .

وعندما تبنّى السلطان عبد الحميد فكرة الجامعة الإسلامية شنوا أعنف الغارات وحاربوها بكل قواتهم ، يقول القسى (سيمون) إن الوحدة الاسلامية تجمع آمال الشعوب السمر وتساعدهم على التخلص من السيطرة الأوربية ولذلك كان التبشير يعمل على إظهار الأوربيين فى نور جذاب ، وعلى سلب الحركة الإسلامية من عنصرى القوة والتمركز ، وإذا كانت الوحدة الإسلامية تكتلا ضد الاستعمار الأوربى ثم استطاع المبشرون أن يظهروا الأوربيين فى غير مظهر المستعمر ، فإن الوحدة الإسلامية حينئذ تفقد حجة من حججها وسببا من أسباب وجودها .

من أجل ذلك قالوا : يجب ان نحول بالتبشير مجارى التفكير بالوحدة الإسلامية حتى تستطيع النصرانية أن تتغلغل فى المسلمين . وقد عقد المبشرون عدة مؤتمرات منها :

١ ـ مؤتمر المبشرين فى القاهرة سنة ١٩٠٦ م فى دار عرابى باشا تحت رئاسة القسيس زويمر الذى بلغت به الجرأة أن دخل الجامع الأزهر ليوزع فيه نشراته التى تفيض بالطعن على الإسلام .
٢ ـ مؤتمر أدنبرة (انكلترا) سنة ١٩١٠ م
٣ ـ مؤتمر لكنهو (الهند) سنة ١٩١١ م وهو أخطر المؤتمرات الثلاث وكان أبرز موضوعاته (الجامعة الإسلامية وكيفية مقاومتها) .
٤ ـ مؤتمر القدس سنة ١٩٢٨ م

ومن المفيد أن نشير إلى أحد هذه المؤتمرات وهو مؤتمر (لكنهو) فقد اشترك فيه ١٦٨ مندوبا و ١١٣ مدعوا من أربع وخمسين جمعية تبشيرية وكان أيضا تحت رئاسة زويمر الذى وصفته جريدة فرنسية بأنه لايهزم وأنه درس الإسلام بين الشعوب الإسلامية التى يحبها حبا جما ؟

وقد منع الصحفيون من حضور المؤتمر ولم توزع عليهم النشرات إلا بعد تنقيحها .

وقد كتب زويمر فى مجلته (العالم الإسلامى) معلنا بما أصاب المسلمين فى مطلع هذا القرن ولكن فى أسلوب ملتو ـ وقال : إن الإسلام تمخض فى السنوات الخمس الأخيرة ، التى أعقبت مؤتمر مصر عام ١٩٠٦ م عن حادثة خارقة لم يسبق لها نظير .

ففيها حدث الانقلاب الفارسى والانقلاب العثمانى ، وفيها انتبهت مصر لحركتها الحاضرة (يقصد القومية المصرية) .

وكل هذه الحوادث تحتم على الكنيسة أن تعمل بجد وحزم وتنظر فى أمر التبشير والمبشرين بكل عناية ووضع برنامج للأمور الآتية :

١ ـ درس الحالة الحاضرة ـ
٢ ـ استنهاض الهمم لتوسيع تعليم المبشرين والتعليم النسائى
٣ ـ إعداد القوات اللازمة ورفع شأنها .

كما تليت فى المؤتمر تقارير لجنة مواصلة أعمال مؤتمر القاهرة وهذه مواده :
١ ـ النظر فى حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين .

٢ ـ النظر فى الانقلابات السياسية فى العالم الإسلامى وعلاقاتها بالإسلام ومركز المبشرين فيها .

٣ ـ موقف الحكومات إزاء حركة التبشير وإرساليات تبشير المسلمين.

٤ ـ الإسلام ووسائل منع انتشاره بين الشعوب الوثنية .

٥ ـ تربية المبشرين على ممارسة تبشير المسلمين والمزايا النفسية اللازمة لذلك وبحث الدروس الإعدادية ودروس التبشير وتأليف الكتب للمبشرين وقراء المسلمين ..

٦ ـ حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى .
٧ ـ الأعمال النسائية .
٨ ـ القرارات العلمية وتقارير اللجان المالية للمطبوعات والنشرات .

آثار التبشير

لقد استخدم المبشرون مختلف الوسائل لافساد عقائد المسلمين واستغلوا الفقر والجهل والمرض وضعف الدولة الإسلامية أمام الاستعمار فأتوهم عن طريق البر والطب والإحسان .

وكانت قوات الأحتلال تحمى نشاط المبشرين إن لم تمنحهم الامتيازات الأجنبية .. ولم تخرج جيوش الاحتلال العسكرى من البلاد الإسلامية حتى اطمأنت إلى فئة من أبناء المسلمين الذين تربوا على أيدي المبشرين أو فى مدارس المحتلين الأجنبية ، وفى بعض الحالات يقبض زمام السلطة بعض المرتدين من الإسلام إلى النصرانية .

وقد جاء فى كتاب التبشير والاستعمار : (توقع البعثات التبشيرية فى السينغال مع عدد من الأسر السينغالية الفقيرة عقودا تقدم بموجبها تلك البعثات إلى الأسر السينغالية مساعدات عينية ضئيلة من أرز مثلا فى كل شهر على أن يكون لها حق باختيار طفل من أطفال الأسرة تربيه على حسابها ويكون فى العقد نص على أن الأسرة مجبورة على دفع ثمن المساعدات ، ودفع نفقات ابنها ونفقات تعليمه إذا هى خالفت شروط العقد ـ بطلب استرداد ابنها مثلا ـ وتختار البعثه التبشيرية من أطفال تلك الأسرة صبيا دون الخامسة من العمر ثم ترسله إلى المدرسة التبشيريه ، وينقطع الصبى عن أهله وينشأ نشأة مسيحية ثم يرسل إلى فرنسا .. ليعود الصبى السينغالي الذى أصبح مسيحيا إلى السينغال يمنح حق المواطن الفرنسي فى المستعمرات من حيث المستوى الاجتماعى والوظائف ومن أمثلة ذلك سانجور (سلن جورج) رئيس جمهورية السينغال فهو مسيحى لكن أبويه وأخوته مسلمون.

فحالة إخواننا مسلمى السينغال كحالة إخوانكم فى الفيليبين بحيث توجد فى المديريات والمدن التى يقطنها المسلمون جميع الوسائل التبشيرية وبكل أنواعها لافساد عقائد المسلمين من مستشفيات منها مستشفى الولادة ومدارس .. وجمعية البر

والأحسان ، ولم يكتفوا بذلك فإنهم كونوا جماعة من الشباب والفتيات يقومون بمهمة توزيع الكتب الإنجيلية المطبوعة باللغة المحلية إلى بيوت المسلمين .

والجدير بالذكر أن هؤلاء المبشرين يسكنون فى قلب المدينة أو البلدية فيؤجرون بيتا من بيوت أعيان المدن أو البلديات بأعلى ثمن وعلى سبيل المثال أن الدكتور مقامس المبشر الكاثوليكى قد أجّر بيت السيد عمدة بلدة تامفران فى لاناو الجنوبى بأجرة ضعف أضعاف الأجرة المعترفة فى هذه البلدة ، وكذلك أجّر المبشر الكاثوليكى بيت السلطان فى بلدة توغاياء فطمع أعيان هذه البلدان وحبهم من التكاثر أفسد أطفال مواطنيهم من المسلمين بحيث إن هؤلاء المبشرين يجمعون أبناء المسلمين فى بيتهم فيعلمونهم بأناشيد اليسوعية المسيحية والعقائد المسيحية ويوزعون بعدها المكافأة والهدية لهؤلاء الأطفال ومن أثر هذه السموم أن ابنا لأحد أئمة المساجد فى صولو تبناه أحد المبشرين ورباه إلى أن أرسله إلى أوربا ثم عاد إلى صولو قسيسا من قساوسة الكنائس بعد أن احتفلوا له احتفالا عظيما وأعلنوا أنه نال الشرف بالميدالية الذهبية لهذا الصدد .

آثار الغزو الفكرى والثقافى

ولقد ترك الغزو الفكرى آثارا عصبية فى المجتمع الإسلامى فى كافة نواحيه الثقافية والتعليمية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية .

وبذل المستشرقون والمبشرون بكل مافى وسعهم وطاقتهم سائرين على الوسائل والطرق التى تحقق بها أهدافهم ، فحاولوا استغلال حركات الإصلاح الإسلامية ، ويقول (كامغماير) المستشرق الألمانى : إن الأب بانيرث المبشر الألمانى : يرى أن حركة الإصلاح الإسلامى على النحو الذى يسير فيه الآن يجب أن تقابل من المسيحية الغربية بالتشجيع ويتساءل هذا المستشرق : هل يستطيع الإسلام أن يستعيد وحدته الداخلية فى ظل التجزئة السياسية القائمة وتحت تأثير الآراء العصرية والعلوم الغربية ؟

وهل سيكون الإسلام عند ذلك عدوا للغرب أم صديقا وحليفا أم أن الإسلام فى سبيله إلى التفتت إلى وحدات قومية تعكس كل منها التأثيرات الأوربية على طريقتها الخاصة وبأسلوبها المستقل ؟

ويبرز الكاتب فى إجابته على هذه الأسئلة ثلاث نقط :

١ - أهمية الكتلة العربية وخطورتها فى نظره .

٢ - أهم العوامل التى تستمد منها هذه وحدتها هى الاشتراكية فى اللغة العربية الفصحى واشتراكها فى العناية بالتراث الإسلامى القديم وتاريخه وآدابه .

٣ - يتمنى أن يحدث فى مصر ماحدث فى تركيا من قطع كل صلة بالماضى الإسلامى ، واستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية .

التعليم فى البلاد الإسلامية على الأسلوب الغربى

وأخيرا يهتم الغربيون بأن يجرى التعليم فى البلاد الإسلامية على الأسلوب الغربى والمبادئ الغربية والتفكير الغربى كوسيلة لفرنجة البلاد الإسلامية وتغريبها يقول (جب) : هذا هو السبيل الوحيد فقد رأينا المراحل التى مّر بها طبع التعليم بالطابع الغربى فى العالم الإسلامى ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين .

الصحافة واتجاهها اللادينى

ويقول جيب أيضا : إن المدارس والمعاهد لاتكفى فليست إلا الخطوة الأولى .. ويجب صرف الأهتمام إلى خلق رأى عام بالاعتماد على الصحافة ، فهى أقوى الأدوات الأورقية وأعظمها نفوذا فى العالم الإسلامى ، ومديرو الصحف اليومية معظمهم من التقدميين وصحفهم واقعة تحت تأثير الآراء والأساليب الغربية والصحافة التركية بطبيعة الحال وطنية لادينية . أما الصحافة المصرية فتتطور فى بطء وتعرض طائفة

منوعة من الآراء الجديدة وهى على كل حال لادينية فى اتجاهها ، وأما الصحافة في البلاد العربية الأخرى في غرب أسيا فهى أكثر تمسكا بالجامعة العربية ، وأما الصحافة فى الهند فلا يزال سلطان الدين عليها قويا .

كما يلاحظ (جب) أن التعليم عن طريق المدارس العصرية والصحافة قد ترك فى المسلمين من غير وعى منهم ـ أثرا جعلهم يبدون فى مظهرهم العام لا دينيين إلى حد بعيد ، وذلك هو اللب الشر فى كل ماتركت محاولات الغرب لحمل العالم الإسلامى على حضارته من آثار .

فالواقع أن الإسلام كعقيدة لم يفقد إلا قليلا من قوته وسلطانه ولكن الإسلام كقوة مسيطرة على الحياة الاجتماعية فقد مكانته ، فهناك مؤثرات أخرى تعمل جائبة وهى فى كثير من الأحيان تتعارض مع تقاليده وتعاليمه تعارضا صريحا ـ ولكنها تشق طريقا إلى المجتمع الإسلامى فى قوة وعزم ـ فإلى عهد قريب لم يكن للمسلم اتجاه سياسى ، ولاأدب إلا الأدب الدينى ولا أعياد إلا الأعياد الدينية ، ولم يكن ينظر إلى العالم الخارجى إلا بالمنظار الدينى وكان الدين هو كل شئ بالقياس إليه .

أما الآن فقد أخذ يمد بصره إلى ماوراء عالمه المحدود .. وصار يقرأ مقالات فى مواضيع مختلفة الألوان لاصلة لها بالدين ، بل أن وجهة نظر الدين فيها لاتناقش على الاطلاق وأصبح الرجل من عامة المسلمين يرى أن الشريعة الإسلامية لم تعد ـ هى الفيصل فيما يعرض له من مشاكل . ولكنه مرتبط فى المجتمع الذى يحيا فيه بقوانين مدنية قد لايعرف أصولها ومصدرها ، ولكنه يعرف على كل حال أنها ليست مأخوذة من القرآن .

وبذلك لم تعد التعاليم المدنية القديمة صالحة لإمداده الأساسية ، بينما أصبحت مصالحه المدنية وحاجاته الدنيوية هى أكثر مايسترعى انتباهه ، وبذلك فقد الإسلام سيطرته على حياة المسلمين الاجتماعية ، وأخذت دائرة نفوذه تضيق شيئا فشيئا حتى انحصرت فى طقوس محدودة ، وقد تم معظم هذا التطور تدريجيا عن غير وعى وانتباه .

وكان الذين ادركوا هذا التطور قلة ضئيلة من المثقفين ، وكان الذين مضوا فيه عن وعى وتابعوا طريقهم فيه عن إقناع قلة أقل ـ وقد مضى هذا التطور إلى مدى بعيد ـ ولم يعد من الممكن الرجوع فيه وقد يبدو الآن من المستحيل مع تزايد الحاجة إلى التعليم ومع تزايد الاقتباس من الغرب ، أن يعيد هذا التيار ، أو يعاد للإسلام مكانته الأولى من السيطرة التامة التى لاتناقش على الحياة السياسية الاجتماعية .

ضيق المستشرقين بوجود المعاهد الدينية

وينتحى (جب إلى القول أن العالم الإسلامى سيصبح خلال فترة قصيرة لا دينيا فى كل مظاهر حياته ، ولكنه يضيق بوجود المعاهد الإسلامية حيث يقول ومع أن الوحدة الإسلامية قد انتهت من الناحية القانونية الرسمية ، ومع أن الثقافات القومية قد أخذت مكانها فى المدارس ومع أن الفوارق الاجتماعية قد أصبحت أكثر وضوحا . ومع أن الثقافة الدينية التقليدية قد أصبحت محصورة فى عدد قليل محدود ومع ذلك كله فالمعاهد الدينية نفسها لاتزال قائمة ، ولايزال حافظو القرآن ودارسوه كما كانوا لم ينقص عددهم ولم يضعف سحر آيات القرآن وتأثيرها على تفكير المسلمين وربما كان تقديس شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ومايثير ذكره من حماس فى سائر المسلمين على اختلاف طبقاتهم من أهم ملامح النهضة الإسلامية الحديثة إن الحركات الإسلامية تتطور عادة بسرعة مذهلة تدعو إلى الدهشة فهى تنفجر انفجارا مفاجئا ، قبل أن يتبين المراقبون من أماراتها مايدعوهم إلى الاسترابة فى أمرها ، فالحركات الإسلامية لاينقصها إلا وجود الزعامة ولاينقصها إلا ظهور صلاح الدين .

هذه جملة من الآراء المستخلصة من خلال الكتاب لاتحتاج إلى ذكاء أو دهاء ولكى ندرك أن الإسلام هو العدو الألد للغربيين وأن شغلهم الشاغل الذى تحاك .. الخطط وتدبر المكايد للحصر وللتطبيق عليه وطرده من الحياة كلها ، وليس هذا الكتاب من عشرات الكتب التى تذهب مذهبه فى التفكير وتتفق معه فى الخطوط الأساسية ولاتختلف إلا فى التفاصيل .

اليهودية العالمية

لايخفى أمر اليهود وعدوانهم للإسلام ففى نصوص القرآن والسنة النبوية والسيرة بيان عن كيدهم للدعوة الإسلامية ، كما يسعى اليهود إلى السيطرة على العالم وتسخيره لخدمة الشعب المختار ، ولتحقيق هذا الهدف أنشأوا الجمعيات والمنظمات التى تخطط لذلك ، وقد كشفت استخبارات الحكومة الإيطالية فى عهد موسولينى سنة ١٩٢٧ م

٣٦ ست وثلاثين ألف جمعية للماسونية ينتسب إليها أربعة ملايين ونصف مليون شخص ، منهم ثلاثة ملايين فى أمريكا ، وقد اكتشفت من عهد قريب أنه قد انتسب إلى الماسونية أغلب السياسيين من المسلمين ذو المناصب المرموقة فى حكومة الفيلبين، وأن المحامين وغيرهم من الطبقة المثقفة منتسبون أكثرهم إلى نادى الروتارى وغيرهما من الأندية والمنظمات التابعة للماسونية ، ولقد قامت بينى وبين بعضهم مناظرة عنيفة فى موضع جمعية الماسونية ، ويدعى هؤلاء بأنها جمعية أساسها الحرية والمساواة والإخاء ، فلا يعرفون أن مقصود اليهود فى هذ الكلمات الثلاث ماهو إلا الفوضى والهدم والنزاع بين الجماعات .

حكومة اليهودية

ولليهودية حكومة مستورة يديرها ٣٠٠ ثلاثمائة من شياطينهم يلقبون أنفسهم بحكماء صهيون ينتخبون شخصا يعدونه وارثا لملك داود وسليمان ولايعلنون اسمه

ولقد شبه اليهود حكومتهم المستورة بالأفعى التى بدأ زحف رأسها المميت من فلسطين بعد خراب الهيكل سنة ٧٠ م لتخريب العالم وذنبها باق فى فلسطين ولايعود الرأس للالتقاء بالذنب إلا بعد تدمير العالم والتربع على أنقاضه تحت حكم ملك يهودى يحكم العالم من القدس .

ويتوصل اليهود لتحقيق حلمهم بإفساد الدين والأخلاق بين شعوب العالم .

محاربة الماسونية للأديان

فإن هدف الماسونية هو القضاء على الأديان بإستثناء اليهودية التى تعمل على تثبيت دعائمها وتمجيدها ونشر سيطرتها على العالم : وقد جاء في السجلات الماسونية الصادرة عام ١٩٠٤ م (لقد تيقن اليهود أن خير وسيلة لهدم الأديان هى الماسونية وأن تاريخ الماسونية يشابه تاريخ اليهود فى الاعتقاد ويربط كيانها بخمسة آلاف سنة منذ بدء الخليقة ، وأن شعارها نجمة داود المسدسة ، ويعتبر اليهود والماسون معا الابناء الروحيين لبناء هيكل سليمان ، وأن الماسونية التى تزيف الاديان الأخرى تفتح الباب على مصراعيه لإعلاء اليهودية وانتصارها .

محاربتها للأخلاق

يضحى الماسونيون بالأخلاق والشرف والعرض لتحقيق أغراضهم (فالغاية تبرر الواساطة) عندهم ، وقد نشرت مجلة القوات المسلحة المصرية فى مايو سنة ١٩٦٤ م عن حفلة تكريمية للعضو الجديد مايلى : ثم تعصب عيناه .. ويوضع حبل المشنقة فى رقبته ويصحبه عضوان شديدان إلى الغرفة السوداء .. وينام فى التابوت الخالى ساعة أو ساعتين ، وكان يرتكب العمل المنكر مع العضو الجديد فى هذه الغرفة وبالقوة كان هذا العمل بمثابة إعدام رجولته حتى يخضع خضوعا ذليلا لكل رغبات الجمعية .

ويقول (دور فويل) : أحد شيوخ الماسون : ليس الزنا بإثم فى شريعة الطبيعة ولو بقى البشر على سذاجة طبيعتهم لكانت النساء كلهن مشتركات بينهم ، ويقول (راغون) (العفة المطلقة مرذولة عن الماسونيين والماسونيات لأنها ضد ميل الطبيعة ومن ثم يبطل كونها فضيلة .)

وقد صرحت السيدة (جانت) زوجة جوناس من أحدالبرازيليين وهو الذى ساعد على نشر تاريخ الماسونية (تبديد الظلام) صرحت بما للماسونية من أثر مدمر على حياة المرأة

وأخلاقها وتربية أبنائها فوجهت صرخة إلى نساء العالم « لقد أصيبت المرأة من الماسونية وهى غير عالمة بخسارة جسيمة لاتعوض) ..

والماسونية وسيلة لنشر المبادئ الهدامة : فقد استغلتها اليهودية ونشرت بواسطتها جميع النظريات والأفكار الفاسدة الخطرة على الدين والأخلاق فقد جاء فى بيان المشرق الأعظم الفرنسى سنة ١٩٠٤ م « أن الماركسية واللاقومية هما وليدنا » ويكفى أن نعلم (سارتر) مؤسس الوجودية ماسونى يهودى وهو يدعو للإباحية والفجور ويجعل الانتحار فرضا على من يستطيع إثبات وجود نفسه .

وقد ذكرنا فيما سبق أن الصهيونية اليهودية من ألد أعداء الإسلام وعلى هذا ينبغى بل يجب أن نتتبع حركاتها لنكون على بصيرة فى أعمال العدو .

الصهيونية

الصهيونية نسبة لجبل صهيون جنوب بيت المقدس المذكور فى التوراة ، والصهيونية هى الحركة اليهودية التى تسعى بكل الوسائل إلى إعادة ملك بنى إسرائيل، وبناء هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى.. ومن ثم السيطرة على العالم وحكمه من القدس على يد ملك اليهود الذي هو المسيح المنتظر.. على شرط أن يكون ملكا من نسل داود.

والصهيونية حركة قديمة مرت بأدوار عدة أهمها :

١ - حركة منشة بنى إسرائيل في القرن السابع عشر الميلادى : وكان يدعو لإعادة توطين اليهود في بريطانيا توطئة لإعادتهم إلى فلسطين ، وتعتبر هذه الحركة النواة الاولى للصهيونية الحديثة التى وجدت لها ارضا خصبة في بريطانيا ، واستطاعت في مدى ثلاثة قرون أن تسخر جميع قوى الانجليز ، لتحقيق اهداف اليهود .

٢ ـ نشاط اليهود فى عهد نابليون بعد الثورة الفرنسية التى كانت الماسونية من ورائها ففى عام ١٧٩٨ م وجه أحد شياطين اليهود إلى قومه خطابا خطيرا يعتبر ماورد فيه دستورا يهوديا سبق مقررات حكماء يهود وقد استثار فى خطابه حمية اليهود ودعاهم للتخلص من أثقال الجور والاضطهاد والذل ومما جاء فى هذا الخطاب. «هيا بنا أيها الاخوان لتجديد هيكل أورشليم إن عددنا يبلغ ستة ملايين منتشرين فى جميع أقطاب العالم، وفى حوزتنا ثروات طائلة واسعة وممتلكات عظيمة شاسعة فيجب أن نتذرع بكل مالدينا من الوسائل لاستعادة بلادنا أنه يجب العمل وإقامة مجلس ينتخبه اليهود المقيمون في بلدان أوربا واسيا وأفريقيا واللجنة الممثلة لليهود والمقيمين فى هذه البلدان يمكنها أن تبحث فى كلمتها وتتخذ ماتراه من القرارات وعلى اليهود أن يقبلوا هذه القرارات ويجعلوها قانونا يخضعون له.»

ثم يحدد المواطن القومى اليهودى بأقليم الوجه البحرى من مصر مع جزء من فلسطين يمتد من عكا إلى البحر الميت ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر قائلا : فهذا المركز يجعلنا قابضين على ناحية تجارة الهند وبلاد العرب وإفريقيا الشمالية والجنوب ولاشك أن بلاد أثيوبيا لاتتأخر عن إقامة علاقاتها التجارية معنا بملئ الرضا والارتياح ثم إن مجاورة حلب ودمشق لنا تسهل تجارتنا ، وموقع بلادنا على البحر المتوسط يمكننا من الاتصال بسهولة مع فرنسا وإيطاليا واسبانيا وغيرها من بلاد أوروبا .

أما الاتفاقات والترتيبات الأخرى الخاصة باقتراحاتنا على الباب العالى (الدولة العثمانية) فلا يجوز نشرها ، ويختتم خطابه بقوله : فيا أيها الاسرائليون لقد قربت الساعة التى ينتهى فيها أجل حالتنا التعسة وإن الفرصة الآن سانحة ، فحاذروا أن تفلت من أيديكم . (يقظة العالم اليهودى لايلى يفى أبو عسل من ١٠١ ومن العجب أن هذا الكتاب طبع فى مصر سنة ١٩٢٤ م) ؟

٣ ـ حركة رجال المال اليهود لشراء أراضى فى فلسطين وبناء المستعمرات فى القرن التاسع عشر بمساعدة أقطاب اليهود الإنجليز مثل درزئيلي الذى تنصر ووصل إلى رئاسة الوزارة البريطانية ،

٤ ـ الحركة الصهيونية الكبرى التى قادها تيودور هرتزل ـ وهو صحفى نمساوى وقد وضع كتابا بين فيه أهداف اليهود التى تتلخص فى تجميع اليهود وتوطنيهم فى دولة يهودية خالصة ومساعدة حركة كبار كتاب اليهود مثل (مـاكس نورو) وإسرائيل زانجويل وغيرهما وهرتزل هو أبو الصهيونية الحديثة .

وقد استغل هرتزل سماحة الإسلام وفكر فى استدرار عطف السلطان عبد الحميد فقابله سنة ١٩٠١ م و ١٩٠٢ م وحاول إقناعه وعرض عليه خمسة ملايين ليرة ذهبية عثمانية هدية للخزينة السلطانية الخاصة وعشرين مليونا تعرضها الجمعية اليهودية إلى الحكومة العثمانية دون فائدة لمدة تعينها الحكومة .. وقد وقف السلطان فى وجه الأطماع الصهيونية ورفض الوعد باستيطان اليهود فى فلسطين ثم نشأت فكرة منح اليهود وطنا فى سيناء أو فى أوغندا ، ولكن المؤتمر اليهودى السادس سنة ١٩٠٣ م رفض المشروع وأصر على فلسطين .. ومات هرتزل قبل جلسات المؤتمر السنوية التى تعقد كل عام وتضم كبار شياطين اليهود الذين يطلق عليهم لقب (حكماء) وفى المؤتمر الأول سنة ١٨٩٧ م المنعقد فى بال بسويسرا اتخذت قرارات علنية وسرية .

أما العلنية فخلاصتها : تأسيس دولة لليهود فى فلسطين وتنمية موارد اليهود العالمية وإنعاش الثقافة العبرية والمشاعر الوطنية بين جميع اليهود وقدمت الأسر اليهودية الغنية مثل أسرة روتشيلد المال اللازم .

وأما القرارات السرية فهى التي سميت :

بروتوكولات حكماء صهيون :

ومعنى (بروتوكولات) قرارات أو محاضر جلسات ويغلب على الظن أنها القرارات السرية لمؤتمر اليهود فى بال بسويسرا عام ١٨٩٧ م وقد كانت مودعة فى مخابىء سرية ولايعرف محتوياتها إلا الخاصة من اليهود الذين يعملون على تنفيذ ماجاء فيها بهدوء وحسب تخطيط منظم ، ثم حدث اجتماع بين امرأة مسيحية فرنسية وبين زعيم صهيونى كبير فى وكر الماسونية فى باريس ، ورأت هذه المرأة بطريق الصدفة هذه القرارات ،

فعرفت من محتوياتها وأخذت بعضها وفرت بها وكان هذا فى عام ١٩٠١ م ، ثم ظهرت هذه الوثائق فى روسيا فقد نشرها (سرجين نيلوس) عام ١٩٠٢ م باللغة الروسية وعقب اكتشاف سرقة هذه الوثائق أعلن (تيودور هرتزل) أنه قد سرقت من قدس الأقداس ، بعض الوثائق السرية التي قصد إخفائها على غير أصحابها ، وقد أعاد نيلوس نشر الكتاب مع مقدمة وتعقيب بقلمه عام ١٩٠٥ م ونفذت هذه الطبعة بسرعة غريبة بوسائل خفية ، لأن اليهود جمعوا نسخها من الأسواق بكل الوسائل وأحرقوها ، ثم طبعت سنة ١٩١١ م فنفذت على هذا النحو ، ولما طبعت سنة ١٩١٧ م صادرها الشيوعيون ..

وكان معظمهم من اليهود الصرحاء أو المستورين أو من صنائعهم ثم اختفت البرتوكولات من روسيا حتى الآن (خليفة التونسي) (الخطر اليهودي بروتوكولات) .

ونشرت بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية وغيرها من اللغات ، وكانت تنفذ نسخها في كل طبعة بطرق مريبة ، ثم أحجمت دور النشر بعد ذلك عن إعادة طبعها بسبب نفوذ اليهود .

وقد ظهرت أول ترجمة عربية ١٩٥١ م وهذه مقتطفات منها :

١ ـ إن جواز المرور لدينا هو القوة والكذب والادعاء .. وإن حقنا فى قوتنا .
٢ ـ لاعيب ولا عار فى أن تكون جاسوسا ، أو دساسا بل هذه فضيلة .
٣ ـ يجب أن يكون واضحا لنا نحن اليهود مدى ذلك الانحلال والتفكك الخطير الذى تنشره الشيوعية فى أذهان الجوييم (أى الشعوب الكافرة غير اليهودية)
٤ ـ إن الحاجة اليومية إلى الخبز تضطر الجوييم إلى السكون والرضوخ والرضا ـ وإلى أن يكونوا خدما لنا أذلاء مستسلمين .
٥ ـ الصحافة كلها وجميع وسائل الإعلام واقعة تحت سيطرتنا ، والأدب والصحافة قوتان فى طليعة القوى التوجيهية الهامة ، ولذلك يجب أن تصبح حكومتنا مالكة للجزء الأعظم من الصحف .
٦ ـ إن حرية الصحافة وحرية الاجتماع وحرية العقيدة ، وقاعدة الحكم وغيرها يجب أن تمحى إلى الأبد وتنسى من ذاكرة الإنسان .

٧ - إن قوتنا إنما هى فى سوء التغذية المزمن لأجسام الجوييم ومن ضعفهم البدنى الدائم .
٨ - إننا نملك بين أيدينا أعظم قوة فى هذا العصر وهى الذهب .
٩ - لقد ذكر الأنبياء أن الله اختارنا بنفسه لنحكم العالم كله ، ولهذا أمدنا بنوع من النبوغ يتفق مع مهمتنا .
١٠ - أمامنا الآن بضع سنوات لتحل اللحظة التى يتم فيها تحطيم الديانة المسيحية تحطيما كاملا .
١١- علينا أن ننتزع فكرة (الله) ذاتها من عقول المسيحيين .
١٢- يجب ألا نتردد فى أعمال الرشوة والخديعة والخيانة إذا كانت تخدم اغراضنا
١٣- إن المحفل الماسونى المنتشر فى كل أنحاء العالم يعمل فى غفلة كقناع لاغراضنا والمسيحيون فى خستهم الفاحشة يساعدوننا .
١٤- يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان وعندما نصل إلى مملكتنا يصبح من غير المريب فيه لدينا وجود عقيدة غير عقيدتنا فيتعين علينا أن نكتسح جميع العقائد والأديان الأخرى وإذا كان هذا يؤدى إلى وجود ملحدين ينكرون وجود الخالق فإن هذا مما لايتعارض مع وجهة نظرنا ويعتبر فى ذاته مرحلة تطور وانتقال .
١٥- سيصبح ملك اليهود هو البابا الحقيقى للعالم كله .
١٦ - إننا قد أصبحنا قيد خطوات ولم يبق أمامنا إلا شوط قصير نقطعه ، وحينئذ نصبح بعد هذا الطريق الطويل الذى عبرناه على استعداد لانطباق طرفى الحية الرمزية التى شبهنا بها شعبنا وعند إغلاق هذه الحلقة تكون أوروبا قد وقعت فى قبضة قوية .

ومن هذا يظهر أن الصهيونية هى اليهودية القائمة على الإرهاب والإجرام والحقد والوحشية وتدمير الأخلاق ونشر الإباحية والتجسس .. معتبرة الكذب والغدر والافتراء من الفضائل ..

وقد اعترف إيلى ليفى أبو عسل فى كتابه (يقظة العالم اليهودى) أن تاريخ الصهيونية يتناول أربعة عهود :

١ - عهد التوراة

٢ ـ والعهد السابق لهرتزل

٣ ـ عهد هرتزل

٤ ـ والعهد الحالى ـ الذى ابتدأ من سنة ١٩١٨ م بعد تصريح بيلفور ، ويقول أيضا ، وقد أثبت لنا الواقع أن الصهيونية ليست فى عهدنا هذا سوى حلقة من سلسلة متصلة حلقاتها بعضها ببعض .

الإسلام فى نظر الغربيين

وقد عمد الغربيون إلى تطبيق مفهوم الدين عندهم على الإسلام وقصره على التوجيه الروحى للأفراد ، ولما رأوا أن الإسلام نظام شامل للحياة الفردية والاجتماعية قالوا بنفى صفة الدين عنه لأن الدين عندهم قاصر على الأمور الشخصية والفردية ولايتدخل فى الأمور الاجتماعية ، وزعموا أن الإسلام ليس دينا بل هو حركة إصلاح بشرى جاء به مصلح فى زمنه .

وهو القول الذى لايزال يردده أجراؤهم من الملاحدة فى كثير من البلاد العربية والإسلامية، ومن الغريب أنهم يحكمون على الاسلام بذلك، ولا يطبقون هذا على اليهودية التي تقيم دولة ونظاما اجتماعيا على أساس الدين طبقا لتعاليم التوراة والتلمود.

حركة السيد أحمد خان

وقد ظهر فى عليكرة بالهند سنة ١٨٧٥ م السيد أحمد خان مؤسس (الكلية الانجليزية الشرقية المحمدية) التى تحولت إلى الجامعة الإسلامية وكان متأثرا بالثقافة الإنجليزية ولهذا زعم أن الجهاد فريضة مؤقتة بوقت الرسالة ، وأنه بعد قيام الجماعة المسلمة واستقرارها بعد فتح مكة فقد انتهى العمل بالجهاد .

ومثل ذلك مافعلته القديانية عندما فسرت الجهاد بأنه (رياضة نفسية روحية) وأما على عبد الرازق فقد صرح بأن الإسلام دين لادولة وذلك فى كتابه (الإسلام وأصول الحكم) الذى ظهر سنة ١٣٤٣ هـ .

العلمانية فى تركيا

عندما انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨ م عملت الدولة الأوربية متعاونة مع اليهودية العالمية على إلغاء الخلافة الإسلامية ، وقد تم ذلك بعد سنوات قليلة على يد

مصطفى كمال الذى لقب فيما بعد بلقب أتا تورك وقد وضح أن الماسونية كانت بعيدة النظر عندما اختارته منذ حداثته ودربته كما دربت أفراد جمعية (الاتحاد والترقى) وأكثرهم من الدونمة الذين ينتمون إلى يهود سلانيك .

فعندما عقدت مؤتمرات الصلح بعد هزيمة الدولة العثمانية فرضت عليها معاهدة (سيفر) التى قضت على دولة الخلافة بالتخلى عن البقية الباقية من بلاد المسلمين للدول الغربية ، وفى نفس الوقت هاجم اليونان تركيا واحتلوا أزمير وتوغلوا فى البلاد التركية . وكان الخليفة (وحيد الدين) مغلوباً على أمره فى القسطنطينية ، هناك ظهر الضابط مصطفى كمال وجمع فلول الجيوش التركية وتظاهر بالغيرة الإسلامية ودافع عن البلاد وحقق نصرا عظيما على اليونان ، وقد شجعته الدول الغربية ومن ورائها الماسونية واليهودية العالمية .

إلغاء الخلافة

وفى الوقت الذى كان العالم الإسلامى ينظر فيه بإعجاب إلى بطولة مصطفى كمال ورجاله ولقبه بـ (الغازى) فوجئ المسلمون بقوانينه العلمانية بعد إعلان الجمهورية واتخاذه (انقرة) عاصمة وقد بدأ بفصل الدين عن الدولة ثم أعلن إلغاء الخلافة وبذلك كشف القناع وأسفر عن حقيقة نواياه وحارب الإسلام ولغة القرآن وكل ما يمت إلى التاريخ الإسلامى بسبب واستبدل بالحروف العربية الحروف اللاتنية .

وكان لإلغاء الخلافة صدى حزين أليم فى العالم الإسلامى وقد عقد مؤتمرات لبحثه ولايزال المسلمون يشعرون بالفراغ الخطير لهذا المركز الذى كانوا يجتمعون حوله فيأتمون بإمام المسلمين وخليفتهم .

وقد صدرت عقب إلغاء الخلافة الكتب التالية :

١ ـ الخلافة وسلطة الأمة لمؤلف مجهول وهو دفاع عن الكماليين ، ترجمه من التركية إلى العربية عبد الغنى سنى .
٢ ـ الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرزاق
٣ ـ الخلافة والإمامة العظمى لرشيد رضا
٤ ـ النكير على منكر النعمة من الدين والخلافة والأمة لمصطفى صبرى

فمن البوادر الطيبة صدور الموافقة السامية من جلالة الملك الراحل المغفور له جلالة الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود طيب الله ثراه حيث أمر المملكة ببذل كل مجهوداتها الجبارة لمقاومة هذه الغزوات الفكرية والتيارات المعادية للإسلام وبالموافقة على تكوين التضامن للعالم الإسلامى الذى يمثل عنه مايلى ..

١ ـ تأسيس رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة سنة ١٣٨١ التى تهتم كثيرا بمقاومة جميع الحركات والتيارات المعادية للإسلام وبمساندة كل عمل الخير الإسلامي والإنساني فى العالم .
٢ ـ تأسيس منظمة المؤتمر الإسلامى لوزراء الخارجية فى العالم الإسلامى فى مدينة جدة سنة ١٣٨٩ التى تعتبرملجأكل الجماعات والأقليات والدول المسلمة فى العالم .
٣ ـ انعقاد المؤتمر العالمى الأول للمنظمات العالمية الإسلامية بدعوة من رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة سنة ١٣٩٣ هـ
٤ ـ انعقاد المؤتمر العالمى الأول لرسالة المسجد بدعوة من رابطة العالم الإسلامى سنة ١٣٩٥ هـ بمكة المكرمة .
٥ ـ انعقاد المؤتمر العالمى الأول للاقتصاد الإسلامى بدعوة من جامعة الملك عبد العزيز سنة ١٣٩٦ هـ بمكة المكرمة

وهذه المؤسسات والمؤتمرات قد أدت دورا عظيما لمقاومة الغزوات الفكرية والتيارات المعادية للإسلام ولنا أمل كبير فى أن يحقق الله العناية والرعاية الطيبة على الأقليات الإسلامية فى العالم عامة وعلى الأقليات الإسلامية بالفلبين خاصة التى تحيط بها أعداء الإسلام من كل جانب فإنها تعتبر المركز الأول للدعوة المسيحية بعد الفاتيكان بالنسبة للشرق الأقصى والمركز الثانى للدعوة المسيحية بعد الفاتيكان بالنسبة للعالم المسيحى والأقليات الإسلامية فيها بحاجة ماسة إلى الدعم المادى والمعنوى والى تكوين مؤسسات علمية قوية تواجه الجهود التبشيرية المسيحية التى يساندها المركز المذكور ويموله الفاتيكان والمجلس الكنسى العالمى والمؤسسات المسيحية فى أوربا وأمريكا .

وختام البحث يسرنا أن نوجه شكرنا الجزيل وتقديرنا العميق على ماقام به علماء المملكة العربية السعودية من الخدمات الطيبة للإسلام والمسلمين فى العالم حيث بذلوا كل مجهوداتهم بتأسيس المؤسسات الإسلامية وإنشاء المؤتمرات العالمية والجامعات والمعاهد داخل المملكة وخارجها بتوجيهات وإرشادات صاحب الجلالة الملك خالد بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية وحامى الحرمين الشريفين ورائد التضامن للعالم الإسلامى وبتأييد أصحاب السمو الأمراء ومعالى الوزراء وجميع العاملين المخلصين فى المملكة حفظهم الله وجعلهم هداة مهتدين ورفع الله بهم شأن الإسلام والمسلمين فى كل مكان وزمان .

كتب المراجع للبحث

١ ـ دراسات فى المجتمع العربـــى — لفئة من الأساتذة الجامعيين

٢ ـ الغارة على العالم الإسلامـــى — لمحب الدين الخطيب ومساعد اليافى

٣ ـ مقارنة الأديـــان — للدكتور شلبـــى

٤ ـ تبديد الظـــلام — لعوض الخـــورى

٥ ـ خطر اليهود العالميـــة — لعبدالله التـــل

٦ ـ المجتمع الإسلامى والمذاهب الهدامة
للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الغزو الفكري
والتيارات المعادية للإسلام

القسم السادس

إعداد

الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

أستاذ مساعد بكلية الشريعة - جامعة الملك عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام

كلنا يعلم أن أعداء الإسلام والمسلمين ، حينما عجزوا عن تحقيق غاياتهم الرامية إلى هدم الإسلام فى نفوس الأمة الإسلامية ، وهدم وحدة هذه الأمة ، عن طريق الحروب المادية المسلحة بأدوات القوى القتالية ، لجأوا إلى خطة هى أكثر مكرا ودهاء ، وأقوى تأثيرا ، وأنفذ الى أعماق النفوس والقلوب ، هى ماأسميناه خلال الثلث الماضى من هذا القرن بالغزو الفكرى ، وذلك بعد أن أدرك المفكرون من المسلمين خطورة هذا الغزو ، ولمسوا كثيرا من آثاره .

إن الغزو الفكرى الذى يقوم به الأعداء فى وسائلهم المسلحة بالفكرة ، والحيلة ، والتعليم ، والتقدم المادى التكنولوجى ، والإغراءات النفسية ، وتطبيقات السلوك غير الإسلامى ، وشراء ضمائر فئات شتى لها سلطان أو توجيه أو أى تأثير ما من فئات الأمة الإسلامية ، إن الغزو الفكرى هذا معناه ومضمونه وغايته التضليل الفكرى للمسلمين ، ببث المفاهيم الفاسدة عن الدين والحياة والوجود ، وعن الاجتماع والأخلاق والسلوك ، وعن شروط التقدم الحضارى ووسائله ، وعن النفس والوجدان والضمير ، وعن الغاية من هذه الحياة ، ووسائل اغتنام السعادة فيها ، إلى غير ذلك مما يمكن أن يهدم شخصية الفرد المسلم والأمة الإسلامية .

واعترافا بالواقع نقول : إن كتائب بل جيوش الغزاة من أعداء الإسلام ، والمسلمين الذين يمثلون أحفاد أعداء القرون القديمة واللقطاء الذين التقطوهم من داخل الشعوب الإسلامية واحتضنوهم ، ثم ردوهم إلى أهليهم ، بعد أن فصموا شخصياتهم ، قد استطاعت أن تدخل بين المسلمين ، فى مختلف حقولهم الاجتماعية والفكرية ، لبث ماتريد بثه من أفكار مضللة لهم ، بالوسوسة والإيحاءات الفكرية التى تسرى سريان الداء ، وبالمخالطة المقرونة بالإغراء ، والمحفوفة بالشهوات المزينة للنفوس ، فمن الشهوة والمتعة المزينة طريق سرى يعبث بالأفكار ويفسدها .

وحين تفسد الفكرة وتتولد القناعة المنحرفة عن سبيل الحق تستثار العاطفة إثارة ملائمة لهذه القناعة ، فتخضع الإرادة ثم توجه السلوك الداخلى والخارجي على وفقها .

وهذا هو غرض جيوش الغزاة من الغزو الفكرى ، أن يكون التحويل والتضليل ذا أثر فى سلوك المسلمين الفردى والجماعى إذ يميل بهم عن المنهج القويم ، ويعدل بهم عن الصراط المستقيم ، ويدفع بهم إلى أودية المهالك والتشتت والضياع .

وذلك لأن معظم أعمال الناس فى حياتهم إنما هى آثار من آثار المفاهيم المسيطرة على قلوبهم وعواطفهم ، فحينما تكون هذه المفاهيم سليمة قويمة يكون السلوك فى غالب أحواله سليما قويما ، إلا فى عاطفة آسرة ، أو شهوة قاسرة ، أو رغبة نفسية جامحة ، أو عادة مستحكمة جانحة . وحينما تكون المفاهيم منحرفة عن منهج الحق فإن السلوك فى غالب أحواله يكون منحرفا عن الصراط المستقيم ، إذ يحلو للإنسان عندئذ أن ينطلق ويتفلت من الضوابط الدينية والخلقية ، والروابط الاجتماعية ، والقيود الحادة من حرية أهوائه وشهواته ، فيشذ وينحرف ، وتقوده الشياطين والطواغيت إلى مواطن هلاكه .

لقد تناول البثّ التضليلي الذي يقوم به الغزاة التحويل عن معظم الأسس التي تتكون منها عناصر الشخصيةّ الإسلامية الفذة ، وعناصر الأمة الإسلامية الكبرى ذات الوحدة العالمية ، التي ليس لها حدود قوميةّ ، ولا عرفية ، ولا لغوية ، ولا إقليمية ، وانّما لها حدود فكرية يدخل الحقّ في إطارها ويخرج الباطل عنه ، ولها حدود خلقية وعملية تضمّ أنواع الخير والفضيلة في داخلها ، وتمنع أنواع الشرّ والرذيلة من أن تقرب منها .

أما التضليلات الفكرية التى تبثها الأجهزة الإلحادية ، والاستعمارية ، والتبشيرية ، والاستشراقية ، فكثيرة جدا ، وربما يملأ الحديث عنها مجموعة من مجلدات البحث العلمى الهادئ ، الخالى من الثورات الانفعالية والجمل الخطابية الجوفاء .

فمن هذه التضليلات مايكون الغرض منه النفوذ إلى أسس العقائد والتشريعات الإسلامية الربانية الحقة ، بغية اقتلاعها من عقول وقلوب ونفوس فريق من أبناء

المسلمين ، وبذلك يتكون منهم فيلق مرتد عن الإسلام ، خارج عن الملة ، معاد للمسلمين ، مهمته تحويل الأجيال الناشئة عن دينها ، وتجنيدها في جيوش الردة .

ومن هذه التضليلات مايكون الغرض منه إيجاد فريق من المسلمين ، يتحلون باسم الإسلام ، ويتعصبون له تعصبا شديدا ، ولكن المفاهيم التى يستمسكون بها على أنها جزء من الإسلام مفاهيم فاسدة مدسوسة ، ليست من الإسلام فى شئ ، فلا يشهد لصحتها نص ولا إجماع ولا قياس صحيح ، وقد تشهد هذه المصادر على عكسها ، ويمثل هذا الفريق قوة الصد عن الإسلام والتنفير منه .

وبالفريقين المرتد عن الإسلام والمخطئ فى فهمه المتعصب لخطئة ، يجتمع على الأجيال الناشئة قوتان ، قوة من خارج الحدود الإسلامية ، تقوم بمهمة بناء المجارى التحويلية عن الإسلام ، وإجراء الأجيال الناشئة فيها ، وقوة أخرى من داخل الحدود الإسلامية بحسب الظاهر ، وهى تقوم بمهمة الصد عن الإسلام والتنفير منه كمهمة الكتل الصخرية التى تقف فى الأنهر عند مواطن التحويل ، لتمنع الينابيع من أن تجرى فى مجاريها الطبيعية ، وبذلك يتسنى لبناة المجارى التحويلية أخذ أكبر قدر منها إلى مجاريها المصطنعة .

ويرافق كلا من التضليلات الأولى والتضليلات الثانية تضليلات تعتمد على عنصر الإغراء المادى ، ومن أمثلة ذلك الأفكار الدعائية التى توهم المسلمين أن التقدم المادى فى شؤون المدنية الحديثة رهن بترك الاستمساك بتعاليم الإسلام ، وأن الإسلام عقبة فى طريق التقدم ، ويتغابى الذين يبثون هذه التضليلات عن الحقيقة الناصعة التى عليها الإسلام الحق ، وهى أن الإسلام يدفع المسلمين بقوة إلى كل تقدم حضارى ومدنى سليم من الآفات الفكرية ، والنفسية ، والخلقية ، والاجتماعية ، ويقدم الذين يبثون التضليلات مزاعم كثيرة خالية من كل سند واقعى ، لدعم الأفكار الدعائية التى يضللون بها ، على أن البحث المتأنى الهادئ كفيل بأن يقدم لطالبى الحق الحقيقة الناصعة عن الإسلام .

أما الحقول الاجتماعية والفكرية التى دخلت كتائب الغزاة فيها لبث تضليلاتهم الفكرية بين المسلمين فكثيرة ، منه الحقول التالية :

١ ـ المدارس والمعاهد والكليات على اختلاف مسئولياتها واختصاصاتها .
٢ ـ الأندية وقاعات المحاضرات وسائر مراكز التوجيه الثقافي الخاصة أو العامة .
٣ ـ الجمعيات العلمية والثقافية والأدبية والفنية والأنشطة الرياضية ونحوها .
٤ ـ الكتب والمجلات والصحف والنشرات الدورية .
٥ ـ وسائل الاعلام المختلفة ، السمعية ، والسمعية البصرية .
٦ ـ الأحزاب والهيئات السياسية والاجتماعية .
٧ ـ المراكز الصحية على اختلاف مستوياتها .
٨ ـ المعامل والمؤسسات التجارية والصناعية والإدارية وغيرها .

وأما التلاعب عن طريق القبض على مواطن الضعف من الإنسان ، وهى أهواؤه وشهواته ، وغرائزه ، ودوافعه النفسية ، فحيله وحبائله كثيرة ، والغزاة يستخدمون أشكالا وألوانا وصورا منها لاتكاد تحصر ، وقد ترجع فى أفرادها إلى الأنواع الرئيسية التالية :

١ ـ الأموال على اختلاف أصنافها ، وتباين طرق تحصيلها .
٢ ـ النساء وزينتهن ومايتصل بشهوات الجنس .
٣ ـ الجاه والسلطان وسائر أشكال الحكم ومراتبه .
٤ ـ المآكل والمشارب ومايتصل بشهوات البطون .
٥ ـ متع السمع والبصر ، ومايتصل بها من زينات .
٦ ـ السياحات والرحلات والنزهات والتنقل فى أرجاء الأرض .
٧ ـ اللهو واللعب والدعة والمضحكات والمسليات.

ومن البدهى أن ميل النفوس إلى هذه الأنواع أمر فطرى لايحتاج إلى تعليم أو إقناع بالحجج والبراهين ، ولايتطلب معاكسة أو مخالفة لهوى أو غريزة على أن درجات ميل

النفوس إلى كل منها متفاوته ، كما أن افراد الناس مختلفون فى نسبة ميول كل فرد منهم إلى كل نوع منها ، أما ضوابط الحق والخير والفضيلة فإنها تحتاج إلى تعليم وإقناع ، وتربية على كبح جماح شهوات النفوس ، ومخالفة أهوائها المرسلة .

ومن أجل ذلك تغدو مهمة المفسدين فى الأرض كمهمة مطلقى الخيول من أعنتها ، أو مطلقى الوحوش الضارية من أقفاصها ، إذ يتركونها ترتع وتفسد فى الحقول المختلفة ، والرياض الغناء حسب أهوائها ، وعلى مقدار شراستها ، أما مهمة المصلحين فإنها كمهمة سائسى الخيول أو مروضى الوحوش الذين يكبحون جماحها ويعقدون الأعنة فى رؤوسها ، ويطوعونها ، ويكسرون حدة شراستها ، فيطعمونها ويسقونها بحكمة على مقدار حاجتها ولا يدعونها تفسد الحقول ، وتتلف الزروع ، وتسطو على ذوات الضروع ، وتكسر الشجر ، وتبدد الثمر .

وهذا ماكان يرهب أعداءهم ، إلى أن اكتشفوا الخطط الشيطانية التى يستطيعون بها العبث بالعناصر الرئيسية التى تم فيها تكوين شخصيتهم الإسلامية الموحدة القوية فى العالم ، فعمدوا إلى قواعد بنيانهم الإسلامى فى محاولات شتى لنقضها قاعدة فقاعدة .

فأرادوا أن يضعوا بدل الوحدة الفكرية عند المسلمين أشتاتا وأخلاطا فكرية متناقضة أو متضادة ، أو متخالفة ، لينجم عن هذه الأشتات والأخلاط المتعارضة الدخيلة أشكال الصراع الفكرى بين الأمة الإسلامية ، كما أرادوا أن يتلاعبوا بمناهج البحث السليمة عند المسلمين ، وهى المناهج التى أرشدهم الإسلام إليها ، وأن يضعوا لهم بدلها مناهج قصيرة النظر ، تقف عند حدود الظواهر المادية فقط ولاتتعداها إلى الحقائق الكامنة وراءها .

وأرادوا أن يضعوا بدل الوحدة الاعتقادية المهيمنة على قلوب المسلمين أشتاتا أخرى ، من أخلاط اعتقادية فاسدة لاأساس لها من الحق ، أو اتجاهات وجودية إلحادية تعمل على تحويل الإنسان إلى مخلوق أنانى متوحش ، يستخدم كل ذكائه لإشباع رغباته الأنانية المتوحشة .

وأرادوا أن يضعوا بدل الوحدة السلوكية النظرية والتطبيقية التى جعلت من المسلمين نسيجا رائعا ممتدا على كل الأرض التى يقطنونها ، قطعا ممزقة بالية ، واهية الخيوط ، تتلاعب بها الرياح الكونية ولو لم تكن عاتية ، وتتقاذفها ذات الغرب مرة وذات الشرق أخرى .

وأرادوا أن يضعوا بدل الوحدة العاطفية المستندة إلى أساس دينى متين راسخ ، والتى كانت تحركهم بقوة هائلة تحريكا واحدا ، أشتاتا عاطفية متباينة متناقضة ، فمنها أنانى شخصى ، ومنها إقليمى ، ومنها قومى ، ومنها مصلحى مادى ، ومنها طائفى ، ومنها طبقى ، إلى آخر مايدخل فى هذه الأشتات العاطفية المختلفة فيما بينها اختلافا كثيرا .

وبالخطط الماكرة الذكية ، وبالأعمال التنفيذية الدائبة ، استطاع الأعداء الغزاة أن يجنوا من ثمرات إفسادهم الاجتماعى للأمة الإسلامية الواحدة ، ماحققوا به قدرا كبيرا من أهدافهم الظالمة الآثمة .

وفرق عظيم بين المهتمين فى العمل وفى الغاية ، فعمل المفسدين هين لين ، ولكن نتائجه فساد كثير ، وشر مستطير ، فى حين أن عمل المصلحين كدح دائم ، ومشقات مستمرة ، لكن نتائجه بناء وتعمير ، وخير وفير ، وجمال وزينة .

الإفساد الاجتماعى :

ويبرز من مظاهر الغزو الفكرى الذى تقوم به جيوش الغزاة الإفساد الاجتماعى ويتضمن هذا الإفساد كل خطة ترمى إلى حل التماسك ، وفك الترابط الجماعى بين أفراد الأمة الواحدة ، حتى لاتكون لهم شخصية موحدة قوية تصد عنها مطامع الغزاة .

ومن أهم العناصر التى تتم بها الشخصية الجماعية الموحدة التقاء أفراد الأمة على الوحدات التالية :

١ ـ الوحدة الفكرية مع وحدة مناهج البحث .
٢ ـ الوحدة الاعتقادية حول النفس والكون والحياة وسر الوجود والغاية من خلق الإنسان ، مع وحدة المصادر الاعتقادية .
٣ ـ الوحدة السلوكية النظرية والتطبيقية .
٤ ـ الوحدة العاطفية نحو الأمور المشتركة بين الأفراد .

ولذلك كانت هذه الوحدات فى المسلمين بمثابة المقاتل التى يسدد الأعداء الغزاة إليها سهامهم المسمومة التى يعملون على تفتيتها ، واحداث التناقض فيما بينها ، لينحل التماسك ، وتنقطع الأربطة الجامعة بين أفراد الأمة الإسلامية ، ومتى انحل التماسك وتقطعت الأربطة الجامعة انفرط عقد الجماعة الواحدة ، وفقدت قوتها الجماعية ، وغدت كمناثر الرمال ، ومتى حدث التناقض والتخالف وتعارض المصالح بين أفرادها ، وتلاعبت بهم الأهواء ، اتجهت القوى الفردية تتصارع فيما بينها تصارعا يضعها في طريق الفناء والزوال ، ويتيح لأعدائها أن يحققوا كلّ مطامعهم ، وهم في منأى عن أن يصيبهم شيء من القرح الذي يحدثه التصارع الداخلي .

وقد سبق أن منح الإسلام الذين آمنوا به صادقين مخلصين والتزموا تعاليمه كل الوحدات المطلوبة لتكوين الأمة الواحدة ، فكانوا بذلك قوة جماعية كاملة ، لاتستطيع قوة جماعية أخرى مساوية لها فى القوة أو تزيد عليها ، بمقدار ضعفها أن تغلبهم فى صراع .

الإفساد الخلقى والسلوكى :

واكتشف الغزاة طريقين للوصول إلى إفساد أخلاق الشعوب ، والهبوط بها من قمة الكمال الإنسانى إلى حضيض النقص والرذيلة .

الطريق الأول : العبث بالمفاهيم والحقائق الخلقية .

الطريق الثاني : الغمس بالمجتمعات ذات الأخلاق الفاسدة المنحرفة .

وقد ظهر العبث بالمفاهيم والحقائق الخلقية فى حشد النظرات الفلسفية الأخلاقية المنحرفة عن الشرائع الربانية المستندة إلى مبادئ الخير والشر ، والنفع والضر ، والمصالح والمفاسد .

ومن نظرياتهم مايعتمد على تمجيد اللذة الفردية ، وإباحة كل مايحققها ، مهما أضر ذلك بجسم الفرد أو عقله ، أو أضر بالجماعة ، أو خالف أوامر الله لعباده .

ومنها النظريات التى تعتمد على تمجيد قوة الجماعة ، التى تمثلها دولة سياسية ، فكل مايفضى إلى دعم هذه القوة أو إنمائها فإنه لاينافى الأخلاق الكريمة لدى هذه النظريات المنحرفة .

ومنها التضليلات التى تدس بين الشعوب المسلمة أن الأخلاق أمور اعتبارية تتواضع عليها الشعوب ، إذ تمليها عليها مصالح أو دوافع نفسية ، أو أحوال خاصة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية أو غيرها ، وليس لها أصول فكرية ثابتة ، ويضربون الأمثلة على ذلك من تقاليد بعض الشعوب البدائية ، أو مما تواضعت عليه بعض الشعوب المنحلة خلقيا ، كأن التقاليد البدائية أو الانحلال الخلقى من الصور المعتبرة التى يصح أن توضع فى جداول الأخلاق الفاضلة لدى التصنيف الذى يقوم به متتبعو الحقيقة بالبحث العلمى المتجرد النزيه .

أما الغمس فى المجتمعات ذات الأخلاق الفاسدة المنحرفة فقد جند الغزاة له أعمالا وطاقات كثيرة ، هدفها إفساد الشعوب والأجيال المسلمة إفسادا سلوكيا ليكون ذلك وسيلة للتحويل الفكرى ، ومن المعروف المجرب أن الاستغراق الطويل فى الانحراف السلوكى من الوسائل الممهدة لتقبل الكفر والانتقال إليه ، ولو بعد التدرج فى مراحل .

وأهم العناصر التى تستخدم للإفساد السلوكى العناصر التالية : المال ـ النساء ـ الخمر ـ المادية البحته ـ أنماط العيش التى تعتمد على الرفاهية والمتعة واللذة وعدم المبالاة إلا بما يمتص طاقات الفكر والجسد من متعه ، ولذة ولهو ولعب .

خطط الغزاة التفصيلية فى أعمال الغزو الفكرى :

ولتحقيق الفصل الكلى أو الفصل الجزئى فصلا فكريا وتطبيقيا أو فصلا تطبيقيا فقط تمهيدا للفصل الفكرى ، اتخذ الغزاة عدة خطط من خطط الهجوم الظالمة الآثمة ، منها الخطط التالية :

١ ـ إثارة الشبهات حول القرآن الكريم والسنة المطهّرة ، وأحكام الإسلام وتشريعاته .

٢ ـ دس الأفكار الفاسدة ، وإغراء بعض ضعفاء النفوس أو ضعفاء العقول من المسلمين باعتناقها ، على أنها من تعاليم الإسلام ومفاهيمه ، ثم محاربة الإسلام بها .

٣ ـ اختلاق الأكاذيب والافتراءات على الإسلام وتاريخ المسلمين وتشويه غايات الفتح الإسلامي .

٤ ـ مقابلة بعض أحكام الإسلام وأركانه وتشريعاته بالاستهزاء والسخرية والازدراء ووصف المستمسكين بها بالرجعية والتآمر والتعصب والجمود ، ونحو ذلك من العبارات التى تضعف حماس المتدينين للتمسك بدينهم ، وتفت فى أعضادهم وتسوقهم فى ركب المتحللين من الدين .

٥ ـ احتقار علماء الدين الإسلامى وازدراؤهم ، وإلجاؤهم إلى أضيق مسالك اكتساب الرزق ، لتنفير المسلمين منهم ومن طريقتهم ، ثم تقديم جهلة منحرفين إلى مراكز الصدارة ليعطوا صورة مشوهة سيئة عن التطبيق الإسلامى ، توسلا إلى تشويه الإسلام نفسه عن طريقهم .

٦ ـ متابعة تركيز الهجوم ضد الإسلام وتكريره بإلحاح ، أملا فى حدوث الغفلة من الدعاة المسلمين الذين ينشرون المفاهيم الإسلامية ويحذرون من دسائس الغزاة. ونحن

نعلم ما للتكرار الملح من تأثير فى نفوس الناس ، ولو كان مضمونه كذبا وباطلا، وهذا ما تلجأ إليه وسائل الإعلام الحديثة المضللة للجماهير.

٧ ـ بث النظريات والأفكار والمبادئ الإلحادية ، والنظريات والأفكار والمبادئ المناقضة والمخالفة لأسس الإسلام ، وتعاليمه ، وشرائعه ، وأحكامه ، فى مختلف المجالات الاعتقادية ، والأخلاقية ، والعملية ، مما يتعلق بأحكام العبادات المحضة ، أو احكام المعاملات .

وتبرز هذه النظريات فى الفلسفة ، وفى العلوم الإنسانية ، كعلم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، وفى علم التاريخ وتفسير ظواهره ، وفى علم القوانين الوضعية وتعليل نظرياتها ، إلى غير ذلك .

٨ ـ استدراج فريق من أبناء المسلمين لجامعاتهم ، لمنحهم الشهادات العليا فى علوم الشريعة الإسلامية ، وعلوم اللغة العربية ، والعلوم الإنسانية ، ومحاولة التأثير فيهم وتشويه صورة الإسلام والتاريخ الإسلامى والعلوم الإسلامية فى أفكارهم وفى نفوسهم ، ليكونوا جنودا مقنعين لهم ، يحققون أغراضهم داخل شعوبهم المسلمة .

جاء فى كتاب « المشكلة الشرقية » طبع لندن عام ١٩٥٧ م مايلى : « لاشك أن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا تماما : ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية ، فيجب أن تختار طلبة من ذوى الطبائع الضعيفة والشخصية الممزقة ، والسلوك المنحل من الشرق ، ولاسيما من البلاد الإسلامية ، وتمنحهم المنح الدراسية ، وحتى نبيع لهم الشهادات بأى ثمن ، ليكونوا المبشرين المجهولين لنا ، لتأسيس السلوك الاجتماعى والسياسى الذى نصبو إليه فى البلاد الإسلامية . إن اعتقادى القوى بأن الجامعات الغربية يجب أن تستغل استغلالا تاما جنون الشرقيين بالدرجات العلمية والشهادات

واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمبشرين ووعاظ ومدرسين لأهدافنا ومآربنا باسم تهذيب المسلمين والإسلام »

ويظهر أن الجامعات الغربية بعامة قد عملت بنصيحة صاحب كتاب « المشكلة الشرقية » .

٩ ـ التفريغ والملء . وتتلخص هذه الخطة الخبيثة بثلاثة عناصر ، هي أخطر ماعرف الكون من عوامل هدم لمقومات أمة ذات مجد عظيم فكري ونفسي وأخلاقي وتاريخي .

العنصر الأول

تفريغ أفكار الأجيال الناشئة وقلوبهم ونفوسهم من محتوياتها ذات الجذور العقلية والعاطفية والوجدانية والأخلاقية وانتزاع كل آثار لها ، وهو مايسمى بعملية « غسل الدماغ » .

العنصر الثاني :

ملء فراغ عقولهم وقلوبهم ونفوسهم بمخترعات فكرية وعاطفية مزورة مزيفة ، تخدم غايات العدو الطامع الغازي ، وتهدم كيان الأمة الموضوعة هدفا للغزو .

العنصر الثالث :

تسخير طوابير الجيش الجديد الذي تصطنعه أيدي العدو في هدم كل مقوم من مقومات أمته ، ومحاربة كل مايتبقى لها من فكر وعقيدة ، أو خلق وسلوك ، أو تاريخ ومجد .

واتخذ الغزاة عدة وسائل لتفريغ أفكار الأجيال من أبناء المسلمين ، وتفريغ قلوبها ونفوسها ، من محتوياتها ذات الجذور العقلية والوجدانية والعاطفية والأخلاقية .

فمن هذه الوسائل مايلى :

الوسيلة الأولى :

فصل العلوم الدينية عن العلوم الأخرى فصلا يجعل بينهما هوة سحيقة ، واصطناع الخلاف والشقاق ثم العداء بين علوم الدين وعلوم الدنيا ، وبين علماء هذين القسمين ، وتيسير سبل المال والمجد الدنيوى لمتعلمى علوم الدنيا ، وحجبها عن نظرائهم من متعلمى علوم الدين ، ولم تقتصر عملية الفصل هذه على مستوى التعليم التخصصى العالى ، ولكن المكيدة كانت شاملة ، تهدف إلى عزل طلاب علم الدنيا عن الدراسات المتعلقة بعلوم الدين عزلا تاما فى الصيغة والطريقة والمضمون ، وإلى عزل طلاب علوم الدين عن الدراسات المتعلقة بعلوم الدنيا عزلا تاما أيضا ، لئلا تتكشف الملاءمة التامة بين الأصول الصحيحة لقسمي علوم الدين وعلوم الدنيا ، فينصر الحق من كل منهما الحق من صاحبه ، وينفي عنه الدخيل الدعي ، ولئلا تتكامل منهما المعرفة على صراط الله المستقيم ، فيحتل المسلمون الصادقون مجد الدنيا والآخرة .

ومن طبيعة هذا الفصل أن يولد مع الزمن تعصب كل فريق لنوع دراسته ولمنهج بحثه ، ولطريقة تقصيه للحقائق ، وإن كان فيها نقص لايأتى تكميله إلا بالتعاون والتآزر مع الفريق الآخر .

ومادامت مواكب المتعلمين ستتجه لدراسة علوم الدنيا وفق الصيغة التى وضعت لها ، بما تحمله هذه الصيغة من عداء مدسوس أو سافر لأصول الدين وأحكامه ، وتزييف فى بعض المعارف الإنسانية وبعض النظريات ، فإن النتيجة التى يقدرها واضعو الخطة هى انتصار هذه العلوم ، وانتصار مادس فيها ، فجاء مرافقا لها ، وهزيمة علوم الدين بكل مافيها من حق وخير ومجد عظيم للناس .

وعلى أثر هذا الفصل المصطنع كان على دارسى العلوم الدينية فى معظم بلاد المسلمين أن يكونوا بعيدين عن كل مجال حيوى إلا مجال المساجد ومافيها من عبادات ، وبعض الوظائف ذات الأختصاص الدينى ، مع تضييق موارد الرزق فيها والجاء القائمين بها إلى طرق من الكسب تثير النقد اللاذع والازدراء والتندر .

أما فيما عدا ذلك من المجالات فإنهم يحجبون عنها حجبا تاما ، حتى يظلوا معزولين عن معظم مجالات المجتمع ، وحتى لايكون لأفكارهم تأثير فى التوجيه والتخطيط العام للأمة ، وحتى لايكون لهم رقابة على من يتولى ذلك من غيرهم ممن لايدين للإسلام بالولاء .

والحجة فى الحجب عدم توافر الاختصاص اللازم .

وفى مقابل ذلك وضعت الخطة فى حسابها أيضا عزل دارسى علوم الدنيا فى معظم بلاد المسلمين عن دراسة علوم الدين ، وحين يؤذن لهم بشئ من ذلك تحت تأثير ضغط جماهير المسلمين ، فإنما يؤذن لهم منه بالنذر اليسير ، الذى لايكون عندهم ملكة المعرفة بأصول الدين وبنظمه الإنسانية التى تكفل للناس سعادتهم وتركز الخطة فيما تأذن به على اختيار الموضوعات التى ليست من أسس العقيدة ولا من أسس المعاملة ، ولا من أسس إقامة المجتمع الإسلامى ، ولا من أسس إقامة الحكم الإسلامى وتحاول استرضاء الضغط العام ببعض مباحث الأخلاق المشتركة بين الإسلام وغيره وبعض صور من التاريخ الإسلامي المشوه ، وبعض صور من نشأة بعض العلوم عند المسلمين ، وبعض مظاهر الحضارة المادية التي أنجزها المسلمون إبان عصورهم الذهبية .

ثم نفتح لهؤلاء الدارسين وفق هذه الخطة مجالات الحياة كلها ، وبمرور الزمن يتم الفصل بين الدين والحياة ، وحينئذ تجد الأمة نفسها مضطرة لأن تقتبس لنظام حياتهامن الأنظمة المستوردة من صادرات أعدائها ، وهى أنظمة قائمة على أسس لاصلة لهابالدين ، ولا تعترف بشريعة الله

وبذلك يحقق الغزاة هدفهم من غزو الأفكار والنفوس والقلوب ، وهدفهم من غزو سلوك المسلمين ، وهذا يمهد لعمليات الاحتلال الكامل ، الذى تعدو به على الأمة عوادى الكفر .

وقد تتم عند الجماهير المخضرمة المصالحة الصورية بين عقيدتها وسلوكها أما عقيدتها فالإسلام كما تدعى ، وأما سلوكها فعلى مناهج الكفر كما تطبق ، وهذا ازدواج فى الشخصية لاتثبت عليه أمة أكثر من جيل واحد ، إذ يأتى الجيل الجديد فيأخذ السلوك

المطبق ، ويختار له عقيدة تلائمه ، وعندئذ يتم التحويل الكامل إلى الكفر ، وتنسلخ الشخصية الإسلامية انسلاخا تاما ، ويتحقق بذلك المسخ المعنوى .

الوسيلة الثانية :

تسخير وتشجيع فئات تدخل فى المفاهيم الإسلامية أغـاليط وأكاذيب وتلفيقـات ومبتدعات ماأنزل الله بها من سلطان ، وتعمل على تشويه حقائق الإسلام الناصعة ، بغية طعن الإسلام بها من جهة ، وإبعاد الأجيال الناشئة عنه من جهة أخرى ، تذرعا بهذه التشويهات الدخيلة عليه والغريبة عنه .

ويقوم الأجراء والمنخدعون بتنفيذ خطة العدو ، ويتلقون منه التعليمات والتوجيهات فى ذلك .ففى الوقت الذي ضيق فيه المستعمرون الخناق على المدارس الإسلامية والعلوم الدينية الصحيحة ، وجدناهم يدعمون ويشجعون مجموعات من الجهلة بالدين ، تمارس طقوسا من البدع المخترعة التى لم يعرفها الصدر الأول من المسلمين ، والممزوجة بشئ كثير من حظوظ النفس .

وهذا اللون من التحوير فى مفاهيم الدين وفى تطبيقاته له آثار سيئة جدا منها الآثار التالية :

١ ـ إبعاد هذه المجموعات عن دراسة علوم الدين دراسة صحيحة تعدهم لتفهم غاياته وأحكامه التى يأمر بها ، والتى منها عزة المسلمين ، ووجوب مجاهدة الكافرين ، والعمل على بسط سلطان الحكم الإسلامى فى البلاد .

٢ ـ امتصاص شحنة الطاقة الدينية الكامنة فى نفوس المسلمين ، والدافعة لهم إلى العمل بواجبات الإسلام التى تعتبر العبادات المحضة لونـا روحيا من ألوانهـا ويكون امتصاص هذه الطاقة بما تورثه هذه الأعمال المجهدة المحببة للنفوس من القناعة الداخلية بقيام الفرد نحو ربه بجهد كاف ، ثم هو يطالب ربه بعدها بأن يحقق للمسلمين النصر على عدوهم ، دون أن يشارك هو بعمل فعال من شأنه أن يضيف إلى قوة المسلمين قوة ، أو إلى صفوف مكافحيهم جنديا عاملا .

٣ ـ تحويل المسلمين عن تعاليم الإسلام الأصلية ، وإضافة أشياء جديدة إليه قابلة للتنوع بين مختلف المجموعات ، ثم بعد أن قد يطول أو يقصر تصبح هذه المحدثات هى الأصل الدينى عند هذه الفئات ، وتصبح أركان الإسلام الأصلية شيئا ثانويا .

٤ ـ تغيير الأجيال المثقفة ثقافة عصرية عن الإسلام ، تذرعا بهذه الأخلاط المبتدعة البعيدة عن سمو الشريعة وكمالها ، والتى تصمه بأنه مزيج مقتبس من العبادات الوثنية ، وماهى فى الحقيقة إلا أمور دخيلة عليه ، محدثة ماأنزل الله بها من سلطان .

الوسيلة الثالثة :

تولية قيادات دينية تعطى صورة سيئة عن الإسلام فى مفاهيمها ، أو فى سلوكها ، وإبعاد كل عنصر صالح يدرك حيل أعداء الإسلام ، ويكافح لإحباط مخططاتهم .

وبهذه الوسيلة يحاربون الإسلام بسلاحين خطيرين : سلاح يطعن به المسلمون أنفسهم ، وسلاح آخر فى أيدى عدوهم يطعنهم به فى الخفاء ، وقد يعلنه متى واتته الفرصة .

الوسيلة الرابعة :

التضييق على طلاب العلوم الدينية والمعارف المتصلة بها ، وتزهيدهم فيها ، وتوجيه ألوان الاضطهاد للدعاة إلى الإسلام منهم ، ومحاربة كل حركة إصلاحية تضطلع بأعباء رسالتها هيئة منظمة أو يقودها مصلح ذو شخصية مؤثرة وذلك بإضعاف قواها المادية ، وإثارة الشكوك حولها ، والإيقاع بينها ، وبين غيرها من المؤسسات الإصلاحية ، وإدخال عناصر مدسوسة فيها ، تعمل على تفتيت طاقاتها وتحوير اتجاهها السليم .

الوسيلة الخامسة :

إثارة الشكوك والشبهات حول عقائد الإسلام ، ومبادئه ، ونظمه ، وعباداته ،

لإضعاف ثقة المسلمين بكمال دينهم الذى كان سر مجدهم ، ولإقناعهم بأن تقدمهم فى مختلف مجالات العلوم التى تخرجهم من واقع التخلف هو بتركهم لدينهم ، ولتعاليمه ، ولنظمه .

وهنا يستعملون دسيستهم المشهورة ، وهى قياسهم العالم الإسلامى على أوروبا ، مع مغالطة فاحشة فى عناصر القياس .

وفساد القياس آت من الواقع المتباين مابين الإسلام الحق الذى لم يدخل فيه التحريف والتغيير ، وبين غيره من الأديان المحرفة التى لم تبق على أصولها الصحيحة الربانية ، فلم تعد صالحة للحياة بسبب التحريف الإنسانى الذى دخل فيها .

الوسيلة السادسة :

إثارة ألوان الهزء والسخرية ، وأنواع التهكم بعلماء الدين الإسلامى ، وبالأحكام الإسلامية ، والعبادات وممارسيها .

ولهذا السلاح أثره القوى لدى ضعفاء النفوس ، الذين توجههم الضغوط الاجتماعية ، إذ يتخاذلون أمامها ، ويجبنون عن فعل الحق والخير وسلوك سبيل الهدى ، أمام استهزاء المستهزئين ، وسخرية الساخرين ، وتهكم المتهكمين ، وماأكثر مايستعمل دعاة الباطل هذا السلاح الحقير ضد أنصار الحق من المؤمنين .

وقد انتشرت فى المجتمعات المسلمة المختلفة الأجهزة المأجورة لاستخدام هذه الوسائل .

. وواجب أهل الرأى والغيرة والعمل أن يقابلوا كل سلاح بما يبطله ويفنى أثره ، وأن يقوموا بحركة غزو مضادة على مواقع أعداء الإسلام الفكرية والنفسية والسلوكية ، حتى يحبطوا كيدهم وينصروا دين ربهم ، ويستعيدوا مكانهم القيادى فى العالم .

الوسيلة السابعة :

إلصاق التهم بالدين والمتدينين ، بإطلاق عبارات الرجعية والتأخر والتخلف على كل تمسك بالدين وفضائله وإطلاق عبارات التقدم والتمدن والتحضر ونحو ذلك على نبذ الدين وفضائله .

أمثلة من خطط الغزو التفصيلي لغزو الإسلام بتفريغه من مضامينه الصحيحة:

بفعل كيد مدبر بتصيد الغزاة بعض المفاهيم غير الصحيحة لعناوين إسلامية أو يبثون هم بأنفسهم هذه المفاهيم ، ويستأجرون من يتبناها من المنتسبين إلى الإسلام ، فإذا قبلها جمهور من المسلمين غدا الإسلام فى حدود هذه المفاهيم مفرغا من مضامينه الصحيحة ومشغولا فى أفكار هذه الجماهير بمفاهيم دخيلة ، ومتى استقرت هذه المفاهيم الدخيلة وتوسعت دائرتها غدا عنوان الإسلام لغير حقيقة الإسلام من جهة ، واستطاع الأعداء الغزاة أن يهاجموا الإسلام به من جهة أخرى .

ومن أمثلة ذلك ما يلي :

أ ـ التحريف في مفهوم التوكل على الله .

ب ـ سوء فهم معنى الرضا بالقضاء والقدر .

جـ ـ التحريف في مفهوم الجهاد في سبيل الله لإلغاء مضمونه الصحيح من واقع المسلمين ، وأفكارهم ، وقلوبهم ، وعواطفهم ، وأستخدم لهذا التحريف فئات مأجورة أو مخدوعة ، منشقة عن الإسلام أو منحرفة في مفاهيمها مع عدم خروجها عن دائرته العامة ، ومن الفئات المنشقة البهائية والقاديانية .

د ـ محاولات تفريغ الإسلام من أحكام المعاملات وسائر شؤون الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وإحلال القوانين المدنية محل الأحكام الإسلامية وإحلال نظم الأسرة الغربية محل نظام الأسرة الإسلامي .

هـ ـ التلاعب بالأحكام الإسلامية بحيلة المرونة في الشريعة واستغلال مرونة الشريعة الإسلامية في بعض الفروع التفصيلية لكسر الأصول الصلبة منها .

و ـ خلط معني التمسك المحمود بالحق بمعنى التعصب الجاهلي المذموم .

ز ـ دس المفاهيم القومية الضيقة غير الإسلامية والمفاهيم الاشتراكية المخالفة لأحكام الإسلام ، والمفاهيم الديمقراطية أو الدكتاتورية في حدودها التي لا تقبل بها الأحكام الإسلامية ، ونحو ذلك ضمن عنوان الإسلام العام .

ح ـ التلاعب بمعاني النصوص الإسلامية ، على الطريقة الباطنية ، القديمة ، أو على الطريقة الاجتهادية المائعة الحديثة ، التي أخذت تمليها وتصدرها المؤسسات الاستشراقية والتبشيرية ، ومن ورائها الدوائر الاستعمارية ، والمنظمات اليهودية .

ط ـ محاولة صرف الشعوب الإسلامية عن اللغة العربية ، لإبعادها عن مفاهيم الإسلام الصحيحة ، التي تحتويها النصوص الأصلية المنزلة باللسان العربي المبين ، ومحاربة اللغة العربية وقواعدها وكتابتها بكل الوسائل التي رأي فيها الغزاة ما يحقق أهدافهم .

التيارات المعادية للإسلام :

وحين نحاول حصر التيارات المعادية للإسلام تبرز أمامنا التيارات التالية :

١ ـ الإلحاد واللادينية .
٢ ـ القوميات الضيقة ذات المحتوى المباين للعقيدة الإسلامية أو لأحكام الإسلام أو لوحدة الأمة الإسلامية .
٣ ـ الشيوعية ، والاشتراكيات المسماة بالاشتراكية العلمية .
٤ ـ الرأسمالية القائمة على الحرية الفردية المطلقة فى مجال الاقتصاد والتى تبيح الربا

والربح الفاحش والغش والاحتكار ونحو ذلك ولاتؤدى الحقوق التى فرضها الله .

٥ ـ الوثنيات المختلفة القديمة والحديثة ، ومن الوثنيات الحديثة عبادة المادة وعبادة الأوثان الوهمية كالوطنية ، والقومية ،وبعض الفنون ، المنافرة للإسلام.

٦ ـ الباطنية وذيولها ومخلفاتها .

٧ ـ الاستعمار وأجراؤه وعملاؤه والعاملون فى فلكه ، والأحزاب الموصولة به .

٨ ـ الصليبية وأجراؤها والعاملون فى فلكها ، والأحزاب الموصوله بها .

٩ ـ اليهودية العالمية ، والصهيونية ، والأحزاب العاملة فى فلكها أو الموصوله بها ، كالماسونية .

١٠ ـ كل منظمة أو مؤسسة أو جمعية موصولة أو مدفوعة أو مستأجرة من قبل تيار من التيارات السابقة .

هذا مابدا لى أن أوجزه فى هذه الورقة ، التى تعمدت أن ألفت النظر فيها إلى رؤوس الموضوعات فقط ، ولرؤوس الموضوعات هذه تفصيلات واسعة ، كتب فيها كثيرون من الكتاب الإسلاميين .

والله نسأل أن يحمينا مكايد أعدائنا ، وأن يلهمنا العمل الجاد لرد كيدهم وأن يوفقنا فى ذلك ، حتى نستحق الظفر ومرتبة المجد ، ضمن سنن الله فى كونه مضافا إلى ذلك فضله العظيمَ الذى يمنحه لأوليائه العاملين المجاهدين فى سبيله .

عبد الرحمن حسن حبنكة الميدانى
أستاذ مساعد فى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
بمكة المكرمة

الكتب التي أشرفت على طباعتها ونشرها إدارة الثقافة والنشر

١ ـ الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير
للدكـتور محمد رجب البيومـي
٢ ـ الحماسة لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي.
تحقيق الدكتور عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان.
٣ ـ تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم.
تحقيق الدكتور عبدالفتاح محمد الحلـو.
٤ ـ الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني.
للدكتور حسن عيسى عبدالظاهر.
٥[١] ـ أثر تطبيق النظام الإقتصادي الإسلامي في المجتمع.
٦ ـ الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام.
٧ ـ وجوب تطبيق الشريعة الإسلامية والشبهات التي تثار حولها.
٨ ـ الإجتهاد في الشريعة الإسلامية.
٩ ـ أثر تطبيق الحدود في المجتمع .
١٠ ـ نظام القضاء في الإسلام.

(١) من رقم ٥ إلى رقم ١٠ من البحوث المقدمة لمؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته الجامعة بالرياض سنة ١٣٦٩ هـ.

الفهـــرس

الموضوع — رقم الصفحة

الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام

القسم الأول

للدكتور علي عبدالحليم محمود ٣

إفـتتاح ٥

أضواء على مفهوم الغزو الفكري ٧

الأبعاد التاريخية للغزو الفكري ضد الإسلام ١٢

البـاب الأول: ٢١

مظاهر الغزو الفكري وتياراته ٢٣

حملات التشويه الموجهة ضد الإسلام ٢٥

الـباب الثاني: ١٠٥

حملات التغريـب الموجهة ضد الإسلام ١٠٧

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثالث : ١٢٩

ركائز الغزو الفكري وأدواته ١٣١

أولا: الصهيونية أو اليهودية ١٣٣

ثانيا : التبشير بالمسيحية بين المسلمين ١٣٧

ثالثا : الاستعمار المتحالف مع الصهيونية والتبشير والاستشراق بين المسلمين ١٤٢

رابعا : النظريات والمبادئ المعادية للإسلام ١٤٨

خامسا : الفلسفات الهدامة ١٥٩

خاتمة ١٧٢

القسم الثاني :

للدكتور عبدالستار فتح الله سعيد ١٧٥

مقدمة ١٧٧

تمهيد عام ١٧٩

الغزو الفكري في فترة الضعف ١٩٤

الغزو الفكري في فترة الإحتلال ٢١٠

العناصر الثلاثة وراء إنقلاب الحياة في المجتمع

الأول: الإنحلال الخلقي ٢١٢

الثاني: الغزو الفكري في عهد الإحتلال ٢١٥

الموضوع رقم الصفحة

الثالث: التربية الجديدة للطبقة البديلة ٢٥٧

النتائج ٢٦٩

خاتمة ٢٧٤

مراجع البحث ٢٧٩

القسم الثالث

للدكتور علي جريشه ٢٨١

تمهيد ٢٨٦

الفصل الأول: الغزو الفكري من الغرب ٢٨٩

الفصل الثاني: الغزو الماركسي للعالم الإسلامي ٣٣٧

الفصل الثالث ردود فعل ٣٧٥

القسم الرابع

للأستاذ عبدالكريم يونس الخطيب ٣٩١

تقديم ٣٩٣

الفصل الأول: الإسلام والمسلمون ٣٩٧

الفصل الثاني: النظم والحركات المعادية للإسلام ٤٠٥

الفصل الثالث: الغزو الديني الفكري ٤٢٥

خاتمة ٤٥٦

الموضوع	رقم الصفحة

القسم الخامس

للشيخ أحمد بشير ٤٥٩

مقدمـة ٤٦١

نشأة الدعوة إلى القومية ٤٦٢

موقف الإسلام من الدعوة القومية ٤٦٥

الغزو الفكري الاستشراقي ٤٦٩

المبشـــرون ٤٧٤

آثار الغزو الفكري والثقافـي ٤٨٠

التعليم في البلاد الاسلامية على الأسلوب الغربي ٤٨١

ضيق المستشرقين بوجود المعاهد الدينية ٤٨٣

اليهوديـة العالمـية ٤٨٤

الصهـيونية ٤٨٦

الإسلام في نظر الغربييـن ٤٩٢

الغـاء الخـلافة ٤٩٣

كتب المراجع للبحـث ٤٩٦

القسم السادس

للأستاذ عبدالرحمن حسن حبنكه الميداني ٤٩٧

مقدمـة ٤٩٩

الموضوع	رقم الصفحة

الافساد الاجتماعي ٥٠٤
خطة الغزاة التفصيلية في اعمال الغزو الفكري ٥٠٧
التيارات المعادية للإسلام ٥١٦

محمد بن سعود الإسلامية

Kingdom of Saudi Arabia
IMAM MUHAMMAD IBN SA'UD
ISLAMIC UNIVERSITY
ACADEMIC COUNCIL

18

THE INTELLECTUAL INVASION AND ANTI-ISLAMIC ATTITUDES

Selections of Papers Presented To The Conference On Islamic Jurisprudence Organized By The Islamic University Of Imam Muhammad Ibn Sa'ud.
RIYADH 1396 H.

H.1404 / D.1984

Published Under The Supervision of The Department of Culture And Publications.

Imam University Press

Kingdom of Saudi Arabia
IMAM MUHAMMAD IBN SA'UD
ISLAMIC UNIVERSITY

ACADEMIC COUNCIL

18

THE INTELLECTUAL INVASION AND ANTI-ISLAMIC ATTITUDES

Selections of Papers Presented To The Conference On Islamic Jurisprudence Organized By The Islamic University Of Imam Muhammad Ibn Sa'ud.
RIYADH 1396 H.

H.1404 / D.1984

Published Under The Supervision of The Department of Culture And Publications